

التاريخ السياسي

للدولة العربية

عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين

١

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

المدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس

١٩٥٦

ملشذز الطبع والنشد

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فرب (ممارالرب سايقا)

للمؤلف

- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ .
(مكتبة الأنجلو المصرية) .
- مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامي . تعريف بمصادر التاريخ الاسلامي
ومناهجه الحديث ، القاهرة ١٩٥٣ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .
- المجلات السننصرية . سجلات وتوقعات وكتب لولانا الامام السننصر
بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمين وغيرهم قدس الله
أرواح جميع المؤمنين ، تقديم وتحقيق ، القاهرة ١٩٥٤ .
(مكتبة دار الفكر العربي) .
- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر . دراسة شاملة لنظم القصر الفاطمي
ورسومه ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٥٥ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .

التاريخ السياسي

للدولة العربية

مصور الجاهلية والنبوّة والخلفاء الراشدين

١

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

. للدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس

١٩٥٦

ملشتر الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع مصطفي فريد (عمارة التيرسات)

مطبعة الشعب

١٦٥ شارع مصطفي فريد

« إله التأليف على سبعة أقسام ، لا يؤلف عالم عاقل
 إلا فيها ، وهي : إما شئ لم يسبق إليه فيختره ، أو شئ
 ناقص ينممه ، أو شئ مفلوج يشرمه ، أو شئ طويل يختصره
 دوره أنه يخل بشئ ومن معانيه ، أو شئ متفرق يجمعه ، أو شئ
 مختلط يربطه ، أو شئ أخطأ فيه معناه فيصلحه » .

ماجى خليفة

فهرس الكتاب

افتتاح :

تمهيد .

موارد تاريخ الدولة العريية .

الجزء الأول :

الفصل الأول : عصر الجاهلية .

الفصل الثاني : عصر النبوة .

الفصل الثالث : عصر الخلفاء الراشدين .

الجزء الثاني :

الفصل الأول : عصر الخلفاء الأمويين .

الفصل الثاني : سقوط الدولة العريية .

خاتمة :

جدول المراجع :

افتتاح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

يتناول هذا الكتاب التاريخ السياسي للدولة العربية ، أى تاريخ الدولة التى قامت بقيام الإسلام حتى سقوط دولة بنى أمية فى سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ؛ إذ أن الدولة التى جاءت بعد بنى أمية ، وهى الدولة العباسية ، بدأت عصرًا اختلف طابعه كل الاختلاف عما سبق : فالدولة العربية طابعها عربى ، أما الدولة العباسية فقلب عليها طابع الشعوب التى تحولت إلى الإسلام : الفرس أولاً ثم الترك ، وقد لاحظ المؤرخون القدامى ذلك فقالوا : إن دولة بنى العباس أممية الترك ، وقد لاحظ المؤرخون العرب ، مما جعل تاريخ الدولة العربية قطعاً قائماً بذاته فى تاريخ الإسلام العام .

ونحن لا ندمى أننا عثرنا على مصادر جديدة مكنتنا من خلق تاريخ دولة العرب خلقاً جديداً ، لأن هذا الموضوع تناولته كتب عديدة من تأليف مؤرخى الشرق والغرب الحديثين ، الذين استفدوا معظم مراجعهم ، إلا أنه فى الشرق — على الخصوص — يتقصنا عرض دقيق لتاريخ الدولة العربية على أساس منهجى حديث ، فضلاً عن أننا وضعنا نصب أعيننا الاعتماد على مصادره الأولى من وثائق وآثار ونقوش ومسكوكات ، وهى مصادر لم تستغل فى البحث التاريخى الإسلامى إلا منذ عهد قريب .

وإنى لأرجو أن يكون هذا الكتاب إسهاماً منى فى جعل تاريخ الدولة
 العربية أكثر جلاءً ، وأيسر فهماً ، خصوصاً وأنه فترة مجد وعظمة للعرب ؛
 ففيها طعنوا بسيوفهم فى كل مكان ، وامتدت سيطرتهم من سور الصين حتى قرب
 باريس ، كما تكونت فيها حضارتهم الكلاسيكية أو التقليدية التى لا زالت
 شعوب الاسلام تحيا على ترابها حتى الآن .

المؤلف

عبدالمجيد بن عبدالحق

موارد تاريخ الدولة العربية

وثائق - آثار - نقوش - مسكوكات - مصادر أصلية - مصادر حديثة .

إن المصادر الخاصة بتاريخ الدولة العربية كثيرة ومتنوعة ، وسنرتبها في
الصفحات التالية حسب أهميتها :

فن الممكن أن نستند قبل كل شيء في دراسة تاريخ الدولة العربية إلى الوثائق
السياسية ، إذ أنها من أوثق مصادر التاريخ^(١) . ولكن البحث شاق عن المستندات
الرسمية لأمة العرب السابقة على ظهور الإسلام - ونقصد بها العرب المتحضرة في
أطراف الجزيرة - لطبيعة هذه الأمة البدوية في عدم ميلها للكتابة كثيراً ، ولذلك
فمعلوماتنا عن وثائقها قليلة جداً^(٢) .

كذلك لم نمر - لسوء الحظ - على معظم أصول المستندات الرسمية الخاصة
بالدولة العربية نفسها - ونقصد بها في الإسلام - على الرغم من أن هذه
المستندات كانت تكتب من عهد النبي^(٣) ، وذلك لأن الدولة العربية كان
أعدائها كثيرين ، بحيث أننا نسمع عن احتراق الديوان في الكوفة في
سنة ٨٨٢/٧٠١هـ^(٤) ، بما فيه من أصول الوثائق أثناء إحدى الثورات ضد الحجاج بن

(١) انظر Introduction à l'Histoire de l'Orient, : Sauvaget. Musliman, Paris 1946, p. 19, 122. ، مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامي ،
القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٧ .

(٢) انظر بخصوص هذه الوثائق النادرة (وهي مكتوبة بخط اليد) Cohen : Documents Sud-arabiques. Paris 1934, p. 57 Sq.

(٣) انظر . مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، جميعها حيد الله
الميدر آلي ، القاهرة ١٩٤١ .

(٤) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٤٦هـ ، ص ٦٨ .

يوسف القنفذ . ومن ناحية أخرى قد يفسر أيضا ضياع المستندات الخاصة بالدولة العربية بقيام الدولة العباسية التي أتت بعدها ؛ فقد كانت هذه الدولة عدواً لدوداً للعرب ، فلم تكف بالقضاء على دولتهم ، وإنما قضت أيضاً على أوراقها الرسمية . وإذن فلم يبق لنا من مستندات الدولة العربية غير مجموعة قليلة خاصة بمصر على الخصوص في مجموعة الأوراق البردية^(١) المكتوبة بالعربية واليونانية والقبطية^(٢) ، وهي قيد — إلى حد ما — في التعرف على أحوال الدولة العربية في ممتلكاتها في مصر . وفوق ذلك لدينا نصوص وثائق كثيرة خاصة بجميع عصور الدولة العربية : من العهد النبوي ، والخلافة الراشدة^(٣) إلى نهاية العصر الأموي ، في كتب التأخرين أمثال : ابن سعد (م ٢٣٠ / ٨٤٥) والبلاذري (م ٢٧٩ / ٨٩٢) والقلقشندي (م ٨٢١ / ١٤١٨)^(٤) وغيرهم ، وهي يشتمل أغلبها على كتب الأمان والمحالفات والخطب والرسائل . ومع ذلك يجب أخذ هذه النصوص بمحذور شديد ، لأنها قد تحمل معظمها من كتب متقدمة ، وليس من الأصل ، كما أنها قد لا تخلو من تزيف ، مثل اليهود التي زعم أن النبي كتبها للنجارية واليهود والمجوس^(٥) .

(١) البردي هو المادة المستعملة قديماً للكتابة ، وتتكون من ألياف نبات مائي كان ينمو في مستنقعات الدلتا ، ومن الكلمة Papyrus ، اشتقت الكلمة الفاتحة على الورق في العصر الحديث في أوروبا . انظر . بل ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، ترجمة عواد وعبد الحفيظ ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٩ — ١٠ هامش (١) .

(٢) للبحث عن كل ما يتعلق بمجموعات الأوراق البردية الخاصة بالدولة العربية . انظر . La Documentation papyrologique de l'époque arabe . : Cheira Catalogue des papyrus grecs publiés d'époque arabe concernant l'Egypte . Alexandrie 1948 . Introd. p. 19, 122 . : Sauvaget وأيضاً

(٣) عن وثائق العهد النبوي والخلافة الراشدة . انظر . حيداقه ، مجموعة الوثائق ، القاهرة . (٤) توجد أغلب النصوص الخاصة بوثائق الدولة العربية في كتاب القلقشندي : صبح الأعشى ، الجزء السادس . انظر .

(٥) انظر . Introd. , p. 20 : Sauvaget . كذلك نحن لا نستطيع مثلاً أن نؤكد صحة الكتب التي أرسلها النبي لزمانيه يدعوهم إلى الإسلام ، وذلك — كما يقول Caetani — للاختلاف في تواريخ إرسالها ، وأسماء حامليها ، وكيفية مقابلتهم للدواعي ، والاختلاف في أشخاصها . انظر . Caetani : Annali dell'Islam, 1905, anno 6 : 50 — 54 . وعلى العكس يؤيد Hamidullah صحة كتاب النبي لهرقل ، انظر . La lettre du Prophète à Héraclius cf. Arabica. Janvier 1955, t. 2. fasc. 1 p. 97 - 110 .

وعلى الوثائق السياسية الآثار^(١) ، وهى التى وصفها ابن خلدون بأنها تكون على نسبة قوة الدولة^(٢) ، مما يدل على أهميتها فى فهم تاريخ العرب^(٣) . وهذه الآثار الباقية يرجع بعضها إلى ما قبل الإسلام ، وبعضها الآخر إلى ما بعد ظهوره حتى سقوط دولة العرب ، فنجد من آثار العرب قبل الإسلام^(٤) آثار ممالك النبط والآراميين فى الشام ، وآثار ممالك العرب الجنوبيين فى اليمن^(٥) ، أما فى الحجاز فإن أهم آثار العرب « الكعبة » فى مكة .

ونجد من آثار الدولة العربية آثاراً كثيرة فى معظم البلاد التى فتحها العرب من أقصى الغرب فى اسبانيا إلى أقصى الشرق فى التركستان ، نجلو لنا طابع الدين الجديد^(٦) . ولكن أهم آثار الدولة العربية هو من عهد الدولة الأموية^(٧) ، التى أراد خلفاؤها — الذين أحججوا بفخامة الكنائس النصرانية — أن يظهرُوا قدرتهم على إقامة مباني لا تقل عظمة من مباني البيزنطيين ، بحيث أننا نستطيع أن نكمل نظرتنا فى تاريخ دولتهم بتتبع آثارهم فى الشام من مساجد وقصور ، وعوامم صحراوية . ولا ريب أن بقاء آثار الدولة العربية شائعة بأنفسها إلى الآن يدفعنا

(١) ماجد ، مقدمة ، ص ٢١ ؛ انظر . Introd, p. 51 - 53. : Sauvaget

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ١٣٩ فأبعدها .

(٣) الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام حارون ، القاهرة ١٣٥٦ / ١٩٣٨ — ١٩٤٧/١٩٤٧ ، ص ٧٢ .

(٤) La Mer Rouge. L'Abyssinie et l'Arabie : Kammerer . انظر . depuis l'Antiquité. Essai d'Histoire et de Geographie Historique. Mém. de la Soc. Roy. de Geog. d'Eg. t.xv. Le Caire 1920, p. 83 sqq.

(٥) انظر على الخصوص The Antiquities of South Arabia. Princeton 1938.

(٦) انظر . تراث الإسلام ، ترجمة زكى حسن ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١١٥ — ١١٦ .

(٧) انظر . Early Muslim Architecture, I : Umayyads, : Criswell.

Oxford 1932 ؛ انظر أيضاً : Jussen et Savignac

Les Chateaux arabes de Qesir'Amra, Kharāneh et Tūba. Paris. 1922.

إلى القول بأن ابن خلدون قد بالغ حينما ذكر أن الباني التي يخطها العرب كان يسرع إليها الخراب^(١).

كذلك تعتبر التقوش عماد البحث الحديث^(٢) في تاريخ هذه الدولة، فهي تحمل على المصادر الأرشيفية في سرد وقائع تاريخ العرب قبل الإسلام وبمده؛ إذ هي السكّابة الموجودة على الآثار. فقد حُرف النقش—منذ قديم الزمان—في مواطن استقرار العرب بخطوط الجزيرة العربية القديمة^(٣)، مثل: الخط السبئي والحيري أو ما يعرف عند العرب بالخط المسند^(٤) في اليمن، حيث أ كثر التقوش القديمة مكتوبة به، والخطوط الفحيانية والهمودية والصفوية^(٥) والآرامية والنبطية

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٥.

(٢) انظر. Sauvaget. : 48-50. Intro, p. 48-50. ماجد، مقدمة، ص ٢٣.

(٣) مظهر التقوش القديمة أوردها الرحالة الأوروبيون، ولبثت عن كل ما يتعلق بها. انظر. على الخصوص المجموعة الهائلة للرؤفة بلس : Corpus Inscriptionum Semiticarum : t. 4. vol 1. 18٤9, 1٤92, 1٤00, 1٤08. t. 4. vol 2. 1911, 1914 Réper'oire d'Épigraphie Sémitique Publié : par la commission du Corpus. Paris. 1900 sqq.

(٤) ابن النديم، كتاب الفهرست، تحقيق Flügel طبعة Leipzig ص ٥٠ — ٤٦ ابن خلدون، للمقدمة، ص ٣٣٢ ص ٤؛ جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١٣٧٩/١٩٥٠، ص ٥٠ فأبعدها. هذا الخط كما يبدو ليس له علاقة بالخط العربي (انظر. يحيى ناص، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب، «جامعة القاهرة»، القاهرة ١٩٣٥، ص ٤٠-٤١) ويقال إنه أول خط في الجزيرة (جواد، نفس المرجع، ص ١٨٦)، وإن قيل إن أصله في الخط النبطي في شمال الجزيرة (انظر. Grundriss der : Hommel. Geogr. und Gesch. des Alten Orients, München 1904, I, p. 157. جواد، نفس المرجع، ص ١٨٨). ولم يغسر العلماء سبب تسمية «اللسند» مستنداً، ولله جيب أن الحروف على شكل الهامة التي تستند إلى أعمدة (جواد، نفس المرجع، ص ١٩٧).

(٥) نسبة إلى شعوب من الجنس العربي ظهرت في شمال الجزيرة العربية وفي الشام. وقد اندثر معظمها قبل الإسلام. جواد، نفس المرجع، ص ١٠٠.

والمبرانية في الشام ؛ وأغلبها يشبه الكتابة الكوفية فيما بعد . أما عن النقوش القديمة بالمرية قبل الإسلام ^(١) ؛ فهذه نادرة ، وليس لدينا منها غير أربعة نقوش ، أقدمها — وهو الأهم — نقش عمارة الخصاص بقبر امرئ القيس ، وهو مكتوب بالخط النبطي .

ولكن أصبح الخط العربي أساس النقش في الإسلام ، وبخاصة حينما أمر الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ / ٦٨٥ - ٧٠٥) بحمل اللغة المرية اللغة الرسمية ^(٢) ؛ بحيث أن الخطوط القديمة في الجزيرة المرية ، أو في الإمبراطورية بدأت تنعدم أمام الخط العربي ^(٣) ، مثل : النبطية والآرامية والسريانية والفارسية . ومع ذلك فإن نقوش الدولة المرية قليلة جدا ، وأغلبها يوجد على الآثار المملوكة الأموية في الشام ^(٤) .

المسكوكات ^(٥) هي الأخرى من مصادر الدرحة الأولى في تاريخ الفولة المرية ، وهي تشمل العملة الرسمية أو ما يسمى « بالسكة » ^(٦) ، فهي تساعدنا أيضا على

(١) انظر : Répertoire Chronologique : Wiet و Sauvaget و Combe .
4. - 1. p. d'Epigraphie arabe t. I, p. 1 . ناي ، أصل الخط العربي . النقوش الأربعة هي :
نقش عمارة في ٣٢٨ م ، ونقش زيد في ٥١٢ م ، ونقش حران في ٥٦٨ م ، ونقش آخر من القرن السادس الميلادي .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٣ ص ٧ .

(٣) حاجي خليفة « ملاكاتب شامي » ، كشف الفنون ، استنبول ١٣١١ هـ ، الطبعة الأولى ، ص ٤٦٤ .

(٤) انظر . توجد نقوش الفولة الأموية في موسوعة Matériaux : Van Berchem pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum t. 2 . (Inst. F. d'Arch. Le Caire 1927) Or. t. 44 ؛ وفي مجموعة Wiet و Sauvaget , Combe .
Répertoire Chronologique. d'Epigraphie arabe t. I, p. 7 - 29. أما عن

النقوش قبل الفولة الأموية فلدينا منها ثلاثة نقوش قطع عديدة الأهمية ، الأول في سنة ٢٧ هـ ، والثاني في سنة ٢٩ هـ ، والآخر في سنة ٣١ هـ . انظر : Répertoire, t. I, p. 5-6 .

(٥) انظر : Sauvaget . 51. : Introd. ؛ ماجد ، مقدمة ، ص ٢٧ .

(٦) القرظي ، النقود الإسلامية ، قسطنطينة ١٢٩٨ هـ ، ص ٦ .

تبع التطور النيامى . ولم يكن العرب - فى أول عهدهم - يعرفون العملة إلا فى يد تجار قریش^(١) ، وإن عرفتها مالم يكن قبل الإسلام^(٢) ، مثل : البعير والاختمين والنبط والنساسنة . ومع ظهور الدولة العربية بمجىء الإسلام ، فقد بقيت العملة التداولية هي العملة التي كانت سائدة فى الأقطار المفتوحة ، تحمل قوفاً بيزنطية أو فارسية أو لاتينية ، وإن نُقش عليها أيضاً - فى بعض الأحيان - العقيدة الإسلامية ، واسم الخليفة أو الأمير عامل الدولة العربية ، ولم تنبع عملة إسلامية صرفة إلا على يد عبد الملك بن مروان^(٣) ، الذى أمر أن تنقش بالعربية وحدها .

بعد هذه المصادر من الموجة الأولى نذكر مصدرين هامين فى تاريخ الدولة العربية قائمين بذاتهما : أحدهما القرآن ، والآخر الحديث ، فكلهما جدير بالتخصيص ؛ لاحتوائهما على رسالة الإسلام من دين وتشريع .

(١) القرزى ، النزاع والتضام فيما بين أمية وبنى هاشم ، طبعه Leyden ، ١٨٨٨ ، ص ٩ . ذكر ذلك بعدد التناضس التجارى بين الأمويين والهاشميين قبل الاسلام .

(٢) انظر . Hill . Catalogue of the Greek . Coins of : Arabia , : Mesopotamia and Persia (British Museum) London 1922 .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٧ س ١٠ - ١٤ : Lavoix Catalogue, : des monn. musul. de la Bibl. Nat. khalifes Orientaux t. 1. Paris 1887, 59 - 131 (59 - 552) . Préf. plv, 59 . لدينا فصول قيمة عن تاريخ العملة الإسلامية بما فيها عملة الدولة العربية من تأليف للأرخين : البلاخرى وابن خلدون والقرزى والتفشدى وغيرهم (انظر . انتلسى مارى ، العقود الإسلامية وعلم النيات ، القاهرة ١٩٣٩ : Sauvairé : Matériaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la metrologie musulmane. Paris 1882) . أما من قوائم النقود وصورها فتوجد فى كتاب Lavoix انظر .

قالقرآن : هو الكتاب العربي^(١) للقدس ، ظهر في السنين الأولى من الهجرة ، وإن كان جمه النهائي تأخر إلى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ / ٦٤٤ — ٦٥٦) ؛ الذي جمه على أساس طول السور وقصرها ، وليس بحسب ترتيبها التاريخي^(٢) . وتظهر أهمية القرآن التاريخية في أنه يبين تطور دعوة النبي^(٣) ، ويشير في مناسبات عديدة إلى الدور الذي قام به الرسول في تكوين الدولة الإسلامية ؛ بحيث أن كل سورة فيه تذكر بفترة معينة في حياته أو حادثته^(٤) . وفوق ذلك تضمن القرآن معلومات هامة عن الجاهلية وأخبار دولها — أيديتها الاكتشافات الأثرية الحديثة^(٥) — بحيث لدينا سورة على اسم مملكة في جنوب الجزيرة قبل الإسلام اسمها : «سبأ»^(٦) ؛ بل إن بعض أسلوبه يوافق ألفاظ وتصور الجاهلية^(٧) . ولكن لما بعد المسلمون عن عهد النبي أصبحوا في حاجة ملحة إلى

(١) إلى القرآن زمناً لم يحاول أحد ترجمته ، وترجم في أوروبا لأول مرة باللاتينية على يد الأب Cluny (١٠٩٢ — ١١٥٦ م) ، بقصد العناية ضد الإسلام . وقد كان اهتمام الجمهور الأوروبي بمعرفة محتوياته سبباً في أن وجد في القرن ١٧ م أكثر من خمس ترجمات له في فرنسا وهولندا وإنجلترا واليابان ، ولكن في القرن ١٩ م كثرت الترجمات له في كل بقاع الأرض ، وامتدت حتى الهند . بل إن المسلمين أنفسهم مثل القرس والترك ترجموه إلى لغاتهم الأصلية .

انظر . Introduction au Coran, Paris 1947. p.VII—XIX: Blachère
(٢) انظر القرآن حيث نجد في أوله سوراً مدنية وأخرى مكية . ولقد حاول بعض المستشرقين في ترجمته للقرآن ترتيب سورته ترتيباً تاريخياً ، على حسب نزولها . انظر . Blachère : La Coran, Traduction selon un essai de reclassement des sourates, The Qur'an. : 3 vol. Paris 1949—1951 (وهو أربعة أجزاء بالقدمة) Bell
Translated, with a critical rearrangement of the Surahs, 2 vol. Edinbourg. 1937 — 1939.

(٣) انظر . La Structure de la Pensée religieuse de l'Islam, traduit de l'Anglais par Félix Arin, Paris 1950, p. 20 .

(٤) انظر . هيكال ، حياة محمد ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٨ .
(٥) انظر . جرجي زيدان ، كتاب العرب قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٠٨ ، ص ١٠ .
(٦) فصل المصادر الكتابية) .

(٦) سورة (٣٤) وهي مكية إلا آية (٦) فمدنية .
(٧) انظر : جملة أشعار العرب ، بولاق ١٣٣٨ هـ ، ص ٣ — ٤ ؛ انظر . طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٢٧ م ، ص ٧٠ .

توضيح ما يطلق عليهم من معاني القرآن وتمايزه، مما كان سبباً في ظهور علم «التفسير»^(١)، بحيث أن الكتب^(٢) التي ألفت في هذا العلم تلقى لنا — هي الأخرى — ضوءاً ساطعاً على مضمونه؛ وتفيد في السرد التاريخي.

أما الحديث، فيقصد به أقوال النبي وأفعاله^(٣) التي نقلت عنه في مناسبات عديدة بالرواية الشفهية^(٤)، أو من صحائف^(٥) قديمة دونت فيها. ومع أن الحديث قد دون في وقت متأخر، وذلك في أواخر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي — بعد سقوط الدولة العربية — إلا أنه يعتبر من أصح المصادر في تاريخ القرنين

(١) السيوطي، كتاب الأئمان في علوم القرآن، الطبعة الثالثة، ص ١٣٦٠ / Geschichte, des : Nöldeke. انظر. ٢٩٤ ص ٤ : ١٩٤١. Qorâns, Göttingen 1860, p. xxvii sqq.

(٢) انظر. الطبري، (م ٣١٠ / ٩٢٣)، جامع البيان في تفسير القرآن، ٢٠ جزءاً، القاهرة ١٣٢٩ هـ / ١٩٠٣ م؛ وطبعة دار المعارف، ظهر منها جزءان؛ البقوى (م ١٠٦ / ١١٢٢)، معالم التنزيل، جزءان، طبعة بومباي ١٣٠٩ / ١٨٩١؛ الزعفراني (م ٢٠٨ / ١١٣٤)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، ٤ أجزاء، القاهرة ١٣٦٥ / ١٩٤٦؛ وتحقيق Lees، طبعة كلكتا ١٨٥٦؛ الرازي وفضر الدين، (م ١٠٦ / ١٢٠٩)، التفسير الكبير، ٦ مجلدات، القاهرة ١٣٧٨ / ١٨٦٢؛ اليبودي (م ٦٨٥ / ١٢٨٢)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جزءان، بولاق ١٢٨٢ — ١٢٨٣ / ١٨٦٥ — ١٨٦٦؛ وتحقيق Fleischner، جزءان، طبعة Lipsiae، ١٨٤٦ — ١٨٤٧. انظر أيضاً ما كتبه

: Barth : Geschichte des Qorâns, p. xxvi. sqq : Nöldeke Studien zur Kritik und Exegese des Qorans Strassburg 1915.

(٣) انظر. حابي خليفة، ١ ص ٤٧٢؛ انظر.

Ency. de l'isl. (art Hadith) t2, p. 201.

(٤) ابن خلدون، للخدمة ص ٣٤٩؛ انظر.

Le dogme et la loi de l'Islam, trad. Felix, : Goldziher Paris, 1920. p. 33.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، تحقيق Houtsma، طبعة Lugduni Batavorum، ١١٤ — ١٢٨ هـ / ١٧٨٠ — ١٨٤٠ م. انظر. Goldziher. Etudes sur la tradition islamique. Extrait du tome II des "Muhammedanische Studien", traduites par Léon Bercher, Paris 1952, p. 10 — 11.

الأولين في الإسلام^(١)، بسبب الثقة التي اتبعت في قوله : قد كانت الأحاديث تروى عن طريق سلسلة الحفاظ أو ما يعرف « بالسند » أو « الإسناد »^(٢)، حتى تصل إلى النبي أو إلى السلف^(٣) الأول من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين^(٤) وقد استحدثت هذه الطريقة حتى يعلمن جامعو الحديث إلى صحتها . ويعرف الحديث باسم آخر هو « السنة »^(٥)، أي ما تعود عليه المسلمون Usus ، وإن كان الشيعة يسمونه « بالأخبار »^(٦)، حيث أن الأحاديث لا تنتقل عندهم بالسند من الحفاظ الوثوق بهم ، وإنما عن أئمة الشيعة وحدهم . ويبدو الحديث في مظهره أنه مصدر فقهي أكثر منه تاريخي^(٧)، إلا أنه يميننا على فهم حقائق كثيرة في تاريخ الدولة العربية ، ويربط لنا حلقات مفقودة من حكم الخلفاء الأوائل^(٨).

(١) انظر . Gold : p. 6. Etudes.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٥٢ س ١١ انظر . Gold : p. 6. Etudes.

(٣) انظر . Gold : p. 1. Etudes.

(٤) انظر حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ١ ص ٤٢٣ انظر أيضا .

Ency. de l'Islam (art Hadith) t. 2. p. 201.

(٥) ابن خلدون المقدمة ، ص ٣٥٠-٣٥١ انظر . Gold :

Vie de Mahomet, Lamairesse et Dnjarric : Etudes, p. 389q; 138sq d'après la Tradition, Paris 1897, Ip. 50.

(٦) النعمان ، دعائم الإسلام ، تحقيق فيض ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١ ، ص ٦٦ .

(٧) انظر . Blachère : p. 7. Le Problème de Mahomet, Paris 1952.

(٨) انظر . Wellhausen : Das arabische Reich und sein Sturz. Berlin 1902. trad. angl. Graham Weir : The Arab Kingdom and its Fall. Calcutta 1927. Préf. XIII.

عن متون الحديث ، انظر . مالك (م ١٧٩/٧٩٥) ، للولاء ، ١٣٠٧ هـ البخاري (م ٢٥٦/٨٧٠) ، صحيح ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٢٧٨/١٨٦١ هـ مسلم (م ٢٦١/٨٧٠) ، الجامع الصحيح ، مجلدان ، يولات ١٢٩٠/١٨٧٣ هـ ابن ماجه (٢٧٣/٨٨٦) ، السنن ، مجلدان ، القاهرة ١٣١٣/١٨٩٥ هـ أبو داود (٢٧٥/٨٨٨) ، كتاب السنن ، القاهرة ١٢٨١/١٨٦٤ هـ الترمذي (م ٢٧٩/٨٩٢ - ٨٩٣) ، جامع الضحيح ، مجلدان ، يولات ١٢٩٢/١٨٧٥ هـ النسائي (م ٣٠٣/٩١٥) ، السنن ، مجلدان ، القاهرة ١٣١٢/١٨٩٤ . وفوق ذلك لدينا عدة شروح البخاري ومسلم منها : التتوي (م ٦٦٧/١٢٦٨) ، شرح مسلم على علمش كتاب القسطلاني (م ١٢٣/١٥١٢) ، ازهاد السرى لشرح صحيح البخاري ، ١٢ جزءاً ، مصر ١٣٢٦ هـ الصفار (م ٨٤٤٩/١٤٤٩)

بعد القرآن والحديث نرجع إلى المصادر الأصلية ، وتقصدها النتائج الأصلية من الكتب لمؤرخي الدولة العربية ، يتفقدون فيها حوادث معاصرة ، أو يعتمدون على مصادر معاصرة ليس من السهل الرجوع إليها^(١) . ولكن هذا الانتاج الأصلي — مع أهميته — يجب أن نأخذ به بحذر شديد ؛ لأن معظم ما وصلنا منه عن تاريخ الدولة العربية يعتمد على الرواية الشفوية — وهو طابع أولى لكتابة التاريخ الإسلامي — لتأخر التدوين حتى العصر العباسي بسبب طبيعة العرب البدوية التي كانت تميل إلى الحفاظ أكثر من التدوين^(٢) . ولكن يطمئن المؤرخون الأوائل إلى صحة الرواية الشفوية تتجأوا كجامعي الحديث إلى الأسانيد^(٣) : بأن كل حادثة تاريخية تكون مسبوقه بروايتها الذين كان بعضهم أيضا من رواة الحديث^(٤) ، فذلك كان يطلق على المؤرخين الأوائل : «أصحاب الأخبار»^(٥) أو «أخباري»^(٦) أو «راوية»^(٧) ؛ قصدهم جمع الأخبار . ومع أن معظم الرواية الشفوية وصلتنا

== فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ١٣ جزءاً ، مصر ١٣٤٨ / ١٩٢٩ ؛ البني (٨٥٥ / ١٤٥١) ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ١١ جزءاً ، طبع القسطنطينية ، ١٣٠٩ — ١٣١٠ هـ / ١٨٩١ — ١٨٩٣ . ولتسهيل البحث عن الاحاديث انظر الكتاب الحديث : فلسك ، مفتاح كنوز السنة ، معجم مفهرس تفصيلي كله الى العربية فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ١٣٥٣ / ١٩٣٤ .

(١) ملحد ، مقدمة ، ص ٣١ .

(٢) حاجي خليفة ، كشف القنون ، ١ ص ٢٦ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

(٤) مثل : وهب بن منبه (٧٣٢/١١٤ م) . انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،

بلاق ١٢٧٥/١٨٥٩ ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ؛ أو علي بن محمد المدايني (٢٧٥٠/٨٤٠)

انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٤ ص ١٢٤ — ١٣٩ ؛ انظر : Sauvaget :

Introd, p. 30.

(٥) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، تحقيق Brockelmann ، طبعة Berlin ، ١٩٠٠ ،

٧١ ص ٤ .

(٦) السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دمشق ١٣٤٩ هـ ، ص ٤٨ ؛

النوري ، نهاية الأرب ، طبعة دار الكتب ١٩٢٣ ، ١ ص ٣٧٤ ؛ ٦ ؛ انظر : البداي ،

التاريخ عند العرب ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٥٧ .

(٧) ابن اللديج القهرست ، ص ٣ .

في أسلوب شعري أو قصصي أو أساطير ، قد كان من حسن الحظ أن العرب كانوا أحفظ من غيرهم^(١) ، فوصلنا من تاريخهم الشيء الكثير . ومن ناحية أخرى يجب الحذر في تلقي هذه الروايات لأن معظم الكتب عن الدولة الرعية وصلتنا من العهد العباسي ، القى كان في عداوة مع العرب . وعليه فإن مؤرخ الدولة الرعية الحديث عند اطلاعه على الكتب الأصلية مضطر إلى قبل تكرار أسماء الرواة وتحري صحة الحقيقة التاريخية بنفسه ، لأن قصد مؤرخي الإسلام الأوائل لم يكن غير استيعاب الأخبار ، والمحافظة على كيفية اتصالها^(٢) . ومع ذلك فإن الكتب الأصلية هي الأساس الذي يعتمد عليه مؤرخ الدولة الرعية الحديث ، لكثرتها وتنوع موضوعاتها .

فنتمتع على الكتب التي ألقت في السيرة النبوية ، وبخاصة الكتاب المشهور باسم : « سيرة ابن هشام » أو « سيرة سيدنا محمد رسول الله »^(٣) ، من تأليف أبي محمد عبد الملك بن هشام (م ٢١٣ / ٨٢٨ أو ٢١٨ / ٨٣٤)^(٤) . ومع أننا لا نعلم كثيراً عن حياة هذا المؤرخ القديم غير أنه من البصرة ، وأنه من كبار المحدثين ، فكتابه هو أول كتاب تاريخي متصل وصلنا عن سيرة النبي وتاريخ العرب قبل الإسلام ، لذلك نجله يعتمد غالباً في كل أخباره على الرواية

(١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ١ ص ٢٦ ؛ انظر الأوسى ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، الطبعة الثانية ١٣٤٢ / ١٩٢٤ ، ١ ص ٣٨ .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢ و ٣ و ٧ فأ بعدها .

(٣) لدينا طبعات متعددة ، وستكون طبعنا المختارة من تحقيق Wüstenfeld ، في Göttingen ، ١٨٥٩ . ولأهمية سيرة ابن هشام تناولها المؤلفون بالشرح والتطبيق ، مثل : أبي الحسن الخمصي (م ٥٨١ / ١١٨٥) ، كتاب الروض الألف في تيسر ما اشتغل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام ، في جزئين ، طبعة القاهرة ١٣٢٢ / ١٩١٤ ؛ وكذلك أبي ذر بن مسعود الحنفى (م ٦٠٤ / ١٢٠٧) ، شرح السيرة النبوية ، تحقيق Bronnle ، في جزئين ، طبعة القاهرة ١٣٢٩ / ١٩١١ .
(٤) وفيات ، ١ ص ٤١١ — ٤١٢ .

الشفوية . وهذا الكتاب — كما يبدو — ليس إلا مختصراً لكتب ضاعت ولم تصلنا ، وبخاصة من تأليف أبي عبد الله محمد بن اسحق (م ١٥٠ أو ١٥١/٧٦٧ — ٧٦٨)^(١) ، القى كان أول من ألف في سيرة النبي ؛ بناء على طلب الخليفة العباسي المنصور ، واستحق بذلك تسمية ابن خلدون له بالأستاذ^(٢) .

ونستمد أيضاً على ما ألفه للورخون الاوائل في المازى والفتوح ، وقد لقي هذا النوع من التاريخ اقبالا شديداً منهم ؛ لما فيه من دلالة على قوة الإسلام ، ولدينا منه عدة كتب هامة . ولعل أقدم من ألف فيه هو أبو عبد الله محمد المروف بالواقدي^(٣) ، فمرف عنه أنه ولد في أول سنة ١٣٠/٧٤٧ ، وتولى القضاء في بغداد في عهدى هارون والمأمون ، وتوفي في سنة ٢٠٦ أو ٢٠٧/٨٢١ أو ٨٢٣ . ولقد صنف الواقدي في موضوعات عديدة ، أخصها المازى والفتوح ، حتى قيل : إن ما خلفه من كتب عند موته يملأ سبأه قطر كبير^(٤) ، وإن كانت قد ضاع معظمها . أما ما بقي منها فهو قليل مثل كتاب : « التاريخ والمآزى والبيث »^(٥) ، وإن كان من العجيب حقاً أنه لا يذكر في مراجعه سلفه ابن اسحق كما فعل ابن هشام^(٦) . أما تلك الكتب التي تحمل اسمه ، وربما تكون من تأليفه ؛ حيث أن ابن النديم

(١) قس المرجع ، ١ ص ٦٨٩ — ٦٩٠ ؛ انظر . Muhammad Ibn : Fück . Ishâq. Frankfort-sur-Mein 1925.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٥ س ٩٠ و ٩١ .

(٣) وفيات ، ١ ص ٧٢٢ — ٧٢٣ ؛ القهرست ١ ص ٩٨ — ٩٩ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك (بعنوان : Annales) ، تحقيق De Geoeje ، سلسلة ٣ ص ١٠٣٧ ؛ انظر . Ency de l'Islam (art. al-Wâqidî) t. 4 p. 1163 — 1164 .

(٤) القهرست ، ١ ص ٩٨ .

(٥) حقه . Kremer ، طبعة Calcutta ، ١٨٥٦ ؛ وترجه إلى الألمانية Wellhausen .

Muhammed in Medina, Berlin 1882. بعنوان :

(٦) انظر . De Wâqidû libro qui Kitâb al-Maghâzî : Horowitz .

Inscribitur Commentatio Critica quam, Scripsit. Berolini 1898,p.9 . Ency. de l'Isl. t. 4, p. 1164.

قد ذكر بعضها ، فهي عديدة وأهميتها كبرى في تاريخ فتوح الدولة العربية ، مثل : « فتوح الشام » و « فتوح مصر » و « فتوح إفريقية » و « فتوح الجزيرة » . وعلى العكس لدينا كتاب آخر من « فتوح الشام » — يشبه كتاب الواقدي — من تأليف أبي إسماعيل بن عبد الله الأزدي ، الذي لا يذكره مؤرخو المعاجم أمثال ابن خلكان وياقوت ، وإن حاول محققه أن يجعل وفاته في سنة ١٧٨/٧٩٤^(١) . فهل يكون هو مؤلف كتب الفتوح السابقة أو أيضاً قد يكون ابن اسحق ، الذي يحمل كتاب « فتوح مصر »^(٢) اسمه ، وليس اسم الواقدي ! !

ونذكر من كتب الفتوح أيضاً : « فتوح مصر والمغرب والأندلس » من تأليف عبد الرحمن بن عبد الحكم (م ٢٥٧/٨٧١)^(٣) ، الذي يعتبر أول مؤرخ عربي لمصر ، إذ ولد بالقسطنطينية في أسرة عرفت بنشاطها الأدبي والديني . وتبدو أهمية هذا الكتاب في أنه يتناول تاريخ مصر منذ القدم ، ويرى بأسباب لفتح العرب مصر ، وتنظيمها المالي في عهد الإسلام الأول ؛ وذلك يعتبر المرجع الأول لمؤرخي مصر المتأخرين كالسيوطي والمقريزي .

وأخيراً نذكر الكتاب النفيس : « فتوح البلدان » من تصنيف العالم الفارسي أحمد بن يحيى البلاذري (م ٢٧٩/٨٩٢)^(٤) ، الذي كان من خلسة الخليفةتين العباسيين المتوكل والمعتمد . ففيه ينقل البلاذري بالرواية المسندة أخبار حروب النبي مع اليهود ، وحرب الردة ، وفتوح العرب في سوريا ، والجزيرة وأرمينية

(١) الأزدي ، فتوح الشام ، تحقيق W. N. Lees ، طبعة Calcutta ، ١٨٩٤ ، انظر . v ; p. III (Preface) .
(٢) انظر . طبعة القاهرة ١٢٧٥ هـ .

(٣) انظر . وفیات ، ١ ، ص ٣٥٢ ، Ency. de l'isl. (art Ibn'Abd al Hakam) t. 2, p. 375.

(٤) ياقوت ، معجم الأدباء ، طبعة رطبي ، ص ٨٩ — ١٠٢ ؟ انظر . Ency. de l'isl. (art al-Baladhori) I, p. 624 — 625 . اسمه مشتق من حب البلاذري ، وهو مادة غندرة يقال إنها كسبت في موته .

ومصر والمغرب وقرس . ويقول الصمودى الجفرافى (م ١٥٦/٣٤٥) عن هذا الكتاب - الذى يعتبر مختصراً لكتاب كبير آخر - إنه : « لا يعلم فى فتوح البلدان أحسن منه »^(١).

كذلك تتناول من الإنتاج الأسمى ما ألفه المؤرخون القسداى فى موضوع الطبقات والأنساب، ويقصدون به تاريخ الارستقراطية العربية على حسب طبقاتها أو أنسابها . فذكر « كتاب الطبقات الكبرى » لمؤلفه محمد بن سعد (م ٢٣٠/٨٤٥)^(٢)، وهو أشبه بدائرة المعارف لسيرة النبى ومغازيه، وللخلفاء الراشدين والأمويين وغيرهم حتى عهده . ويظهر أن ابن سعد - وهو معاصر للواقدى - قد أخذ كثيراً عنه، ولذلك يسمى - أحيانا - بـ « كاتب الواقدى »؛ بل إنه سمي مؤلفه على اسم كتاب للواقدى يعرف أيضاً : « بطبقات الواقدى »^(٣).

ونذكر كتاب « أنساب الأشراف » للبلاذرى، وهو لا يقل قيمة عن كتابه السابق فى الفتوح، حيث يتناول تاريخ الارستقراطية العربية^(٤)، فى جاهليتها واسلامها إلى القرن العباسى الأول . وهو لا يرتبه على حسب سنى الهجرة، بل يسوقه على شكل قصص يتناول تاريخ الشخصية وأسرته بالرواية الشفوية؛ وقد استأثرت فيه أخبار بنى أمية بأكثر من الثلث . ولسوء الحظ ضاع الجزء الأكبر منه^(٥)، ولم يصلنا غير الجزء الخامس الذى يروى فيه سيرة الخليفة عثمان وأولاده وعبد الله بن الزبير^(٦). وكذلك لدينا مصنف مجهول عبارة عن الجزء الحادى عشر، وهو - ولا ريب - جزء من كتاب أنساب الأشراف يعرض

(١) الصمودى، مروج الذهب، تحقيق وترجمة Pavet, Barbier de Meynard، Paris ١٨٦١ - ١٨٧٧، النص العربى، ١ ص ١٤.

(٢) الفهرست، ص ٩٩؛ انظر . Ency. de l'isl. (Ibn Sa'd) 2, p. 439.

(٣) الفهرست، ص ٩٨.

(٤) انظر . Historiens Arabes. Paris 1946, p. 15 : Sauvaget.

(٥) يقول Becker إن هذا الكتاب يوجد كاملاً فى القسطنطينية . انظر .

Ency. de l'isl. t. I, p. 625.

(٦) أنساب الأشراف، تحقيق Goltstein، الجزء الخامس، طبعة القدس ١٩٣٦.

فيه لسيرة مصعب بن الزبير إلى عهد الحجاج^(١) . فاهمية كتاب البلاذري أنه يتناول مرحلة حاسمة في تاريخ الدولة العوية .

ونستعين أيضاً بكتب الأخبار والتاريخ ، وهي أشبه بمصحف الأخبار ، يفتقر منها الباحث أخباراً عديدة ، قد تصل أحياناً إلى حد التناقض ، متقول أغلبها عن طريق الرواية الشفوية ؛ كما يحمل معظمها طابع التأليف الإسلامية الأولى في التاريخ ، يربط تاريخ النبي بآدم ، تقليداً للقرآن في ذلك ؛ ونذكر منها الكتب الآتية :

كتب أبي مخنف (م ١٥٧/٧٧٤)^(٢) ، وهو الذي ينقل عنه معظم مؤرخي الإسلام القدامى ، ويُعتبر أحد رواة التاريخ الشهوريين ، وكل ما نعرفه عنه أنه ولد في سنة ٨٢/٧٠١ بالكوفة ، وأنه على حسب ملاحظة ابن النديم تخصص في جمع أخبار الدولة العوية : من فتوح وسوانح . وقد ضاعت معظم كتب أبي مخنف ، وإن وصلتنا بعض نثف منها في كتب المؤرخين المتأخرين ، كما بقي لنا كتابان يحملان اسمه ذكرهما ابن النديم ، هما : « كتاب مقتل الحسين عليه السلام » و « رسالة أخذ الثار واتصاف المختار على العلفاء الفقار »^(٣) ، وكلاهما يتناول ظروف الإسلام السياسية في عهد الأمويين^(٤) ، ويدلان على أن أبا مخنف كان من الشيعة المحمسين للمويين .

(١) حقه Ahlwardt ، طبة Greifswald ، ١٨٨٣ ؛ انظر Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur. (GAL) Weimar 1898. I, p. 142.

(٢) فهرست ، ط ٩٣ ؛ انظر . Ency. de l'isl. (art Abû Mikhna) : GAL. I, p. 66. ; Brock : I, p. 108.

(٣) يذكر ابن النديم عنواناً آخر هو : « كتاب المختار بن أبي عبيد » ، انظر .
الفهرست ، ص ٩٣ . وقد نشر محمد الفيرازي السكتان ، طبة بومباي ، ١٣٦١ هـ .

(٤) انظر . The Arab King. Pref X — XI. : Well .

ثم كتاب أبي المنذر هشام بن الكلبي الأخباري (م ٢٠٤/١٨١٩ أو ٢٠٦/٨٢٢)^(١)، المعروف باسم «كتاب الأصنام»، وتبدو أهمية هذا الكتاب في أنه المصنف الوحيد الهام الذي بقي لدينا من كتب عديدة يذكرها ابن النديم في حوالى أربع صفحات من كتاب الفهرست، وهو يتناول بالتفصيل الحياة الدينية للعرب قبل الإسلام، فيذكر أصنام القبائل المختلفة في الجزيرة العربية، بحيث يعتبر المرجع الأصلي في هذا الموضوع.

ثم أيضاً كتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (م ٢٨٢/٨٩٥)^(٢)، وفيه نجد صفحة من تاريخ الإسلام في القرنين الأولين بببارات مختصرة، وإن أطنب المؤلف على الخصوص عند التحدث عن أخبار فارس قبل الإسلام، وفتح العرب لها، وظروف سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس، ولا ريب فقد كان الدينوري فارسياً يؤرخ لوطنه.

ثم كتاب «التاريخ الكبير» لأحمد بن جعفر بن أبي يعقوب بن واضح الأخباري العباسي (م ٢٨٤/٨٩٧)^(٣)؛ وفيه نجد نيزاً قيمة عن أخبار الجاهلية وشرائعها وأسواقها، وتاريخ الأمم السابقة على الإسلام حتى سنة ٢٥٩/٨٧٢. ويظهر جلياً من ثنايا سطور هذا للكتاب أن اليعقوبي شيعي، وإن لم يجرؤ على إعلان ميله للمويعين خوفاً من العباسيين.

ثم الكتاب المعروف: «تاريخ الأمم والملوك» مؤلفه العالم محمد بن جرير الطبري (م ٣١٠/٩٢٣)^(٤)، الذي اشتهر بهذا كثرته القوية، ودأبه الذي لا يكل

(١) الفهرست، ص ٩٥—٩٨؛ ياقوت، معجم الأدباء، ١٩، ص ٢٨٧—٢٩٢؛
تصدير كتاب الأصنام، تحقيق زكي باشا، القاهرة ١٩١٤؛ انظر: Ency. d'Isl. (art al-Kalbi) 2, p. 730 — 731.

(٢) الفهرست، ١، ص ٧٨؛ انظر: Ency. de l'Isl (art al-Dinwari), 1, p. 1004 — 1005.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ٥، ص ١٥٣ — ١٥٤؛ انظر: Ency. de l'Isl. (art al-Ya'kûbi) 4, p. 1215 — 1217.

(٤) وفيات، ١، ص ٦٥١؛ انظر: Historiens arabes, : Sauvaget. Ency. de l'Isl. (art al-Tabari), t. 4 p. 607—8؛ Paris. 1946, p. 18.

في جمع الأخبار التي تتمتع بالبشر منذ خلق آدم حتى عصره ، على ترتيب السنين ، سواء أكان بالرواية الشفوية ، أو من كتب المتقدمين أمثال : ابن اسحق وأبي غنم والواقدي والدائقي^(١) . ومع أن معظم مصادر الطبري من العراق ، إلا أنه اتخذ موقف المؤرخ المحايد الذي غرضه استيعاب الأخبار ، والحفاظ على صحتها من أفواه الرواة .

ثم الكتاب الممتع : « المقد الفريد » من تأليف أبي هريرة بن عبد ربه^(٢) (م ٣٢٨/٩٤٠) ؛ حيث نجد فيه روايات تاريخية عديدة ، رتبها المؤلف في فصول من اختياره كالنقد ، تتناول أخبار العرب في الجاهلية والإسلام ، مع عرض موجز لسير الخلفاء الأوائل .

ثم كتاب : « الكامل في التاريخ » لأبي الحسن عليّ المعروف بابن الأثير^(٣) (م ١٣٠/١٢٣٣) ، وهو المؤرخ الذي كرس حياته لكتابة تاريخ كامل للإسلام حتى عصره ، وعرف بمصافته في تحري الأخبار ونقلها ، وإن رتبها كالطبري على نظام الحوليات ، وبدأها بالتكلم على تاريخ البشرية منذ أول الزمان . وهذا الكتاب — كما يقول ابن خلكان — من خيار التواريخ ، ويحتوي على مادة قيمة لتاريخ الجاهلية والإسلام .

ثم كتاب : « المختصر في أخبار البشر »^(٤) من تأليف إسماعيل بن عليّ الملقب بأبي الفداء (م ٧٣٢/١٣٣١) ، وهو تاريخ مطول للأمم حتى سنة ٧٢٩/١٣٢٩ ، ولا يهمل منه غير الجزء الذي يتناول فيه تاريخ العرب في الجاهلية ، وسيرة النبي وسير الخلفاء حتى سقوط دولة بني أمية .

(١) جواد علي ، موارد تاريخ الطبري ، في مجلة المجمع العلمي العراقي ، عدد ٢ ، ١٩٥٢ ، ص ١٣٥ — ١٩٠ ؛ عدد ٣ ، ١٩٥٤ ، ص ١٦ — ٥٦ .

(٢) وفيات ، ١ ، ص ٤٥ — ٤٦ .

(٣) قصه ، ١ ، ص ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٤) حققت أجزاء هذا الكتاب وترجمت في أوروبا منذ عهد ميكز ، فابليز الحامز بالصبر الجامع حقه Fleisher وترجمه بنون : *Abulfedae historia anteislamica*, Leipzig 1831.

كذلك حققت منه سيرة النبي وترجمت إلى اللاتينية والفرنسية والإنجليزية . انظر - Ency. de l'isl. (art Abu'l-Fidā) i, p. 88.

ثم كتاب : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لعلامة عبد الرحمن أبي زيد بن خلادون (٨٠٨م / ١٤٠٦^(١)) ، وفيه أخبار العرب والشعوب الأخرى وبخاصة البربر ، ومقدمة هذا الكتاب تحتل مكانة خاصة في تاريخ الدولة العربية ، بسبب أن ابن خلادون لم يعرض فيها التاريخ كسابقة من المؤرخين ، وإنما فلسف ظروف المجتمع العربي منذ نشأته ، وتتبع تطوره ونظامه في الإسلام ، مما جعلها مرحلة حاسمة في تطور منهج^(٢) علم التاريخ .

ثم كتاب مؤلف مجهول بعنوان : « العيون والحدائق في أخبار الحقائق »^(٣) ، يظهر أنه الجزء الثالث من كتاب تام ، يتناول تاريخ الخلفاء من عهد الوليد حتى المعتصم ، أي من سنة ٨٦ إلى ٢٣٧ / ٧٠٥ - ٨٤٣ . والواقع أن أهمية هذا الكتاب كبيرة جداً ؛ لجمعه مادة تاريخية منظمه عن الخلفاء الأمويين الأواخر ، وثورات الخوارج في عهد كل منهم .

وأخيراً نشير إلى عدة كتب لها قيمتها في نقل أخبار الدولة العربية ، مثل : كتاب « البيان للغرب في أخبار المغرب » لابن عذارى (حوالي القرن السابع / ١٣) ؛ و « تاريخ دول الإسلام » لشمس الدين أبي عبد الله الذهبي (م ٧٤٨ / ١٣٤٨^(٤)) ؛ و « نسح الطيب » للقرى (م ١٠٤١ / ١٦٣٢) .

ثم تصانيف مفيدة في الترجمة للأشخاص تتناول تاريخ حياة الأشخاص وأنسابها ، منها : كتابا أبي الفرج جمال الدين الملقب بابن الجوازى^(٥) (م ٥٩٧ / ١٢٠٠) : « مناقب عمر بن الخطاب » و « مناقب عمر بن عبد العزيز » ، فكلهما

(١) انظر . Ency. de l'Is. (art Ibn Khaldún) 2, p. 418 — 419 .

(٢) انظر . ماجد ، مقدمة ، ص ٣٥ و ٨٧ .

(٣) مستخدم نسخة de Goeje ، طبعة Brill ، ١٨٧١ ؛ وإن كان Juynboll

و Anspach حقاً فقط الجزء الخامس بالوليد وسليمان . انظر .

(٤) انظر . The Ta'rikh al-Islam of adh-Dhahabī : De Somogyi

J-R.A.S. Oct. 1932, p. 815 — 856.

(٥) وفيات ، ١ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

يمرض لموضوع في التاريخ يتناول الصفات المالية للخليفين العريين ، وإن كانا في نفس الوقت يشتملان على معلومات هامة عن سياسة كل منهما .
ثم كتاب أبي الحسن علي بن الأثير (م ٦٣٠ / ١٢٣٣) : « أسد النابة في معرفة الصحابة » ، وهو لا يقل قيمة عن كتابه السابق « الكامل » ، فهو أشبه بقاموس أيجدي لتاريخ الصحابة الذين أظلموا مع الرسول ، وهم خلق كثير ، إذ ذكر فيه ترجمة سبعة آلاف وخمسة مائة صحابي ، ينقلها عن كتب سابقة لم نملنا ككتاب علي بن منده مثلاً ، كما يستدرك ماقت على من تقلده ، وهو لا يذ كر قطع سلسلة « السند » كسابقه ، وإنما أيضاً ما يسميه في المقدمة « بإسناد الكتب » ، ويشير إليها بحروف مختصرة كما تفعل الآن في كتابة المراجع .

بعد ذلك نذكر كتباً مفيدة ، تناول نظام الدولة العربية المالية وبعض النظم الأخرى ، وإن كان أغلبها يتناولها من الناحية النظرية أو الفقهية المرفة ، مثل : « كتاب الخراج » لأبي يوسف (م ١٨٢ / ٧٩٨) ^(١) ، وهو كتاب ألف بناء على طلب الخليفة العباسي هارون الرشيد ، ويحتوي على معلومات هامة عن فتوح البلدان ، وما يتعلق بها من نظام الخراج ؛ وكتاب آخر عن « الخراج » لأبي الفرج قدامة بن جعفر (حوالي ٣٣٧ / ٩٤٨) ^(٢) ، الذي وصف فيه مملكة الإسلام وما جاورها ، ونظام القنور بحيث يعتبر المرجع الأول في هذه الناحية ؛ وأخيراً كتاب : « الأحكام السلطانية » لأبي الحسن الماوردي (م ٤٥٠ / ١٠٥٨) ^(٣) ، وهو يمرض لنظم عديدة كالخلافة والقضاء والنظام المالي .

(١) الفهرست ، ص ٢٠٣ .

(٢) ياقوت ، معجم الأدباء ، ص ١٧٧ — ١٨٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Kudāma) t. 2, p. 1158.

لم يتبق من كتابه غير الجزء الثاني ، الذي نشر في مجموعة :

Bibliotheca Geographorum arabicorum éd. de Ooeje, vol 6. Lugduni — Balavorum 1889.

(٣) انظر . Ency. de l'Isl. (art al-Māwardi) t. 3 p. 477.

ويجب أن نهم بكتب ذات طابع ديني تتناول المشكلات الدينية في الدولة المرية ، وهي التي ظهرت نتيجة لتنوع الممارسات لدى المسلمين ، واختلاف الثقافة . والواقع أن التأليف في العقائد والأديان أصبح موضوع دراسة مستقلة في كتب العرب ، فكان لهم فضل السبق في تدوينه ، قبل أن تعرفه أوروبا زمن طويل ^(١) . ومع ذلك فإن هذه الكتب متشابهة في منهجها من حيث : تعرضها للفرق الإسلامية أو للفرق المخالفة .

فذكر منها كتاب « فرق الشيعة » للكاتب الفارسي الحسن بن موسى النوبختي ^(٢) (الثالث الهجري / التاسع ليلادي) ، وهو يتكلم فيه عن فرق الشيعة على الخصوص منذ عهد علي بن أبي طالب - امام الشيعة - ويعرض لجميع ظروف نشأتها ، ومبادئها للأمويين ؛ وكتاب « الفرق بين الفرق » لأبي منصور ابن محمد البندادي (م ١٠٣٧/٤٢٩) ، وقد جمع فيه كل الفرق الإسلامية وبين آراء كل منها ؛ وكتاب « الملل والنحل » للشهرستاني (م ١١٥٣/٥٤٨) ، حيث يذكر فيه كالمكتاب السابق الفرق التي ظهرت في الإسلام ؛ وكتاب « الفصل ، في الملل والأهواء والنحل » لأبي محمد علي بن حزم (توفي حوالي ١٠٦٤/٤٥٦) ، وهو يضم بين دفتيه كل ما يتعلق بفرق الإسلام والأديان المخالفة له كاليهودية والسيحية والمجوسية ؛ وأخيراً كتاب « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » لفنغر الدين الرازي (م ١٢٠٩/٦٠٦) ، حيث لا يتناول فيه فقط بالعرض فرق المسلمين ، وإنما أيضاً فرق الأديان الأخرى ، ويرتبها جميعاً على حسب تواريخ ظهورها .

وفوق ذلك نجد أنه من القصور ألا نذكر في مصادرها الأصلية كتب الأدب ^(٣) ، خصوصاً التي ألقت في أوائل عصر التدوين ، وهي تحتوي على معلومات تاريخية هامة ، وهي عديدة منها :

- (١) دواز : الدين . بحوث مهمة لدراسة تاريخ الأديان ، القاهرة ١٣٧١/ ١٩٥٢ .
- (٢) . وهي كلمة غربية مركبة من « نو » بمعنى الجديد و « بحث » بمعنى الخط ، أي الخط الجديد . انظر . طبعة الجيف ١٣٥٠/ ١٩٣٦ ، انظر المقدمة .
- (٣) انظر . Sauvaget . Introduc , p. 39 qq :

كتب عمر بن بحر المعروف بالجاحظ^(١) (م ٢٥٥/٨٦٨ - ٨٦٩) وهو أديب نقل إلينا كثيراً من الروايات التاريخية منها : كتاب « الحيوان » ويوم اسمه أنه قد خصص للحيوان ؛ ولكنه يتناول طائفة من المعلومات الخاصة بالبلدان ، وبعض قضايا التاريخ عند العرب في الجاهلية ؛ وكتاب « البخلاء » الذي يتكلم فيه على البخل عند العرب ، وينقل إلينا صورة عن حياتها الأولى حتى طماها ؛ وكتاب « البيان والتبيين » الذي يفيدنا في التعرف على بعض أحوال الجاهلية ، وفيه نصوص كاملة لخطب النبي والخلفاء ؛ وكتاب « التاج » وفيه الاصطلاحات التي كانت فاشية بين العرب وأعيادهم ؛ وكتاب « المحاسن والأضداد » ، وقد ذكر فيه أعيان طريفة عن العرب ؛ وأخيراً مقالة قيمة أدلى فيها برأيه « في معاوية والأمويين » منذ أن حدثت فتنة عثمان .

وتصانيف محمد عبد الله بن مسلم الدينوري الملقب بابن قتيبة^(٢) (م ٢٧٦/٨٨٩) ، وهو من الأدباء المفيدين ، حيث نقل إلينا فيها كثيراً من أخبار الدولة الرابية ، منها : كتاب « عيون الأخبار » ، ويورد فيه كثيراً من الروايات التاريخية عن العرب في الجاهلية والإسلام ؛ وكتاب « المعارف » وفيه ذكر لأخبار العرب وأيامها وأديانها ودولاتها ، وأخبار النبي والخلفاء ، وهو يهتم بالأنساب على الخصوص ؛ وكتاب « اليسر والقصد » ، الذي يعتبر مرجعاً هاماً لتاريخ العرب الإجتماعي قبل الإسلام ؛ وكتاب « الإمامة والسياسة » وهو فريد في بابه جمع فيه الأخبار ونوادير التاريخ فيما يتعلق بمسائل الإمامة وشروطها في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والدولة العباسية ، ويمتاز عن كتبه السابقة بظايفه

(١) السجوسي ، مروج ، ٨ ، ص ٣٣ فأبعدها ؛

انظر . خليل مردم ، الجاحظ . دمشق ١٩٣٠ ؛
Le Milieu Bagrien : Pellat et la Formation de Gâhiz, Paris 1953.

(٢) الفهرست ، ص ٧٧ ؛ وفيات ، ١ ، ص ٣٥٥ ؛ انظر .
Ency. de l'isl. (art. Ibn Kutilba) ٢ ، p. 423 — 4.

قتيبة تصغير قتيبة وهي واحدة الإقطاب ، والأقطاب الاسماء فسمى بها ، ونسب بالدينوري لأنه أظم بالدينور فلقب إليها .

السياسي الصرف؛ وأخيراً كتاب «الشعر والشعراء»، وفيه ذكر شعراء الجاهلية وغيرهم وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم.

وأخيراً كتاب أبي الفرج علي بن المهيم الأموي الكاتب المعروف بالأسفهانى^(١) (م ٩٦٧/٣٥٦) المسمى: «الأغانى»، وقد أفرده للأغانى العربية قديماً وحديثاً، وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام للعرب المشهورة، وقصص الملوك فى الجاهلية، والخلفاء فى الإسلام؛ فأهمية هذا الكتاب التاريخى الأدبى فى أنه يمرض للحياة الاجتماعية فى الجاهلية والإسلام. ومن ناحية أخرى لدينمان أبو الفرج الأسفهانى كتاب مفيد لا فى الأدب ولكن فى التاريخ اسمه «مقاتل الطالبين»، يتناول فيه كل من قتل من الشيعة بأيدي الأمويين أو العباسيين.

ويجب أن نجمل مكاناً فى مصادرنا الأصلية لكتب الجغرافية^(٢)، وهى ذات قيمة كبرى فى تاريخ الدولة العربية، لا تقل عن قيمة كتب التاريخ ذاتها، وذلك لأن أغلبها لا يقتصر على جغرافية البلاد من وصف وتضاريس، ولكنه يمرض للحوادث، وينقل الروايات التاريخية، خصوصاً وأن أغلب الجغرافيين كانت له مؤلفات تاريخية أيضاً.

فندكر من كتب أبي محمد الحسن بن أحمد الحميدانى ويلقب بابن الحائك^(٣) (م ٩٤٥/٣٣٤)، الكتاب المسمى «سفة جزيرة العرب»^(٤) الذى يصف فيه الجزيرة، ويذكر أسماء بلادها، وأوديتها وسكانها من القبائل؛ وكتاب «الأكليل»، الذى يصف فيه آثار اليمن فى العصر القديم، وبقايا أبنيتها وقصورها وسدودها التى

(١) ياقوت، معجم الأدباء، ١٣ ص ٩٤ — ١٤٦؛ انظر. خلف الله، صاحب الاغانى أبو الفرج الاسفهانى الراوية، القاهرة ١٩٥٣؛ Ency. de l'Isl. (art Abu'l-Paradij) I, p. 87 — 88.

(٢) انظر. Sauvaget. Introd, p. 42 — 43.

(٣) ياقوت، معجم الادباء، ٧ ص ٢٣٠ — ٢٣١.

(٤) ندمه وعلق عليه Müller، طبة Leiden، ١٨٩١.

شاهدناها ؛ وللاسف لم تصلنا معظم أجزاء هذا الكتاب الأخير ، وإن وصلنا منه الجزء الثامن^(١) على الخصوص ، الذى ينقل فيه - على ما يظهر - من كتاب يعنى قديم اسمه « التيجان »^(٢) ، لوهب بن منبه البجلي (م ١١٤ / ٧٣٢) .

ثم نذكر على بن الحسن السعوى (م ٣٤٥ / ٩٥٦)^(٣) ، الذى يقارن بالحالة Plinius (توفى فى ٧٩ م)^(٤) ، بسبب حبه للاستطلاع مما جمعه برحل إلى قارص والهند وسوريا ومصر . وأم كتبه « مروج الذهب »^(٥) ، وهو كتاب جغرافى وتاريخى ، يعرض فيه لتاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام ، وعناوين فصوله تدل على احساسه التاريخى ؛ وأما كتابه « التنبيه والاشراف » ، فهو أيضاً فى غاية القيمة لدراسة تاريخ الدولة العربية ، فبجانب موضوعاته الجغرافية البحتة من : الأفلاك والرياح والفصول والأرض ، ينقل إلينا أخباراً قيمة عن البلاد التى فتحها المسلمون . وأخيراً لدينا كتب متعددة من جغرافيين^(٦) آخرين ، ينقل أغلبهم أخباراً مكرورة عند وصفهم البلدان ، مثل : ابن الفقيه (حوالى ٢٩٠ / ٩٠٣) ؛ وابن خرداذبه (حوالى ٢٣٢ / ٨٤٦) ؛ والأصطخرى (حوالى ٣٤٠ / ٩٥١ - ٩٥٢) ، واليعقوبى (م ٢٨٤ / ٨٩٧) ؛ وابن حوقل (حوالى ٣٦٧ / ٩٧٧) ؛ و القندسى حوالى ٣٧٨ / ٩٨٨) ؛ وياقوت (م ٦٢٦ / ١٢٢٩) ، وهو الذى يعتبر كتابه « معجم البلدان » معجماً تاريخياً أيضاً لحياة العرب ودولهم وعمالصهم .

(١) سلتخدم هنا تحقيق نبيه فارس ، طبعة Princeton ١٩٤٠ .

(٢) نعرض هذا الكتاب بمحيد آياد ، ١٣٤٧ هـ .

(٣) القهرست ، ص ١٥٤ ؛ انظر . Ency. de l'Isrl. (al-Mas'oudi) 3, p. 457-8 .
 Notice sur la vie de Masoudi. ext. du , Quatremère - انظر .
 J. A. IIIème Série. 1839, p. 1-30.

(٤) انظر . La Science arabe et son rôle dans l'évolution : Miell
 scientifique mondiale. Leiden 1939, p. 114.

(٥) وهو يعرف للأوربيين عادة باسم : "Les Prairies d'Or".

(٦) من الجدير بالذكر أن تواريخ وقاتهم غير معروفة بدقة ، والتواريخ المذكورة هي تواريخ تأليفهم .

كذلك يجب أن نهتم في مصادرنا الأصلية بالشعر العربي^(١)، وهو وإن لم يكن في ذاته نصاً تاريخياً؛ لأنه يذكر حوادث سطحية دون ربط بينها، إلا أنه بالنسبة لتاريخ الدولة العربية يعتبر سجلاً معاصراً لآخلاق العرب وحياتهم وأخبارهم؛ لذلك نُقل عن النبي قوله إنه: «ديوان العرب»^(٢). ولكن من الطريف أن نذكر أن معظم ما وصلنا من شعر العصر الجاهلي من عمل البدو^(٣) وليس من عمل الحضر، بحيث أن شعراء المدن يعدون على الأصابع. وحتى بعد ظهور الإسلام لم تأكل دولة الشعر، ولا يجب في ذلك، تغلفاء الدولة العربية — سواء أكانوا من الراشدين أو الأمويين — كانت لهم خصائص زعماء القبائل العربية، بل أكثر من هذا كان معظمهم يقرض الشعر^(٤) ويشجع الشعراء الذين أصبحوا ملازمين لهم كالنفل في المدينة^(٥) وبخاصة في الشام^(٦)؛ ولذلك جاءت أشعار العرب في ظل الدولة العربية مباشرة بعد المعقات، بحيث أنها كانت مطابقة للشعر الجاهلي في موضوعاته وأسلوبه.

ومن الجدير أن نذكر أن معظم شعر العصر الجاهلي أو الأموي وصلنا هو الآخر عن طريق الرواية الشفوية فالحديث والأخبار التاريخية، وساعد على بقاءه أيضاً تتمتع العرب بذاكرة الحفظ^(٧). ولعل أهم ناقل للشعر هو حماد الراوية

(١) انظر، p. 24 sq. : Sauvaget.

(٢) ابن رعيق، السدة، القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤، ١، ص ١٣؛ انظر.

La Littérature arabe des origines à l'époque de la : Nallino
dynastie umayyade. trad. Pellat Paris 1950, p. 63 — 64.

(٣) القرشي، جمهرة، ص ١٢، ص ٢٥؛ انظر - جرجي زيدان، كتاب تاريخ آداب

العلم العربية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢٤، ١، ص ٨٤.

(٤) جمهرة، ص ٢٤. نذكر منهم: اللطس ولللهل و امرأ القيس والسومل وزهير

وعنترة وتأبط شرأ... الخ.

(٥) جمهرة، ص ١٠، ص ٩؛ انظر: ابن رعيق، السدة، ١، ص ١٩؛ انظر.

(٦) يعرف شعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام بالهضريين، نذكر منهم: كعب بن

زهير والنابة والحليمة. اليقوي، تاريخ، تحقيق Houtsma، ١٨٨٣، ١، ص ٣١٢ — ٣١٣.

(٧) نذكر من شعراء الأمويين على الخصوص: الفرزدق والأخطل وجبرير وكثير عزة

وهمر بن أبي ربيعة وذو الرمة والنجاشي والفرماح... الخ.

(٨) انظر، قبله.

(م ١٥٥ / ٧٧٢)^(١) ، الذى عاصر آخر الخلفاء الأمويين ، وكانوا يقدمونه ويؤثرونه ، وسعى راوية لأنه كان يروى لكل شاعر . ومع ذلك فيجب أن نأخذ ما ورد من شعر الدولة الرمية أو الشعر الجاهلى بحذر شديد لبعده عن عصر التدوين ، بحيث أن طه حسين يقول عن شعر الجاهلية أن السكثرة المطلقة منه ليست من الجاهلية فى شيء^(٢) .

وأخيراً إذا ذكرنا أشتار العرب فى مصادرنا الأصلية يجب أن نذكر أيضاً أمثالهم ، فإن لها نفس القيمة التاريخية فى التعبير عن بيئة العرب وتطورها . ولعل أهم مرجع لدينا عن أمثال العرب كتاب مجمع الأمثال لأبى الفضل بن محمد النيسابورى المروى بالميدانى^(٣) (م ١١٢٤ / ٥١٨) ، وهو يشتمل على نيف وستة آلاف مثل^(٤) ، مرتبة على حروف المعجم ، تمتد من عصر الجاهلية وعهد النبى والخلفاء الراشدين ، كما أن المؤلف يذكر مع كل مثل قصة توضح الغرض الذى وضع له ، بحيث يقول ابن خلكان عن هذا الكتاب : إنه « لم يعل مثله فى باب »^(٥) .

بعد ذلك يجب أن نفرد مكاناً خاصاً لمصادر أصلية قلمية ، ولكن من نوع آخر ، إذ أنها ليست من تأليف العرب أو المسلمين ؛ ولكن من تأليف رحالين أوروبيين قداماء ، أو مؤرخين بيزنطيين ، أو رجال دين مسيحيين من الرهبان ، فأهمية هذه السكتب فى أنها تتناول أخبار الدول العربية من جهة نظر مخالفة لوجهة نظر العرب والمسلمين .

(١) وفيات ، ١ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. 2, p. 267.

(٢) انظر . طه حسين ، فى الأدب الجاهل ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٦٤ .

(٣) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٥ ، ص ٤٥ — ٥١ . سعى للميدانى نسبة إلى ميدان علة

من علة نيسابور .

(٤) النسخة التى استخدمها — وهى طبعة القاهرة ١٣١٠هـ — بها فيها جبهة الأمثال

لأبى هلال حسن بن عبد الله السكرى الصوى (م ٣٩٥ / ١٠٠٤ — ١٠٠٥) ، حيث لا يبلغ فيها جمعه الكتاب الأول .

(٥) وفيات ، ١ ، ص ٦٥ .

فندكر أولاً كتب الرحالين الأوربيين ، الذين جابوا الجزيرة العربية منذ الزمن القديم قبل الميلاد أو بعده ، سواء أكانوا من اليونان أو الرومان ، حيث يقدم أغلبها — وقد ترجم إلى اللغات الحديثة — لمحات هامة عن حرب الجزيرة في البوادي ، أو في ممالكها القديمة ؛ فندكر ما كتبه Herodotus في *Historia* و Xenophon في *Anabasis* و Theophrastus في *Bibliotheca Historica* و Diodorus Siculus في *De Historia Plantarum* و Josephus في *Magnum opus* و Gaius Plinius المعروف باسم (Pliny) في *Naturae historum* وأخيراً Strabo في *Geographica* ، وهذا الأخير شارك بنفسه في حملة الرومان على الجزيرة العربية في ٢٤ ق م ، ووصف أحوالها وسكانها كشاهد عيان^(١) .

ثم نذكر كتب المؤرخين البيزنطيين ، وبخاصة الذين عاصروا الدولة العربية ، وهذه لها قيمتها الخاصة ؛ بسبب أن الدولة العربية استولت على أملاك بيزنطة في سوريا ومصر وشمال إفريقيا ، كما غزتها في عقر دارها ووصلت قواتها حتى أسوار القسطنطينية ؛ فهذه الكتب البيزنطية تنقل باللغة اللاتينية أو اليونانية — وأغلبها لم يترجم إلى اللغات الحديثة — أخباراً وتعليقات هامة ، وإن لاحظ المؤرخ الحديث Gibbon^(٢) أن أغلبها متحامل ، فندكر منها ما كتبه المؤرخ Procopius — الذي عاصر الامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥) — في «تاريخ الحروب»^(٣)

(١) انظر . بعده ؟ جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ٢٩ ؛ انظر . الترجمة الانجليزية The Geography of Strabo trad. , H. L. Jones. London 1949, I, Introd. p. xiv — xxviii.

(٢) انظر . Gibbon . The decline and fall of the Roman Empire. ed. Smeaton. London 1950, 5, p. 297.

(٣) انظر ترجمته الانجليزية بعنوان : History of the Wars, transl. : Dewing. 7 vol. London 1954.

وله كتاب أكثر باسم : Of the Buildings of Justinian. transl. by Stewart London 1886.

حيث يذكر حروب الفساسنة - خلفاء البيزنطيين مع اللخمين - خلفاء الفرس ، وغزوة الحبش لليمن في الجاهلية ، و Theophanis (حوالي ٧٥٨ - ٨١٨) ^(١) في « Chronographia » ^(٢) أى « أخبار » ، وهو تاريخ للعالم ، يتناول فيه حروب العرب مع البيزنطيين وصل فيه حتى سنة ٨١٣ م ، و Nicephorus Patriarcha (حوالي ٧٥٨ - ٨٢٩) ^(٣) في « Histori » ^(٤) ، وهو تاريخ عام للكنيسة ، يحرص فيه لحروب العرب مع البيزنطيين حتى سنة ٧٦٩ م .

ثم الكتب التى ألفها رجال الدين المسيحيون ، وهى بلغات متعددة ، مثل : الأرمنية والسريانية والقبطية وحتى الأسبانية - وقد رُجمت معظمها إلى اللغات الحديثة - ولا تقل أهميتها عن الكتب البيزنطية ، كما أن صبغتها الدينية لا تقل من قيمتها التاريخية ^(٥) . فنذكر من هؤلاء المؤلفين : الأسقف الأرمي Sébéos (القرن السابع الميلادى) الذى كتب عن « تاريخ هرقل » ^(٦) ، وكان شاهداً عياناً للنزول العربى فى فارس وأرمينية وآسيا الصغرى حتى مصر معاوية ، فكتابه يتناول مرحلة الفتوح الإسلامية الأولى ، وأرمى آخر باسم Ghévond ^(٧) (القرن الثامن الميلادى) ذكر أخبار الفتح العربى فى أرمينية ، وتعرض لتاريخ

(١) انظر - Ency. Britannica vol, 22 p. 66

(٢) انظر النسخ اليونانى فى مجموعة : Patrologia Graeca de Migne : 1857-1866. t. 108 أو انظر تحقيق Boor .

(٣) انظر - Ency. Britannica vol 16, p. 415 - 416

(٤) انظر النسخ اليونانى فى نفس المجموعة : Patrologia Graeca t. 100

(٥) انظر - Monographs on Syriac and Muhammadan : Czeglédy Sources in the Literary Remains of M. Kmosko. Acta Orientalia t. 4 Budapest 1955, p. 25.

(٦) انظر الترجمة إلى الفرنسية ، بنون : Histoire d'Héraclius par, l'évêque Sébéos. traduite de l'arménien et annotée par Maclér, Paris 1904.

(٧) انظر - L'Islam dans la Littérature arménienne. : Maclér R. E. I, 1932, p. 493 - 4 et n (3).

الخلفاء في الدولة العربية بالتفصيل^(١)، والبطرك السرياني Dionysios Tellmahrensensis ، الذي ولد بقرب ماردين بالجزيرة ، وكتب « تاريخ »^(٢) العالم حتى سنة ٨٣٧م ؛ وإن كان لا يهتما منه غير الجزء الرابع الذي أشار فيه إلى حوادث الدولة العربية، وإن كان مملوفاً بالأخطاء ، Michael Syrus (م ١١٩٩م) الذي كتب « التاريخ »^(٣) بالريانية حتى سنة ١١٩٤ - ١١٩٥م ، وتناول فيه حوادث وأخباراً تتعلق بالمرب والبيزنطيين ، ويوحنا النقوبسى (توفي أواخر القرن السابع الميلادى) ، وهو قبطى كتب فى « التاريخ »^(٤) باليونانية عن مصر منذ الفراعنة ، وتكلم فيه عن فتح العرب لمصر ، وإن كان جل إهتمامه بتاريخ الكنيسة اليمقوية ، وقد ضاعت النسخة الأصلية لكتابه، ولم تبق منها إلا نسخة حبشية ؛ وقد نذكر بعض قصائد شعبية أسبانية Romencero^(٥) تناول قصة الفتح العربى فى اسبانيا وظروفه؛ وأخيراً الدولة العامة التى أمر بتصنيفها Alfonso el Sabio بدون فيها تاريخ اسبانيا منذ بدايته، وهى المروفة باسم : « Cronica General »^(٦) .

ثم كتب باللغة العربية ألفها مسيحيون أيضاً أغلبهم من رهبان عاشوا فى أديرتهم فى الأمبراطورية العربية، وهى وإن كانتهم بتاريخ الكنيسة فى الشرق ؛ إلا أنها تفرد بمكاناً للأخبار السياسية ، بحيث أن بعضهم يذكر أخبار كل خليفة . فنذكر البطرك سميذ بن بطريق (القرن الثامن والتاسع) الكلى اختيشيوس

(١) انظر . الترجمة الى الفرنسية : Histoire des guerres et des conquêtes des Arabes en Arménie, par l'éminent Ghevond, vardabed arménien, écrivain du VIII^e siècle, traduite par Garabed V. Chahnazarian et enrichie de notes nombreuses. Paris 1856.

(٢) انظر الترجمة الى الفرنسية ، بعنوان : Chronique de Denys de Tell- Mahré, publiée et traduite par Chabot. Bibl. de l'école des Htes Ets. 112, 4^eme partie. Paris 1895.

(٣) انظر ترجمه الفرنسية : Michel le Syrien : Chronique. ed. et trad. Chabot. Paris 1899 — 1910 4 vol.

(٤) انظر الترجمة الى الفرنسية : Chronique de Jean, évêque de Nikton- Texte Ethiopien publié et traduit par Zoltenberg. Paris 1883.

(٥) ترجمها الى الفرنسية : Le Romencero, introd. : Mathilde Pomès et trad. Paris 1947.

(٦) وقد نشرها Pidal فى مجموعة :

Nueva Biblioteca de Autores Espanoles, t. V. Madrid 1906.

(Entychius) ، اثنى ألف كتاباً سماه « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق »^(١) ، وهو تاريخ طويل ، يبدأ بأدم إلى سنى الهجرة الإسلامية ، وأهميته في أنه يربط ما بين أخبار الروم والعرب ، وساويرس بن القنقع أسقف الأنثونيون (توفي حوالي القرن الماشر الميلادي) ، وله عدة كتب منها « تاريخ الجامع »^(٢) ، وهو يمثل وجهة نظر الكنيسة البيقوية المصرية ، و « سير البيمة القدسة »^(٣) ، وهو عبارة عن تاريخ لطارقة الكنيسة المصرية ، وإن كان يهتم بالتأخية السياسية ، ويقدم معلومات دقيقة ، بحيث يعتبر مصدراً هاماً لتاريخ مصر في المصور الوسطى ، وأغايوس محبوب بن قسطنطين الرومي الننجي (Agabios) ، وهو مسيحي عربي ، عاصر الخلافة العباسية ، وألف كتاباً في التاريخ الكنسي سماه « المتوان »^(٤) ، تعرض فيه لأخبار الدولة العربية ، وكتاباً مؤلف مجهول بعنوان « تاريخ النسلورين »^(٥) ، فيه أخبار عن النسلورين والساسانيين ، والعلاقة بين هؤلاء والنصارى ، ونذكر الشيخ المسكين جرجس بن العميد (١٧٢٣/١٧٢٤) ، اثنى ألف كتاباً سماه « تاريخ العرب »^(٦) ، عبارة عن مختصر لما أورده الطبري ، وهو أول من عرف من مؤرخي الشرق للأوربيين^(٧) ، وأخيراً الأب غريغوريوس أبي الفرج المعروف بابن العبري (١٢٨٦/١٢٨٥) ، وللأوربيين باسم Barhebraeus ، وقد ولد في ملطية ،

(١) استخدم طبعة بيروت ١٩٠٥ — ١٩٠٩ ، في جزئين .

(٢) حققه Leroy في 6 t. Patrologia Orientalis

(٣) حققه وترجمه Evetts في خمس المجموعات (P. O.) الجزء الأول والخامس والماشر . ١٩٠٧ ، ١٩١٠ ، ١٩١٥ .

(٤) تحقيق وترجمة Vasiliev ، جزء أول وثان ، طبعة Paris ، ١٩٠٩ .

(٥) وهو يعرف أيضاً باسم : « Chronique de Séelt » ، نشره وترجمه إلى الفرنسية Scher ، بعنوان : Histoire Nestorienne inédite. Patrologia Orientalis, vol. 13.

(٦) حققه وترجمه إلى اللاتينية Erpenius بعنوان : Historia Saracenica. Lugduni - Batavorum. 1625.

(٧) انظر . Les Penseurs de l'Islam, Paris : Carra de Vaux 1921, 1, p. 83 — 4.

وكان على معرفة باليونانية والسريانية والعربية ، وألف كتاباً في التاريخ سماه « تاريخ مختصر الدول »^(١) ، يتعرض فيه لأحداث الدولة العربية .

وأخيراً يجب ألا تقتصر على المصادر الأصلية لتاريخ الدولة العربية ، ولكن يجب أن نطلع أيضاً على المصادر الحديثة ، التي تعتمد في كتابتها على التحليل والتفسير ، واتباع قواعد التهج الحديث للتاريخ ، وإن كان لابد أن نقول إن المستشرقين كانت لهم اليد الكبرى في توضيح معالمة ، بما نشره من النصوص القديمة ، وبما أنقوه من كتب مبنية على أرض صلبة بمعرفة اللغات العربية واليونانية والسريانية والفارسية ، ويكفي أن نذكر أسماء بعض رواد الشرق العظام مثل :

Sale وNöldeke وGuidi وZotenberg وO'Leary وWeil وGoldziher وMuir وMusil وLammens وCaetani وHuart وChikho وCodera وTor Andrae وBecker وBronnie وWellhausen وLévi-Provençal وCassin de Perceval وVan Vloten وGlaser وCanard وMargoliouth وArnold وWustenfild... الخ .

أما المؤرخون في الشرق فيكفي أن نذكر منهم هذه السلسلة التي زودت المكتبة العربية بكتب قيمة في تاريخ الدولة العربية أو في بعض نواحيها ، مثل : الأتوسي ، وأحمد زكي باشا ، ونهال الجارم ، وفيليب حتى ، وسيد أمير علي ، والعبادي ، وجرجي زيدان ، وكرد علي ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، وقولا زياده ، وبشر فارس ، والشيخ الخضرى ، وشعيمة ، وحسن إبراهيم ، وحسين مؤنس ، وجمال مرور ، وجواد علي .

هذه نظرة عامة تناولت أهم النافع التي يمكن أن ينهل منها الباحث في تاريخ الدولة العربية ؛ تناولت أهم المصادر والكتب والمؤلفين .

(١) سننضم طبعة الأب أعطون سالمان ، بيروت ١٨٩٠ . وهذا الكتاب طبع لأول مرة سنة ١٦٦٣ في مدينة Oxoniae بالعربية واللاتينية على يد Pococke بعنوان « Historia Orientalis » .

الجزء الأول

الفصل الأول

عصر الجاهلية

جغرافية جزيرة العرب — التكافل عند البدو — حياتهم الاجتماعية البدائية —
عقيدتهم الوثنية — وسائل معيشتهم — صناعة الشعر — مواطن الحضر —
حصارة اليمن القديمة — حواضر الحجاز — مملكة النبط — مملكة تدمر —
مملكة الغساسنة — مملكة الحيرة .

لا ريب في أن دراسة العصر السابق على الإسلام ؛ تمكننا من أن نفهم
تاريخ الدولة العربية فهماً صحيحاً ، ونقصد به العصر الذي سماه القرآن^(١) :
« الجاهلية » ، فهذه الكلمة — كما تبدو — لا تؤخذ بمعنى الجهل بقيض العلم^(٢) ،
أو السفه والنقص والأفقة^(٣) ، ولكنها تعني^(٤) — ولا ريب — الحال التي
كانت عليها العرب قبل الإسلام ، أو زمن الفترة التي قبل الإسلام ، وإن لم
يكن من الممكن تحديدها بزمن^(٥) .

(١) انظر . القرآن ٣٣ : ٣٣ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب . يولاي ١٤٠٣ ، ١٣ ، ص ١٣٦ : انظر . Gold :
Muhammedanische Studien erster Theil, Halle 1889. S. 219 — 228
جواد علي ، تاريخ العرب ، ١ ، ص ٧ — ٨ .

(٣) انظر . أحمد أمين ، فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٦٩ .

(٤) لسان ، ١٣ ، ص ١٣٧ — ١٣٨ : انظر . الأوسى ، بلوغ الأرب في معرفة
أحوال العرب ، ١ ، ص ١٥ .

(٥) تبدو الجاهلية في هذه الآية أنها تشمل عدة عصور : (ولا تهرجن تهرج الجاهلية
الاولى ٣٣ : ٣٣) . فليس هذه الجاهلية كانت قبل مولد إبراهيم ، للروف على أنه أبو العرب
انظر الأوسى ، ١ ، ص ١٧ .

والحد كبير يتعلق التاريخ الأول للعرب بطروف بلادهم الجغرافية ،
وهي البلاد التي عرفها القدماء عادة باسم « Arabia ^(١) » ، والسلمون باسم
« جزيرة العرب » ^(٢) ، وتعد قبل الإسلام من بحر القلزم — وهو البحر الأحمر —
إلى الخليج الفارسي ومن اليمن إلى أطراف الشام ^(٣) . فهذه البلاد تتكون في الداخل
من « بادية » ^(٤) تنحدر من جبال مرتفعة ، عبارة عن هضبة وسهاري ونجد ،
ليس فيها أنهار ، ولكن بها بعض الميون أو الآبار ^(٥) التي يجري فيها الماء . وعلى
العكس تتكون أطراف الجزيرة من « الهائم » ^(٦) ، وهي الوديان التي يسقط عليها
المطر ، وبسبب إحاطة البحر بها من ثلاث نواحي ماعدا الشمال ، سميت بلاد العرب
« بالجزيرة » .

ونحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل أصل سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام ،

Natural History. transl. Rackham, London 1949. : Pliny (١)
6 : 32; 159 — 162 (vol. 2, p. 259.)

(٢) المسمى ، صفة جزيرة العرب ، ١ ص ١ و ٧ و ٨ و ٢٩ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ،
تحقيق West ، طبعة Göttingen ، ١٨٥٠ ، ص ٢٨ . يقول ياقوت : إنها تسمى أيضاً
باسم « عربية » ، ومن هناك قيل للعرب عربى . انظر . معجم البلدان ، تحقيق الخالفي ،
القاهرة ١٣٢٣/١٩٠٦ ، ص ١٣٨ .

(٣) انظر - Hogarth - Arabia, Oxford 1922, p. I. : الأوكس ، ١
ص ١١ .

(٤) سميت هكذا لبروزها وظهورها ، وهي من بدا إلى كذا بدأ إذا ظهر . ياقوت ،
معجم البلدان ، ٢ ص ٣٠ .

(٥) اللاتى ، فتح البلدان ، تحقيق de Goeje ، طبعة Leyde ، ١٨٦٦ ، ص ٥٣ .
(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٤٣٦ — ٤٣٨ .

(٧) نرى أن سكان الجزيرة من الجنس السامي ، ويظهر أن تسميتهم « عرباً »
ليست قديمة دليل أن المصريين القدماء لم يذكروا كلمة عرب وإنما قالوا « شاسو »
ويقصدون بذلك الآسيويين أو البدو (انظر - Drioton et Vandier - Les Peuples de ,
l'Orient. Méditerranéen Paris 1946, p. 281. 21. ; 403 .
عند العرب في الجاهلية والإسلام حتى زوال بني أمية ، مصر ١٣٤٢/١٩٢٣ ، ص ٩ — ١٠) .

وعلى العكس ذكرهم الآشوريون والرحالة القدماء بلفظة عرب « Aribi »
أو « Arubu » (انظر . Rawlinson - Cuneiform Inscriptions, 1881-1884 :
Arabia Deserta, New-York, 1727, p. 477 — 9 : vol. 3, pl. 8 : Musil
انظر . Pliny : 6 : 32; 159 ; Op. cit.) ، بصرف النظر عن أن تسمى قومية معينة —

وإنما التمازج الجغرافي بين داخلها وأطرافها ؛ كان سيئاً في وجود نوعين من السكان ، كما يحدث في كل بيئة مماثلة : ففي الداخل وجد البدو أو الأعراب^(١) ، الذين عودتهم حياة البادية بقرىها وجفافها عدم الاستقرار ، فهم إما منفيون يقومون بالنزاة على السهول المجاورة^(٢) ، أو رعاة يمحرون وراء الأمطار النادرة ، والآبار القليلة ؛ أما في أطرافها فقد وجد نوع من السكان الحضر المستقرين ، الذين يقومون بالزراعة أو التجارة^(٣) أو الصناعة^(٤) .

ومنذ القدم وجزيرة العرب تشمل النوعين من السكان : البدو والحضر^(٥) ؛ فالبدوى يرى في الحضري غريسة شرعية في سبيل الحياة^(٦) ، والحضري ينزل البدوى

— أو جنساً مبنياً ، وإنما سكان بلاد العرب . ومن ناحية أخرى ينسب جميع المؤرخين المسلمين الأوائل العرب إلى شخص بينه هو يعرب بن إسماعيل (ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٠ ، ص ١٧ فا بعدها) ؛ كما أنهم يقسمونهم إلى أنواع (ابن حزم ، جبرمة أنساب العرب ، تحقيق وتطبيق Lévi-Provençal ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٨٦ ؛ للمسعودي ، مروج الذهب ، ٣ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ؛ انظر ، Hughes ، A Dictionary of Islam, London : 1885, p. 17 — 20 ؛ طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ص ٨٥) ، مثل : العرب البائدة كعاد وثمود وطسم وجدس ، والعرب الباقية وهم الطارية ويقصد بهم القبطانيين سكان الجنوب أو اليمن ، والمستربة ويقصد بهم الإسماعيلية أو العدنانية سكان العمال أو الجاز ، وهم لم يكونوا يسكنون البرية في الأصل [مع أن سكان اليمن — القبطانيين — هم الذين لم يكونوا يسكنون البرية أصلاً ، وإنما لفة للسند . انظر طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ص ٨٢ — ٨٣] . قلل هنا التقسيم هو تذكّر لظهور خاص بسكان الجزيرة منذ زمن بعيد (انظر - Poljak : Vie de Mahomet, : Lam et Duj. 1938. p. 38 (L'Arabisation de l'Orient. Sémitique. R. E. I. , ١٩٣٨. p. 38) ، أو لعله راجع إلى أنهم كانوا أكثر من جنس . انظر - Op. cit. 6: 32 ; 159 — 162 (vol. 2, p. 459) ؛

(١) الألوسي ، ١ ، ص ١٢ .

(٢) انظر - Pliny : Op. cit. 6: 32 ; 159 — 162 (vol. 2, p. 459) ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٨ .

(٣) انظر - Pliny : Op. cit. 6: 32 ; 162 (vol. 2, p. 461) ؛

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٦ .

(٥) قس . لدينا تسميات أخرى تدل على النوعين ، منها : أهل الورد والدر والحجر والدر . انظر - ابن سعد ، طبقات ، تحقيق Sachau ، ٢/١ ص ٥١ ، ص ٢٢ ؛ لسان ، ٧ ص ١٣٣ ؛ حاجي خليفة ، ١ ص ٢٥ .

(٦) انظر - History of the Wars, Transl. Dewing, : Procopius , 2: 19. 12 (vol 1 p. 421 Les Arabes, : Bertram . انظر - London 1954. 2: 19. 12 (vol 1 p. 421 trad. Muret, Paris 1946, p. 8.)

منزل الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان^(١) ، ولنا كان جيران جزيرة العرب من الشعوب المتقدمة — كاليونان والرومان — يعتبرون سكان الصحارى عمومًا « برابرة »^(٢) أى متوحشين ، ويسمونهم « Saraceni »^(٣) أو « السراقنة » ، وربما كان اشتقاق كلمة « شرقيين »^(٤) من هذه الكلمة الأخيرة .



وكانت حياة البدوى صراعاً دائماً بينه وبين بيئته القاسية ، وإن كان لا يقدر أن يعيش في القفر بمفرده ؛ وإلا كان طعمة لغيره^(٥) ، ولذلك تجمع في وحدات تقوم على أساس صلة الدم ، سميت بأسماء مختلفة^(٦) ، لا نعرف وقت ظهورها ، وإن كانت عادة تدل على أعدادها من حيث الكبر والصاغة ، مثل : جامير ، وشعب ، وقبيلة^(٧) ، ومهارة ، وبلن ، وفخذ ، وعشيرة ، وفصيلة ، ورهط ،

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٦ س ٧٧ .

(٢) انظر . Procopius . Op. cit. 1 : 19 ; 7 — 16 (vol. 1, p. 181) .

(٣) انظر . Ibid 2 : 19 ; 12 (vol. I, p. 421) ؟ انظر أيضاً . Ency. Brit. vol. 19, p. 287 . لهذه الكلمة مغيرات مختلفة ، منها : أنها قد تكون مأخوذة من اسم قبيلة من سكان أعالي الجزيرة على حدود الشام بجانب جبل السراة "Saraka" ، أو على اسم سارة زوجة إبراهيم المعروف بأنه أبو العرب (انظر Gibbon: Op. cit. 5p. 216 ; n (3) ؛ أو أنها قد تكون مشتقة من فعل « سرق » إشارة إلى غارة العرب . انظر جواد على ، تاريخ العرب ، ١ ص ١٧٩ .

(٤) انظر . سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٤ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٢ س ١ — ٢ .

(٦) انظر القافندي ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب ، ١ ص ٣٠٨ فما بعدها ؛ النويري ، نهاية الأرب ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٣ ، ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٦ .

(٧) انظر القرآن (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ٤٩ — ١٣) . الشعب جسمه شعوب وهو أكبر من القبيلة (انظر للقرنيزي ، النزاع والتضام ، حقه G. Vos ، Leiden ، ١٨٨٨ ص ٦٥) ، والقبائل من قبيلة لتقابلها . انظر ابن عبدويه ، القدر الفريد القاهرة ١٩٩٣ ص ٢٤٨ — ٢٥٠ .

ومعشر^(١)، وحى^(٢)، وقوم^(٣)، وإن كان أكثر الوحدات شيوعاً بين البدو هو القبيلة^(٤).

ولكن صلة الدم التي كانت وسيلة الاتحاد والالتحام بين سكان الصحارى؛ لم تنتج نظاماً سياسياً حقيقياً، وإنما نوعاً من التكافل الضئيل^(٥) بين الأفراد بعضهم لبعض، فكل فرد في الجماعة له نفس الحقوق، وعليه نفس الواجبات، ذلك لأن الحياة في الصحراء تخلق المساواة؛ فإن كانت الشعوب تفخر بقوميتها، فإن سكان الصحارى من البدو يحق لهم أن يفخروا بجماعتهم الشخصية^(٦). ولذلك كان العربي لا يهتم بال«الضم»، بحيث أن الشاعر شبه من يقبل الضم بالكلب^(٧)، أو بالحمار وتند الخليفة^(٨).

ومع ذلك كان على البدو أن يخضوا لواحد منهم يرشعونه للرئاسة عليهم،

(١) انظر قول الشاعر:

فداء لقوى كل معبر جازم طريد ومجنول بما جر سلم
انظر الجاحظ، البيان والبيان، القاهرة ١٣١١، ١، ص ٧٣، ص ١٤.

(٢) انظر قول الشاعر:

فلما تنازعتنا الحديث سألتها من المي قالت معبر من محارب
انظر الجاحظ، الجلاء، القاهرة ١٣٧٣، ص ١٨٤.

(٣) الجاحظ، البيان، ١، ص ٧٣، ص ٨ و ١٣.

(٤) الثوري، ٢، ص ٣٨٤ — ٣٨٦.

(٥) ابن خفون، القصة، ص ٩٥، ص ٧٤ — ٢٥.

(٦) انظر - Gibbon : Op. cit. 5, p. 215 : Les Arabes, p. 28.

(٧) انظر قول الشاعر:

إني امرؤ من بني خزاعة لا أبيل شيا ما لم أجد كلبا
انظر البحري، كتاب الحاسة، تحقيق شيخو، بيروت، ص ٢١.

(٨) انظر قول المتنبي:

ولا يقيم على ظل يراقه إلا الأذلان غير السوء والورد
هذا على الحنف مروط برمته وفا يشج فلا يرق له أحد
البحري، ص ٢٠، الثوري، نهاية، ص ٦٤.

تكون مهمته الأصلية الإبقاء على وحدة جماعتهم ، ويممونه لذلك « سيد »^(١) أو « رئيس »^(٢) أو « شيخ »^(٣) أو « أمير »^(٤) ، فكانوا يجتازونه بما وفر في قوسهم نموه من قوة شخصية وتجربة^(٥) ، أو من شجاعته^(٦) في الدفاع عن جماعته ، أو حتى لغناه حين لا يكون أحد آخر أغنى منه^(٧) . ومهما يكن سبب اختياره فإنه كان يجب أن يتصف بصفات منها شيمة « الحلم »^(٨) ، التي تجعله يتكلم بتؤدة ، وهو يسمح على لحيته الطويلة التي أصبحت تدل على سيد العرب^(٩) . كذلك كان « الكرم »^(١٠) ، من أهم الصفات المطلوبة في رئيس الجماعة ، لذلك كانت خيمته

(١) انظر قول الشاعر :

إذا سيد منا خلا لم سيد لأول لمائل الكرام فلول

انظر . أبو عام ، ديوان الحماسة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١ ص ٢٥ ، النوري ، ٣ ص ٢٠٢ .

(٢) ابن هشام ، سيرة رسول الله ، تحقيق Wüst ، ١ ص ١١٧ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠١ ؛ انظر - Jaussen . Coutumes des Arabes au pays de Moab. Paris 1948, p. 127.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، مصر ١٣٤٩ هـ ، ٣ ص ٢٢١ ؛ ٢ ص ٢٦ ؛ انظر . ديوان

فيس بن الحليم ، تحقيق Kowalski ، طبعة Leipzig ، ١٩١٤ ، ص ١٥ ؛ يذكر Goldziher أنه كان يسمى أيضاً « زعيم » .

انظر - Gold : (4) : p. 52 ; 2, Muh. Stud.

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠١ .

(٦) القند ، ٣ ص ١١١ ؛ ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، تحقيق Brockl ، طبعة Berlin ،

١٩٠٠ ، ص ٢٣٣ ؛ انظر قول الشاعر :

ولكنني أحيى جماعها وأتقى أذلما وأرى وماها يتنكب

انظر . الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق هارون ، القاهرة ١٣٠٦ - ١٣٦٦ / ١٩٤٧ - ١٩٤٧

ص ٩٥ .

(٧) القند ، ١ ص ٢١٩ ؛ انظر - Parès . l'Honneur chez les Arabes, avant l'Islam. Etude de Sociologie Paris 1932, p. 136.

(٨) ابن قتيبة ، عيون ، ١ ص ٢٨٢ ؛ انظر Parès : Op. cit. p. 55

قالت العرب « أحلم سيد » . انظر الألويسي ، ١ ص ٩٩ - ١٠٣ .

(٩) انظر - Gibbon : Op. cit. 5, p. 218

(١٠) ابن قتيبة ، عيون ، ٣ ص ٢٣٩ ؛ القند ، ١ ص ١٠٨ ؛ انظر النوري ،

نهاية ، ٣ ص ٢٠٨ ؛ انظر Parès : Op. cit. p. 55 . أشهر من ضرب بهم

للث في الجاهلية في الكرم : حاتم الطائي وكعب بن مرة . النوري ، ٣ ص ٢٠٨ ، انظر .

الألويسي ، ١ ص ٧٢ - ٨٢ .

حرا. ^(١)؛ لتعرف بسهولة، كما يشعل حولها نار ^(٢)، أو توضع في أعلى مكان ليراه من يريدها، أو تربط بجوارها الكلاب ^(٣)؛ خافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه. ومن ناحية أخرى كان العرب يرجعون إلى كبار السن منهم أو من يعرفون « بالحكام » ^(٤)، يحكمونهم في أمورهم.

وقد أوجد صلة الدم عند البدو ما يعرف « بالحسب » ^(٥)، وهو خلال الآباء والأجداد من أهل عشيرته التي جاءت نتيجة طبيعية لثمرة « النسب » ^(٦)؛ فكان العربي يمد في جماعته « العزة »، ويمتد كل غريب عنها « ذليلاً » ^(٧)، ويسميه « اللزيق » ^(٨)، أما من تطرده جماعته وتحرمه من حمايتها فيسمى « الخليع » ^(٩). وقد كان إفراط البدوى في الاعتزاز بحسبه سبباً في وجود مبدأ « المصيبة » ^(١٠)، وهو أن ينصر الفرد في الجماعة ظالماً أو مظلوماً، بحيث إذا وقع سوء لأحد منهم؛ فكلمهم مسئول عن مديد الدولة إليه بحكم عصبيتهم ^(١١). وبما أوجب المصيبة اشتمالاً؛ أن طبيعة البدوى نارية بحكم قسوة البيئة، وأنه يمكن إثارته إلى الحركة

(١) ابن سعد، ١ ص ٤١ س ٨.

(٢) انظر قول الشاعر:

ولأن مسخراً لأتأم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
انظر الجلاء، ص ٢٠٤. وهذه التار تسمى: « نار القرى »، وكلما كانت أضخم وموضعها أرفع، كانت أفسر وهم يتأدحون بها. انظر قول الشاعر أيضاً:

إذا ضل عنهم شيخهم، وفروا له من النار في الظللاء أوبة حرا

انظر التورى، ١ ص ١١٣ ش ١ فابدها.

(٣) الجلاحظ، الحيوان، ١ ص ٣٦٧ و ٣٨٦؛ انظر. الأوسى، ١ ص ٣٧٥.

(٤) البعري، تاريخ، ١ ص ٢٩٩؛ انظر. الأوسى، ١ ص ٣٠٨ فابدها.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠٦.

(٦) نفسه ص ١٠١ س ١٩؛ ١٠٢؛ ١٠٦؛ لسان، ١٣ ص ١٣٨.

(٧) القند، ١ ص ٣٣٨؛ انظر. Farès: L'Honn, p. 145.

(٨) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠٥ س ٣.

(٩) الحيوان، ١ ص ١٦٦؛ انظر. الأوسى، ٣ ص ٢٨.

(١٠) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠١ س ٦؛ ص ١٠٦ س ١٦-١٧؛ انظر.

على مظهر. المصيبة عند العرب، ص ٣٠ فابدها.

(١١) انظر قول الشاعر:

لا يسألون أخام، حين ينسبهم في التاتبات على ما قال برهانا

أبو تمام، الحماسة، ١ ص ٤.

بتداء عاطفى ، أو قصيدة من الشعر الحماسى ، ومن هنا وجدنا بعض المبازات التى تدل على ذلك ، مثل : « الحجة »^(١) و « النمرة »^(٢) و « الظن »^(٣) .

ومظهر الإفراط فى المصيبة الوقائع المستمرة بين البدو ، وهى ما يعرف « بأيام العرب »^(٤) ، حتى أن من كان يناصر بالذهاب إلى غير أرض قبيلته فسكانه ينامر بحياته ، وكان تطاحن البدو يقع أيضاً بسبب النزاع على موارد الماء والكلأ . ولكثرة سيل الدماء جعل البدو أريمة أشهر حُرماً^(٥) ، لا يتقاتلون فيها ، وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، وإن لجىء إلى قصصاتها ، وهو ما يعرف « بالنسيء »^(٦) . كذلك جعلوا لهم أسواقاً^(٧) فى كل أنحاء الجزيرة ، يجتمعون فيها ويأمنون فيها على دملهم وأموالهم ، منها : دومة الجندل وعكاظ والمجاز وعدن وهجر . وأخيراً فإنه وتجد عند البدوى ما يعرف « بحمى

(١) لسان ، ١٨ ص ٢١٦ — ٢١٧ ؛ الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٣٢٤ ، ٤ ص ١ ؛ التورى ، ٣ ص ١٢٧ ص ٢٠ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٦ ص ١٧ .

(٣) لسان ، ١٧ ص ١٤٢ وما يليها .

(٤) الليداني ، جمع الأمثال ، الباب التاسع والمفرد ، ٢ ص ٢٦٠ وما يليها . تذكر من هذه الوقائع — التى يقع عندها على حسب قول « Gibbon » ١٧٠٠ معركة (انظر .

(١) Decline, 5, p. 219 n. — يوم « دلحس والبراء » القى . سمي على اسم حصانين ، وهى كانت بين عبس وذبيان بسبب القراهن على الخيل ، واستمرت أربعين سنة .

(انظر . للمارف ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، طبعة القاهرة ، ١ ص ٣٤٣ . فابدها) ، ويوم « الفجار » القى سمي هكذا بسبب أنه وقع فى الأشهر الحرام ، وكان

بين قرينش وكثافة (انظر . ابن هشام ، ١ ص ١١٧ — ١١٩ ؛ حسن إبراهيم ، الفتوة العربية ، مصر ١٩٤٨ ، ص ٦٠ — ٦٣ ؛ جمال سرور ، قيام الفتوة العربية ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢١) ، ويوم « النسيب » القى كان بين تميم وبكر بسبب تعدى الأولى على

أراضي الثانية المسماة النسيب . انظر . ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٣٦٤ فابدها ؛ الليداني ، ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٥) الفرقان ، ٩ ص ٣٦ .

(٦) نفسه ٩ ص ٣٧ ؛ انظر 16 — 15 ، p. 915 ، 3 ، Ency. de l'Is. (art. Nasr) ؛

يقول الشاعر :

ألسنا الناسخين على معد شهر الخلل ، نجيئها حراماً

انظر . التورى ، نهاية ، ١ ص ١٦٦ .

(٧) البعلقون ، تاريخ ، ١ ص ٣١٣ — ٣١٥ .

الجار»^(١) أو «منع الدمار» ، التي يمنحها الفرد أو الجماعة طوعية إلى من يجاورهم من النجدة والإغاثة وحتى الطعام . ولقد كان من صفات العربي «الوفاء»^(٢) ، فكان يلتقي بوعده أمام نار مشتعلة^(٣) ، أو يدخل يده في جفنة مملوءة بالدم^(٤) أو المطر^(٥) ، دليلاً على تمسكه الشديد به .

ولكن تظهر قدسية المصيبة بخاصة فيما يعرف «بالثأر»^(٦) ، وهو يحدث غالباً نتيجة للحوادث الفردية ، التي كثيراً ما تجر إلى الوقائع بين جماعات البدو . فكان أهل من راد أن يُثار له يمدون أنفسهم مرضى نفسانياً^(٧) ، حتى يدرکوا وترم ، فكانوا يأخذون أنفسهم بطقوس بدوية^(٨) : منها : أن يجزوا شمرهم ، ويقصروا أبوابهم ، ويعتصمون من أكل اللحم^(٩) ، وشرب الخمر^(١٠) ، والاختلاط بالنساء^(١١) . وكانت بعض الخصومات تتوقف نتيجة تمريض على

(١) المقعد ، ١ س ٥١ . انظر . قول السومل بن عاديان :

وما شربنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

انظر . أبو تمام ، الحاسة ، ١ س ٢٣ .

(٢) النوري ، ٣ س ٢٣٩ فما بعدها .

(٣) نفسه ، ١ س ١١١ س ٣ . وهي تسمى : « نار الصايب » .

(٤) ابن هشام ، ١ س ١٢٥ .

(٥) انظر . قول زهير بن أبي سلمى :

تدركنا عبساً وذبيان يهدما تخافوا ودقوا بينهم عطر منعم

انظر . جهمرة ، ١ س ٤٩ س ١ .

(٦) البحتري ، الحاسة ، ٢٨ — ٣١ ؛ انظر . L'Arabie : Lammens

Occidentale avant l'Hégire, Beyrouth 1928, p. 181 — 237.

(٧) انظر . قول الشاعر :

ألم يأتها آلى سموت وأنى شفاني من الداء الحمار شاف

انظر . الملاحظ ، الحيوان ، ٦ س ٤٢٢ .

(٨) انظر . عن هذه الطقوس : Lammens : Parès f Arab. Occid. , p. 185

L'Honn, p. 72 sqq.

(٩) ابن قتبية ، الشعر والشعراء ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١٧ س .

(١٠) انظر . قول قيس بن الخلم :

ومنا القى آلى ثلاثين ليلة عن الخمر حتى زارك بالكتاب

انظر . ديوان ، تحقيق Kowalski ، طبعة Leipzig ؟ ١٩١٤ ، ١٤ س ؛ انظر .

جواد علي ، تاريخ العرب ، ١ س ٣٦٧ .

(١١) الأغاني (طبعة بولاق) ، ٤٠٠ س ١٤٨ .

« فذهبني ما إليك غير بعيد ... لا يؤاخي المتان من في الوثاق »

هيئة « دية »^(١) تمنح لقرىب القتول ، مقدرة بمسد من الإبل ، ولكن قتل القاتل كان أفضل الحلول^(٢) . ومع أن الثأر فيه وحشية ظاهرة ، إلا أنه كان — ولا ريب — بمثابة القانون في البادية القى يحد من فوضى القتل^(٣) .

أما حياة البدوى الاجتماعية في هذه البيئة فهي فطرية ، فالرجل هو كل شىء في أهله ، والمرأة لا تعتبر عضواً فيها فهي تورث كما يورث للآل^(٤) ، وكان الذى يرثها أكبر الأولاد ، فإن لم يكن له فيها حاجة أخذها أحد إخوته^(٥) . وكانت العلاقة بين الرجل والمرأة فطرية في أول الأمر^(٦) ، ولكن قبل ظهور الإسلام أصبح الرجل يقن على نساأهم بموارم^(٧) ، فقد وجدت كلمة « نكاح »^(٨) وفسرت على أنه يقصد بها الزواج ، حيث يقدم لها « مهرأ »^(٩) من الإبل واللال « أى ما يملك »^(١٠) ؛ وهذا — ولا ريب — أقرب إلى الطبيعة الإنسانية ، وأكثر تأييداً لنظام الأسرة ، والرفع من شأن المرأة .

(١) البلاذرى ، فوح ، ص ١٧ ؛ انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ص ٣٦٨ .

(٢) انظر . قول الفاعر .

فخذها (أى الدية) فليست للعزيز بحطة وفيها مبال لأمريء مثقال

انظر . البجرى ، الخامسة ، ص ٢٠٨ .

(٣) انظر . Mahomet (571 — 632), Paris 1948, : Essad Bey

p. 21.

(٤) انظر . القرآن : (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها : ١٩)

(٥) التورى ، نهاية ، ٣ ص ١٢٠ .

(٦) الحيوان ، ١ ص ٢١ — ٢٢ ؛ انظر . Les Arabes, p. 9 : Bertram

(٧) انظر . Les Arabes, p 10. : Bertram

(٨) عيون الأخبار « كتاب النساء » ، ٤ ص ١٨ — ١٩ ، ص ٧٧ ؛ المطوف ،

ص ٢٩٦ .

(٩) التورى ، نهاية ، ٣ ص ١٢٠ .

(١٠) للدائى ، ١ ص ٨٣ . هذه الكلمة معناها ما يملك من جميع الأشياء وهي .

المال الناطق أى البيد والحيوانات ، واللال الصامت أى الثود وهذه الأخيرة لم تكن مرغها البدو .

انظر . لسان ، ٩٤ ص ١٥٨ — ١٥٩ ؛ Ency. de l'Isr. (art Mal) 3, p. 194.

ولم يكن عند البدو تحديد لعدد الزوجات ^(١) ، فكان الرجل يتزوج بأكثر عدد ممكن من النساء ؛ بقصد أنجاب عدد كبير من القادة ^(٢) لمجتمعه التي ينتسب إليها ، لذلك كان المقم غير مرغوب فيه عتدم ؛ كما كان حب البدوى للولد يحبل العربي في بعض الأحيان ينقض عن نسب المولود ^(٣) ، أو قد يدفعه إلى أن يلقى زوجته بين ذراعي غيره لتتال منه الولد ، وكان هذا يسمى : « نكاح الاستبضاع » ^(٤) . وكانت الأم إذا ولدت ذكراً هناها أفراد القبيلة ، وذبحوا التبايح ^(٥) ، ولذلك كان يقال « بالرقاء والبنين » لا البنات ^(٦) ؛ كما كان البدو يسمون أبنائهم بأسماء قاسية ^(٧) ، مثل : حجر وصخر وأسد وليث وضرغامه ومصبب وتأبط شرأوطارق ، لا يتفادله فيه الشدة والصلاة ^(٨) ، أو ينسبونه لأهلهم ، مثل : عبد المزي وعبد مناة وعبد الله ^(٩) ، وكان الأب يسمى باسم ابنه ومن هنا كانت التكنية « بأبي » ^(١٠) . وعلى العكس من ذلك ينفر البدوى من نسل

(١) جبهة ، ص ٣١ س ٦ : انظر . Femmes Arabes avant et : Perron depuis l'Islamisme. Alger 1856, p. 31.

ينقل أن الشاعر لبيد بن ربيعة نكح خمسة امرأة من لسان بني عامر .

(٢) الحيوان ، ١ ص ١٠٨ :

(٣) حقه ، ١ ص ١٠٨ — ١٠٩ .

(٤) لسان ، ٩ ص ٣٦١ : انظر . Histoire des Arabes, Paris : Huart . 1912, I, p. 18.

(٥) البضلاء ، ص ١٨٠ : انظر . Coutumes des : Jausen et Savignac . Fuqara, suppl au vol 2 de la Miss. Arch. en Arabie, Paris 1920, p. 14 sq.

(٦) الميداني ، ١ ص ٦٦ .

(٧) الحيوان ، ١ ص ٣٢٤ . فاجدها . نذكر بهذه المناسبة أن أسماء القبائل كان يشتق في الغالب من اسم حيوان أو نبات أو كوكب (حقه ، ١ ص ٣١٣ فاجدها) . فمثل ذلك يرجع إلى الاعتقاد بأن للاسم صلة زوجية أو قومية ، وهو ما يعرف حديثاً بكلمة في لغة المنود البحر تعرف « بالاطولية » "Totem" وتسميها غامض قد يعني دور الأمومة أو القرب التي تسلسلت عنه . انظر جواد علي ، تاريخ العرب ، ٦ ص ٣٣٦ ؛ دراز ، الدين ، ص ١٤٤ — ١٤٥ ؛

Hist. des Religions 11eme ed, Paris s. d, p. 28 — 32 : Saurat.

(٨) الحيوان ، ١ ص ٣٢٤ ؛ ١٢ ص ٣٢٦ .

(٩) انظر . الألوحي ، ٣ ص ١٩٥ .

(١٠) حقه ، ٣ ص ١٩٦ .

الإناث^(١) خوف المار ، أو أن يسبين في الحروب^(٢) ، أو خشية الاملاق^(٣) ؛ ولذا ظهرت عادة وأد^(٤) البنات سفاراً .

ومم أن المرأة لا أهمية لها في هذه البيئة البدوية ، إلا أن « عرض »^(٥) العربي كان أم شيء عنده ، فهي « القمار »^(٦) الذي يحميه الرجل ، وكلمة « عرض » عند البدو تسكافاً مع كلمة « شرف »^(٧) أو « حسب » ، وذلك راجع إلى قدسية رابطة الدم ؛ التي هي أساس كيان العربي وسبب الاتحاد والاتحام . فكانت المرأة التي ينتهك عرضها تُقتل^(٨) — وإن كانت تعتبر في نظر العربي فريسة لضمفها^(٩) — كما قد كان يقتل السارق للعرض وهو يسمى « ذئب »^(١٠) ، أو تسرق غنمه وتقتل دابته وتُهَب خيمته^(١١) ، ولا يستقر العرض حتى يسترد الشرف كاملاً . هذه النقطة الحساسة في تكوين طبيعة البدوي العربي جعلتها مجالاً لهجوم أعدائه ، فكان شرف البدوي أن يتقاصر أهداؤه عن

(١) القرآن ١٦ : ٥٩ .

(٢) التورى ، ٣ ص ١٢٦ .

(٣) القرآن ١٧ : ٣١ .

(٤) قصه ٨١ : ٨ — ٩ .

(٥) انظر . قول الشاعر :

إذا المرء لم يدنس من الأؤم عرضه فكل رداه يرتديه جميل

انظر : أبو تمام ، المجمل ، ١ ص ٢٣ .

(٦) لسان ، ١٨ ص ٢٢٠ ، ٢١٨ .

(٧) قصه ، ٩ ص ٣٢ — ٣٣ ؟ انظر . Farès . L'Honn p. 34 .

(٨) التورى ، ٣ ص ١٣١ ؟ انظر . Coutumes des Arabes au. : Jaussen .

(٩) L'Honn, p. 77 : Farès ؟ pays de Moab, Paris 1948, p. 38

(١٠) الأغاني (طبعة بولاق) ، ١٦ ص ١٦٤ ؟ انظر . Femmes : Perron .

Arabes p. 151.

(١١) لسان ، ١٤ ص ٣٦٤ .

(١٢) انظر . l'Honn, p. 78 : Farès ؟ Moab, p. 37 : Jaussen .

امرأته^(١)؛ بحيث أن الشعراء كانوا يشترون بالمال حتى لا ينالوا من العرض^(٢).

أما عقيدة البدوى العربي فهي أيضاً بدائية : فالبدوى لا يهتم بالدين ؛ لأن حياته القاسية في الصحراء لا تتفق مع الحياة الروحية ، والدليل على عدم اهتمامه بالدين أن الشعر الذي تركه لنا في المملكات لا نجد فيه أى أثر للدين ، كما أننا لم نسمع من حدوث حروب بين القبائل وبعضها يسبب الدين ، مع كثرة هذه الحروب. ولكن الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان أنه ليست هناك أى جماعة انسانية ظهرت دون أن تفكر بالفرزة في الدين^(٣) ، لتعمل مصير الإنسان ، وتقلب ظواهر الكون ، وكذلك كان - ولا ريب - للعرب دين مثل غيرهم .

والواقع أن البدوى كان يميل إلى عبادة الحجارة^(٤) ، أما أسباب هذا الميل فتعير معروفة ، ولعل أصلها عبادة سامية تتلام مع نزاجه البدائي ، أو لعلها في نظره مهيطة قوة غيبية ، أو رمز لمرغاض مبهم يستوجب التقديس . هذه العبادة الحجرية كانت أولاً في الحجارة التي ليس لها صورة معينة وتسمى : «أنصاب»

(١) انظر . قول الفاعر :

فلذهب فانت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل.

التويرى ، ٣ ص ٢٧٦ .

(٢) الأغاني في (طبعة دار الكتب) ، ٢ ص ١٨٩ ؛ انظر . Farès : l'Honn ,

p. 37 . فثلاً اشترى عمر بن الخطاب من الفاعر الحليقة أعراض المسلمين جميعهم بثلاثة آلاف درهم . انظر الأغاني .

(٣) انظر . Bergson : Les Deux Sources de la Morale et de la Religion , Paris 1932 , p. 106

دراز ، الدين ، ص ٣١ ، ٧٥ — ٧٦ ؛ الجارم ، أديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ١٩٤١/١٩٢٣ ، ص ٤ .

(٤) الكلبي ، الأصنام ، تحقيق زكى باشا ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ٦ ص ٥ فا بعدما ؛

انظر . Huart : Hist. des Arabes , p. 28 .

أو « نصب »^(١) ، ولعلها سميت كذلك لأنها أحجار واقفة أو منصوبة^(٢) . فكان العربي يبعد سخرة^(٣) ، أو حجراً ، أو نحلة^(٤) ، أو ما يستحسنه من الحجارة أو يمجبه^(٥) . وقبل ظهور الإسلام ظهرت عبادة « الأصنام »^(٦) و « الأوثان »^(٧) ، وهي ما يكون على صورة التماثيل^(٨) ، وذكر هيرودت^(٩) أن بعضها برز إلى آلهة يونانية . فلعل هذه العبادة جاءت من الشام^(١٠) ، أو أنها أخذت من بني إسرائيل الذين كانوا يعبدون الأصنام من وقت لآخر^(١١) . فكان لكل جماعة بدوية سم أو وثن ، مثل : « يعوق »^(١٢) ، و « المزى »^(١٣) ، و « ينفوث »^(١٤)

(١) الأصنام ، ص ١٦ س ١٢ ؛ ص ٣٣ س ٤٢ ؛ ٤٩ .

(٢) انظر . Hist. des Arabes, p. 28: Huart . يقول جولد زهير إن عبادة الأصنام في أصلها قد ترجع إلى عقيدة الموتى عند العرب . انظر Gold Culte des : Ancêtres et le Culte des morts, Paris 1885, p. 5 sqq.

(٣) الأصنام ، ص ٣٧ ؛ انظر - L'Honn, p. 174 : Farès .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٢٢ . انظر قول الفاهر :

أكلت حنيفة رجباً زمن النعم والمجاعة .

انظر . ابن قتيبة ، الطارق ، ص ٢٩٩ .

(٥) ابن هشام ، ١ ص ٥١ .

(٦) الأصنام ، ص ٨ س ١٠ ؛ ص ٣٣ س ٧ . وهي تكون على صورة إنسان من خشب

أو ذهب أو فضة . قسه ، ص ٥٣ س ١١٥ .

(٧) قسه ، ص ٨ س ١ ؛ ٣٣ ؛ ٧ س ٥٣ ؛ ١٢ . وهي تكون من حجر . قسه ،

ص ٥٣ س ١٢ .

(٨) قسه ، ص ٢٣ س ٧ .

(٩) انظر . Herodotus with an english translation by Godfrey Book 2 : 8 (Vol. 2 p. 11).

(١٠) الأصنام ، ص ٨ س ٩ ؛ الطقوس ، ١ ص ٢٩٥ س ٧ .

(١١) سعيد بن بطريق (المكنى أتيثيوس) ، كتاب التواريخ المجمع على التصديق

والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ - ١٩٠٩ ، ص ٦٩ .

(١٢) الأصنام ، ص ١٠ س ٨ . كانت تمثله همدان في اليمن . ابن هشام ، ١ ص ٥٢ .

(١٣) القرآن : ٥٣ ؛ الأصنام ، ص ١٧ - ١٨ . كانت تصب في الحجاز . ابن هشام ،

ص ٥٥ .

(١٤) الأصنام ، ص ١٠ س ٤ . وكانت تصبها على ومنجج بموار الطاقب . ابن هشام

ص ٥٢ .

و « اللات »^(١) التي يسميها هيردوت Alilat^(٢) — وتنبه بأفروديت اليونانية — و « ود »^(٣) و « مناة »^(٤). وقد كان مظهر عبادة هذه الآلهة أن يقيم البدوي لها ييوتا تعرف « بيوت الأصنام »^(٥) في الأودية ، وفي ظلال الشجر^(٦) ، وقد يقيم لها سدنة^(٧) وحجاباً ، أو ينحدر عنها^(٨) ويدور بها^(٩). كذلك وجدت عند العرب بقايا ديانة قديمة عرفت « بدين إبراهيم »^(١٠) ، مؤداها عبادة الله^(١١) — رب إبراهيم — وهي التي جاء الإسلام ليحييها ، والحج إلى بناء مقدس في مكة ؟ يضمنون فيه آلهتهم^(١٢) ، يعرف « بالكعبة » ، وهذا يدل على أن عبادة الله لم تكن حديثة ، فهي أقدم ديانة ظهرت في البشر^(١٣). كما عرفوا بعض الأديان السماوية^(١٤) ، لجاورتهم لأهل الملل ، والانتقال إلى البلاد والاتجاهات ،

(١) القرآن ٥٣ : ١٩ . وهي عبارة عن صخرة مربعة كان اليهود يطحنون غلالهم عندها ، وهي تسمى « إربة » أي السيدة .

ابن هشام ، ١ ص ٥٥ : انظر . بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه فارسي والجبكي ، بيروت ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، ١ ص ٢٧ .

(٢) انظر . Herodotus 3 : 8 (Vol 2, p. 11)

(٣) الأصنام ، ص ١٠ ص ٣ . نبيه قضاة في دومة الجندل . ابن هشام ، ١ ص ٢ : ٤ انظر . جواد علي ، تاريخ العرب ، ٢ ص ٣١٥ .

(٤) القرآن ٥٣ : ٢٠ وهي إحدى الهات يثرب .

(٥) ابن قتيبة ، للميسر والفساح ، تحقيق عبد الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٤١ ص ٤ . وكانت تسمى أيضا « طواغيت » . ابن هشام ، ١ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٦) نفسه ، ١ ص ٥٥ .

(٧) وهي تسمى خدمة مكان مقدس مثل المابد أو المساجد انظر . Supplément Dozy aux Dictionnaires Arabes, 2ed, Paris 1927 I, p. 642 — 643.

(٨) ابن هشام ، ١ ص ١٤٣ : الأصنام ، ص ٤٢ ص ٢ — ٣ : ١٩ .

(٩) ابن هشام ، ١ ص ١٤٣ .

(١٠) اليعقوبي ، ١ ص ٢٩٤ ص ١٦ .

(١١) انظر . Ency de l' Isl. (art Allah) I p. 304 sqq انظر . قول

زهير بن أبي مسلم :

فلا تكتمن الله ما في قوسكم ليخفى ومهما يصكم الله يعلم

انظر جبره ، ص ٤٩ ص ١٩ .

(١٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٦ .

(١٣) انظر . دواز ، الدين ، ص ١٠٢ : Hist. des Relig, p. 41 : Saurat

(١٤) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٤ : ٢٩٨ .

كاليهودية والنصرانية . ولكن البدو في معظمهم لم يكونوا يهتمون بالأديان السماوية أو بالإله البعيد ، فالصنم عندهم أقرب من الله ، هذا فضلاً عن عدم وضوح فكرة الله ، فالبعض يعتقد أن اللائكة هي بنات الله^(١) . من هذا نرى أن عقيدة العربي كانت وثنية مفرقة في الوثنية .

كذلك كان تصور البدوى للروح تصوراً غريباً : فهو يظن أنها تسكن الوديان والأحجار والأشجار^(٢) ، ومعظم البدو لا يؤمنون بخلود الروح^(٣) ، أو أن بشراً كائناً بعد الموت^(٤) ؛ فعجد بعض الشعراء يشبه الناس بالنبات الذي يجف^(٥) ، أو بالمصافير والديان والدينان^(٦) ، وإن لم يمنع هذا من وجود عقيدة احترام الموت عند البدو ، وهو ما يعرف « بالنبي »^(٧) ؛ فكان الميت يكفن ويدفن في « قبر » أو « لحد » وتنوح عليه النائمات^(٨) . لذلك ترك البدوى عقيدته على فطرتها ضعيفة تقبل الانحرافات ، فكان يطلب الثأل الحسن : بزجر^(٩) الطير أو بأى شيء آخر^(١٠) ، وبالميسر^(١١) وضرب القداح^(١٢) ، وبالإستقسام

(١) القرآن ١٧ : ٤٠ ، ٥٣ : ٢١ .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٣٠ ؛ Bertram : Les Arabes , p.9 .

(٣) القرآن ٤٥ : ٥٤ . (٤) نكه ٢٣ : ٨٤ .

(٥) الشعر والشعراء ، ص ٣٥ .

(٦) انظر . قول امرئ القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب ويسهر بالطعام وبالمراب

عصافير وديان ودود وأجراً من مجلبة القباب

انظر . شعراء النصرانية ، جمة شيخو ، بيروت ١٨٩٠ ، ١ ص ٣٦ ؛ Farès :

L'Honn , p. 167 .

(٧) انظر . Gold : Culte des Ancêtres , p. 15 ; 22 . الجارم ،

أديان العرب في الجمالية ، ص ٨٦ فابدها .

(٨) انظر . Rehatssek : Some Beliefs and Usages, among the

Pre-Islamic Arabs. Bombay 1876, p. 164-168.

(يتمد على نصوص شعرية ذكرها في كتابه)

(٩) الحيوان ، ١ ص ٣٢٤ ؛ ٣ ص ٤٣٨ . الزجر هو الثأل ، وأغلب ما يكون بفراب

إذا طار عن يسار البدوى فهو مدرك حنجه ، وإذا صب امامه أو فوقه فيها تأخير . الثورى ،

٣ ص ١٣٤ فابدها ؛ ١٤٢ . (١٠) انظر . المرجع السابق .

(١١) نكه المرجع ، ٣ ص ١١٨ ؛ ابن قتيبة ، الميسر والقداح ، ص ٣٢ ؛ ٣٥

ص ٣-٤ . الميسر هو القفارة وتكون عادة بالزور . (١٢) الضرب بالقداح التقدير بالنبل

والسهام والرد . انظر الميسر والقداح ، ص ٣٢ و٣٥ و٤١ و٥٦ و٨٨ و١٠٦ و١٣٢ :

بالأزلام^(١) وهى القداح ، وتكون عادة عند الأنصاب أو بيوت الأصنام^(٢) ، وبالطيرة إذا مرت يارحة أو ساحة^(٣) ، والسيافة^(٤) وهى الاستدلال بأعضاء الأشخاص ؛ فلا يكون له فى سفر أو مقام أو نكاح أو معرفة قرار إلا بالرجوع إلى هذه الأشياء^(٥) ، حيث أن مثل هذه الاعتقادات توجد عند كثير من الشعوب الفطرية^(٦) . وكان العرب يفزعون على الأخص إلى «الكهان» أو «الكاهنات» أو «العراف»^(٧) ، لمعرفة ما سيقع لهم ؛ فالكهنة — وهم أشبه برجال الدين — كانوا يزعمون أن لهم أتباعاً من الشياطين أو الجن^(٨) ، تسترق السمع فى السماء وتنفق لهم أسرار الكون ؛ بحيث كان لكل جماعة بدوية هامة عراف^(٩) .

أما وسائل معيشة العرب البدويين ، فإنها تنفق وطبيعة البادية ، فكانوا يعملون فى حياتهم على رعى الإبل والأغنام ، والانتقال بها وراء الكلا والماء^(١٠) ،

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ س ٣٠٠ س ٨ و ١٥ . الاستقسام استعمال من القسم وهو طلب النصيب ، والأزلام واحداً زلم وهى تنق السهام . انظر . للميسر والقنابح ، س ٣٨ — ٣٩ : التورى ، ٣ س ١١٧ — ١١٨ .

(٢) للميسر والقنابح ، س ٤١ س ٤ .

(٣) التورى ، ٣ س ١٤٤ فأ بعدها ؛ الميوان ، ٣ س ٤٥٧ .

(٤) الميوان ، ٤ س ٣٧٠ . انظر . جرجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة ، الطبعة الثانية .

١٩٢٤ ، ١ س ١٨٥ .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ س ٣٠٠ .

(٦) انظر . Hist. des Relig., p. 22-23. : Saurat

(٧) ابن هشام ، ١ س ٩٢ و ٩٨ ؛ التورى ، ٣ س ١٢٨ فأ بعدها ؛ ابن خلدون ،

الفتنة ، س ٨٦ .

(٨) جهرة ، س ٢٠ س ٨ فأ بعدها ؛ ابن هشام ، ١ س ١٣٠ ؛ انظر .

Survivances paiennes dans la civilisation Mahometane, : Westernmarck

trad. fr ; Paris 1935, p. 11 — 12 ; p. 30 . يذكر القرآن بأنه لا تخارب محم

الرسول حجب الشياطين عن السمع ورووا بالنجوم (انظر : القرآن ٩: ٧٢) ، بل وأسلم بعضها

(نفسه ٧٢ : ١) .

(٩) ابن خلدون ، الفتنة ، س ٨٦ س ٢٥ .

(١٠) الجلاء ، س ١٩٢ .

والاستكانة بالنهار والسير بالليل على هدى النجوم ؛ التي كانوا يراقبونها ، ويطلقون عليها أسماء مختلفة منذ الزمن البعيد^(١) .

وقد كانت الإبل^(٢) — ولونها كلون الصحراء — هي الحيوان المميز الذي اتخذه الإنسان في مثل هذه البيئة^(٣) ، قياً كل لحمه ويشرب لبنه ، ويصنع من شعره مسكنه وأثاثه ومتاعه^(٤) ، وملابسه التي كانت تتكون من العمامة^(٥) خاصة . كذلك كانت العرب تستخدم الجياد التي يقال إن أصلها في بلاد العرب^(٦) .

وقد كان أكل العربي زهيداً يقتاسب مع بيئته مثل التمر والبن^(٧) ، ومن كان غنياً منهم يستخرج الخمر المصنوع من التمر^(٨) . ولكن الجاهلية وانقطاع الطرق كانت تهدد العربي وأسرته في كل وقت ، بحيث أنها كانت تدفعه أحياناً إلى أكل لحمة قرون الخراف وأغلافها^(٩) ، أو أن يفتح عرقاً في جبل ليشرّب دمه^(١٠) ، وأحياناً أخرى إذا زاد به الجوع ربط حجراً على بطنه^(١١) . وكان بعض الأعراب يذبحون الكلاب كقبيلة أسد^(١٢) ، أو يأكلون لحوم الناس كقبيلة هذيل^(١٣) ، أو يأكلون

(١) انظر . ليني ، علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، روما ١٩١١ ، (بالعربية) ص ١٠٧ فإبعدها .

(٢) الإبل جمع لا واحده ، والذكر منها جبل والأثني ناقة انظر . النوري ، ١٠ ، ص ١٠٣ .

(٣) انظر . Herodotus. 7 : 86 (vol 3, p. 393)

(٤) القرآن ١٦ : ٨٠ .

(٥) انظر . Pliny : 6 : 32 ; 162 (vol. 2, p. 459)

(٦) انظر . Gibbon : 5, p. 211

(٧) البخله ، ص ١٩٤ س ٥ انظر . Farès : l'Honn, p. 106

(٨) انظر . Pliny : 6 : 32 ; 159 — 162 (vol 2, p. 459) N. H. 6 : 32 ; 159 في النوري ،

ص ٧٦ — ٧٧ : ٨٨

(٩) البخله ، ص ١٨٣ : انظر . Farès : l'Honn, p. 107

(١٠) هـ ، ص ١٨٢ — ١٨٣ : انظر . هـ (I d.)

(١١) هـ ، ص ١٨٥ س ١٠ : انظر . (I d.)

(١٢) هـ ، ص ١٩٧ س ٧ فإبعدها : انظر . Ibid, p. 99 n. (8)

انظر قول الشاعر :

إننا أسدى جاع يوماً بيلدة وكان سميّاً كلبه فهو آكله

انظر . الحيوان ، ١ ص ٢٦٧ .

(١٣) هـ ، ١ ص ٢٦٨ : البخله ، ص ١٩٨ س ٥ .

الجراد كقبيلة على^(١)؛ كما أن بعض الأعراب كانوا يأكلون الحيات والعقارب والجمالان والخنافس^(٢)، أو حتى القمل^(٣).

والواقع أن حياة البدوى شاقة، فهو لا يعرف الراحة أو غيرها من الحرف؛ لأنها لا تتناسب مع طبيعته في التنقل والإرتحال، وإن كان أحياناً يمشى على حماية التجارة التي تمر بصحرائه؛ لتذهب إلى الشمال أو الجنوب، أو يقوم بالدلالة لهذه القبائل «التفويض»^(٤)؛ كما أن حياة الصحراء الشاقة كثيراً ما تدفعه إلى النزوة و«الفارة»^(٥) على الوديان، أو الاعتداء على القوافل، بحيث يقول ابن خلدون إن العرب جعلوا أرزاقهم في البادية في أطراف رماحهم، ومعايشهم فيها بأيدي غيرهم^(٦)؛ فحطت البادية يفسر — بلا شك — وجود فئة كبيرة من البدو الفقراء أو «الصماليك»^(٧)

ولعل الشعر هو المظهر الحضارى البارز عند البدو من العرب، ولذا كان يحتل مكانة خاصة في حياتهم^(٨)، و«شعر»^(٩) معناها علم أو عرف. فكان الشاعر

(١) الليداني، ١، ص ١٤٩.

(٢) الحيوان، ٣، ص ٢٥٦، ٥ — Pliny ٤ : 161 — 159 : N. H. 6 : 32 ; (vol 2, p. 459).

(٣) البخله، ص ١٨٣.

(٤) عيون الأخبار، ١، ص ١٤٢، فاجدها؛ انظر. الأبروس، ٣، ص ٣٤٤؛

l'Honn, p. 105 : Farès

(٥) انظر. الاصطغري، مساكن المالك (طبعة De Geoe) ص ١٤، ص ٤٧ Pliny : N. H. 6 : 32 ; 162 (vol 2, p. 459).

(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١٤، ١٣ — ١٤.

(٧) لسان، ١٢، ص ٣٤٢. وكأولاً يسمون ذؤبان أيضاً. قس، ١، ص ٣٦٤؛

١٢، ص ٣٤٢.

(٨) الحيوان، ١، ص ٧٤.

(٩) اليفقوى، تاريخ، ١، ص ٣٠٤، فاجدها.

(١٠) لسان، ٦، ص ٧٧؛ انظر. جرجى زبلان، آداب اللغة، ١، ص ٥١. — ٥٢

تطورت في معناها، قس، تنى الكلام اللغنى.

هو أعلم^(٦) من في الجماعة البدوية ، والمعبّر عن أعرافها وأوطانها وحلى أعراسها ، وهو الذى ينقل أخبارها في كل مكان^(٧) . ويظهر أن الشعر قديم في بادية العرب ، وإن كان مصدره للبدو غير واضح فهم يقولون إنه من الجن^(٨) ؛ وإن كان — ولا ريب — يرجع سبب ظهوره إلى لغتهم التي تكثر مترادفات^(٩) ، أولبيتهم التي تجعل الفرد يحمل بالبطولة . أو لتوافقه مع مزاجه والحياة المطرودة فيها^(١٠) ، أو لارتباطه بالسكّانة^(١١) منذ نشأته ؛ لا احتياج الكهان إلى القول السجّوع .

وكانوا إذا نبغ شاعر في القبيلة احتفل أفرادها به^(١٢) ، وتناقلوا أخباره ، وتباهوا به على القبائل الأخرى^(١٣) ؛ وقد يعلقون شِعره بأركان السكّبة^(١٤) — المكان المقدس بمكة — وتكتب قصائده بماء الذهب . كذلك كانت العرب تحضر « غول »^(١٥) شعرائها في الأسواق التي تقام لهم في أماكن معينة ، ومواعيد معروفة ، للمنافرة أو المفاخرة ، وللتراجز والتناجز . فإذا لم يتوفر وجود شاعر ظهرت « الشاعرات »^(١٦) ، أو « الخطباء »^(١٧) وهؤلاء يستخدمون النثر .

(١) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٣٠٤ .

(٢) انظر . قول الشاعر :

وإذا قطع ذلكم لم تتركوا أحداً يذب لكم عن الأحباب
أبو تمام ، الحماسة ، ١ ص ١٢٠ .

(٣) جهمرة ، ص ١٨ ص ٣٠ .

(٤) انظر . جوجي ، آداب اللغة ، ١ ص ٥٧ ف ٦٠ .

(٥) انظر . Thourmin . Hist. de Sy. 2ed Paris 1929 p. 165 .

(٦) انظر بروكلمان ، تاريخ الصوب ، ١ ص ٣٠ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ٤٨١ ف البيهقي ، الزهر ، بولاق ، ١٢٨٢ ، ٢ ص ٢٣٦ .

(٨) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٣٠٤ . انظر . Farès . l'Honn , p: 51 .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٨١ .

(١٠) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٣١٢ ف الشعر والشعراء ، ص ٢٥ .

(١١) انظر . البلاذري ، فتوح ، ص ٤١ ف انظر . Femmes Arabes , Perron . p. 216 sq.

(١٢) ابن هشام ، ٢ ص ٩٣٤ ص ١٩ ف انظر . Ency. de l'Isi , t2 .

La litt. Arab , p, 65 — 66. : Nallino ف p. 979 — 980 .

وقد عرف البدوي الشعر رجزه وهزجه وقرينه ومقبوضه ومبسوطه^(١) ،
 مما يدل على أن شعر البدو تطور منذ زمن بعيد^(٢) ، وأنهم يملكونه كأساتيد .
 وقد كانت قصائد البدو في معظمها تبدأ باللوحة والبكاء على الديار واليمن والآثار ؛
 شوقاً إلى أهلها الظاعنين عنها^(٣) ؛ وإن لم يكن الحب الجنسي من سمات شعر البدو^(٤) .
 بعد ذلك ينتقل الشاعر إلى وصف ناقته أو فرسه^(٥) ، وقد يتكلم عن جمال الطبيعة
 فيذكر الآبار والمياه والمراعي والنار التي مر بها ؛ وهو الذي عرف سر جمال باديته
 وحرارة حيواناتها^(٦) من إبل وخيل وحمير ونعام وظباء وقطأخيله^(٧) . وأخيراً يمرض
 الشاعر إلى موضوع قصيدته حسب مزاج شاعريته ، وهو يشمل الأبواب التالية :
 الحماسة والنشيب والفخر والمجاء والمدح^(٨) والناثرة^(٩) على الخصوص ، وهي
 موضوعات تعبر عن طبيعة البدو . كذلك كان الرثاء^(١٠) من مواضيع شعرهم ، الذي
 نبغوا فيه نبوغهم في المدح والمجاء .



(١) ابن هشام ، ١ ص ١٧١ .

(٢) جهمرة ، ص ١١ .

(٣) انظر قول امرئ القيس :

فما بك من ذكرى حبيب ومثل بساط اللوى بين الخول غومل
 نفسه ، ص ١٩ ص ١٢ الشعر والشعراء ، ص ١٧ .

(٤) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ٣١ .

(٥) انظر قول امرئ القيس :

مكر نفر مقبل مدبر ممأ كجلمود صخر حله السيل من عل
 الشعر والشعراء ، ص ١٩ .

(٦) انظر ما قبل في الليل . التوري ، ١٠ ص ٤٨ فما بعدها . انظر . قول الشاعر :

له صدر طاووس وفخذ نامة ووثبة نمر والثقات غزال
 انظر . التوري ، ١٠ ص ٥١ .

(٧) انظر . ابن قتيبة ، للمسر والقداح ، ص ٣١ ص ٥ .

(٨) جرجي زيدان ، تاريخ الفنة ، ١ ص ٨٣ .

(٩) هي الناضرة أو المقابلة لسان ، ٧ ص ٨٤ جواد علي ، تاريخ العرب ، ١ ص ٣٤٩ — ٣٥١ .

(١٠) ابن خلدون ، للقبعة ، ص ٤٧٠ .

هذه صورة حياة العرب داخل الجزيرة ، وهي كما عرضنا لها حياة فطرية ، وعلى
المعكس فإن حياة العرب فى أطراف الجزيرة كانت حضرية ، جاءت وليدة سقوط
الأمطار فى الوديان « التهامم »^(١) ، لأن البحر مطيف بها ، مما يقبى الزرع وخاصة :
البخور والقوابل والمنبر والمرو واللبان^(٢) والزيتون والفاكهة والنخيل . ولكنها
على الخصوص وليدة اشتغال سكانها بالتجارة^(٣) ، حيث كانت تجارة الهند
والصين — وهى التى أصبحت معروفة بفضىل ما قام به المصريون والفرس
واليونان والرومان^(٤) من استكشافات فى البحر الأحمر والمحيط الهندى — تمر
بالضرورة فى الجزيرة العربية لتصل إلى ممالك البحر الأبيض ، بسبب موقعها
الجغرافى المتوسط بين العالم المتحضر وتحتد ، وبسبب أن طريق البحر الأحمر —
الذى كان يعرف أيضا ببحر العرب^(٥) — كان محفوظا بالفاطر^(٦) بالنسبة
لمراكب ذلك الزمن لإمتلائه بالجزائر الخطرة على الملاحة^(٧) ، أما طريق الخليج
الفارسمى فقد كان يموقه وجود الفرس^(٨) أعداء دول البحر الأبيض .
ومع ذلك ؛ فإن الطريق البرى كان أيضا غير آمن ، وعرضة لفاة البدو

(١) انظر . قبله . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ من ٥٢٢ . للقعود بالتهام الأرض المنخفضة .

الحقى ، شرح السيرة النبوية ، ١ ص ٨ .

(٢) Theophrastus : N. H. 12: 30: 53 (vol 4, p. 37) : Pliny
Enquiry into Plants transl. Hort London 1948, 9: 4; 6 (vol 2
p. 237; 239).

(٣) انظر . Pliny : N. H. 6: 32; 162 (vol 2, p. 459 — 461).

(٤) انظر . The Geography. transl. L. Horace Jones : Strabo
London 1949, 2: 5, 12 (Books 1 — 2, P. 455)
والصينية The Commerce between the Roman Empire : Warmington
Histoire de la : Grousset and India Cambridge 1928, pp. 43 — 47.
Chine Paris 1947, p. 94. جواد على ، تاريخ العرب ، ٢ من ٣٧٢ .

(٥) انظر . Herodotus 6: 42 (vol 2, P. 239).

(٦) انظر . Diodorus of Sicily transl. Oldfather London, 1953
3: 43; 5 (vol 2, P. 215).

(٧) انظر . La Mer Rouge Introd. P. 5: Kammerer

(٨) انظر . La Mecque à la veille de l'Hégire : Lammens
Beyrouth 1924 P. 12; 108.

الساكين داخل الجزيرة^(١)، إلا أنه كان يفضل طريق البحر، فكانت القوافل تسير في الجزيرة العربية بحراسة شديدة، ولا تسير إلا ليلاً. وقد كان لهذه القوافل ثلاثة مسالك معروفة لتتفادى صحارى الجزيرة الواسعة، وبخاصة منطقة الرمال الحمراء في الربع الخالي: الأول جنوب الجزيرة يسير بحذاء المحيط الهندي والمحيط الفارسي، والثاني بطول الجزيرة يسير بحذاء البحر الأحمر غتقراً اليمن نحو الحجاز حتى بادية الشام، ومنها قد تتجه التجارة إلى مصر عن طريق سيناء، أو تتجه في بادية الشام نحو دمشق والقسطنطينية^(٢)، أو حتى روما وقارس^(٣)، أو بلاد اليونان التي كانت تحملها إليها مراكب فينيقية^(٤)، والثالث يسير في وسط الجزيرة، ويربط ما بين الحجاز والمحيط الفارسي^(٥) عن طريق هضبة نجد، وهو الطريق الذي استخدمه حجاج الرقاق المسلمون فيما بعد.

وقد كان الاشتغال بالزراعة والتجارة في أطراف الجزيرة العربية سبباً في انماش سكان هذه الوديان، مما حث ظهور بيئات حضرية طوال تاريخ العرب القديم في شكل ممالك مزدهرة. ولعل أهم هذه البيئات الحضرية منطقة جنوب الجزيرة وبخاصة اليمن^(٦)، وهي التي سماها العرب «الخضر»؛ لكثرة أشجارها وثمارها

(١) انظر قبله.

(٢) ابن هشام، ١، ص ١٣٩.

(٣) انظر، Pliny، (vol 2, p. 461) : 32 ; 162 N. H. 6.

(٤) انظر. Herodotus 3 : 107.

(٥) انظر. Blachère. Le Problème de Mahomet, p. 20.

(٦) انظر. Pliny : (vol 2, p. 459) : 32 ; 161 N. H. 6. لعل هنا المقصود «اليمن» أخذ من القاب ملوك سبأ وحم ملوك اليمن — وهو: «يمنت» (انظر. جواد علي، تاريخ العرب، ٢، ص ٢١٣)، مما يدل على حداثة. كذلك نقل اللورغون تعليقات محققة لهذه الكلمة، منها أنها اسم شخص (التوري، ٢، ص ٢٨٢ من ٦)، أو لأنها أيمن الأرض. ياقوت، معجم البلدان، ٨، ص ٥٧٧. انظر من التسميات المختلفة Ency de l'IsL. (art al-Yaman) 4, p. 1218.

وزروعها^(١)، كما عرفها اليونان والرومان بنفس المعنى فسموها ببلاد العرب السعيدة .
« Felicis » أو « Arabia Felix »^(٢). ومنذ الزمن البعيد طبقت شهرتها الآفاق ،
وكان العالم التحضر يتبادل معها التجارة^(٣) : فكانت مصر القديمة سوقاً لحاصلاتها ؛
لحاجتها إلى واردات هذه البلاد من البخور والطيب الذي يزرع في غاباتها ، لحرقها
في المعابد والمياكل واستخدامها في تحنيط جثث الموتى^(٤) ؛ ولعلها هي البلاد التي
التي كان يمنيها المصريون والرحالون اليونان ببلاد « بنت »^(٥) . وكذلك كانت
بلاد الروم (بيزنطة) في الشمال ، تستورد منها البخور لحرقه في الكنائس ؛
فكانت القوافل التي تذهب إليها حاملة متاجر البخور المضرب الأمثال^(٦) .

وقد سكن اليمن وجنوب الجزيرة منذ قديم الزمان هجرات من افريقية من الجنس الحامى^(٨) عن طريق باب المندب ، وأجناس من الشمال من الجنس السامى أو البحر الأبيض^(٩) ، فملل الفلظين ، الذين يرددهما غالباً مؤرخو العرب^(١٠) ، ووهما : « قحطان »^(١١) « عدنان » ، للدلالة على سكان جنوب الجزيرة

(١) ياقوت ، معجم البيان ، ٨ ص ٥٢٢ .

: Pliny † Geog. 2:5; 12 (Books 1 — 2, p. 553 sqq): Strabo (v)

Decline, 5, p. 205 : Gibbon. انظر N. H. 12:30; 51 (vol 4 p. 36.)

جواد علی ، تاریخ العرب ، ۱ ص ۱۱۸ ؛ Ency. de l'isl. (art Yaman) 4, p. 1218

Geog. 2 : 5 ; 12 (Books 1 — 2, p.455) : Strabo . اقلر (۳)

Arabia before Muhammed. London 1927, p. 94. : O'Leary

(1) Pliny : N. H. 6 : 32; 159 — 162 (vol 2, p. 459) : انظر .

Ancient Egyptian Materials and Industries. London, 1948 : Lucas
p. 367.

٦ In the High Yemen, London 1947, p. 206 : Scott . انظر (٥)

The Temple of Dér El-Bahri. London, 1896. 2, p. 18. : Naville

(٦) القرآن سورة (١٠٦) .

Les Arabes, : Bertram : Op. cit., p. 200 : Scott - انظر (v)

Appendice, p. 253.

Les Arabes, p. 255 : Bertram . اطر (٨)

(٩) الحارث، ص ٤٩؛ التوسري، ١ ص ٢٨٣، فإيهما. (١٠) يقول الحميداني عن ابنه

« قطان » إنه نسة إلى زعم الحسين (الأكليل ، تحقيق نبيه فارس ، طعة Princeton ،

١٩٤: ٨ ص ١٧٧). أو لعلها محرقة من اسم مملكة قنآن، التي ستحدث عنها، انظر.

Ency. de l'isl. (art Kahtân) t 2 p. 666 — 67.

وداخلها ، ذكرى لهذه الأجناس التي وجدت بينهما طبيعة الجزيرة العربية^(١) ، فاعتبرها المؤرخون العرب من سلالة واحدة - ويؤيد هذا أنه كان لسكان اليمن القدامى وجنوب الجزيرة لغة مخالفة ، وهي اللغة التي تظهر مكتوبة في الحجارة والخشب^(٢) ، ويطلق عليها مؤرخو العرب الكتابة : «الحيرية» نسبة إلى بني حمير - وسنتكم عنهم فيما بعد - أو «السند»^(٣) ، وخطها يبدو على صلة بخطوط شمال الجزيرة^(٤) ، أو الخط الحبشي^(٥) ؛ وإن كانت متشابهة إلى حد ما مع العربية - أي لغة سكان داخل الجزيرة - في القواعد وبمض المفردات^(٦) .

وقد كان طابع سكان اليمن الاستقرار في مدن عاصمة ، تعترف بنظم شبه ملكية^(٧) ؛ فنصف من تقاسيمهم السياسية الأقسام الآتية : « عقد »^(٨) و « غلاف »^(٩) و « قصر »^(١٠) ؛ وهي أشبه بأما كن محصنة أو أقسام إدارية^(١١) ، يعيش فيها

(١) انظر . ابن همام ، ١ ، ص ٥ : انظر . Bertram ، Les Arabes ، p. 255

(٢) انظر . Bertram ، Ibid ، p. 14 .

(٣) الاكليل ، ٨ ، ص ٢١ ص ٤٣ ص ١٢٢ - ١٢٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ . ونقل الحمداني صورة لخط المسند في كتابه . انظر . الاكليل ، ص ١٢٢ - ١٢٣ . لعل تسمية «السند» بسبب حروفها التي على شكل الهارة حيث تستند إلى أعمدة . جواد علي ، تاريخ العرب ، ١ ، ص ١٩٧ ؛ انظر . قبله .

(٤) انظر . Hommel ، Grundriss der Geog. und Gesch. des Alten Orients ، München 1904 ، I. p. 157 . جواد علي ، تاريخ العرب ، ١ ، ص ١٨٨ .

(٥) انظر . Bertram ، Les Arabes ، p. 255 .

(٦) انظر . Nicholson ، A Literary History of the Arabs . London 1923 ، p. XXI .

(٧) انظر . Ryckmans ، L'Institution monarchique en Arabie Méridionale avant l'isl. (Ma'in et Saba) ، Louvain 1951 .

(٨) الاكليل ، ٨ ، ص ٥١ ص ٧ ص ٧٥ ص ٤ ص ٩٠ ص ٩٠ ص ١٠٥ ص ١٠٨ ص ٤ .

(٩) نفسه ، ٨ ، ص ٣٠ ص ٤٤ ص ٣٧ ص ٣ .

(١٠) نفسه ، ٨ ، ص ١٦ ص ٩٤ ص ١٠٨ ص ٤ . يذكر الحمداني أسماء بعض قصور اليمن القديمة المصهورة ، مثل : قصور غبدان وسلمين وغيان . انظر . نفسه ، ٨ ، ص ٤٣ ص ٦٩ ص ٤٤ .

(١١) جسيم اليتام ، ٧ ، ص ٤/٧ .

اليمينون وحكامهم الذين يسمون : « ذو »^(١) أو « قيل »^(٢) ؛ كما وجدنا لفظ « ملك »^(٣) يطلق على من يسيطر على هذه الأقسام .

وقد كان لمكان المين حياة ذات تطور خاص ؛ تشبه إلى حد كبير البيانات التي انتشرت بين سكان الوديان في وادي النيل ووادي الدجلة والفرات ، وهي تربط بين ما يحدث للزراع والسماء^(٤) . فكان « القمر »^(٥) و « الشمس »^(٦) من أهم آلهتهم ، كما كان من مقوس عبادتهم تقديم القرابين وحرق البخور ونشر الطيب في الهياكل^(٧) ؛ وقد كان يشرف على أمور الدين هيئة من السكينة^(٨) ، ويبدو أن الملوك كانوا يعتبرون شفعاء الآلهة^(٩) . كذلك انتشرت في هذه البلاد البيانات السماوية^(١٠) المروفة ، وبخاصة اليهودية التي على ما يظهر أنت من الشمال واعتنقها بعض ملوك المين ليخالفوا بهاديانة جيرانهم الأحباش ، الذين كانوا اعتنقوا المسيحية في القرن الرابع^(١١) الميلادى ، وأخذوا في استمالة^(١٢) العناصر المسيحية في المين — حيث يبدو

(١) يحمي تاني ، قوش عربية جنوبية ، المجموعة الثانية ، فصلا مجلة كلية الآداب ، الجزء الثاني ، المجلد السادس عشر ، ديسمبر ١٩٥٤ ، ص ٢٣ ؛ الأكليل ، ص ٨ ، ص ٥١ س ١١ .
(٢) تاني ، قوش ، ص ٢٢ — ٢٣ . وهذه الكلمة معناها « قائد » ، انظر .
الطلي ، قصص الأنبياء ، ص ٢١٥ .

(٣) انظر . Ryckmans . Op. Cit.

(٤) انظر . Bertram . Les Arabes , p. 14 .

(٥) انظر . Caton—Thompson : The Tombs and Moon—Temple : of Hureidha (Hadbramaut) London 1944 , p. 15 .
ص ٦٥ .

(٦) القرآن ٢٧ : ٢٧ — ٢٤ .

(٧) يحمي تاني ، قوش عربية جنوبية ، ص ٢٦ ، ٢٧ — ٢٨ ، Le Muséon LXII. 3 — 4 , 1949 , p. 227 .
انظر . جواد على ، تاريخ العرب ، ص ٢ ، ص ١٩ .

(٨) انظر . Pliny . N.H. 12 : 32; 63 ; (vol 4 , p. 47) .

(٩) كان ملوك سبأ يتلقون بلقب « مكرب سبأ » ، وهي صيغة شفعاء الآلهة . انظر .
جواد على ، تاريخ العرب ، ص ٢ ، ص ١٠٦ ؛ بقده .

(١٠) اليعقوبي ، تاريخ ، ص ١ ، ص ٢٩٨ ؛ انظر . ولقسنون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ،
القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٣٩ .

(١١) انظر . Bonet—Maury : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique , Paris 1906 , p. 47 .

(١٢) ولقسنون ، تاريخ اليهود ، ص ٣٩ — ٣٧ .

أنها جاءت من طريقهم^(١) — ليستخدومهم في تحقيق أطامعهم الإستعمارية. ولكن قبل الإسلام كان معظم اليمنيين يبدون الأصنام^(٢) مثل بدو الجزيرة، وكان لهم بيت للأصنام بصنماء — وهي الماصمة — اسمه « رثام »^(٣)، بل كانوا يحجون^(٤) إلى السكبية في الحجاز، وينصبون فيها بعض الآلهة — كبقية قبائل العرب — مثل نسر^(٥)، ويكسوها^(٦) ملوكهم.

وقد كان هذا التحضر في جنوب الجزيرة سبباً في ازدهار بعض الممالك البدوية منذ الزمن القديم، نذكر منها: المملكة « المينية » المروفة لليونان والرومان باسم « Minaei »^(٧)، ولا نعرف عنها شيئاً كثيراً إلا من النقوش التي تركتها في شمال اليمن، حول بلدة « معين »^(٨) في منطقة الجوف؛ وهي منطقة سهلية غربية مشهورة بتخيلها وأخشابها ومراعيها^(٩). وقد يرجع ظهور هذه المملكة إلى حوالي ١٥٠٠ ق م^(١٠)، ولكن قضى على هذه المملكة ظهور القبائل التي عرفت باسم سبأ « Sabael »^(١١)، حوالي القرن الثامن^(١٢) قبل الميلاد. فقلل

(١) انظر. Bell. The Origin of Islam in its Christian environment. London 1926, p. 33 sqq.

- (٢) الأصنام، ص ١١.
 (٣) ابن هشام، ص ٥٦.
 (٤) اليعقوبي، تاريخ، ص ١، ص ٢٩٧.
 (٥) قصه، ص ١، ص ٢٩٥.
 (٦) ابن هشام، ص ١، ص ١٥؛ قطب الدين، ص ٦٧ — ٦٨.
 (٧) O'Leary : N. H. 6 : 32 ; 161 (vol 2, p. 459) ; Pliny : Arabia, p. 93 — 94.
 (٨) ابن هشام، ص ١، ص ٣٨١.
 (٩) محمد توفيق، آثار معين في جوف اليمن، القاهرة ١٩٥١؛ يعقبي، تاريخ، ص ١٩٥٢.
 (١٠) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 161 (vol 2, p. 459).
 (١١) Les Arabes, p. 15 : Bertram.
 (١٢) Pliny : N. H. 12 : 30 ; 52 (vol 4, p. 37).
 (١٣) انظر. Hommel, Muséon LXII, 3 — 4, 1949, p. 248 ; Philiby : Grundriss I, p. 142 ; Ency, de l'isl. (art Saba) 4 p. 4. انظر. جواد، تاريخ العرب، ص ٢، ص ١٠٩ فاصداً.

الأشوريين^(١) — دولة قوية ظهرت في شمال العراق — هم الذين جرفوا هذه القبائل السبئية أمامهم في إحدى غزواتهم للجزيرة العربية، ولعل السبئيين انتهزوا طرقاتاً قاسية أحاطت بالملكة اليمنية العربية غاريوها، واستولوا على أراضيها^(٢)؛ كما استولوا^(٣) على مملكة أخرى سماها قتيبان «Kataban»^(٤)، التي تقع جنوب أرض معين بقرب باب المندب^(٥)، ويرجع ظهورها إلى ما قبل ألف سنة قبل الميلاد^(٦)، وأيضاً على بلاد حضرموت «Chatramotitae»^(٧)، الواقعة شرق اليمن، وانشأوا من هذه الممالك مملكة واحدة قوية اتخذت مأرب «Mariaba»^(٨) عاصمة لها. وقد شغل هذا التوسع معظم أوقات الملوك السبئيين الذين تلقبوا في أول الأمر بأقب «مكرب سبأ»^(٩)؛ حيث أن القطع الأول منه هو لقب ملوك قتيبان التي احتلها، ومعناه شفيع الآلهة^(١٠). ومع ذلك فإن

(١) انظر - Musil : Arabia Deserte, New-York 1927, p. 477.

(٢) Huzayyin : Arabia and the far-east, Cairo 1942, p. 33 — 34. جواد علي، تاريخ العرب، ٢ من ٣٠٣.

(٣) Pliny : N. H. 12 : 30 ; 53 (vol 4, p. 39) ; انظر - خليل ناي،

نفس نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب، القاهرة، ١٩٤٣، نقش ٧١ و٧٢ و٧٣ من ٩٢ — ٩٣؛ انظر، جواد علي، تاريخ العرب، ٢ من ٤٦.

(٤) خليل ناي : نفس نقوش سامية، انظر - نفس المرجع.

(٥) عن هذا الاسم انظر - Theophrastus : 4 : 2 — 6 : 9 Enq.

Ency. de l'Is. (art Katabân) t 2, p. 858 ; (vol 2, p. 335)

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ٧ من ٣٣؛ Ency de l'Is. . t 2, p. 858

(٧) بالاعتقاد على الكتابات النيبانية انظر - Hommel : Grundriss l. p. 139

جواد علي، تاريخ العرب، ٢ من ١١؛ Ency. de l'Is. t2, P. 858

(٨) Strabo : Geog. 16 : 4 ; 2 : انظر جواد علي، تاريخ العرب، ٢ من ٦٤

فما بعدها. هذا الاسم معناه بالبرانية «دار الموت» انظر - Encyclopaedia : Hastings of Religion and Ethica. Edinburgh 1908 — 1921 p. 333

تاريخ العرب، ٢ من ٦٥؛ Ency. de l'Is. (art Hadramawt) 2, p. 220 — 223

(٩) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 159 (vol 2, p 457) ; جواد علي، تاريخ

العرب، ٢ من ١٠٦.

(١٠) انظر - عن هذا القب : Répertoire d'épigraphie Sémitique, t VII

Corpus Inscriptionum, Semiticarum. ; (Deuxième livraison) 4430

(C I.S.) Pars Quatra t 3, 627.

(١٠) جواد علي، تاريخ العرب، ٢ من ١٣.

الدولة « المعينية » على الخصوص لم يقض عليها نهائياً، بدليل أننا مازلنا نسمع عنها في القرن الأول بعد الميلاد^(١).

وقد كانت مملكة سبأ هي أشهر ممالك اليمن القديمة لكثرة قروشها، وإن كنا لا نعرف سبب إطلاق سبأ عليها : فقد تكون اسم قبيلة في اليمن^(٢)، أو أنها من السبي^(٣)، أو من اسم للملكة سبأ التي يسميها العرب بلقيس^(٤)، أو من اسم جد لليمنيين^(٥)، أو حتى من « Sabota »^(٦) اسم مدينة باليمن. وهذه الملكة قد ازدهرت بسبب تنظيم موارد مائها^(٧) : فكانوا يردمون ما بين الجبلين ويحسون الماء ويجمعون في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون الأرض عند قلة سقوط الماء^(٨). ولكن هذه الملكة أحاطت بها ظروف اقتصادية سيئة، فهدمتها السيول التي هدمت سدودها، وبخاصة ما عرف باسم سيل الرمم^(٩) - أي السيل الذي لا يطاق^(١٠) - حيث كانت هذه السدود تحجز بين الضياع والحدائق وبين

- (١) Pliny : (vol 4, p. 39) ; 54 ; 30 : N. H. 12 : انظر - جرجي زيدان، تاريخ العرب قبل الاسلام، ص ١١٣.
(٢) القرآن ٢٧ : ٢٢ و ٣٤ : ٤٥.
(٢) انظر - محب الدين، تاج المروس، القاهرة ١٣٠٧ هـ، ١٠ ص ١٦٩ و جواد على، تاريخ العرب، ٢ ص ١٠١.
(٤) المعارف، ص ٤٩ و الاكليل، ٨ ص ٧٠٤ و الطلي، قصص الأنبياء، مصر ١٣٤٤ هـ، ص ٢١٥ وما يليها، انظر - Femmes Arabes, p. 10 sqq : Perron. يظهر أن العيشة أيضاً كانت اسماً « سبأ »، انظر - Jewish Antiquities, transl. : Josephus. انظر - by Thackeray and Marcus, London 1930 vol 5 p. 661 : و جواد على، تاريخ العرب، ٢ ص ١٠٤ و Bertram، p. 15 : Les Arabes.
(٥) البلاذري، فتوح، طبعة De Ooeje، ص ١٥ و جواد على، تاريخ العرب، ٢ ص ١٠٠.
(٦) Pliny : (vol 4, p. 37) ; 52 ; 30 : N. H. 12 : انظر أيضاً قول تاج المروس، ١٠ ص ١٦٩.
(٧) ذكر القرآن ما يفيد ذلك ٣٤ : ١٥ - ١٦ : Pliny : N. H. 6 : 32 ; (vol 2 p. 459).
(٨) للبياني، ١ ص ١٨٥.
(٩) القرآن ٣٤ : ١٦ - الرمم هو السد وواحدة عرمة - ابن هشام، ١ ص ٩.
(١٠) الاكليل، ٨ ص ٤٣.

السيول^(١)، مما كان سبباً في القضاء عليها وتفرق أهلها، بحيث ضرب الشلل :
« ذهبوا أبلى سباً »^(٢).

بعد سبأ ظهرت مملكة أخرى عرفت باسم حير « *Homeritae* »^(٣)،
وهي قبائل عديدة^(٤)؛ وكان ملوكها يسمون — على حسب قول مؤرخي العرب —
« التتابة »^(٥)، ويحدد لظهورهم سنة ١١٥ ق.م^(٦). وفي الواقع قاقت هذه المملكة
في المظلة الملكتين السابقتين، بحيث أنها — على حسب روايات المؤرخين —
كانت تحارب الفرس على حدودهم في البحرين والحيرة^(٧)، وحتى في الجزيرة بين
البحر والفرات^(٨). ولكن أحاطت بالمملكة الحيرية ظروف اقتصادية قاسية
تشبه ما حدث للدولة السبئية من قبل، أهمها : اختلال نظمها الزراعية
بسبب انهيار سدودها البالغ عددها ثمانين سداً^(٩)، وبخاصة سدها الشهور
« مأرب »^(١٠)؛ مما جعل أهلها يهاجرون منها في أنحاء الجزيرة^(١١).

(١) ياقوت، معجم البلدان، ٧ من ٣٥٨.

(٢) الليداني، ١ من ١٨٥.

(٣) Pliny : *N. H.* 6 : 32; 161 (vol 2, p. 459).

(٤) انظر. Id.

(٥) هي تسمية مبهمة الأصل لعلها تنسب إلى شخص. انظر. عنها القرآن ٤٤ : ٣٧؛

الأكليل، ٨ من ٦٩ — ٧٠؛ انظر. Hommel : *Explorations in Arabia*, Philadelphia 1903, pp. 727 — 741.

(٦) هذا الصعيد بناء على ظهور لقب جديد في هذا التاريخ لملك سبأ هو : « سبأ
وذوريمان »، [انظره : يحيى بن، قوشعرية جنوبية، المجموعة الثانية، مجلة كلية الآداب
الجزء الثاني — المجلد السادس عشر، ديسمبر ١٩٥٤، ٢٢ من ٢٢؛ انظر. C. I. S.,
p. 340 sqq (314) *Pars Quarta*]. ويظهر أن ريمان هذه من أكبر قبائل
بنو حير (جواد على، تاريخ العرب، ٢ من ٢١٤)، فكان هذا نهاية مملكة سبأ.

(٧) الأكليل، ٨ من ٢١١ من ١٤ — ١٥.

(٨) العارف، ٣٠٧. يبالغ ابن خلدون عن اتساع هذه المملكة، إذ لا يذكر أنها
غزت أفريقية، وأنها وصلت إلى بلاد الترك والصين. انظر. المقدمة، ٩ من ٩.

(٩) الأكليل، ١١٥ — ١١٦.

(١٠) ضحى، ٤١ من ١١٥ من ٢؛ انظر. Hogarth : *A History of Arabia* Oxford, 1922, p. 5.

(١١) ابن هشام، ١ من ٨.

وقد كانت سيطرة اليمن على باب التندب وامتلاكها أسطولا^(١) ضخماً ينقل البضائع من الهندوالمين^(٢) والصومال وسوقطرة إلى موانئها مثل عدن «Eudæmon Arabia»، — بحيث كانت شبه احتكار في يدها — سبباً في تنافس الفرس والرومان على الاستيلاء عليها؛ ولذلك نجد أن الدولة الرومانية أرسلت إلى اليمن حوالي سنة ٢٤ أو ٢٥ ق.م، في زمن الإمبراطور أغسطس «Augustus» حملة بقيادة حاكم مصر الروماني «Aelius Gallus»^(٣)؛ ولكن هذه الحملة فشلت وقتئذ بسبب أن مملكة حمير كانت لا تزال قوية. ولكن لما وهنت هذه المملكة، وورثت بزئطة الرومان في الشرق، نجد التنافس بينها وبين الفرس على أشده للسيطرة على الجزيرة، فتقوم بزئطة بمحاولة جديدة في عهد الإمبراطور جستنيان «Justinian» (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ترى إلى الاستيلاء على اليمن، ولكن دون التدخل المباشر، وإنما بتحريض الأقباش على غزوها، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية، وبلغوا ذروة القوة بظهور مملكة اكسوم «Axumitæ»^(٤) في القرن الرابع الميلادي، ولعل جستنيان اتخذ هذه الخطوة نتيجة لأطاع الفرس التي ازدادت في الجزيرة العربية، بحيث أنهم استقروا في ساحل الخليج الفارسي، مثل: البحرين^(٥).

وقد واثت الفرسة البيزنطيين وحلفاءهم الأقباش حينما أساء أحد ملوك بني حمير واسمه: «ذو نواس» إلى جماعة المسيحيين في نجران^(٦)، فغیرم

(١) انظر . Periplus of the Erythraean Sea transl. from Greek by Schoff New-York 1912. Sect 21 : 27 p. 30 ; 32.

(٢) انظر . قبله .

(٣) انظر . Straßo : Geog. 2 : 5 ; 12 (Books 1—2, p.453 sqq).
The Campaign of Aelius Gallus in Arabia. J. R. A. S. : Sprenger Decline 5, p. 212 ; 315 — 216. : Gibbon : London 1873, p. 121
(٤) انظر . History of the Wars transl. Dewing : Procopius .

La Mer Rouge : Kammerer : London 1954, 1:19;17 — 24(vol 1 p.183)
Introd., XXXVI - وهي نسبة لمدينة Auxomis التي كان يسكنها ملوك الحبش .

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٨ س . كانت البحرين فصل قديماً السواحل المحيطة بالخليج الفارسي، وليس كما في وقتنا هذه جزائر . انظر . Arabia, p. 3. : Hogarth.

(٦) الأكليل، ص ٨، ص ٢٢٦؛ وهب بن منبه، كتاب التيجان، طبعة حيدرآباد Hist. of the Wars : Procopius . انظر . ٣٠١ — ٣٠٢ : ١ : 20 ; 1 (vol 1, p. 189).
١٨٩٧ هـ، ص ٣٠١ — ٣٠٢ : ١ : 20 ; 1 (vol 1, p. 189).
٢٠٩ هـ، ص ٣٠١ — ٣٠٢ : ١ : 20 ; 1 (vol 1, p. 189).

بين ترك دينهم والقتل، فلما اختاروا القتل أحرقتهم في واديهم «الأخدود» بالنار^(١)، ولعل ملك اليمن فعل ذلك لاسبب التمسبب الديني ولكن لوقف اطاع الأجباش الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على اليمن بمساعدة المسيحيين^(٢). ولذلك يطلب جستنيان من حليفه ملك الحبشة غزو اليمن بمحجة انقاذ مسيحيها، وتحت تحريره أرسل النجاشي أرياطاً^(٣) ومعه أبرهة «Abramus»^(٤) بجيش افريق كبير، عبر البحر، ليستولى على اليمن^(٥). فسار إليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، فلما التقيا انهزم ذو نواس وقتل^(٦)، ودخل أرياط اليمن، وهدم حصونها وقتل الحبش العاصمة إلى « صنعاء »^(٧). ولكن نازعه^(٨) في أمر الحبشة باليمن أبرهة، وحق لا تتفرق الحبش، دعاه إلى البارزة وقتله، وإن كان قد شرم حاجب أبرهة وأنته وشفته، ولذلك عرف أبرهة «بالأشرم»^(٩). وقد حاول أبرهة أن يفز والحجاز، فصالحته الطائف^(١٠)، ولم يستطع أن يستولى على مكة، بسبب التعاقب الكثيرة التي لاقاها من القبائل اليمنية والحجازية^(١١)، وتفتش المرض^(١٢) بين جيشه،

(١) القرآن ٨٥ : ٤ — ٥ .

(٢) انظر . Les Arabes, p. 19 : Bertram

(٣) ابن هشام، ١ ص ٢٦ .

(٤) انظر . Hist. of the Wars 1 : 20 : 2 — 8 (vol 1, : Procopius

(٥) p. 191) : الماروف، ص ٣١٢ .

(٦) Sabäische Inschriften : Mordtmann und Eugen Mittwoch

(٧) : O'Leary ؛ Hamburg 1931. S. 2 Arabia, p. 207. سموا « صنعاء » لحصنها ؟

(٨) ابن هشام، ١ ص ٢٦ .

(٩) نفسه ؟ انظر . Arabia, p. 34 : Huzayyin

(١٠) ودقة سنة حصونها سيم البلدان، ٥ ص ٣٨٧ .

(١١) انظر . Hist. of the Wars 1 : 20 ; 2 — 8 (vol 1 : Procopius

(١٢) p. 191).

(١٣) ابن هشام، ١ ص ٢٨ — ٢٩ .

(١٤) نفسه، ١ ص ٣٢ .

(١٥) نفسه، ١ ص ٣١ .

(١٦) انظر عن نهايتهم. القرآن سورة ١٠٥ . يذكر ابن هشام أنه مرض الحصبة والجذري

سيرة، ١ ص ٣٦ .

فرجع دون أن يحقق هدفه . وقد دخلت هذه النزوة في تهويم حرب الحجاز قبل الاسلام ، وعرفت عندهم بعام « الفيل » ، ذلك لأن جيش أبرهة الإفريقى كان فيه عدد كبير من الفيلة ^(١) .

وقد حاول الحبش تثبيت أقدامهم في اليمن ، فعملوا على انماش اقتصادياتها ؛ باصلاح ما فسد من سد مأرب ^(٢) ، كما أرادوا أن يحلوا من « صنعاء » مركزاً لعرب الجزيرة بدلاً من مكة — التي قدر أبرهة أهميتها — فبنى لهذا الغرض كنيسة تسمى القليس ^(٣) « Ecclesia » بالرخام المجزع الأبيض والأحمر والأخضر والأسود ، وطعموا بابه بالذهب والفضة ، ورشوا حوائطه بالمسك . ولكن هزيمة الحبش في الحجاز ، واختلال قيادتهم كانت سبباً في أن تشجع أهل اليمن بزعماء سيف بن ذى يزن الحميري على الثورة ، بعد أن ساعدتهم الفرس ^(٤) — أعداء يزنطة — بقيادة وهرز ، وحلفائها عرب يادية العراق ^(٥) ، مما مكن اليمنيين من التخلص من الاستعمار الحبشى . وقد كان لانتصارهم رنة هائلة في الجزيرة ، فجاءتهم الوفود من كل مكان وبخاصة من مكة التي كان الحبش قد حاولوا غزوها ، وكان وفداه برئاسة عبد المطلب ^(٦) من قبيلة قريش ، وهو جد النبي محمد . ولكن بدلاً من أن تعود دولة الحميريين حرة مستقلة ، فإن الفرس — الذين كانوا قد توسعوا في الجزيرة — طمعوا في اليمن لأهميتها التجارية ؛ ولينموا يزنطة من الاستيلاء عليها ، دبوا قتل ذى يزن . فكان حكام اليمن عند ظهور الاسلام من

(١) للمعارف ، ص ٣١٢ ؛ انظر . البيهقي ، كتاب المصارف في علم التاريخ ، مخطوط رقم ٢٦٠٦٢ ، بجاسة القاهرة ، ورقة ٧٢ . ومع ذلك لا يذكر إلا فيل واحد . انظر ملاحظة ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢٦٠ .

(٢) يوجد نقش يتكون من ١٣١ سطراً ، على جدران سد مأرب ، خاصاً بما قام به أبرهة من اصلاحه وترميمه في عام ٥٤٢ م . انظر . Sab. Inschr. : Mordt und Mitt . ص ٢١ — ٢٢ ؛ Bertram Les Arabes , p. 20 . (٣) النورسي ، ص ١ ، ٣٨٢ — ٣٨٣ ؛ ابن سعد ، ١/١ ص ٥٥ ؛ الجارم ، أدبان

العرب في الجاهلية ، ص ٣٥ ، انظر . Scott : The High Yemen , p. 212 .

(٤) للمعارف ، ص ٣١٢ .

(٥) ابن هشام ، ص ٤٢ .

(٦) العقد الفريد ، ص ١٣١ .

الفرس، حيث كان آخرهم باذان^(١)؛ وإن كان هذا النفوذ الفارسي — ولا ريب — لم يمتد صنداء — العاصمة — وأن قبائل اليمن كانت تتمتع أبداً بحريتها^(٢)، وأنها أصبحت تعيش كبقية قبائل عرب الجزيرة في صراع فيما بينها، بحيث أنه أصبح لها أسواق^(٣) — تشبه أسواق عرب داخل الجزيرة — تأمن فيها على دماها وأموالها .

كذلك ظهرت بيئة أخرى للحضر في المنطقة الواقعة بين الساحل وهضبة نجد؛ وليدة وجود الماء في السيون والآبار^(٤) مما ينبت الزرع، وإن كانت على الخصوص وليدة وقوعها في طريق التجارة بين الشمال والجنوب، وهذه المنطقة سميت حجازاً؛ لوجود الجبال التي تحجز بين التهام والصحراء^(٥) .

وقد سكن الحجاز جنس ساسي من العرب عرف عند حركة الفتح «بالاسماعيليين»^(٦)، وم الذين يسميهم المؤرخون الاسلاميون أيضاً «ببني عدنان»، ليمتيزوا عن سكان جنوب الجزيرة «ببني قحطان»^(٧)، حيث كانوا يتكلمون اللغة العربية؛ التي لم تصلنا بها نقوش مكتوبة؛ ولعل هذا راجع إلى أنه لم يكن يوجد لها خط متميز^(٨) «كالمسند» قبل الإسلام، أو لأن طبيعة السكان في الحجاز — على ما يظهر — لم تكن تميل إلى الكتابة^(٩). وقد كان معظم سكان الحجاز وثنيين عبدة للأصنام كما في داخل الجزيرة، إلا أنه انتشرت بينهم الديانات

(١) وهو يسمى بهذان أو باذام. انظر. الماراف، ص ٣١٣؛ ابن هشام، ١ ص ٤٦ .

(٢) انظر . Gibbon : Decline, 5. p. 216 .

(٣) الطوق، تاريخ، ١ ص ٤١٤ .

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٥١؛ ٥٣ .

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٢ ص ٤٣٧؛ ٣ ص ٢١٨ .

(٦) انظر . La chronique de Jean, évêque de Nikiou, notice et

extraits par Zotenberg Paris 1879, P. 229 . الاسماعيليون هم العرب سكان

الحجاز من نسل اسماعيل بن ابراهيم . ابن هشام، ١ ص ٥ .

(٧) النويري، ٢ ص ٢٧٨؛ فإيدها؛ انظر. قبله .

(٨) يميني ناي، أصل الخط العربي، ص ٧؛ Gibbon : Decline, 5, P.220 .

(٩) انظر . حاجي خليفة، كشف الظنون، ١ ص ٢٥ — ٢٦ .

السماوية مثل المسيحية^(١) واليهودية^(٢) : فلعل الأولى جاءتهم من الشمال عن طريق بيزنطة ، أو من الحبشة أو حتى من مصر عن طريق البحر الأحمر^(٣) ، حيث كانت توجد قبائل مسيحية عديدة على تخوم شمال الجزيرة ، أما الثانية فقد جاءتهم في شكل هجرات يهودية عندما هدم الرومان بيت القدس^(٤) ، أو حتى قبل ذلك .

ولكن « مكة » أو « بكة »^(٥) كانت أم مواطن الحضر في الحجاز ، ولذلك سميت أيضاً « بام القرى »^(٦) ؛ لأنها أعظم البلاد شأنًا . وهي بلدة كبيرة مستطيلة^(٧) ذات شعاب واسعة بوادٍ غير ذي زرع ، ولكنها انتعشت بسبب وقوعها في طريق القوافل ، وقربها من ميناء جدة^(٨) على البحر الأحمر . ومنذ قديم الزمان سكنت مكة قبائل عديدة يذكر لنا المؤرخون بعض أسمائها — دون ذكر معلومات دقيقة عنها إلا بعض الأساطير — مثل : المالحق^(٩) وجُرم^(١٠) وكناة^(١١)

(١) البغوي، تاريخ، ١، ص ٢٩٨؛ انظر : Gibbon، Decline، 5، P. 230 — 231 .

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ١٥ ؛ انظر : Lammens ، l'Arabie Occid. ، p. 54 — 55 .

(٣) انظر : Bell ، The Origin of Islam in its Christian environ-ment، P. 17 ؛ 18 . وان ذكر أنها لم تأت من الجنوب لوجود الاحتلال الحبشي ، فمنع لسم ان إعادة بناء الكعبة فلم بها قبلي .

(٤) وذلك في عهد الامبراطور Titus حوالي عام ٧٠ ق.م . انظر : سعيد بن جريق (التاريخ المجمع على التحقيق والتصديق؛ بيروت ١٩٠٥ — ١٩٠٩) ، ١ ، ص ٩٨ من ٩٩ ؛ انظر : Histoire d'Israel. trad. fr. par Auvray، Paris 1948 t 2 ، : Ricciotti P. 543 sqq .

(٥) تختلف هذه الكلمات في معناها « بكة » يقصد بها موضع الكعبة — المكان المقدس — ومكة القرية نفسها (التورى ، ١ ، ص ٣١٣) ؛ كما لها أسماء أخرى منها : « البيت الحقيق » و « القرية » و « البلد » . فقه ١ ، ص ٣١٣ — ٣١٤ .

(٦) قطب الدين ، كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق Wüst ، طبة Leipzig ، ١٨٥٧ ، ص ١٨ .

(٧) فقه ، ص ١٠ .

(٨) انظر : معجم البلدان ، ٣ ، ص ٦٧ ؛ Gibbon ، Decline، 5، P. 213 .

(٩) الأغانى ، ١٩ ، ص ٩٤ . لعلهم المكسوس الذين غزوا مصر . انظر عن المالحق : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، طبة New Haven ، ١٩٢٢ ، ص ١٢ .

(١٠) المعارف ، ص ٣١٣ من ١٥ .

(١١) ابن هشام ، ١ ، ص ٧٣ .

وخزاعة^(١) . وأخيراً قبل الإسلام دخلتها قريش بقيادة زعيمها قصي^(٢) ، وأصبحت لها السيادة؛ ولعلها سميت «قريشاً» لاحترافها التجارة، فالتقرش التجارة والاكتساب^(٣) ، أولتجمعها في مكة^(٤) ، أولأن قصياً كان يسمى القرشي^(٥) : ولا يحب فلان سكان مكة قبضوا على زمام التجارة بمد شفق نفوذ بني حنيفة في اليمن ، وخضوعهم للحبش ثم الفرس ، وقد ذكرت في القرآن^(٦) : وكانت لهم رحلتان رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف : الأولى كانت إلى اليمن والحبشة ، والثانية كانت إلى الشام ؛ فكانت قوافل مكة أشبه بالرحلات تكون بالآلاف^(٧) الإبل ، التي يقوم على حمايتها جيش خاص اسمه : «الأحابيش»^(٨) ، لملهم من العرب أو السودان . وقد كانت مكة أشبه بينك كبير^(٩) ، فلم تكن القوافل الكبيرة لشخص واحد ؛ وإنما كانت هناك طريقة لجمع المال من عدة أسر معروفة ، مثل : بني أمية وبني غزوم وبني نوفل^(١٠) وبني هاشم ؛ وبسبب هذا التقي كانت لهم أموال وبساتين^(١١) في المنطقة

(١) قسمة في الماروف ، ص ٣١٣ س ١٧ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ١/١ س ٣٦ — ٤٢ .

(٣) ابن هشام ، ١ س ٦٠ .

(٤) ابن سعد ، ١/١ س ٣٨ س ٢٣ — ٢٤ .

(٥) قسمة ، ١/١ س ٤٠ س ٢١ .

(٦) القرآن سورة ١٠٦ في ابن سعد ، ١/١ س ٤٣ .

(٧) قسمة ، ابن هشام ، ١ س ٣٧ — ٣٨ .

(٨) الماروف ، ص ٣٠٢ ورجعت عدة آراء عن «الأحابيش» وأصلهم ، فهم قد

يكونون حلفاء قريش نسبة إلى جبل بأسفل مكة (انظر . Reste des Arabischen : Wellh .

Berlin 1929, P. ٤6) أو لتجمعهم فالتجمع في كلام العرب هو التحيش (الماروف ،

ص ٣٠٢) ، أو أنهم من السودان الذين كانوا يهاضون عن قريش (انظر . Lammens :

Les Ahâbich et l'organisation Militaire de la Mecque au siècle de

l'hégire J. A. 8, 1916, P. 425 — 82) ، أو أنهم من العرب الذين كان يستأجرهم .

أشراف مكة في حال الحرب والسلم (انظر . البياضي ، صور من التاريخ الإسلامي ، مصر

البرقية ، ١٣ — ٢١) ، بحيث كان لهم «سيد» مثل بقية قبائل العرب . ابن هشام ،

ص ٧٤٣ .

(٩) انظر . La Vie de Mah. P. 42 : Essad Bey

(١٠) انظر . ابن سعد ، ١/١ س ٤٠ س ١ .

(١١) البلاذري ، فتوح ، ص ٥٦ .

الجنوبية في الطائف . ولكن مع وجود هذه البيئة الحضرية في مكة ، فإن طباع أهلها بقيت بدوية ؛ لا تختلف كثيراً عن طباع البدو في البادية ، فكانت تعيش في ربايع^(١) كما يعيش أهل البدو في خيام ، فكانوا يتصارعون لأنفقه الأسباب ، بحيث أن الصراع كان دائماً بين قريش « البطاح » أى داخل مكة ، وقريش « الظواهر^(٢) » ، أى الذين يسكنون شعاب مكة بين الجبال التى تحيط بها .

وفوق ذلك كان لمكة مكانة خاصة ؛ بسبب الاعتقاد في قدسيتها التى أنت من الاعتقاد في بحى إبراهيم^(٣) — وهو بحسب قول رواية العرب أبو إسحاق^(٤) الذى ينتسب إليه العرب — وبنائه أول مكان فيها للعبادة : « البيت »^(٥) أو « الكعبة »^(٦) ، وهو عبارة عن مكان غير مسقف ، يحيط به مكان مقدس « حرم »^(٧) ، لا يجوز القتال فيه أو تنجيسه ، وأيضاً لظهور بئر « زمزم »^(٨) التى يستقون منها . فكانت مكة منذ عدة قرون مكاناً مقدساً ، يقد إليها العرب من أهل الحضر والبادية ، وكلهم يحمل هداياه إلى الكعبة ، حيث كانت تطرح في بئر يجوارها^(٩) ؛ وقد أصبحت الكعبة قبل الاسلام تحوى في جوفها على أصنام العرب جميعها ؛ فكان بعضها على شكل أناس أو أسود أو حيوانات أخرى^(١٠) ، أو حتى حجارة مكتوب عليها^(١١) ؛ وكان أكبر

(١) ابن سعد ، ١/١ ص ٤٠ .

(٢) قه .

(٣) النورى ، ١ ص ٣٠١ ص ١٧ — ١٩ ص ٣٠٧ ؛ انظر الطي ، قصص

الأنبياء ، ص ٥٥ .

(٤) القرآن ٣٧ : ١٠١ .

(٥) قه ٢ : ١٢٥ ؛ النورى ، ١ ص ٢٩٧ .

(٦) سميت هكذا لأنها مكتبة أو لأنه لا يرى بمكة بناء مرفق عليها . النورى ، ١

ص ٣١٣ ص ٤ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٠ ص ٢٠ .

(٧) ابن هشام ، ١ ص ١٢٦ ؛ طبقات الدين ، ص ١٩ .

(٨) ابن هشام ، ١ ص ٧١ .

(٩) قه ، ١ ص ١٢٢ .

(١٠) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٥ ؛ انظر Decline 5, P.225 : Oibbon المنسوب منها في جوف الكعبة وحولها ثلاثمائة وستين صنماً . انظر . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة مصر ، ٢ ص ١٧١ .

(١١) ابن هشام ، ١ ص ١٢٤ .

هذه الأصنام « هبل »^(١) الذى كان على صورة انسان من عقيق أحمر، كما لعله كانت توجد فيها أيضاً تماثيل للمسيح ومريم وموسى لوجود بعض قبائل مسيحية ويهودية^(٢).

وقد كان تقديس العرب للكعبة سبباً فى أن اهتمت قريش بتنظيم الحج إليها، فترقب على ذلك ظهور أنظمة^(٣) سياسية، منها : الملا^(٤) وهو مجلس القبيلة ، والسدانة^(٥) وهى خدمة الكعبة ، والسقاية^(٦) وهى تقديم الماء للحجاج ، والرقادة^(٧) وهى اطعام من لم يكن له سمة ، والندوة^(٨) وهى التى يكون فيها أمر قريش كله ، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة ، والحجابة^(٩) أى حفظ مفاتيح الكعبة ، وأخيراً اللواء^(١٠) ويقصد به راية الحرب للدفاع عن مكة .

وقد كان الحج إلى الكعبة يتم فى وقت معين « موسم » من شهر ذى الحجة من العام القمري ، وذلك طبقاً « لشاعر » أو « مناسك »^(١١) ترجع إلى وقت بنائها^(١٢) . وكان يتحتم على الحجاج التزبأ أن يبدوا عراة^(١٣) ، وإن استثنى من هذا النساء اللاتى يضمن ثيابهن كلهن ، وكانت قريش وحدها لها ميزة ارتداء

(١) الأصنام ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) انظر . La Vie de Mah., P. 45. : Essad Bey

(٣) انظر . ابن هشام ، ١ ص ٨٠ .

(٤) انظر . لسان ، ١ ، ص ١٥٤ — ١٥٥ : Snouck Murgronje : Mekka, Haag 2ed 1888 — 1889 P. 21 — 22.

(٥) لسان ، ١٧ ص ٦٩ : انظر . l'Arabie Occid, P. 107 : Lammens

يقال غالباً السدانة والحجابة ، وهى تقريباً بنفس المعنى . لسان ، ١٧ ، ص ٦٩ .

(٦) ابن سعد ، ١/١ ص ٤١ ص ١٦ .

(٧) ابن هشام ، ١ ص ٨٢ .

(٨) ابن سعد ، ١/١ ص ٤٩ — ٤٠ : انظر . العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى

ص ٦ — ١٣ .

(٩) ابن سعد ، ١/١ ص ٤٤ ص ٥ : الحشنى ، شرح ، ١ ص ٤٢ .

(١٠) قه

(١١) الثورى ، ١ ص ٣٠٦ : ابن الكلبي ، الأصنام ، ص ٦ .

(١٢) ابن هشام ، ١ ص ٥١ منذ إنشاء إبراهيم الكعبة .

(١٣) ابن سعد ، ١/١ ص ٤١ ص ٩ .

ثياب سموها « ثياب الخنس »^(١) واطرتها لمن يريدون ؛ كما أن بعضهم كان يطوف بالبيت وهو لا يلبس نعاله^(٢). كذلك كان يمنع الحجاج من أن يجزوا شمرهم وظفرهم، ولا يدهنوا أو يتطيّبون أو يمسون النساء ، أو حتى يأكلون اللحم ، أو يحملون السلاح^(٣). وكان من الناسك أن يطوف الحجاج في صفوف وهم يمجّون بالأنشيد، ويصفرون كأنهم يمدّون^(٤)، ثم يدخلون البيت فيقبلون أولاً أسافاً - أحد الآلهة - وكذلك عند خروجهم^(٥)، ثم يستلمون حجراً أسود فيركن منه يعتبر أقدم الأحجار المقدسة^(٦). وبعد زيارة الكعبة يسمى الحجاج إلى تلى الصفا والروة الصخرين وها قرب مكة ، وكان عليهما صنمان^(٧) الأول يسمى مجاور الريح والأخر مطعم الطير، ثم بعد ذلك يتفرقون في الأماكن المجاورة مثل عرفة والزلفة لتحر^(٨) الجبال والغراف، وفي وقت ما كانوا يضحون أيضاً بالأشخاص^(٩)، فقد كانت التضحية هي الوسيلة التي تقرب المضحى من الآلهة^(١٠). وكانت قريش تخرج لنفسها - في هذه المناسبة - قبائلاً حواء^(١١) من الادم أي الجلد دلالة على زعامتها للعرب ، على عكس الآخرين الذين كانت قبائهم من الشمر. كذلك عرف في مكة نوع آخر من

(١) ابن هشام ، ١ ، ص ١٢٨ ؛ الخنس مأخوذة من الحنسة للذين ، الخنس ، شرح ، ص ٦٥ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ، ص ٢٩٧ .

(٣) هـ .

(٤) انظر قول القرآن : (وما كان صلاحهم عند البيت إلا مكاء وصديّة ك : ٣٥) .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ، ص ٢٩٥ .

(٦) التورى ، ١ ، ص ٣١٤ ؛ انظر . Gaudefroy-Demombynes :

Ency. de l'Is. (art. : Le Pèlerinage à la Mekke. Paris 1923, p. 41

Ka'ba) 2, p. 662. قال المؤرخون العرب روايات كثيرة عن أصل هذا الحجر منها أنه

كان ياقوتة بيضاء من بواقي الجنة ، وأنه أسود من أرجاس الجاهلية انظر . التورى ، ١ ،

ص ٣١٤ ؛ انظر : القصص الأنبياء ، ص ٥٨ .

(٧) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ، ص ٢٩٥ ؛ ١٤ - ١٥ ؛ اللوطا ، حمل ١٣٠٧ ، ص ١٤٥ .

(٨) ابن هشام ، ١ ، ص ٥٩ .

(٩) القرآن : ٣٧ : ١٠١ ؛ انظر . Gibbon : Decline, 5, p. 225

(١٠) انظر . Mah, p. 13 : Tor Andrae

(١١) ابن سعد ١/١ ص ٤١ ؛ انظر . L'Arabie Occid, p. 130 : Lammens

الحج يسمى : « العُمره »^(١) وهي تكون فوجب، وهذه لا يصحبها غالباً الاشتراك مع الجماعة ، وقد تكون فرادى . وكان في آخر موسم الحج تنشط التجارة بين حجاج الجزيرة ، وبقارى الشام والخطباء في أسواق مكة، مثل : عكاظ وذى الحجاز^(٢) . وكان من عادة العرب الصالحين — إذا رحلوا من مكة — أن يحمّلوا معهم حجراً من حجارة الحرم للقدسة لعبادتها ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة^(٣) . وعلى العكس كان يمسح الحجاج من البدو — بعد انتهاء مراسم الحج — يستحلون الظالم فينبهون ويقتلون^(٤) ؟ وقد قامت قريش — حامية الكعبة — بحركة اصلاح ؛ مؤداها ألا تهر بركة ظلماً^(٥) سواء أكان من أهلها ، أو من سائر الناس ، فقتلت مع قبائلها والقبائل المجاورة حلفاء عرف : « بحلف الفضول »^(٦) .

هذا النشاط التجارى الذى كان السبب في وجود مراكز الحضر في اليمن والحجاز تسبب أيضاً في وجود مواطن قرار ، أو عمالك بدوية — منذ قديم الزمان — في باديتي الشام وال عراق ، وقد شجعت الدول الكبرى التي كانت تسيطر بيجوار هذه المناطق على قيامها ، واتخذتها درعاً^(٧) تنقذها من غارة البدو على تخوم حدودها ، فكانت أشبه بالدويلات الحاجزة (Buffer State) . ولا ريب في أن حب العربى للوفاء جملة يستطيع أن يتعامل مع هذه الأمم الفرية عنه ، فكان لقاء جمل أو « أناوة »^(٨) يترك مهنته في « النار »^(٩) ، ويخترق حدود حلفائه من تمدى

(١) ابن هشام ، ١٤٠ ص ٥١ .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ١٤ ص ٣١٤ .

(٣) ابن هشام ، ١٤ ص ٥١ .

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ١٤ ص ٣١٤ .

(٥) ابن هشام ، ١٤ ص ٧٣ .

(٦) المعارف ، ص ٢٩٤ .

(٧) انظر - Hist. of the Wars 2 : 10; 24 (vol I, p. 351) : Procopius .

(٨) انظر . Id .

(٩) الاسطخرى ، مسالك المالك ، ص ١٤٤ ص ٧ .

القبائل الأخرى ، وينعم في نفس الوقت بحياة مستقرة نوعاً . ولكن الفرس أو الروم لم يكونوا يقيمون على فتحهم ^(١) الدائمة في عرب الحدود ، ولذلك كانوا يقضون أحياناً على هذه الممالك البدوية أو يهملونها ، فكأنت تمود إلى حياتها الأولى . فند كرمين المملك المشهورة في بادية الشام ^(٢) ممالك : « النبط » و « تدمر » و « الغساسنة » ، ومن مملكة بادية العراق مملكة : « اللخمين » .

فتنسب مملكة « النبط » المعروفة لليونان والرومان باسم : « Nabataei » ^(٣) إلى شعب من العرب ، سكن بادية الشام وجنوب سوريا حوالي القرن الثاني قبل الميلاد ^(٤) . ويظهر أن هذا الشعب كان من إحدى الهجرات التي عرفت « بالأراميين » ^(٥) التي جاءت من داخل الجزيرة العربية ، حيث أنهم اتخذوا الأرامية لغة للكتابة ^(٦) ، وإن كانت تبدو هجرة من نوع خاص ، لأنها كانت امتزجت بعرب الحجاز أو حتى سيطرت ^(٧) عليهم ، إذ ربما كانوا يتكلمون لهجة قريبة من العربية ^(٨) ، كما يبدو من الأسماء النقوشة على الصخور والقبور ، مثل ^(٩) : حبيب

(١) انظر - Gibbon - Decline 5, p. 216

(٢) ظهرت ممالك أخرى في هذه البادية معلومتا عنها قليلة ، مثل : البحيانية ونمود والصفيوة ، وهي نسبة لشعوب عربية ، وجميعها تركت نقوشا انظر - Répertoire d'épigraphie Sémitique Paris . انظر . قبله .

(٣) Pliny : N. H. p. 12 : 37 ; 73 (vol 4 p. 55)

(٤) North Semitic Inscriptions. Oxford 1903, p. 216 - Cooke

انظر - Arabia, p. 82 : O'Leary

(٥) السودي ، التنبيه ، ص ٣٦ .

(٦) الطبري (Annales) ١ : ٢٢٠ : انظر . جواد علي ، تاريخ العرب ، ص ٦٦

(٧) Hitt Hist. of Sy. p. 385 انظر صورة هذه الكتابة .

(٨) انظر - Op. cit. p. 18 : Cooke ؛ يحيى ثامي ، أصل الخط العربي ، ص ٧٠ .

؛ قبله .

(٨) قبله .

(٩) Nabataen Inscriptions from the Southern , : Littmann

Hauran 1914, p. 17 — 24.

وسميد وحارثة وقصى وعمر ومسمود؛ أما سبب تسميتهم « بالنبط » فله من أنهم كانوا يستنبطون ما يخرج من الأرض^(١)؛ أى أنهم مستقرون وليسوا رعاة . وقد استغل النبط الاقسام بين قواد الاسكندر ، ومدوا مملكتهم من غزة حتى أيلة^(٢) « Atla » على شاطئ بحر القلزم ، فى أرض صخرة وعرة ، ولذا سمى اليونان ماضيها — التى تجهل اسمها النبطى^(٣) — باسم « Petra^(٤) » أى الصخرة . أما العرب فسموها — على ما يظهر — « سلع^(٥) » ، لوقوعها بين شقوق الجبال . فكانت مملكة النبط قوية^(٦) يخشاها اليهود فى الشام ، فنجد ملكها الحارث الثالث — الذى يسميه اليونان « Arethas » — يحاربهم ، كما أنه غلب رومي « Pompeius » ، فى سنة ٦٤ ق . م ، الذى كان يسمى إلى مد حدود الرومان فى فلسطين . ولما جاء الرومان بقيت مملكة النبط حليفة لهم ؛ وحافظوا لهم على حدودهم « Limes » ، بحيث إنهم اشتركوا معهم فى حملتهم لنزو اليمن فى سنة ٢٤ ق . م^(٧) ، وكانوا — على كل حال — على صلة باليمنيين ، بدليل العثورنا على نقوش نبطية باليمن^(٨) .

(١) المسعودى ، القتيبة ، ص ٧٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٨ . يظهر أنهم غير نبط العراق ، فهؤلاء من النصر الكلدانى الذى قد يكون أيضاً من هجرة من داخل الجزيرة .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٣٩١ . وهى ستعرف بالقبة فى العهد الإسلامى .
قسه ، ٦ ص ١٩١ — ١٩٢ ؛ انظر . Hitti : Hist. of Sy, p. 383; n (3) .
(٣) انظر . نائى ، أصل الخط العربى ، ص ١٠ .

(٤) Pliny : N. H. 6 : 32 ; 142 — 145 (vol 2, p. 447) .
(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ١٠٧ . « الأسلاع » هى طرق فى الجبال ؛ وهى تقع بوادى موسى الذى يربط البحر الميت بمخيلج القبة . انظر . قسه . ومن ناحية أخرى لمها « الرقيم » التى ذكرها القرآن . انظر سورة ١٨ آية ٩ .

(٦) Josephus : 1. : 14 ; 5 ; 2 : 13 ; 15 : Antiq. 13 : 15 ؛ انظر . Hitti :
378 — 377 . Sy. ، جواد على ، تاريخ العرب ، ٣ ص ٢٦ .

(٧) Strabo : 2 : 5 ; 12 (Books 1 — 2, p. 453 sqq) ؛ Geog. 2 : 5 ; 12 . انظر . قبله .

(٨) نائى ، نشر نقوش سامية قديمة ، ص ١١٨ — ١١٩ . نقش رقم (٩٠) .

ولكن الامبراطور تراجان « Traianus » ^(١) (٩٨-١١٧) خاف منهم وضمهم إلى الامبراطورية الرومانية في حوالى ١٠٥ ق . م ؛ وأصبحت ما يعرف عندهم باسم : « Provincia Arabia » ^(٢) . هذه للمملكة البدوية العربية - التى كانت مركزاً لالتقاء القوافل ^(٣) وسوقاً تجارية هامة - اشتهرت بأثارها العجيبة ؛ التى لا تزال توجد حتى الآن أهمها المسرح ^(٤) ؛ وهو بناء على النمط اليونانى ، كما أنها كانت تسك العملة بنقوش ^(٥) ورسوم الملك والمملكة . أما عبادتهم فلم تكن تخرج عن عبادة عرب الجزيرة ، فيبدو من النقوش أنهم كانوا يمدون اللات ومناة والزمى وهبل ^(٦) كعرب الحجاز ، وإن كان لابد أن تكون هذه العبادة قد تأثرت أيضا بالعقيدة اليونانية ؛ التى كانت تفرض نفسها فى الشرق .

أما مملكة تدعى قد سميت باسم مدينة « تدمر » ^(٧) أو « Thadamon » القديمة ببادية الشام ، فسكنها قبائل عربية ، لعلها جاءت نتيجة للهجرات الآرامية

Rerum Gestarum Libri qui Supersunt , : Marcellinus (١)
L. C. L. 1950. bib. 14 : 8 ; 13 (vol I, p. 71) ؛ جواد على ، تاريخ العرب ،
ص ٤٧ .

(٢) انظر . Gibbon . Decline, 5, p. 214 .

(٣) انظر . Doughty . Travels in Arabia Deserta 2ed. p. 41-42 .

(٤) انظر . Brunnow und Domaszewski . Die Provincia, Sy, p. 378-9 : Hitti ؛ Arabia, Strasbourg 1904, vol I, p. 250 - 251

(٥) انظر . Hill . Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Sy, p. 381 : Hitti . انظر . Mesopotamia and Persia, p. XI sqq

(٦) انظر . Hitti . Hist. of Sy, p. 385 ؛ مراد وحيدى ، تاريخ الأدب السريانى ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٤ .

(٧) انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٩ ؛ Josephus ؛ Antiq. 8 : 6 ; 1 ؛ انظر . Hitti . Hist. of Sy, p. 388 . هى مدينة قديمة (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٩) ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد . انظر جرجى زيمان ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٨٤ .

أيضاً من داخل الجزيرة نحو الشمال ، حيث اتخذت الآرامية^(١) لغة لها . ويظهر أن هذه القبائل استطاعت حوالي القرن الأول قبل الميلاد استغلال ظروف الحروب بين اليونان والرومان من ناحية ، وبين الفرس والرومان من ناحية أخرى ، فأنشأت مملكة قوية اتخذت لها عاصمة بقرب حمص ، وهي التي عرفت بالاسم اليوناني « Palmyra » ، وممناها بلد النخيل^(٢) . وتدل النقوش التي وجدت بالآرامية واليونانية على مدى تقدم هذه المملكة واتساعها ، والتي اكتسبت مركزاً تجارياً^(٣) ممتازاً بعد سقوط مملكة النبط ، بحيث تعتبر ورثة لها . ويتميز تاريخ هذه المملكة العربية بملك ومملكة مشهورين ، فالملك هو « أذينة^(٤) » وهو المعروف للرومان باسم « Odonathus »^(٥) ، فقد عبر الفرات واستولى على الجزيرة^(٦) ، وزحف في فارس ، وحارب الفرس أعداء الرومان ، ولكنه قتل في ٢٦٦ أو ٢٦٧^(٧) ميلادية في ظروف فاضحة . أما الملكة أرملة فهي المشهورة للعرب باسم « زينب » أو « الزباء »^(٨) ، وللرومان باسم « Zenobia »^(٩) ، وهي على عكس أذينة ؛ أرادت أن تعتمد على الفرس^(١٠) في تكوين مملكة سورية كبيرة ، فنت حدودها في آسيا الصغرى حتى خلقدونية قرب القسطنطينية^(١١) وأرسلت جنودها إلى

(١) ابن خلدون ، كتاب البر ، ٢ ص ٧٠ .

(٢) انظر . Hitti ، Hist. of Sy, p. 389 .

(٣) انظر . Id . : Musil ، pp. 237-46 ، Palmyrena, New-York 1928 .

(٤) ابن خلدون ، البر ، ٢ ص ٧٠ .

(٥) انظر . Procopius : Hist. of the Wars. 2 : 5 ; 5 (vol I, p. 295) .

(٦) انظر . Ibid 2. 5. 6 (vol I, p. 297) ؛ انظر . Huart et Delaporte .

L'Iran Antique, p. 344 .

(٧) انظر . Hitti ، Hist. of Sy, p. 393 .

(٨) الجاحظ ، كتاب الحاسن والأعداء ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ص ١٧١ فأبدعها ؛

انظر . الزركلي ، الاعلام . قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين في

الجاهلية والاسلام ، القاهرة ١٩٢٧ ، ١ ص ٣٣٠ .

(٩) انظر . Procopius : Hist. of the Wars. 2 : 5 ; 4 (vol I, p. 295) .

(١٠) انظر . Huart et Delaporte . L'Iran Antique, p. 344 .

(١١) انظر . Hitti ، Hist. of Sy, p. 396 .

مصر؛ لمساعدة أهلها في ثورتهم ضد الحكم الروماني^(١). هذه الملكة الشجاعة التي كانت تلبس الخوذ على رأسها، وتركب الجياد^(٢)، طارها امبراطور الرومان أورليان « Aurelianus » (٢٧٠ - ٢٧٥ م)، وأسرها لموقفها المبدئي من روما ودمر عاصمتها في ٢٧١ م^(٣)، وأخذها أسيرة؛ وبذلك قضى على هذه الملكة العربية المزدهرة.

وقد تركت لنا هذه الملكة العربية آثاراً^(٤) كثيرة وبخاصة حول حصن وبعلبك؛ كما أنها كانت تسك العملة^(٥)، وينقش عليها اسم ملوكها، أما عبادتها فهي مثل عبادة النبط وثنية، وإن دخلتها عقائد رومانية وقارسية^(٦).

أما مملكة النساسنة، فقد ظهرت أيضاً في بادية الشام نتيجة لهجرة يمنية جاءت من جنوب الجزيرة بعد اختلال نظمها الزراعية، واستقرت حول نبع ماء يعرف باسم « غسان »^(٧)؛ فسبت إليه. ويظهر أن الأرض لم تكن مهيأة لها، وذلك لأن بادية الشام كان يسكنها قبائل أخرى منها قضاة^(٨) والضحامة^(٩)، لعلها كانت أيضاً يمنية. ولكن يبدو أن قيام النساسنة يرجع على الخصوص إلى تشجيع الدولة البيزنطية، التي كانت تمانى من غارات البدو، ولذا كانوا يعرفون « بروم العرب »^(١٠) نسبة إلى حلفائهم الروم أى البيزنطيين؛ الذين حاولوا مكان الرومان

(١) انظر - جواد على، تاريخ العرب، ٣، ص ١٠٧.

(٢) انظر - Hitt - Sy., p. 393.

(٣) انظر : Huart et Delaporte, Op. cit., p. 344.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ٢، ص ٣٦٩ - ٣٧٠.

(٥) انظر - Hitt - Sy, p. 394.

(٦) Id.

(٧) ياقوت، معجم البلدان، ٣، ص ٣٧٨ - ٨ - ٦٤٩ ص ٢٩٢.

(٨) للمصوص، مروج الذهب (Prairies)، ٣، ص ٢١٥.

(٩) اليقوتى، تاريخ، ١، ص ٢٣٥.

(١٠) العبرى (Annales) ١ : ١ - ٢١٠. انظر - Cheira - La lutte entre Arabes et Byzantine, Alexandrie, 1947, p. 19.

في هذه المنطقة؛ قامت مملكتهم من بادية الشام حتى دمشق، وعرفت للعامة عواصم منها: «الجابية» و«جلق»^(١)، وهذه الأخيرة لملها اسم آخر «لدمشق». وقد كان القسطنطينية كاليزنطيين يدينون بالمسيحية وإن كان على المذهب اليقوني الخالف لمذهب يزنطة الذي انتشر في الشام^(٢)، ولذا كانوا يعرفون أيضاً باسم: «العرب المنتصرة»^(٣)، كما انتشرت بينهم اليهودية^(٤)؛ لمجاورتهم يهود فلسطين. ويتميز تاريخ القسطنطينية بقوة ملوكهم المسلمين: «بنو جفنة»^(٥)، وكانوا يعرفون للعرب باسم: «ملوك الشام»^(٦). وكانت هذه الدولة غلبة لملقاتها البيزنطيين، بحيث أن جستنيان «Jastinianus» (٥٢٧ — ٥٦٥) منح ملكها الحارث بن جبلة «Arethas Gabalas» لقب ملك «Basileus»^(٧)، لأنه كان يضبط أمور سورية أثناء توجيهه إلى حروب الغرب في اسبانيا وشمال افريقية^(٨)، ولمحارته أعداءه الفرس، واتباعهم عرب العراق^(٩). وقد بقيت مملكة القسطنطينية إلى وقت انسحاب العرب مع حركة الفتوح في الشام، فكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذي اشترك مع الروم في قتال

(١) الهمدان، صفة جزيرة العرب، ١، ص ١٧٩ س ١٧؛ انظر. تولك، أمراء غسان قلها إلى الرمية وأضاف إليها تصحيحات بتدريج وقسطنطين، بيروت ١٩٣٣، ص ٥١ — ٥٢؛ انظر. Demombynes: 1923, p. 32. La Syrie.

(٢) ينسب هذا اللقب إلى بطريرك يعقوب البردعي Jabcou Bardaeus الذي قال بالطبيعة الواحدة للروح، وليس بالطبيعتين كما في يزنطة، وهو ما يعبر عنه بالأرثوذكسية انظر سميد بن بطريق، ١، ص ١٤٦؛ Bell: Op. cit, p. 18 sqq.

(٣) الكامل، ٢، ص ١٩٢ س ١١ — ١٢.

(٤) اليقوني، تاريخ، ١، ص ٢٩٨ س ١٦.

(٥) نفسه، ١، ص ١٧٧؛ انظر تولك، أمراء غسان، ص ٣ و ٩. هذه على اسم جلدنم. انظر. البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت، القاهرة ١٩٢٩، ص ٣٠٩؛ جواد علي، تاريخ العرب، ٤، ص ١١٩.

(٦) ابن اسحق، فتوح مصر، ص ٤٣.

(٧) انظر. Procopius: Hist. of the Wars, I: 17; 45 — 47 (vol. 1, p. 159). كذلك يذكر أن ما سبقه كان يسمى فقط «Phylarchos»، أي، زعيم قبية. انظر. Id.

(٨) انظر. Thoutmin: La Syrie, p. 161.

(٩) ابن قتيبة، المعارف، ص ٣١٤ س ٢؛ انظر. Huart et Delaporte: Op. cit, p. 364.

جيوش العرب بقيادة خالد بن الوليد^(١)، ولكنه هزم وأسلم، ثم تنصرفيا بعد، وهرب إلى القسطنطينية.

وأخيراً قامت في بادية العراق بتشجيع الفرس^(٢) مملكة من قبائل العرب التي هاجرت أيضاً من اليمن في عهد مبكر، وقد اتخذت لها عاصمة على سيف صحراء العرب عرفت « بالحيرة^(٣) » ومنها « الخيم ». وتلاحظ أن تاريخ مملكة الحيرة قديم، فهي خربت^(٤) عدة مرات على أيدي ملوك فارس، نذكر منهم على الخصوص شهبور بن هرمز (٣١٠-٣٧٩ م) - ويسميه اليونان Sapor - الذي بسبب كثرة ما قتل من العرب عرف « بنى الأكتاف^(٥) ». ولكن تاريخ هذه المملكة يرتبط إلى حد كبير بتاريخ زعماء قبيلة « نخم^(٦) »، الذين يظهر أنهم من نسل^(٧) ملوك التتابة، فبنوا فيها القصور المشهورة على نسق قصور اليمن، مثل القصرين^(٨) المشهورين: « الخوررق والسدير ». ولدينا أسماء ملوك قليلة منهم، وإن كانت

(١) ابن كتيبة، الماروف، ص ٣١٦؛ تولدكه، امراء خسان، ص ٤٩.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، طبعة القاهرة، ص ٥٥؛ انظر. O'Leary: Arabia, p. 154.

(٣) للمعوى، مروج الذهب، ص ١٨١؛ فابنها. لعل أصل هذه الكلمة كراي من « حرتا » (انظر. Rothstein: Die Dynastie der Lakhmiden, in al-Hira, Berlin 1899. S. 12؛ جواد على، تاريخ العرب. بغداد ١٩٥٥، ص ٤)، أو حتى من الكلمة العربية « حير ». انظر. يالوت، معجم البلدان، ٣، ص ٣٧٧.

(٤) للرجع السابق، ص ٣؛ ابن الأثير، الكامل، ١، ص ٢٠٤.

(٥) انظر عن هذا التاريخ Op. cit., p. 346: Huart et Delaporte.

(٦) البطوني، تاريخ، ١، ص ١٨٣؛ ابن الأثير، الكامل، ١، ص ٢٢٨-٢٢٩. ولعله فعل ذلك بسبب أن العرب كانت تقاتل واليه هرمز. انظر. Huart et Delaporte: Op. cit., p. 346. وإن ذكر ابن الأثير أن السبب هو أن العرب كانت تظم في بلاد فارس. انظر. الكامل، ١، ص ٢٢٨.

(٧) الدينوري، ص ٥٥.

(٨) أبو القنا، المختصر، ١، ص ٧٠.

(٩) النوري، ١، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

معلوماتنا عن بعضهم لا تعتمدى مصادرهما بمض الأساطير^(١) . ولكن أشهر ملوكهم قاطبة هو المنذر بن النعمان ، للمروف للبيزنطيين باسم « Alamoundaras »^(٢) ، والملقب بابن ماء السماء^(٣) (٥٥٥ — ٥٥٤) ، وهو الذى سار فى مائة ألف من اتباعه ، ليحارب^(٤) البيزنطيين وحلفائهم الفساسنة ، حيث حدثت الواقعة المشهورة عند العرب بيوم « حليلة »^(٥) ، واشترك فيها الشاعر المروف لبيد^(٦) ابن ربيعة . وفى أول الأمر كان سكان الحيرة وثنيين^(٧) على دين عرب الجزيرة ، ويذبحون القبايح للأستام^(٨) ، ولكن يظهر أنهم لكى يتخلصوا من سيطرة الفرس ؛ اعتنقوا المسيحية فى عهد النعمان بن المنذر^(٩) (وهو ابن ماء السماء) المروف « بملك العرب »^(١٠) ، والكنى « أبى قابوس »^(١١) ، وهو الذى مدحه الشعراء مثل :

(١) تذكر منهم جذية بن الأبرش الذى غرقت به طكة فى بادية شمال الجزيرة اسمها « الزباء » وأهلكته — على كل حال فتعد أنها ليست الزباء التى أسرها الرومان — (انظر قصتها . ابن الأثير ، الكامل ، ١ ص ٢٩٩ — ٢٥٠) ، وعمرو بن عدى الذى يظهر أنه انصر على هذه الملكة ، وفى سبيل ذلك جنع أهله ، (انظر نفسه ، ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١) ؛ ولعله أول من اتخذ الحيرة منزلا للالوك (ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٢٩) ، كذلك قد يكون منهم امرؤ القيس الشاعر المروف (أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٧٠ ، الذى توفى سنة ٣٢٨ م .) (عن وفاته انظر . نقش غارة فى Rép. Chron. d'Epig. Arabes ، t. 1, p. 1—2 .

(٢) انظر . Procopius : Hist. of the Wars 1 : 17 ; 1. (vol. I p.145) :

(٣) نسبة إلى أمه التى كان يقال لها ماء السماء لجمالها وحسنها . أبو الفدا ، المختصر ،

١ ص ٧١ .

(٤) الماروف ، ص ١١٤ ؛ Huart et Delaparte : Op. cit. , p. 354 :

(٥) نسبة إلى حليلة ابنة ملك الفساسنة ، التى كانت تلبس لباس المحارير . انظر .

الماروف ، ص ٣١٥ .

(٦) الفرس والشعراء ، ص ٥٠ . توفى لبيد فى أول خلافة معاوية ، وهو حوالا ابن

مائة وسبع وخمسين سنة .

(٧) الماروف ، ص ٢٩٩ .

(٨) تاريخ النسطوريين (Chronique de Séert) ، لى عربى تحقيق Scher

فى (Patrologia Orientalis) ، الجزء ١٣ ، القسم الثانى . ص ٤٦٨ [١٤٨] .

(٩) نفسه .

(١٠) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ٧٢ .

(١١) الماروف ، ص ٣١٩ .

طرفة بن العبد والثابتة الدياني^(١). وقد كان اعتناقهم المسيحية على المذهب النسطوري أو ما يعبر عنه بالكاثوليكية^(٢)، حيث كان منتشراً في منطقة الجزيرة والعراق، وهو مخالف لمذهب يزنطة، فلعل تسمية سكان الحيرة « بالعباد^(٣) » بسبب، أنهم مسيحيون يمدنون الله؛ وقد ظهرت لهم أديرة مشهورة، مثل: دير هند^(٤) زوجة النعمان بن المنذر. ويظهر أن تحول عرب الحيرة إلى المسيحية أخاف الفرس من أن يقتربهم ذلك من أعدائهم البيزنطيين: فنجعل ملكهم كسرى أبرويز (٥٩٠-٦٢٨) يستدرج ملك الحيرة النعمان ويقتله^(٥). ولكن سكان الحيرة - ومعهم القبائل المجاورة - ثارت لمقتله، وهاجت الفرس وهزمتهم في موقعة ذي قار^(٦)، وهذه الموقعة مشهورة في أيام العرب^(٧)، ودلت على قدرة العرب على قتال الأمم الكبيرة. ولكن قبل الإسلام عادت الحيرة - كغيرها من ممالك العرب البدوية - مثل اليمن والبحرين خاضعة لسيطرة^(٨) الفرس تماماً، مما يدل على ضياع سلطة اللخمينيين

(١) انظر . قول الثابتة :

فإنك شمس واللوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منها كوكب
النوري ، ٣ من ١٨٢ ؛ العقد ، ١ من ١٣١ .

(٢) تاريخ النسطوريين . قس المرجع والصفحة . النسطورية نسبة إلى بطريرك اسمه نسطورس « Nestorius » ، أما الكنيسة فهي نسبة إلى بطريرك نسطوري اسمه « Katholikos » .

انظر . Bell : Op. cit. p. 24 — 25 .

(٣) الثابتة ، الفيارات ، تحقيق كوركيس ، بغداد ١٩٥١ ، ص ٢٣ ؛ انظر .

Geschichte der Perser und Araber, Zur Zeit der Nōldeke
(٤) n : Sasaniden Leyde 1879 p. 24 . ولكن ياقوت يقول : أنهم سموها هكذا
بسبب عبادتهم للوك الفرس . معجم البلدان ، ٣ من ٣٨٠ ص ١١ — ١٢ ؛ انظر صده .

(٥) الأغاني ، (طبعة دار الكتب) ، ٢ من ١٣١ .

(٦) تاريخ النسطوريين ، قس المرجع ، ٢/١٣ من ٣٩٥ [٢١٩] .

(٧) المعارف ، ص ٢٩٣ ؛ جاد اللوى ، أيام العرب في الجاهلية ، ص ٦ — ٣٩
هي مكان قريب السكوفة . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ من ٨ — ٩ .

(٨) اللبداني ، ٢ من ٢١٦ .

(٩) المعارف ، ص ٣٢٠ من ١ .

نهايتها ، وإن كانت شوكة^(١) العرب في الحيرة بقيت قوية .

هذه هي صورة لحياة العرب في البادية والحضر قبل ظهور الاسلام ، وهي صورة رتيبة لحياتهم التي اقلبت ، وتغيرت تنيراً عنيقاً بسبب ظهور دين جديد هو دين الاسلام ؛ الذي جاء به النبي محمد ، فوضع حداً بين تاريخ الجزيرة الجاهلي وتاريخها الذي أتى بعد ذلك .

(١) تاريخ التطورين ، ٢/١٣ ص ٥٤٦ [٢٢٦] .

الفصل الثاني

عصر النبوة

تحليل ظهور الأديان - سيرة النبي قبل الدعوة - الوحي - الحنيفية والإسلام - موقف قريش - التحرش بالمسلمين - الهجرة - الصراع بين مكة والمدينة - سقوط مكة - ما جاء به الإسلام في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية .

تحليل ظهور الأديان مسألة دقيقة تناقش فيها العلماء كثيراً : فبعضهم يرون أن عوامل ظهور الأديان يمكن تقصيصها بالبحث العلمي في ظروف المجتمع وتطوره^(١) ؛ وعلى العكس يرى البعض الآخر أن المحرك لأية حركة دينية ذو الفرد^(٢) وليس المجتمع بدليل أن جميع الديانات المعروفة نشأت تحمل أعلاماً شخصية ، مثل : موسى وعيسى ومحمد .

ولكن مهما يكن الاختلاف في أصل نشأة الأديان ؛ فإن تشابهها من أوجه كثيرة يدل - ولا ريب - على أنه لا بد أن يكون لها جميعها أصل واحد تتلاقى عنده ، فضلاً عن أنه يجمعها اسم « الدين »^(٣) . وكذلك من الجدير بالذكر أن الثلاثة

(١) انظر - Tor Andrae - Mah, p. 7

(٢) انظر - دراز ، ص ٥٩ .

(٣) يختلف العلماء في أصل هذه الكلمة ، فظنها مصرية عن العبرية أو الآرامية أو الفارسية أو حتى من العربية « خان » بمعنى اتحاد [انظر - Ency. de l'Isrl, (art. Dfn) t I p. 1002 ؛ دراز ، ص ١٣ وما يليها ؛ فون كيرمر ، الحضارة الإسلامية ، المقالة الأولى ، تعريب طه بدر ، المجلد ١٩٢٧ ، ص ٥٥ - ٥٦] . وهذه الكلمة تأتي في القرآن =

الأديان السماوية المعروفة وهي : اليهودية والمسيحية والإسلام جميعها من أصل ساسي ، وأنها نشأت على تخوم الجزيرة العربية^(١) وفي داخلها ؛ وليس في أماكن متفرقة من المعمورة .

ومن ناحية أخرى^(٢) نجد في القرآن — وهو الكتاب الديني — أن الإنسان لم يسر إلى الأديان ، وإنما هي التي سارت إليه وزلت عليه ؛ فإله لما خلق آدم — أبا البشرية — علمه أنه هو الخالق ؛ الذي يجب طاعته وعبادته ، وأن هذا التعلين الأول لم يقف به عند الإنسان الأول ؛ بل مازال يتمدد بتبليغه الأمم في فترات تقصر أو تطول ، وجعل بذكرهم به على لسان الأنبياء والرسل الذين كان آخرهم محمد .

وليس من السهل عرض سير الأنبياء عرضاً علمياً ؛ وذلك لبعدهم في التاريخ ، وإحاطة الناس لحياتهم بكثير من الأساطير : فمع ظهور النبي محمد في صلب التاريخ فإن معظم ما وصلنا من حياته الأولى جاء عن طريق الرواية الشفوية ، وهي غير موثوق بها إلى حد ما . وعلى العكس يمكننا قطع أن تتببع سيرته سنة بعد سنة منذ هجرته إلى المدينة بعد أن اضطهدته المكيون حتى وفاته ، في القرآن وفي غيره من مصادر التاريخ الموثوق بها ، وهي تقريباً إحدى عشرة سنة .

فتنحى لانعرف تاريخ ميلاده بالضبط ، وإن كانت الرواية تريد أن تجعل مولده عام الفيل^(٣) (أي حوالي ٥٦٥ م) ، وهو العام الذي لم يستطع فيه الأحباش

== بحان مختلفة منها مثلا « الآخرة » (سورة ٣ : ١) ؛ وكان الفقهاء فسروها على أنها تعني المباحث والاعتقادات الألوهية الخاصة بالإسلام . القرآن ٩٨ : ٥ ؛ انظر . دراز ، ص ٢٦ وما يليها ؛ Ency. I, p. 1002

(١) انظر . Bell . Op. cit, p. 13 .

(٢) دراز ، ص ١٥٨ ، انظر هنا الاقتباس .

(٣) لدينا تواريخ مختلفة لمولد النبي ، ولكن لا بد أن تكون قبل عام ٥٦٥ م وهي سنة وفاة الامبراطور جستنيان التي حرض الأحباش على غزو اليمن (انظر قبله) . كما أن البعض ==

الاستيلاء على مكة ، مما يدل على الرغبة في الربط بين مولد النبي العربي وهذا الحادث القوي بالنسبة لقريش .

وقد كان نبي الاسلام — مثل غيره من الأنبياء — ذا حسب ^(١) في قومه ؛ حتى تكون له عصبية وشوكة يستطيع بها أن يبلغ قومه رسالته ، فأبوه عبد الله من أسرة بنى هاشم القوية في مكة ، وأمه آمنة بنت وهب من خيار نساء قريش . وقد اشتهر معظم أجداده في الجاهلية بالسيادة ، أو بالتجارة الرابحة في مكة : فقصي هو الذي يرجع إليه الفضل في استيطان قريش مكة بعد أن قادها في حرب ناجحة ضد خزاعة ^(٢) ، وهاشم هو أول من سن الرحلتين لقريش وهما : رحلة الشتاء والصيف ^(٣) ، وعبد المطلب هو الذي شرف في قومه شرفاً لم يملنه أحد من آباءه ، فأعاد حفر بئر زمزم ^(٤) بعد أن طمست ، وكان يستقى منها الحجاج الوافدين على مكة .

== بجمل مولد النبي يتفق مع وثقة ذي طار (ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ من ١٠) ؛ وإن كان تاريخ هذه الوثقة مثل وثقة القبيل غير معروف بدقة ، وإن كان لابد أن يقع في حكم كسرى أبروز (٥٩٠ — ٦٢٨) الذي قتل النعمان بن المنذر أو بعده بقليل . كذلك نجد عدة تواريخ كلها استنتاجية وقائمة على أساس الرجوع إلى التاريخين المحققين لمجرة النبي في ٦٢٢ م ووفاته في ٦٣٢ م . انظر عن هذه التواريخ التعددة : Blachère : Probl, p, 15 ; L'Age de Mahomet et la, : Lammens . انظر : Mah, p, 31 ; Tor Andrae Chronologie de la Sira. J. A. , 17 (1911) p, 209 — 250.

ومع ذلك فإن جميع المسلمين يحضنون منذ زمن مبكر بمولد النبي في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام بالاعتقاد على ما ورد من أحاديث نبوية عن مولده . انظر : احتفال القاطنين بالمولد . صبح الأعشى (طبعة دار الكتب) ، ٣ من ٥٠٢ ؛ ماجده نظم القاطنين ، الجزء الثاني .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٤ من ٢٠ .

(٢) المعارف ، ص ٥٦ . هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي .

(٣) نفسه ، ص ٣٤ ع ٤ فأبوها ؛ ابن هشام ، ١ من ٧٥ و ٧٩ .

(٤) ابن هشام ، ١ من ٧٨ .

(٥) نفسه ، ٣ من ٧١ ، ٩١ .

وتبدو حياة محمد الأولى مليئة بالمفاجآت : فقد أباه وهو في بطن أمه ، وقد أمه بعد ذلك بقليل ^(١) ، وبقي في رعاية جده عبد المطلب ، ثم عمه أبي طالب ، وكلاهما أهدق عليه من عطفه وحنانه الشيء الكثير . وما أن شب طفلاً حتى اشتغل راعياً ^(٢) للأغنام عند عشيرة بني سعد — مثلما فعل معظم الأنبياء ^(٣) قبله — وقد خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة ^(٤) ، وشهد معه إحدى وقائع البدو المشهورة بحرب « الفجار » ^(٥) ، وقد سميت بهذا الاسم لقيامها في الأشهر التي اتفق العرب على تحريم القتال فيها .

بعد ذلك يظهر لنا محمد كشاب يافع يتزوج من خديجة بنت خويلد ^(٦) ، وهي امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ^(٧) ، وذلك على الرغم من أنها كانت تكبره سنّاً ، وأنها تزوجت قبله مرتين ^(٨) ، وقد أتاح هذا الزواج لمحمد مركزاً ممتازاً في الحياة السكية ، فعاشر عيشة هادئة كلّى حضري يعيش في مدن الحجاز ، وبقي معها فلم ينكح عليها امرأة حتى ماتت ^(٩) ؛ وهو اخلاص ^(١٠) غير عادي في بيئة تعودت تعدد الزوجات ، فولدت ^(١١) له من الأولاد المذكور : القاسم وطارح والطيب ، ومن الإناث : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

-
- (١) قصة ، ١ ص ١٠٧ . توفيت أمه : آمنه بنت وهب بعد ولادته بست سنوات انظر بخصوص نشأة النبي يتما . القرآن ٩٣ : ٦ — ٨ .
 (٢) ابن هشام ، ١ ص ١٠٥ .
 (٣) قصة ، ١ ص ١٠٦ .
 (٤) قصة ، ١ ص ١١٥ ؛ ابن سعد ، ١/١ ص ٧٦ .
 (٥) اللباني ، ٢ ص ٢٦٠ ؛ ابن هشام ، ١ ص ١١٧ فإ بعدها .
 (٦) انظر حقا المبادئ ، صور من التاريخ الإسلامي « أم المؤمنين خديجة بنت خويلد » ص ٢٦ — ٣٦ .
 (٧) ابن هشام ، ١ ص ١١٩ .
 (٨) ابن قتيبة ، للطارق ، ص ٦٥ ص ٥ — ٨ .
 (٩) قصة ، ص ٦٥ ص ٨ — ٩ .
 (١٠) انظر - Bertram : 31 Les Arabes .
 (١١) الطارق ، ص ٦٩ . كذلك كان لقب ابن اسمه إبراهيم ، أعجب من زوجته للصرة سارية (القطبية) . ابن هشام ، ١ ص ١٢١ .

وزاء في هذه المرحلة الأولى من حياته يتزده — مثل غيره من الأنبياء — من اللذومات^(١) : فلم يشترك في عبادة الأصنام مع مواطنيه ، وشب والله بكاؤه ويحفظه من أقدار الجاهلية ؛ لما يريد من كرامة الرسالة^(٢) ، كما حجب إليه الخلوة^(٣) فكان يقضى على عادة العرب القديمة شهراً كل سنة يتحنث^(٤) أى يبحث عن الدين القويم بالتأمل والخلوة في غار من جبل « حراء » ، أحد جبال مكة . كذلك تصرفاته تدل على أنه رجل صادق صريح ، حتى اشتهر بين عشيرته وأهله وسموه « بالأمين »^(٥) ، لاستقامته وكأله خلقه .

وفجأة في سن الأربعين^(٦) يملك محمد موهبة « النبي »^(٧) أو « الرسول »^(٨) ، بمعنى أنه كلف — مثل غيره من الأنبياء أو الرسل^(٩) — بإلقاء رسالة دينية إلى أمته ، وذلك عن طريق ما سماه القرآن « وحياً »^(١٠) أو « جبريل »^(١١)

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٤ س ٢ — ٣ .

(٢) ابن سعد ، ١/١ ص ٧٦ س ٢٥ — ٢٧ .

(٣) ابن هشام ، ١ ص ١٥١ .

(٤) نفسه ، ١ ص ١٥٧ . لعل المقصود بهذه الكلمة البحث من دين إبراهيم أو « الحنيفية » . انظر ، بعده . أما عن جبل « حراء » انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١١٧ .

(٦) للمعارف ، ص ٧٤ .

(٧) القرآن ٦ : ١١٢ : ٧٤ : ١٥٧ . هذه الكلمة لها نفس المعنى في الآرامية والعبرية

انظر . Ency. de l'isl. (art Nabi) 3, p. 857.

(٨) القرآن ٣ : ١٤٤ : ٧ : ١٥٧ . هذه الكلمة أخص من التي لأن كل رسول نبي يحصل بالضرورة رسالة إلهية إلى قومه . انظر . تاج المروس ، ١ ص ١٢١ — ٢ : ٢ Ency. de l'isl. (art Rasûl), 3, P. 1206.

(٩) القرآن ٤ : ١٦٣ : ١٠٤ : ٤٨ .

(١٠) نفسه ٥٣ : ٤ : ابن خلدون ، المقدمة ، ٧٨ ص ٢٦ : انظر . Nöldeke : Qorâns, p. 16 وهي كلمة مشتقة في اللغة الاسرع والاشارة والالهام والكلام الخفى والاستدلال . اللسان ، ٢ ص ٢٥٧ .

(١١) القرآن ٢ : ٩٧ — ٩٨ .

أو «روح القدس»^(١) . ويدوم وصف النبي لهذا الوحي أنه : رؤيا^(٢) أو احلام تأتيه مثل مثل فلق الصبح ، أو سماع دوى^(٣) من الكلام ، أو مثل منصلة^(٤) جرس لا تنقضى إلا ويصير مايراد ، أو طيفاً^(٥) يتمثل له في أفق السماء يدنو منه ويخاطبه ، أو أنه يرى ضوءاً^(٦) ويسمع صوتاً . وهذا الوحي — في رأى ابن خلدون^(٧) — لم يكن إيماء كالتى عند الشعراء أو الكهان يحصل عليه بالاكتماب ، أو الاستماعة بشيء من الدارك الحسية أو التصورات ، وإنما هو انسلخ من البشرية بالفطرة في لحظة غير زمنية أقرب من لمح البصر . ويدون أن زول الوحي على النبي كان شديد الوطأة^(٨) ، بحيث أنه كان إذا نزل عليه في اليوم الشديد البرد تفقد عرقاً^(٩) ، أو أنه يشعر بقشعررة ويشعر لونه وقد تأخذه غشية — وهي في الحقيقة^(١٠) استغراق روحاني — وفي هذه الحالة ويسدها يتلو ما تلقاه^(١١) من الوحي . ومع ذلك فلم يرد على لسان النبي في القرآن أنه رأى للخالق وجهاً لوجه أو سمع له صوتاً .

وقد كان قصد هذا الوحي أن يكلف النبي بدعوة العرب إلى دين أبجداً

-
- (١) قصه ٢ : ٨٧ وكان يسمى أيضاً : «الناموس الأكبر» ابن سعد ، ١/١ : ١٣ .
 (٢) ابن خلدون ، للفتنة ، ص ٣٧٦ — ٣٧٨ .
 (٣) قصه ، ص ٧٣ : ١٩ .
 (٤) قصه ، ص ٧٣ : ٢١ .
 (٥) القرآن ٥٣ : ٤ — ٨١ : ٢٢ — ١٣ .
 (٦) ابن سعد ، ١/١ : ١٢٩ .
 (٧) للفتنة ، ص ٧٣ فافهمها .
 (٨) انظر القرآن (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ٧٣ : ٥) .
 (٩) ابن سعد ، ١/١ : ١٣٢ . لا سئلت عائشة عن الوحي قالت : « يترى عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفحم عنه وأن جبينه ليغضد عرقاً » .
 (١٠) ابن خلدون ، للفتنة ، ص ٧٣ .
 (١١) ابن سعد ، ١/١ : ١٣١ ص ١٢ و ١٩ .

الذي تركوه ، وهو ملة إبراهيم ، أو ما يعرف « بالحنيفية »^(١) : ﴿ وَمِمَّنْ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
١٦ : ١٢٣ ﴾ . ونحن لا ننرف عن عقائد هذا الدين العربي القديم شيئاً كثيراً
إلا ما ورد بخصوصه في القرآن على أنه عبادة الله « رب إبراهيم »^(٢) وحده لا شريك^(٣)
له ، وأنه ليس يهودية أو نصرانية^(٤) . ومن ناحية أخرى نجد أن هذا الدين العربي
القديم قد أخذ في عهد النبي اسماً آخر أصبح يعرف به هو « الإسلام »^(٥) ، وهي
كلمة عربية من « سَلِمَ » ، وتعني الاستسلام^(٦) ، لأمر الله وقبول محمد كرسول لله .
وقد كان كل ما يخص الإسلام من عقائد وأوامر مما يأتي عن طريق الوحي يسمى :
« قرآنًا »^(٧) ؛ وهو بلغة^(٨) العرب في الحجاز وبأسلوب الكتب المقدسة التي

(١) ابن هشام ، ١ ، ص ١٥٢ . اختلف في أصل هذه الكلمة ، فله عربي بمعنى الليل إلى
الدين المستقيم (المصباح اللئير ، ١ ، ص ٢٣٩ — ٢٤٠) أو سريان من الكلمة « hanapa »
بمعنى دين مستقل عن الأديان الأخرى (انظر Tor Andrae : Mah, p. 109 ؛
Blachère : Le Probl. de Mah, p. 22) . ومن ناحية أخرى لا ننرف ما هي
« الحنوية » ، التي كانت لها أتباع بين عرب الحيرة قبل تصورها (انظر . تاريخ التطورين
(P. O.) الجزء ١٣ / ٢ ، ص ٤٦٨ [١٤٨]) ؛ وعلاقتها « بالحنيفية » .

(٢) القرآن ٤ : ١٧٤ ؛ ابن هشام ، ١ ، ص ١٤٤ .

(٣) القرآن ١٦ : ١٢٣ .

(٤) . « وهؤلاء كانوا يهوداً أو نصارى تهتدوا كل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان

من المشركين » ٢ : ١٣٥)

(٥) . « هـ ، ٣ : ١٩ ؛ ٦ : ١٦٢ .

(٦) انظر . « هـ ، ٤ : ١٧٤ ؛ اللسان ، ١٥ ، ص ١٨١ — ١٨٦ ؛ انظر . Ency. de

Le dogme et : Goldziher . ل'اسلام (art Islam) 2, p. 574 — 577
la loi de l'isl. trad. Felix, p. 2 .

(٧) وردت له أسماء مختلفة يذكرها السيوطي منها : « نور ورفان وكتاب وتزويل .

انظر . الاغان في علوم القرآن ، الطبعة الثالثة ، ١ ، ص ٨٦ — ٨٧ ؛ Ency. de l. Isl.
1139 - 1124 . 2, p. 1124 . وهذه الكلمة « قرآن » قد تكون اسماً غير
مشتق لتدل على كلام اقتضت التوراة والانجيل ، أو مشتق من قرنات الفاء بالهمزة أي ضمت أحدهما إلى
الآخر ، أو من القرائن لأن الآيات منها يستقى بعضها البعض ، أو حتى من القراءة انظر . السيوطي .

(٨) يقول السيوطي أن الآراء اختلفت في كيفية نزوله منها : أن جبريل أداها باللفظ أو
أنه نزل باللسان وأن التي علم تلك اللسان وعبر عنها بلغة العرب . انظر . السيوطي ، الاغان ،
١ ، ص ٧٤ — ٧٦ .

نزلت على الأنبياء من قبل . لذلك من الخطأ تسمية هذا الدين بدين محمد^(١)، وذلك لأن غرض محمد لم يكن عبادته كما فعل السحرة بالمسيح ، وإنما غرضه الدعوة لدين « الحنيفية » القديم ، الذي أخذ في عهده اسم : « الاسلام » .

وقد بدأ محمد الدعوة للإسلام أو الحنيفية في أهل بيته وبعض أقاربه وأنه رسول الله إليهم الذي ينزل عليه الوحي ، فأمن به البعض ، ولم يؤمن به البعض الآخر : فكانت زوجته خديجة أول من صدق^(٢) بدعوته ، وإن كان عمه أبو طالب الذي ربه لم يؤمن بها . ثم أنه حاول أن يوسع نطاق هذه الدعوة ، فتوجه بها كما طالبه القرآن^(٣) إلى عشيرته الأقربين — وكان جلهم من كبار رجال مكة — ظناً منه أنه إذا أقنعه سبل ضم عامة العرب إليها ، ولم يكن طريق هذه الدعوة مغروشاً بالورود ، وإنما بالشوك وخرط القتاد .

ويظهر أن زعماء مكة لم تأخذهم الدهشة لدعوة محمد إلى دين إبراهيم ؛ بقدر دهشتهم لقوله إنه رسول الله إلى أمته ، ذلك لأن الحنيفية^(٤) كانت معروفة في الجزيرة وأن الله كان يعرف عند العرب على أنه « رب الكعبة »^(٥) ، وأنه الواحد فكان يقال في الجاهلية « أعيد بالواحد »^(٦) ؛ وإن كان تفسير ملة إبراهيم — كما ينقل رواية العرب — ينسب إلى قبيلة خزاعة^(٧)

(١) انظر . Bertram : Les Arabes, p. 32 .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٠٠ .

(٣) القرآن ٢٦ : ٢١٤ .

(٤) ذكرها أمية بن أبي الصلت (م ٦٢٤) ، وتنبأ بها جاحظ في شعره .

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنفية زور

انظر . كتاب شعراء اللحية ، ج ١ ، الأب شيخو ، بيروت ١٨٩٠ ، ١ ص ٢١٩ .

(٥) الميوان ، ١ ص ٣٢٩ .

(٦) ابن هشام ، ١ ص ١٠٢ .

(٧) السكبي ، الأسماء ، ص ٨٠ .

التي كانت تسكن مكة قبل قريش ودعت العرب إلى عبادة الأوثان ، وجعلتها
 صلة^(١) بين الله وقريش . بل وجد في مكة قبل ظهور محمد جماعة^(٢) من قريش ؟
 تفرقت في البلاد تلتص دين الأجداد . وقد روى القرآن الحوار الذي كان بين
 النبي والمكيين ، وهو يدل على عدم اكتراثهم بدعوته : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ
 بِكَ حَتَّىٰ تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ
 نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُفَجِرَ الْأَنْهَارَ خَلَاكًا فَعَجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
 زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَاللَّاتُكَةِ قَبِيلًا ۚ ١٧ : ٩٠ - ٩٢ ﴾ .
 ولكن محمد لم يرض أن يقسب إليه معجزة غير نزول الوحي عليه من قبل الله ،
 فكان يرد عليهم بقوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۚ ١٧ : ٩٣ ﴾ . ومع ذلك لم يحمل رفض النبي الآتيان بالمعجزات من أن ينسب
 إليه صفات خارقة ، فبمضهم يؤكد أنه حين ولادته خرج نور أشاء الشام^(٣) ،
 وأنه وهو صغير شقت لللائكة بطنه وغسلوا قلبه بالثلج حتى أصبحا نصين^(٤) ،
 وأيضا فسروا سورة « الإسراء »^(٥) ، بأن الله وضعه إلى السماء ، وأنه قطع رحلة
 سماوية في بضع ساعات من الليل .

والذي يجعل المكيين أيضا يمارسون دعوة محمد ، هو الخط من عبادة
 الأصنام ، فلمهم كانوا يدركون بحق اضمحلالها وتدهورها ، ولكن التناول عليها

(١) القرآن ٣٩ : ٤ .

(٢) يذكر ابن هشام أسماءهم ، وهم أربعة رجال : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ،
 وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو . سيرة ، ١ ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن سعد ، ١/١ ص ٩٦ ص ٢٣ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ١٠٥ - ١٠٦ هنا مع أن الطبع لم يرف إلا في ثلاثة
 قاطعين في مصر . ماجد ، نظم القاطعين ، ٢ ص ١٠٢ هامش (٤) .

(٥) القرآن ١٧ : ١٠١ البخاري ، صحيح ، القاهرة ١٢٧٨ ص ٢ ، ١٨٥ ف مسلم
 صحيح ، بولاق ١٢٩٠ هـ ، ١ ص ٥٩ ف الطبري ، تفسير ، ١٥ ص ٤٣ انظر Ency,
 590 - 569 t2. p. 569 (art Isra') . الميل للفكرين الحديثين إلى القول بأن
 سورة الإسراء تنفي الإسراء بروح محمد نوح جسد ، أو أنها رؤيا . انظر . ميل ، حياة
 محمد ، ص ١٩٥ : Tor Andrae : Mah, p. 49

مبتغاء التناول على عبادة الأجداد التي تعودوا عليها منذ أن جاءت قريش إلى مكة، فهي موارضة الكبرياء . ثم إن ذكر محمد للوحي والبعث والحساب اعتبرت عندهم بدءاً لا يقبلها إيمانهم أو عقلمهم . ويظهر القرآن تمجيهم^(١) من دعوته بقولهم : **وَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** . ١٧ : ٩٨ ﴿

وما جعل المكين ينظرون شذراً إلى الإسلام ؛ أن تفوذهم كان يرتبط أشد الارتباط بعبادة الأصنام التي جمعها عرب الجزيرة في الكعبة ، فهي منبع تفوذهم ، وسبب سيطرتهم عليهم - كما كان وجود هذه الأصنام في مدينتهم سبباً في وفود آلاف الحجاج إليهم كل عام ؛ فوقف الحج إلى مكة ستكون نتيجته حتماً القضاء على وسائل معاشهم^(٢) وتجارتهم الواسعة . وفي الواقع إن محمداً يدعوته إلى الإسلام لم يكن يريد أن ينال من تفوذ مكة أو الكعبة ، بل على العكس كان يرى دائماً أنه من واجبه المحافظة على هذا التفوذ ليستغله هو في نشر دعوته بين العرب إذا ما تحول أهلها إلى الإسلام ، خصوصاً وأن مكة ترتبط تاريخها بإبراهيم ، الذي إليه ينسب الحنيفية أي الإسلام .

أضف إلى ذلك أن ميونات^(٣) قريش منذ سكناها مكة كانت تتنازع^(٤) على الزعامة ، بالسيطرة على وظائف الكعبة من رفاة وسقاية ... الخ ، بحيث أن الحرب كادت تدمر القرشين^(٥) في أول سكناهم مكة ، لولا تحاجزهم بالصلح . وقد تجدد

(١) انظر أيضاً القرآن ٥٦ : ٤٧ .

(٢) Kulturgeschichte des Orients unter : Von Kremer . Essays : Khuda Bukhsh & den Chalifen. Wien 1875. vol I. p. 24 Indian a d Islamic. London 1912, p. 8

(٣) انظر قبله .

(٤) القرشي ، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبين هاشم ، ص ٢٠٧ .

(٥) هزمت قريش بسبب النزاع على هذه الوظائف إلى قريش : أحدهما بنو عبد مناف =

النزاع على الزعامة بين هاشم — وهو أحد أجداد النبي — وأمية بن عبد شمس — ومن نسله الأمويون — ولكن أمية عجز^(١) عن الحصول عليها أمام هاشم ، واضطر إلى أن يرجع إلى الشام ؛ فكانت هذه أول عداوة^(٢) وقعت بين بيتي هاشم وأمية ، كما يلاحظ ابن الأثير . ويظهر أن الأمويين في وقت ظهور الدعوة الإسلامية كانت لهم الزعامة الحقيقية في مكة على الرغم من أن بني هاشم كانت لهم السيطرة على بعض وظائف^(٣) الكعبة ، وذلك لأن أبا طالب الذي ورث الرفاضة والسقاية عن جده عبد المطلب كان فقيراً^(٤) لا مال عنده ، هذا فضلاً عن أن زمام التجارة في مكة كان يشرف عليها أبو سفيان^(٥) من البيت الأموي . ولذلك سنجد أن البيت الأموي سيكون من أشد المعارضين للإسلام ، خوفاً من أن تعود الزعامة لبني هاشم إذا ما نجحت دعوة النبي .

ومهما يكن لم يتعرض للشركون^(٦) — وهي تسمية القرآن للوثنيين — لمحمد طالما لم تكن آلتهم موضع هجوم ، فلما بدأ يحقر^(٧) من شأنها ،

— ومن انضم إليهم ، الذين عقدوا حلفاً فيما بينهم مؤكداً لإراحتهم في نيلها . ولكن يؤكدوا على أنهم ذلك غسوا أيهم في جنة مملوءة بالطيب ، وقاسموا « الطيبين » ، كما أن أعداءهم في عبد القار ومن انضم إليهم عقدوا عند الكعبة حلفاً على ألا يخافوا في الحصول عليها وسماوا « الأخلاف » ؛ ولكنهم اسطلعوا ورضوا بحصة هذه الوظائف بينهم . ابن الأثير ، الكامل ، ١ ، ص ٢٦٧ .

(١) قصة ، للرجع ، ٢ ص ١٠ س ٩ .

(٢) قصة ، ٢ ص ١٠ س ٦٦ — ١٧ .

(٣) ليس لدينا تفصيلات عن توزيع هذه الوظائف في بدء عهد الإسلام ، وإن كنا نعرف أن بني هاشم اقتصر إشرافها على السقاية والرفاضة . انظر . قصة ، ٢ ص ١٤ س ١٧ فافدها .

(٤) قصة ، ٢ ص ١٤ س ١٧ — ١٨ .

(٥) قصة ، ٢ ص ٨٠ .

(٦) القرآن ٤١ : ٦ .

(٧) ابن هشام ، ١ ص ١٨٣ .

ويسمهم « بالكفار^(١) » ، أخذوا يتحرشون به ، وبدءوا بتوجيه تحذير^(٢) إلى أسرته بنى هاشم ، بحيث اضطر محمد أن يجتمع سراً في شعاب الجبال ، أو في بعض المنازل . وكانت الآيات القرآنية التي تنزل عليه في ذلك الوقت ترسم للمسلمين أصول الدعوة الجديدة ، وهو طابع الدعوة في مكة .

ولكن استمرار الدعوة جعل المشركين يهاجون المسلمين ، وبخاصة الأرقاء والضعفاء منهم ، فكانوا يذنبونهم بالضرب والجوع والعطش ، ويسحبونهم على الرمال الساخنة وقت الظهيرة^(٣) . فلما رأى النبي ما أصاب المسلمين من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنع عنهم الشر ، عرض عليهم الهجرة إلى الحبشة^(٤) ، ولعل ذلك بسبب أنها أقرب الديار للجزيرة العربية ، ولأن شمال الجزيرة كان وقتئذ مسرحاً للحرب بين يزنطة وفارس ، ولأن سكانها مسيحيون من أهل الكتاب وليس من المشركين^(٥) . ومع ذلك لم يترك مشركو مكة المهاجرين آمنين ، بل تبعموم إلى هناك يضايقونهم ويحرضون الحبشة^(٦) عليهم . ورغم ذلك نجد أن شخصيتين كبيرتين في مكة هما : حمزة ابن عم النبي و عمر^(٧) ، يتحولان إلى الإسلام ، مما كان له أثره في تقوية الدعوة الإسلامية ، ودخول المترددين فيها ، بل ورجوع المهاجرين من الحبشة ؛ ليكونوا بقرب النبي .

عندئذ نجد المشركين يتخذون خطوة جديدة في القضاء على هذه الدعوة التي تزايد اتباعها ، فقدوا فيها بينهم عهداً سموه « بالصحيفة^(٨) » تماهدوا فيه على

(١) القرآن ٨ : ١٤ .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٣) قه ، ١ ص ١٦٧ .

(٤) قه ، ١ ص ٢٠٨ .

(٥) انظر . Ency. de l. Isl. (art Muhammad) 3, p. 691 .

(٦) ابن هشام ، ١ ص ٢١٧ .

(٧) ابن الجوزي . تاريخ عمر بن الخطاب ، تصحيح حسن المصاوي ، ص ١١ — ١٢ .

(٨) ابن هشام ، ١ ص ٢٣٠ . فاما حينئذ . سباه التي عند اسلامه « ظروفا » لأن الله فرق

بين الحق والباطل .

مقاطعة بني هاشم وعدم التعامل معهم : فلا يؤاكلونهم ، ولا يشاربونهم ، ولا يبايعونهم ، ولا يناكحونهم ، ولا يكلمونهم حتى ينبدوا محمداً والمسلمين ؛ ولكي يؤكدوا على أنفسهم قداسة هذا الهد وضمو الصحيفة في جوف الكعبة . ومع ان كثيراً من بني هاشم أنفسهم لم يؤمن بدعوة محمد ، فقد رأوا أن سحب حمايتهم لواحد منهم ترولاً على تهديد منافسيهم بني أمية — الذين تزعموا المعارضة كما ذكرنا — يعتبر أمراً مهيناً في نظرهم ، ولذلك صبروا على هذا الحصار ثلاث سنين .

ولكن على أثر وفاة أبي طالب م النبي وخديجه زوجته ، بالغ الشركون في الاعتداء على النبي وطعموا^(١) فيه ، حتى كان من أعدائه من هم من أفراد أسرته ، مثل : عمه أبو عتبة ، وهو يكنى بأبي لهب^(٢) ، فكان يستخر منه كلما وجده ، ويحمل أسرته الشوك^(٣) لطرحة في طريقه حتى يقره ، وبدأ النبي يفكر في الهجرة من مكة ، إذ كما يقول المثل : « لا كرامة لنبي في وطنه ».

فأول ما فكر النبي في الهجرة إلى الطائف^(٤) ، وهي قرية تقع في جنوب مكة ، لأن سكانها — وهم من قبيلة تقيف — كانت تربطهم بقريش صلة القرابة ، فضلاً عن أنه كان لأغنياء الكيين فيها أموالك ويساتين^(٥) ولكن أهل الطائف رفضوا حمايته ، لأنهم مثل الكيين يسمدون الأصنام ، وعلى الخصوص صخرتهم الربعة المروفة باسم «اللات»^(٦) ، التي كانت تعتبر في نظرهم أم الآلهة «الربة»^(٧).

(١) ابن هشام ، ١ ، ص ٢٧٩

(٢) سمي هكذا لجأه . للطوف ، ص ٦٠

(٣) أصبح يضرب بها النمل فيما بعد ، فكان يقال : « أخسر من حلة الحلب » . انظر . الليثاني ، ١ ، ص ١٧٢ . انظر أيضاً القرآن ١١١ : ١ — ٥ .

(٤) ابن هشام ، ١ ، ص ٢٧٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ، ص ١٠ فا بيدهما .

(٥) فوح البلدان ، ص ٥٦ ؛ انظر . قبله .

(٦) القرآن ٥٣ : ١٩ ؛ الأصنام ، ص ١١٦ و ١٠٩ ، انظر . قبله .

(٧) الزبيدي ، تاج العروس ، ١ ، ص ٢٦٢ ؛ أصنام ، ص ١٠٩ ؛ انظر . قبله .

ولذلك رجع النبي إلى مكة ؛ بعد أن أهاه^(١) سفهاء تهيف ، في حياية أحد تجار الطائف الكبار .

عندئذ توجه النبي بدعوته من جديد إلى الوافدين في موسم الحج من عرب يثرب ، الواقعة شمالي مكة ؛ لئلا هؤلاء يجيرونه . فقد كان يسكن يثرب القبيلتان الأوس والخزرج ، اللتان جاءتا إليها بعد انهيار سد^(٢) مأرب المشهور في اليمن ، ويظهر أنهما كانا يتنافسان على الزعامة فيها ، بحيث وقعت بينهما حروب كثيرة أشهرها يوم « بعاث »^(٣) ؛ وكانوا وثنيين يمدون صنماً اسمه « عناة »^(٤) . كذلك كان يسكن يثرب جماعة من اليهود ، وهم ثلاث قبائل : بنو القينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، ولعلمهم استوطنوها منذ هجرتهم من فلسطين ، أو هجرتهم من اليمن بسبب اضطهاد الحبش لهم ؛ وقد اختلط هؤلاء اليهود بالعرب في يثرب ، وصارت أحوالهم مثلهم^(٥) ، واستحالت لغتهم أيضاً وأسماءهم عربية^(٦) ، وإن كانوا — مع ذلك — يعيشون في أماكن خاصة بهم سموها « آلام »^(٧) جمع « أطم » ، عبارة عن قلاع تشتمل على بيوتهم ومساكنهم . ويظهر أن هؤلاء اليهود بعد أن كانوا — مثل الأوس والخزرج —^(٨) يتنازع بعضهم مع بعض ، أصبحت

(١) ابن هشام ، ١ ص ٢٧٩ .

(٢) المختصر ، ١ ص ١٠١ .

(٣) انظر . ديوان يونس بن الخليل ، ص ٢٥ ؛ على مظهر ، الصيغة ، ص ٢٣ . لعل المقصود بهذه الكلمة الخروج للفرار .

(٤) القرآن ٥٣ : ٤١٩ : الأصنام ، ١٣ — ١٤ .

(٥) ابن خلدون ، للفتنة ، ص ٣٤٨ ص ١٦ — ١٧ . يرى ولقسنون — المؤرخ اليهودي الحديث — أن يهود يثرب أقرب إلى النصر اليهودي منهم إلى النصر العربي .

انظر . ولقسنون ، تاريخ اليهود ، ص ١٦ .

(٦) ولقسنون ، تاريخ اليهود ، ص ٢٠ .

(٧) الروض الآف ، ٢ ص ٥٤ ؛ ولقسنون ، تاريخ اليهود ، ص ١١٧ . وبالبرية تعني المكان المغلوق (انظر . ولقسنون ، ٢ ص ١١٧) . ولعلمهم أخذوه عن نظام بناء بيوتهم في فلسطين . انظر . Mohammed en de Joden te Medina : Wensinck . Leiden 1908, p. 44.

(٨) ديوان يونس بن الخليل ، ص ٣١ ؛ انظر . ولقسنون ، ص ١٦ .

يديم معظم أراضي يثرب وتجاريتها وصناعتها، أما الأوس والخزرج فكانوا من مواليهم^(١) أى أتباعهم؛ كما تهود^(٢) من هؤلاء قوم لمجاورتهم لليهود.

واستطاع النبي أن يؤثر في قلوب بعض الحجاج من الأوس والخزرج، خصوصاً وأنهم كانوا على سمع من روايات أخبار اليهود عندهم بظهور المسيح^(٣) المنتظر، أو للتقذ في آخر الزمان، فضلاً عن أنهم كانوا يطمعون في وجود نبي لهم وكتاب مثلاً عند اليهود. وقد قبل دعوة منهم في أول الأمر عدد قليل يبلغ اثني عشر رجلاً بينهم امرأة واحدة، وبايعوه عند مكان بين منى ومكة اسمه «المقبة»، ولذلك سميت: «بيمة^(٤) المقبة الأولى» نسبة إلى هذا المكان، أو «بيمة النساء^(٥)» لأنهن لم تكن إلا بيمة على الدين فلم يأخذوا على أنفسهم فيها عهداً بمحايته، حتى فكروا ملياً في الأمر خوفاً من قريش.

ولكن الإسلام كتب له البقاء، فقد حضر وفد من اليثريين إلى مكة عند حلول الموسم الجديد — بعد عامين من بيعتهم الأولى — عدده ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، وكان عهدهم إليه هذه المرة صريحاً في دعوة ومنه جميع المسلمين إلى يثرب، وقبولهم لأي تحد من قريش أو غيرها، وهو ما عبروا عنه بحرب الأسود والأحمر، وسميت: «بيمة المقبة الثانية^(٦)». فضلاً هاجر معظم مسلمي مكة إلى يثرب، فلما علمت قريش بذلك استنشاطت غضباً وراحت تدب مؤامرة في دار الندوة^(٧) لاقتيال النبي، الذي ما علم بذلك حتى تسلل خفية هو

(١) ابن هشام، ١ ص ٢٨٦.

(٢) البغوي، تاريخ، ص ٢٩٨ س ١٤ — ١٥.

(٣) ابن هشام، ١ ص ١٠٢ في انظر لرنولد، الدعوة إلى الاسلام، ترجمة حسن

إبراهيم وعابدين والنحراوى، المجرة ١٩٤٧، ص ٣٠.

(٤) ابن هشام، ١ ص ١٣٤.

(٥) نفسه، ١ ص ٢٨٨ انظر. عن عقبه بسجم البليان، ١ ص ١٩٢.

(٦) نفسه، ١ ص ٢٨٨ — ٢٨٩.

(٧) نفسه، ١ ص ٢٩٣ فما بعدها.

(٨) ابن سعد، ١/١ ص ١٥٣ س ١٧.

وأبو بكر مترماً طريق يثرب إلى الشمال ، مختفياً في الغارات^(١) والكهوف المنتشرة على طول الطريق . فلما وصل سالماً دخل يثرب وسط ترحيب أهلها ، وسميت بهذه المناسبة « المدينة »^(٢) ، وهي التي سترقع شهرتها إلى شجرة مكة وصنماء ، وستصير عاصمة الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الأوائل . وقد عرف مجيء النبي إلى يثرب « بالهجرة » ، وهي من الفعل « هجر »^(٣) ، الذي كان يبنى عند العرب خروج البدوي إلى المدن ، وتاريخها يوم الاثنين لإثنتي عشرة^(٤) ليلة خلت من ربيع الأول (٢٤ سبتمبر ٦٢٢ م) .

وكان أول ما قلته النبي في المدينة هو بناؤه المسجد^(٥) ، وهي كلمة وردت في القرآن^(٦) ، وعرفت في الجاهلية^(٧) على أنها اسم البيت الذي تطوف حوله القبائل ، ولكن في الإسلام أصبح المسجد هو مكان العبادة عند المسلمين . وكما كانت ساحة الكعبة لا يجوز القتال فيها وتعرف « بالحي » أو « الحرم »^(٨) ، كذلك أصبح مجموع المسجد في الإسلام « حرماً » ؛ لا يجوز القتال فيه ، وغير قابل

(١) أمها غار ثور للجمهور ، حيث ينقل الرواة أن النبي كان راکباً في حجرته ناقة « القصواء » النورية ، ١٠ من ١١١ .

(٢) ابن خلدون ، للقدمة ، ص ٢٨٣ . وهي سميت بأسماء أخرى ، منها : مدينة الرسول أو دار الإسلام أو أرض الله اظر . الوائلي قروح الشام ، تحقيق Lees ، ص ٤٥ — ٤٦ ملاحظات مجمع اللسان ، ص ٧ من ٤٢٥ فما بعدها .

(٣) اللسان ، ص ٧ من ١١٠ فما بعدها ؛ اظر . (Ency. de l'isl. (art Hidjra)) ، 2, p. 321.

(٤) الطارف ، ص ٧٥ من ٩ — ١٠ ؛ اظر . Mohammed. Erster: Crimme . Tell. Münster 1892, p. 47.

(٥) ابن خلدون ، للقدمة ، ص ٢٨٣ ؛ اظر . (Ency. de l'isl. (art Masjid)) ، 3, p. 362.

(٦) القرآن ٢ : ١٤٤ و ١٨٧ .

(٧) لسان العرب ، ٤ من ١٨٨ ؛ طب الدين ، كتاب الأعلام ، ص ١١ من ٨ . هذه الكلمة وجدت أيضاً في النقوش الآرامية والنبطية والعبرية وحتى الحبشية اظر . Ency. de l'isl. , 3, p. 362 . وعلى العكس فإن كلمة جامع لم تحصل إلا في الأزمنة الأخيرة . اظر . فون كيرمر ، الحضارة الإسلامية ، ص ٨٨ هامش (١) .

(٨) اظر . Le Pèlerinage, p. 1 : Demombynes .

للتنجيس^(١). وقد كان مسجده النبي بسيط^(٢) البناء، فلم يكن غير فناء ضيق، يحيط به جدار من اللبن، وليس فيه غير مكان واحد مسقف، ينطيه الجريد المثبت على جذوع النخيل؛ أما بقية أجزائه فكانت مكشوفة؛ وقد أفرد النبي الجزء المقوف لبعض من جاء معه من مكة ولم يجدوا مأوى، وسموا لذلك «بأهل الصفة»، أي الذين يأوون إلى صفة المسجد، وهو المكان المقوف. وقد بقي هذا المسجد خالياً من كل مظاهر الترف؛ إلا من حجرات أو بيوت^(٣) بناها النبي حوله، ولكن أعيد بناؤه في عهد الأمويين^(٤) وأدخلت فيه المقصورة والحراب والنبر والأعمدة الرخامية والمقود.

كذلك كتب النبي دستور الجماعة الإسلامية الأولى بين أهل يثرب — الذين أصبحوا يعرفون بالأنصار^(٥) — والمسلمين من قريش وهم المهاجرون، وهو مأخوذ أيضاً «بالصحيفة»^(٦). وقد جعل من المسلمين «أمة»^(٧) تسودها الوحدة من دون الناس «واحدة»، أو جماعة دينية قائمة بذاتها^(٨)، وذلك بالترابط بينها «يتماثلون»^(٩)، حتى في التخفيف عن أثقل الدين ولا يجد قضاءه وليس له ولاء ولا عشيرة «مُفرَّج»^(١٠). ولكي يحتفظ لهذه الأمة بكيانها تجده ينظم

(١) التورى، ٤، ص ٤؛ انظر. Lammens. Etudes sur, le siècle des Omeyyades, p. 115.

(٢) البلاذري، فروع، ص ٦؛ انظر. 3, p. 364. Ency. de l'Is.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٣.

(٤) انظر. بعده.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٣.

(٦) سيرة ابن هشام، ١، ص ٣٤١ — ٣٤٤؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ١ — ٧.

(٧) هذه الكلمة مختلفة غير معدة، فقد نعت في الغالب طائفة دينية انظر. التراكم

١٠ : ٤٧؛ انظر. The Arab Kingdom transl. M. Weir. : Wellhausen.

Ency. de l'Is. (art Umma) t 4. Calcutta 1947, p. 7; 11

p. 1069 - 1070.

(٨) انظر. الرئيس، النظريات السياسية الإسلامية، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٠؛ هامش (١).

(٩) انظر. Dozy. Supplément aux Dictionnaires arabes, 2 ed.

t 2, p. 153 sqq.

(١٠) انظر. مجموعة الوثائق، ص ٣٤١.

شئونها الحربية، إذا ما اضطرت إلى الخروج للغزو « غزية » : فنص على أن تتناوب جماعاتها الغزو « بمقب بعضها بعضاً » ؛ كما نظم مسألة الديارات « الماقل أو عقل »^(١) ، وفداء الأسير « عانيهم »^(٢) ، وذلك بأن تتكفل كل جماعة في هذه الأمة بهما فيما بينها . ومن ناحية أخرى نظم النبي في هذه الصحيفة العلاقة بين المسلمين واليهود في يثرب ، فأُتسِن هؤلاء على دينهم ، وأقرَّهم على أموالهم ماداموا مع المسلمين ، بل سمح لهم بأن « يُنفق » عليهم مع المسلمين في حالة محاربتهم في صفوفهم ، ونص على أن يكونوا معهم ضد من يدم يثرب من الأعداء ، وأن لا تجار قريش ولا من من نصرها . ولكي يستميلهم حتى يتوفر لعداء قريش حول ^(٣) القبلة في الصلاة من مكة إلى القدس ، وهي أيضاً بقعة مقدسة لوزود الأنبياء إليها . ولكن سرعان ما قدر النبي ضرورة الاحتفاظ لمكة بنفوذها ، خصوصاً وأن دعوته ترتبط أشد الارتباط بدين إبراهيم ، فأعاد القبلة كما كانت إلى الكعبة .

وفوق ذلك كانت الهجرة إلى المدينة سبباً في تحول هام في الدعوة الإسلامية نفسها : ففي مكة لم يكن دور النبي غير دور ديني ، فكانت سور القرآن لا تتناول إلا أمور الدين خالصة ، أما في المدينة فخياً أصبحت للنبي الزعامة السياسية على « الأمة » الإسلامية ، كانت سور القرآن في المدينة — بالإضافة إلى استكمالها فروض الدين — تبين تفاصيل هذا المجتمع السياسي — الديني ؛ بحيث أصبح القرآن أشبه بقانون دستوري لهذه الأمة ، مما ميز هذا الدور النبوي بعد الهجرة .

ولكن الكيبن الذين رفضوا دعوة الإسلام ، ووقفوا منها موقف العداء ، أخذوا في الاستمئاد لكسر شوكتها ؛ بعد أن تقام خطرهما ، بسبب هجرة النبي

(١) انظر . الصباح للنير ، ٢ ص ٦٤٧-٦٤٨ .

(٢) انظر . نفسه ، ٢ ص ٦٦٥ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ٣٣٨ . الثاني هو الأسير .

(٣) المعارف ، ص ٧٥ س ١٥ — ١٦ ؛ انظر Grimme I : Mahommed , p. 57; 71 .

إلى يثرب : فقد كان التجاء المسلمين إلى هذه المدينة ، التي تقع على طريق مكة التجارية في رحلتها إلى الشام ، مما يجعل أسباب ما يشهرون في خطر شديد . ثم إن قبول يثرب إيواء محمد وأصحابه من المهاجرين يعتبر بالنسبة للمكيين تحدياً وجرحاً لكبريائهم . وقد كان الخوف من غدر المكيين هو الذي دعا الرسول إلى أن يرسل من وقت لآخر بمض السرايا^(١) ؛ لترصد عن كذب تحركات المكيين . ولا ريب أن الهجرة قد خلقت في المسلمين قوة هائلة للدفاع عن عقيدتهم التي فروا بها من اضطهاد المكيين ، فترى الوحي الذي ينزل على النبي يدعو إلى الدفاع عن النفس ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِينَ ﴾ ٢ : ١٩٠ . ولكن حدث لإحدى السرايا ؛ أن الحساس الذي أتاهها من طبيعتها البدوية دفعها إلى مهاجمة قافلة^(٢) قريش ، كانت في طريقها إلى مكة ، فقتلت مكيّاً وأسرت اثنين . وقد كان في الإمكان لو أراد القرشيون السلام تسوية^(٣) هذه الحادثة خصوصاً وأن النبي أعلن استمداه فدية^(٤) الأسيرين . ولكن القرشين كانوا مدركين خطورة وجود المسلمين في طريق رحلتهم التجارية إلى الشام بحيث أن أبا سفيان لما أقبل من الشام في غير^(٥) قريش عظيمة اضطر أن يسير بحذاء البحر الأحمر لينجو بالبر والمال^(٦) ؛ فأتخنوا هذه الحادثة تسكناً لمهاجمة المسلمين . فكان هذا الهجوم هو بدء الصراع بين مكة والمدينة ، وهو صراع لم تتعود عليه الجزيرة العربية من قبل ، إذ أنه ليس صراعاً بين قبائل ؛ وإنما هو صراع على المقيدة ، وهذا ، لم يسمح به من قبل في تاريخ الحجاز ، وكان لا بد من القضاء على أحدها .

(١) ابن هشام ، ص ٤٢٣ — ٤٢٤ انظر Sprenger : Das Leben und die Lehre des Mohammed, Zweite Ausgabe, Berlin 1869 3 p. 105-109

(٢) ابن هشام ، ص ٤٢٥ .

(٣) انظر - Bertram : Les Arabes, p. 41

(٤) ابن الأثير ، الكليل ، ص ٢ : ٨٠ .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه ، ص ٨٤ س ٩

ففي يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان من السنة^(١) الثانية من الهجرة (١٤ مارس ٦٢٤ م) خرج حوالى ألف^(٢) محارب من مكة يقودهم شيخ بنى أمية أبو سفيان - وم أعداء الهاشمين - إلى الشمال لمحاربة المسلمين في المدينة. ولكن النبي أسرع بالخروج إليهم في قوة عددها ثلثمائة^(٣) وبضمة عشر رجلاً ، وعسكر بهم في منطقة ماء اسمها « يَدْرُ »^(٤) ، عند قاعدة جبال^(٥) قرب البحر الأحمر ، بين مكة والمدينة^(٦) . وقد تحارب الطرفان بالطريقة التي كانت القبائل البدوية تحارب بها في الجاهلية ، وذلك بأن يتراص المحاربون صفوفاً ، وأن تبدأ المركة بالبارزة فرادى ، فيثير المدوين منظر الدم ، فياتحان . وكان النبي يقدر النتيجة التي ستترتب على المزيمة في هذه الموقعة ، لذلك انسحب إلى عريش^(٧) مرتفع ، يُبنى له ليكون بمثابة الراية للمقاتلين المسلمين ، وما فتى يتهل إلى الله لنصرة المسلمين ، حتى قال في إتهاله : *« يا الله إن تهلك هذه المعصية لا تميد »* . ويدو أن مظهر النبي في إتهاله كان سبباً في تقوية الروح المنوية عند المسلمين ، فتنلبوا في مبارزاتهم الفردية مما دعاهم إلى القتال بشدة عند الالتحام؛ بحيث اضطر المكيون إلى الانسحاب ؛ بعد أن تركوا وراءهم أشلاء سبعين قتيلًا وكثيراً من الأسرى^(٨) .

ومع أن هذه المركة هي مركة بين المسلمين وأعدائهم الذين أجبروهم على ترك بلدهم ، والذهاب إلى النبي ؛ إلا أن النبي أمر بمعاملة الأسرى بالإحسان :

(١) المعارف ، ص ٧٨ ص ٩ .

(٢) ابن هشام ، ١ ص ٤٣٦ .

(٣) المعارف ، ص ٧٥ .

(٤) قس ياقوت ، معجم ، ٢ ص ٨٨ .

(٥) انظر : Hamidullah : Les Champs de Bataille au temps du Prophète. R. E. I. année 1939, p. 8

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ١٢٨ .

(٧) ابن هشام ، ١ ص ٤٣٩ فإيضا . يوجد الآن مكان العريش منجد ، يظهر

أنه بنى في عهد المايك . انظر . Op. cit, p. 4 : Hamidullah

(٨) اختلف في عدد القتلى والأسرى . ابن هشام ، ١ ص ٥١١ .

فكثير من سادات قريش اقتدوا^(١) بالمال ، أما الفقراء فقد أطلقوا دون فداء^(٢) . وكان من الأسرى أبو الماسي بن الربيع — زوج زينب ابنة النسي — التي بعثت إلى والدها بقلادة لها ، كانت خديجة قد أهدتها إليها عند زفافها إلى أبي الماسي ، فلما رآها النبي رق لها رقعة شديدة ، وطلب أن يرد لها أسيرها^(٣) ؛ مع أن الصحيفة كانت تمنع اجارة المشرك^(٤)

وكان للنصر في يوم بدر^(٥) أثره في قوة معنويات المسلمين ، فقد تغلبوا وهم الفئة الأقلية على الفئة الكثيرة ، خصوصاً وأن الحرب في كل وقت عند العرب وسيلة صحيحة للحكم على الأشياء^(٦) . بل يصور القرآن^(٧) هذه المعركة وكأن جماً حاشداً من الملائكة كانت تحارب مع المسلمين . ولما كانت هذه أول معركة في سبيل الدين ، فقد نظر المسلمون دائماً إلى الدين اشتروا فيها نظرة مقدسة ، بحيث نرف أسماءهم فرداً فرداً^(٨) ؛ وأسماء من استشهد منهم^(٩) . ولذلك لم يتردد النبي في أن يضيف إلى هذا النصر المؤبد نصراً آخر وذلك بالتخلص من قبيلة بني قينقاع^(١٠) اليهودية التي كانت تستهزئ^(١١) بمسلى المدينة ، لحاصرها إلى أن قبلت التسليم ، ولعله أراد بهذه الضربة أن يخيف بقية اليهود في المدينة .

(١) قصة ١ ، ص ٤٦٢ .

(٢) قصة ١ ، ص ٤٧٠ .

(٣) قصة ١ ، ص ٤٦٥ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٣٤١ — ٣٤٤ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ٤ على الخصوص .

(٥) القرآن ٣ : ١٢٣ .

(٦) قال زمهر بن أبي سلسي :

لإن الحق مقطعه ثلاث بين أو قتل أو جلاء

(انظر التويري ، ٣ ص ٦٢) . وقد ذكر القرآن هنا للبدا وهو ما يرف « بالباطة »

(القرآن ٣ : ٦١) . انظر أيضاً Cheira : La lutte , p. 8 sqq ; Massignon :

La Mubâhala. Extr. de l'Ann. de l'Ecol. des H. Et. Sect. dès. S. R. 1943 — 1944.

(٧) القرآن ٣ : ١٧٤ — ١٧٥ : ٨ ، ١٢ ، ٥٠ .

(٨) ابن هشام ، ١ ص ٤٨٥ .

(٩) الماروف ، ص ٧٨ ص ٥ فا بعدها . يورد أسماء أربعة عشر رجلاً .

(١٠) ابن هشام ، ٢ ص ٥٤٥ ؛ انظر Mah, p. 93 : Grimme

(١١) كذلك كانت تهزل من قيمة نصر محمد في بدره ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٩٦ .

(م — ٨ التاريخ السياسي)

أما المكيون فلم يعترفوا بفوز محمد عليهم في بدر، وصمموا على الأخذ بالثأر، خصوصاً وأن محمداً أصبح دائماً التمرض لقواफलهم. فخرجوا في شوال من السنة الثالثة للهجرة (مارس ٦٢٥) في ألف فارس يلبسون الدروع وثلاثة آلاف من المشاة بقيادة أبي سفيان — وهو القائد الذي هُزم في بدر — وكان خلفهم النساء ينشدن الأناشيد المناسبة؛ لتشجيع المحاربين على القتال^(١). ولقد كان اصطحاب النساء^(٢) في الحرب عادة جرى عاينها العرب في كل وقت، وحتى بعد انتشار الإسلام فإنهم اصطحبوا نساءهم في حروبهم ضد الروم والفرس؛ فالنساء وجودهن كن يمحرن الرجال على القتال؛ دفاعاً عن العرض، الذي كان أم شيء عند العرب. أما النبي فقد خرج في ألف^(٣) رجل من أصحابه — وهو راكب فرسه «السكب»^(٤)، وليس مع المسلمين غيره وفرس آخر لأحد الصحابة — إلى جبل أحرر اسمه أحد في الشمال، ليحبل المدينة في أعقابهم إذا ما توجه إليه الكفار؛ فبذلك يتمكن من قطع خطوطهم^(٥)، ويتفادى القتال فيها. وقد برهن في هذه الموقعة على مقدرة حربية عظيمة؛ فظلم المقاتلة في صفوف على عادة العرب في القتال، ووضع رماة النبال في المؤخرة على جبل^(٦) «عينين» جنوبي أحد، لحفظ ظهور المسلمين، وأمرهم بالثبات^(٧) بموضعهم مهما حدث. ومع أن جيش النبي كان أقل عدداً من جيش المشركين؛ فإنه حارب بشجاعة، بحيث اضطر القرشيون إلى الحرب.

(١) كن يلقن:

إن تهللوا نفاق وتغرش النفاق
أو تديروا غلوق فراق غير وامق

ابن هشام، ٢ ص ٥٦٢.

(٢) انظر بيده.

(٣) المعارف، ص ٨٩ س ١.

(٤) التورى، ١٠ ص ٣٣ — ٣٤. كان يسمى أيضاً: «الرتجز» و«التجيب».

نفسه، ١٠ ص ٣٥.

(٥) انظر. Hamidullah: Op. cit, p. 5. عن جبل أحد انظر. معجم البلدان، ١

ص ١٣٣ — ١٣٥.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ٢٥٨. يسمى الآن هذا الجبل جبل الرماة.

Op. cit, p. 5: Hamidullah

(٧) ابن هشام، ٢ ص ٥٦٢.

ولكن رماة النبال تركوا أماكنهم لجمع الفنائم^(١) مغاللين بذلك أمر النبي ، قاتله خالد بن الوليد هذه الفرصة — وكان وقتئذ أحد قواد المشركين — وهجم بالفرسان من ناحية الجبل ، قتل عدداً كبيراً من المسلمين ، وتفرقوا في كل مكان ، وجرح النبي أثناء دفاعه عن نفسه . وقد اعتقد السكيون أنهم فضوا نهائياً على دعوة محمد ، خصوصاً وأن اشاعة قتله^(٢) ملأت آذانهم ؛ فانسحبوا من ميدان المعركة راجعين إلى بلادهم مسرورين . ولكن نساءهم لم تترك ميدان القتال إلا بعد أن شفت غليلها من قتلاها في بدر ، فجعلن أنوف الموتى من المسلمين وآذانهم ليجعلنها قلائد ؛ ولم يندمنهن هند^(٣) امرأة القائد أبي سفيان ، التي بقوت بطن حمزة — ابن عم النبي — واستخرجت كبده فلاكتها . وبذلك نال المشركون ثأرهم في بدر ، وقال أبو سفيان في هذه المناسبة^(٤) : « يوم بدر . والحرب سجال » .

أما النبي فقد رجع إلى المدينة مسرعاً ؛ وقام بطرد^(٥) « بني النضير » ، وهي طائفة أخرى من اليهود حاولت أن تستفيد من هزيمة النبي بالقدربه ، فحاصرها وقطع نخلها وأحرقه ، وأجلاها إلى الأخرى عن المدينة — وذلك في سنة أربع هجرية^(٦) (٦٢٥) — ليضم أرضها إلى أملاك المسلمين .

ولما علمت قريش أن محمداً لم يقتل ، فضمت ألا قضاء عليه إذا لم تدمر المدينة التي آوته ، وصممت على حربه هذه المرة في عقر داره . وقد سعى السكيون قبل هجومهم على المدينة إلى تكوين حلف قوى من كل العناصر الموالية^(٧) من البدو،

(١) المعارف ، ص ٧٩ .

(٢) ابن هشام ، ص ٥٧٤ .

(٣) قسه ، ص ٥٨١ .

(٤) الليداني ، مجمع الأمثال ، ١ ص ١٤٤ ؛ انظر . أبو الفضل والبيهال ، أيام العرب في الإسلام ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٧ .

(٥) ابن هشام ، ص ٦٥٢ فابعدما ؛ انظر . ولتسنون ، تاريخ اليهود ، ص ١٣٥ ؛

Mohammed en de Joden te Medina, p. 82 : Wensinck

(٦) ابن هشام ، ص ٦٥٢ .

(٧) قسه ، ص ٦٦٩ — ٦٧٠ .

أمثال : فزارة وأشجع ومرة وغطفان ، وأيضاً بالتعاون مع « بنى قريظة » .
 — بقية اليهود في المدينة — الذين كانوا يكرهون^(١) المسلمين بسبب إخراجهم
 لبني القينقاع والنضير . فجمع أبوسفيان من القرشيين وأحبيشهم^(٢) ، ومن القبائل
 والعشائر البدوية من نجد وتهامة^(٣) جيشاً جراراً ، لا يقل عدده عن عشرة^(٤) آلاف
 مقاتل ، ليزحف بهم على المدينة . وقيل أن يياثر زحفه أرسل إلى محمد كتاباً^(٥)
 يطالبه فيه بنصف نخل المدينة الكثير ، ولكن النبي رد عليه بكتاب قال له فيه
 إنه في انتظاره .

ولم يكن من الممكن أن يخرج النبي في هذه المرة من المدينة كما حدث في بدر
 وأحد ؛ بل كان على كل فرد في المدينة أن يشترك في رد الخطر المحيط بها من
 جانب المكين ومن عناصر البدو — حلفاء المكين — المتشوقين إلى الفارة . ولم
 يعتمد النبي في الدفاع عن المدينة بالتحصن في بيوتها ، وإنما لجأ إلى الدفاع عنها
 بناء على مشورة سلمان الفارسي^(٦) ، وذلك عن طريق حفر خندق^(٧) في شمال
 المدينة — ولم يكن الخندق من أساليب الحرب المروفة عند العرب — حيث
 أنها كانت هي المنطقة الخالية من التحصين : فالمدينة محاطة من نواحيها الثلاث^(٨)
 الأخرى بالجبال وأراض الحرة — أي أراض مملوءة بالأحجار — والحدائق

(١) نفسه ، ٢ ص ٦٧٤ ؛ انظر . ولفنون ، تاريخ اليهود ، ص ١٤١٠ فأبعدها .

(٢) انظر عن هذه الكلمة . قبله

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٦٧٣ .

(٤) نفسه .

(٥) نص هذا الكتاب موجود في مخطوطه في تركيا ، وينسب إلى محمد بن جرير الطبري

انظره في مجموعة الوثائق ، ص ٨ — ٩ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٦٧٧ . هو من أصبهان من أسرة أرستقراطية فارسية كانت
 قبيلة كلب باعت في يرب ، فاشترى النبي واعتقه ؛ ويظهر أنه عاش إلى سنة ٣٢ هـ . ابن هشام ،
 ١٣٦ فأبعدها ؛ الطبري ١ : ٢٤٤١ ؛ انظر Nouvelles Recherches : Huart 1913, p. 3 sqq.
 sur la légende de Selman du Fars Paris

(٧) ابن هشام ، ٢ ص ٦٧٠ . وهي كلمة فارسية . انظر Huart Op. cit, p. 4 :

(٨) انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٤٤٢ فأبعدها ؛ Hamidullah :

Op. cit, p. 9

والنخيل؛ ولذلك سميت المركبة التي ستدور رحاها حول المدينة «يوم الخندق»^(١)، نسبة لهذا الخندق، أو «يوم الأحزاب»^(٢) بسبب اشتراك قبائل موالية للمكيين.

ولكن القرشيين الذين وصلوا إلى المدينة في السنة الخامسة^(٣) الهجرة (٦٢٦)، وأثار دهشتهم وجود الخندق؛ لم يحاولوا عبوره، وفضلوا البقاء حتى يخرج المسلمون إليهم. ولما ملوا المقام دون أن يخرج المسلمون، وتعرضوا لمواصف رملية، فكوا الحصار ورجعوا إلى مكة دون تحقيق غرضهم، خصوصاً وأن النبي استمال غطفان من حلفائهم^(٤)، مما أوهن المكيين.

ولكن الخطر لم يذهب عن المسلمين برجع المكيين إلى بلادهم، بل كان الخطر من جانب بني قريظة، القبيلة اليهودية التي اشتركت مع المكيين في تأليب^(٥) العرب على المسلمين وكانت أثناء حصار المشركين تتعاون معهم، أي أنها خرجت من نصوص الصحيفة^(٦) التي كتبها النبي معهم. لذلك — بعد رحيل المكيين — لم يتردد النبي في محاصرتها في أطامها، ثم قبلت التسليم على تحكيم شخص يعينه هو سعد بن معاذ^(٧) — وهو سيد الأوس — وقد نفذ النبي حكم هذا الرجل فيهم: وهو يقضي بقتل الرجال، وسبي النساء والذرية، وتقسيم أموالهم بين المسلمين. وقد كان بنو قريظة آخر من كان من اليهود في المدينة، وإن بقي اليهود في شمالها^(٨) في خير وتياها ووادي القرى وفدك وغيرها، إلى أن أخرجهم منها الخليفة عمر فبا يمد، وبذلك خلت الحجاز منهم.

(١) ابن هشام، ٢، ص ٦٩٩.

(٢) الفرقان ٢٣ : ٢٠.

(٣) ابن هشام، ٢، ص ٦٦٨.

(٤) نفسه، ٢، ص ٦٧٦ : ٦٨١.

(٥) نفسه، ٢، ص ٦٧٤ : انظر. ولفنون، تاريخ اليهود، ص ١٤١، فابصحا.

(٦) انظر. هذه الصحيفة ابن هشام، ١، ص ٣٤١ — ٣٤٤؛ مجموعة الوثائق،

ص ١ — ٤ : انظر. قبله.

(٧) ابن هشام، ٢، ص ٦٨٩. عن سيد الأوس انظر. نفسه، ٢، ص ٦٧٥.

(٨) انظر. يمد.

وإذا كان النبي قد اطمأن على دعوته ، فإنه أراد أن يجرب نوعاً جديداً من السياسة مع المشركين من أهل مكة ، لعلهم يثوبوا إل رشدهم ؛ خصوصاً وأن دعوته ما كانت لتتمّ العرب دون أن تعترف بها مكة لمكانتها المقدسة عندهم . ففي آخر سنة^(١) ستة (٦٢٨) قرر النبي الخروج معتمراً^(٢) — أى زيارته الكعبة في غير موسم الحج العام — فخرج لباساً ملابس الإحرام ومعه الهدى^(٣) إلى الكعبة ، ولا يحمل معه إلا السيوف . وقد أوقع هذا القرار قريشاً في مأزق ، فلم يكن من الممكن أن يرد أى حاج إلى الكعبة ، ثم إن مجيء النبي إليها بعد سماع العرب بدعوته ؛ قد يكون فيه احتفاظ للسكيين بنفوذهم وكبريائهم ، وما يدره عليهم هذا النفوذ من ثروة .

على أن قريشاً كانت لا تأمن عاقبة مجيء النبي وأتباعه إلى مكة ، ولذا اتخذت حذوها وخرجت مع حلفائها من البدو ؛ لتتعرف حقيقة مقاصده . وقد تبادل النبي معها السفارات ، فأرسل من قبله صاحبه عثمان بن عفان^(٤) — وهو سيمير الخليفة^(٥) الثالث فيما بعد — بحيث أنه لما بلغه أنه قد يكون قتل دعا المسلمين إلى الحرب ، وهو ما عرف بببيعة الرضوان^(٦) . ولكن قريشاً قبلت دخول محمد مكة ، على أن لا يدخلها هذا العام ، وإنما الرجوع^(٧) في العام الذى يليه بدون سلاح إلا السيوف في قرايبها ، والمقام بها ثلاثة أيام فقط . كذلك رضوا بامضاء هدنة « الحديبية »^(٨) معه لمدة عشر سنين ، وهى : تمنح الحرية لأهل المدينة أو مكة في التنقل بأمان في الجزيرة ، وللقبائل أن تدخل في عهد «عقد» محمد أو قريش ، وأن يُرجع محمد موالى قريش الفارين ولا ترجع مكة بمن مع محمد إذا جاءوها ؛ كما

(١) ابن هشام ٢١ ص ٧٤٠ .

(٢) لسان العرب ، ٦ ص ٢٨٢ . وهى كلمة مأخوذة من الاعتبار وهى الزيارة . انظر قبله .

(٣) القرآن ٢ : ١٩٦ .

(٤) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٦ .

(٥) انظر . بعده .

(٦) نفسه ، ٢ ص ٧٤٦ .

(٧) نفسه ، ٢ ص ٧٤٨ .

(٨) نفسه ، ٢ ص ٧٤٧ ؛ مجموعة الوثائق ، ص ١٤٠ . الحديبية هى مكان أسفل مكة .

ابن هشام ، ٢ ص ٧٤١ . وقد نسب إلى بكر . الحشبي ، شرح السيرة ، ٢ ص ٣٣٩ .

رفض القرشيون الاعتراف في هذه المعاهدة بالنبي كرسول من عند الله - مع أن ذلك من دعائم الدين الجديد - وعثوا بالصلح باسمك « اللهم »^(١) ، وقبل النبي ذلك .
وقع النبي هذا الصلح ، الذي اعتبره القرآن فتحاً^(٢) مبيناً ، على الرغم من أن بعض كبار الصحابة كانوا يريدون^(٣) القتال في أول الأمر . وقد دل النبي بقوله هذه الهدنة على دبلوماسية ماهرة ، لأنه بمقتضى هذا الصلح استطاع أن يأخذ أول اعتراف من مكة بزعامته السياسية بين العرب ، وكان سبباً في نشر دعوته واتساعها بانضمام القبائل التي ترددت في حلفه ، على الخصوص قبيلة خزاعة المجاورة للمدينة^(٤) .
ولعل النبي - كما يذكر مؤرخ السيرة - أرسل في ذلك الوقت الكتب^(٥) إلى جميع ملوك العالم المعروفة ، مثل : هرقل عظيم الروم وكسرى فارس ونجاشي الحبشة ومقوقس مصر ، ورؤساء القبائل في أطراف الجزيرة العربية ، مثل : النساسنة والضمين وأهل ثمان واليمامة والبحرين وملوك اليمن ، يدعوهم إلى الاسلام . كذلك استفاد من هذه الهدنة : بالقضاء على الخطر اليهودي في خيبر وفدك ووادي القرى وتيها ، وهي مجموعة من الواحات في أقصى شمال الحجاز^(٦) ، خصوصاً وأنهم بعد أن أخرج النبي اليهود من المدينة ، كانوا يؤلبون القبائل العربية في هذه المنطقة عليه ؛ فقام النبي بمنعها : فصالح من رضى المصالحة ، وحارب من امتنع عليه ، وإن ترك أراضيهم في أيديهم ، وأقام بينهم عماله^(٧) ، واستولى على جزء من محمول^(٨) أراضيهم .

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٧ .

(٢) القرآن ٤٨ : ١

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٧٤٧ .

(٤) هـ ، ٢ ص ٧٤٧ - ٧٤٨ .

(٥) انظر ما ذكرناه عن صحة هذه الكتب . وقد اختلف في تاريخ إرسالها فقبل لها سنة الحديبية (ابن هشام ، ٢ ص ٩٧١) أو في السنة العاشرة (٦٣١) انظر . ابن تقيي المعارف ، ص ٨٢ . عن هذه الكتب جميعاً انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٣ فما بعدها ؛ حيث تقدمها بمراجعتها التي وردت فيها ؛ انظر . أيضاً . ابن القراء ، كتاب رسل الملوك ومن يصلح لرسالة السفارة ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٣ و ٤ .

(٦) البلاذري ، فتوح ، ص ١٥ .

(٧) ابن هشام ، ٢ ص ٧٥٧ .

(٨) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٥٩ - ٦٠ .

وفي السنة السابعة^(١) (٦٢٧) عاد النبي ومعه ألفان من الحجاج المسلمين إلى مكة ، ولم يجد في هذه المرة أى عائق ، وقام بتأدية « العمرة » بالطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة ؛ وإن لم يمنحه ذلك من التفكير في تحطيم الأستقام التي بداخلها يوماً ما . وقد ترك منظر النبي وأصحابه أثراً عميقاً في نفوس كبار المسلمين ، فانضم إليهم منهم اثنان : خالد بن الوليد^(٢) — الذي كان سبب هزيمة أحد — وعمر بن الماس^(٣) ، وكلاهما سيكون من كبار قواد الفتوح الإسلامية .

ومنذ عاد النبي من مكة وهو السيد الذي لا ينازع : فقد أرسل حملة في جمادى الأولى سنة ثمان^(٤) للهجرة (أغسطس ٦٢٩) ، مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل نحو مشارف الشام ، بقيادة زيد بن حارثة^(٥) ، الذي كان النبي يقناه . ونحن لانعرف الغرض من هذه الحملة الصغيرة نحو بلاد الشام ، فلعل النبي قصد بإرسالها إشعار العرب المسيحيين بالشام بقوة الإسلام في الحجاز ؛ وإن كنا نستبعد أن يكون قصده من إرسالها نحو الشمال هو التوحيه على القرشيين ، حتى يهاجم مكة . وقد تلاقى هذه الحملة مع عرب الشام ، وهم الذين يشير إليهم ابن هشام باسم « الروم^(٦) » — لعله بسبب أنهم من أتباع الروم أو البيزنطيين — في موضع بالشام اسمه : « مؤتة^(٧) » ، فهُزم جيش المسلمين ، وقتل زيد بن حارثة وجعفر

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٧٨٨ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٧٤١ .

(٣) اختلف في تاريخ اسلامه الذي قد يكون في نفس وقت اسلام خالد ، أو بعد المدينية انظر . نفسه ، ٢ ص ٧١٦ .

(٤) المطرف ، ٢ ص ٨١ ؛ انظر . رضا ، محمد ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ .

(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٧٩١ و ٧٩٤ ؛ ابن سعد ، ١/٣ ص ٢٦ — ٣١ ؛ Ency. de l'Isrl, 4 p 1261 . لعل هذه الحملة أرسلت لأن الفاتنة قتلت

رسول النبي إليها . انظر . Ency. de l'Isrl. (art Mu'ta) 3, p. 699 . (٦) ابن هشام ، ٢ ص ٧٩٢ . ثم — ولا ريب — المقصود بهم « روم العرب » .

الطبري ١ : ٢١٠١ ؛ انظر . نفسه .

(٧) الحشفي ، شرح سيرة النبي ، ٢ ص ٣٥٣ ؛ انظر Chronographia : Théophane

éd. de Boor, I, 335

ابن أبي طالب^(١) - ابن عم النبي - ولم ينقذهم غير تراجعهم بقيادة خالد ابن الوليد ، الذي أصبح من قواد النبي .

على كل حال يؤكد بن هشام - مؤرخ السيرة - أن النبي سار على مكة في رمضان من نفس العام^(٢) (ديسمبر ٦٣٠) ، بسبب أن قريشاً قففت^(٣) الصلح لما علمت بانكسار المسلمين في «مؤتة» فهاجت خزاعة^(٤) ؛ وهي القبيلة التي كانت توابث لمخالفة المسلمين عند عقد هدنة «الحديبية» . ويبدو أن أبا سفيان^(٥) - زعيم الكهين - والعباس عم النبي ، أسرعوا إلى النبي قبل وصول الحلة ، ليسلم الأول نفسه حيث اعتنق الإسلام ، وأخذ الأمان لقريش ؛ وقد أراد النبي أن يعامل عدوه المهزوم معاملة كريمة فأعلن أن من يدخل دار أبي سفيان في مكة فهو آمن ، وذلك على الرغم من أن أبا سفيان شنها حرباً شواء على المسلمين ؛ منذ ظهور الدعوة . وحين وصول النبي إلى مكة على رأس عشرة^(٦) آلاف مقاتل - وهو عدد لم يعرف له مثيل من قبل في جيش النبي ، مما يدل على أنه استفاد حقاً من الهدنة بجمع الأنصار حوله - ولم يقابل إلا بمقاومة ضعيفة من جانب بعض المشركين ، ولكن خالد بن الوليد تمكن من القضاء^(٧) عليها ، فأقبل الرجال والنساء على النبي لبايعته^(٨) . وبذلك سقطت مكة في الصراع بينها

(١) أبو الفرج الأسيهاني ، كتاب مقاتل الطالبين ، النصف ١٣٥٣ ، ص ٧ .

(٢) الماروف ، ص ٨١ .

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٨٠٢ .

(٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٦ .

(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٨١٤ . لم يكن العباس قد أسلم قبل ذلك ، وإن كان موقفه من الدعوة الإسلامية هوموقف الحياد ، وإليه ستنسب الخلافة العباسية فيما بعد .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٨٤٢ . سبق لقريشيين أن جمعوا هذا العدد من عرب نجد وتهامة . انظر . قبله .

(٧) نفس المرجع ، ٢ ص ٨١٧ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ١٧١ - ١٧٢ . هذه الكلمة تعني العهد على الطاعة ، وتم بالمصالحة . انظر . بعده .

وبين المدينة ؛ وسمى ذلك اليوم « يوم الفتح ^(١) » .

وكان أول ما قام به النبي بعد فتح مكة هو هدم ^(٢) الأصنام الكعبة ، وإن أبقى على الحجر الأسود ، الذى كان مقدساً ^(٣) بسبب أنه كان بالكعبة منذ زمن إبراهيم ، وكان وهو يكسر الأصنام يقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ١٧ : ٨١ ﴾ . ولم يحاول النبي أن يقضى على نفوذ هذه المدينة المهزومة ، فأعلن أنها تبقى دائماً حراماً ^(٤) لا يقاتل فيها ؛ وأن تكون الكعبة هى بيت الله الحرام ، يحج إليها العرب حتى الشركون ^(٥) منهم . كذلك لى يقضى على نفوذ مكة الحربى ألقى ^(٦) اللوائنهاثاً ؛ وهو قيادة الحرب كاذرة .

وقد كان سقوط مكة بين يديه سبباً فى زيادة نفوذه فى الجزيرة العربية ، بحيث أصبح يعرف « بأمر الحجاز » أو « أمير مكة ^(٧) » . ولكن طارعت هذه السيطرة بعض قبائل الحجاز التى غلبت عليها حية الجاهلية فى التمصب لحرمتها ، مما دعا النبي إلى أن يسير إليها بنفسه : فانتصر على هوازن بعد أن حوى وطيس ^(٨) الحرب بينه وبينها فى يوم « حنين ^(٩) » ، ثم سار إلى تھيف ^(١٠) فى الطائف — وهى التى

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٨٢٢ .

(٢) الأصنام ، ص ٣١ س ٤ فاصدا .

(٣) انظر . قبله .

(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ٤٢ . انظر . بعض الأحداث النبوية عن قلدستها .

النورى ، ١ ص ٢٩٨ .

(٥) حتى ذلك الوقت لم يكن للمشركون منوا من الحج إليها . انظر . بعده .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٨ . النصوص متضاربة بخصوص إلغاء هذه الوظائف ؛ فينقل

ابن الأثير بأن العاقبة والرفادة لا أخذا البلس من أبى طالب ، بقيت فى أيدى أبنائه حتى صار يلها الخلفاء العباسيون انظر . الكامل ، ٢ ص ١٤ . كما يذكر أن الحجابة بيت ، وأن دار الندوة تحولت فيا بعد إلى دار الامارة . انظر . ته .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٢٩ ص ٢٠ .

(٨) الميدانى ، ٢ ص ٢٧١ .

(٩) القرآن ٩ : ٢٥ .

(١٠) ابن هشام ، ٢ ص ٨٦٩ .

كانت رفضت اجازة قبل الهجرة إلى يثرب — فحاصرها ورمى حائطها^(١) بالنجنيق ، وهاجها بدبابة^(٢) مغطاة بجلاد البقر .

وليوطد النبي نفوذه على حدود الحجاز الشمالية — وهي منطقة كانت تسكنها قبائل عربية مسيحية^(٣) في الغالب ، مثل : كلب وقضاة وعلم وجذام وعذرة وغيرها ، وبعض القبائل اليهودية^(٤) — سار بنفسه على رأس حملة في رجب من السنة التاسعة^(٥) (أكتوبر ٦٣٠) ، فبسط نفوذه فيها على قرى ومراكز عديدة بعضها حتى من أرض الشام ، منها : تيوك^(٦) ودومس الجندل^(٧) وأيلة^(٨) ومعظم سكانها من المسلمين^(٩) ، وأذرح والجرباء ومقنا^(١٠) وهم من اليهود^(١١) ؛ فقد مع جميع أمراء هذه المراكز معاهدات أمان^(١٢) ، تؤمنهم على ديانتهم وأموالهم لقاء دفع الجزية^(١٣) ؛ بحيث ستكون بالنسبة لخلفاء الإسلام نسقاً للاتفاقات التي يتعامل بها المسلمون مع أهل الكتاب . وفي نفس العام التاسع^(١٤) (٦٣١) أصبح الحج إلى مكة يشمل عدداً كبيراً من عرب الجزيرة ، وعرف « بالحج الأكبر^(١٥) » — وهي أول^(١٦) حجة

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ من ١٤ .

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٥٥ . النجنيق آلة لرمي الحجارة أو المواد للتهبة ، أما الدبابة فهي ستارة يحمي وراءها القائلة لنقب الحوايط انظر عن هذه الأخيرة Suppl. : Dozy aux dict arabes 2ed. I p 421

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٤) ابن سعد ، ٢/١ ص ٣٨ .

(٥) للعارف ، ص ٨٢ .

(٦) ابن هشام ، ٢ من ٩٠٢ ؛ معجم البلدان ، ٢ من ٣٦٥ .

(٧) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٣ — ٣٤ ؛ ياقوت ، ٤ معجم البلدان ، ١٠٦ فاجدها .

(٨) ابن سعد ، ٢/١ ص ٣٧ . وهي التي اليوم تعرف بالقبة ؛ انظر . قبله ويده .

(٩) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(١٠) قسه ، ص ٥٩ — ٦١ ؛ معجم البلدان ، ١ من ١٦١ — ١٦٢ ؛ ٣ من ٧٢ .

(١١) ابن سعد ، ٢/١ ص ٣٨ .

(١٢) انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٣٤ — ٣٥ و ٣٦ — ٣٩ .

(١٣) ابن سعد ، ٢/١ ص ٢٨ — ٢٩ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٣٧ عن كلمة

الجزيرة انظر . بيده .

(١٤) للعارف ، ص ٨٢ .

(١٥) التركان ٩ : ٣ . (١٦) للعارف ، ص ٨٢ .

في الإسلام — وقد أناب فيه أبا بكر^(١) صديقه ليقرا عليهم سورة براءة^(٢) ،
التي يتبرأ فيها محمد ممن يحج من المشركين بمد هذا البام إلى مكة ، واستجاز فيها
قتل^(٣) من يدخلها منهم ؛ وإلى وقتنا الحاضر لا يحج إلى مكة إلا المسلمون .
كذلك جاءت وفود عديدة من جميع أنحاء الجزيرة إلى المدينة — التي أبقى عليها
كعاصمة للمسلمين — حتى من المسيحيين في نجران ، والنساسة^(٤) في الشام ،
بحيث سمي هذا العام أيضا « بعام الوفود »^(٥) ، وأخذ الناس يدخلون في دين الله
أفواجا .

أما الحجة المروفة بحجة الوداع^(٦) ، وهي في السنة العاشرة (٦٣٢) ، فقد
قام بها النبي بنفسه ، يحيط به عدد كبير من العرب^(٧) ، جاموا من كل أركان الجزيرة ،
فجج بالناس ، وخطب فيهم خطبته ، التي نزل فيها الوحي مبشرا أنه : ﴿ الْيَوْمَ
أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَعْتُ عَلَيْكُمْ نَعْمَى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا
٥ : ٣ . وهذه الحجة الأخيرة مازالت معتبرة كنموذج لتأدية فريضة الحج
حتى وقتنا الحاضر .

بعد هذه الحجة اضمحلت سمعة النبي وغلبت عليه الحلي ، ووافق الأجل يوم الاثنين^(٨)
١٣ من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة (٨ يونيو سنة ٦٣٢) ، وهو عند زوجته عائشة ،
التي كان تزوجها^(٩) عند هجرته إلى يثرب . وتصور لنا كتب « السير » شخص^(١٠)

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٩١٩ ؛ انظر . هيكيل ، الصديق أبو بكر ، ص ٥٣ .

(٢) القرآن سورة (٩) ، وتسمى سورة التوبة .

(٣) القرآن ٩ : ٥ .

(٤) انظر . تاريخ النسطورين (P. O.) ، الجزء ١٣ / ٢ ، ص ٦٠١ .

[٢٨١] ٤ : ٦٠٧ — ٦١٧ [٢٨٢ — ٢٩٧] ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٨٠ .
فأجلسها .

(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٩٣٣ .

(٦) نفسه ، ٢ ص ٩٦٨ فأجلسها .

(٧) نفسه ، ٩٧٠ .

(٨) نفسه ، ٢ ص ١٠٠٩ .

(٩) المعارف ، ص ٦٥ وهي بقيت حتى خلافة معاوية ، وتوفيت حوالي سنة ٨٥٨ / ٦٧٧ .

(١٠) ابن اسحق ، كتاب فتوح مصر ، ص ٩ .

النبي الجليل على أنه كان وسياً قسياً، متدل القامة، بعيد المامة، أشم العينين، واضح الجبين، أسيل الخدين، رقيق الشفتين، براق الثنايا، بعينه دمع، ومحاجبيه زجج، وبأسنانه فلج، وأنف غير مموج.

وبذلك انتهت سيرة النبي اللبنة بالكفاح والنضال في سبيل إمامة العرب إلى عقيدة الدين القديم أو الاسلام، والأخذ بيدها من وهدة الوثنية المظلمة التي حولت حياة العرب إلى حياة لا أهداف لها أو مثل؛ ولا ريب أن نجاحه في تحقيق رسالته يرجع قبل كل شيء إلى إيمانه الشديد بالكرامة البشرية.

* * *

كثر حديث بعض المستشرقين^(١)؛ بأن الاسلام يحذافيره لم يأت بمجديد، وأنه قل كثيرًا عن الأديان الأخرى، وفي الحق إن بعض عقائد الاسلام تشابه في أسسها بعض العقائد في الأديان الأخرى^(٢)؛ إلا أن الاسلام قد أوجد صورة غير منكورة من دين جديد مطبوع بالطابع العربي^(٣)، سرعان ما احتل مكانة الرموقة بين الأديان الأخرى، وقد كان النبي هو أول نخط من معتنقيه الذي نجد له مثيلاً^(٤) بعد ثلاثة عشر قرناً من ظهور الاسلام.

(١) انظر - Islam and the Oriental Churches, Philadelphia, : Shedd
The origin of Islam in its Christian : Bell ; 1904, p. 21 sqq
environment. p. 13 : فون كريمر، الحضارة الإسلامية، تعريب طه بدر، ص ٥١
فاجدها.

(٢) الأبشيهي، المستطرف، بولاق ١٢٦٨ هـ، ص ١٠٦. يحاول العلم المعروف
« بعلم الأديان » أن يبحث عن طريقة لربط بين الأديان جميعاً. انظر - Saurat : Hist.
Le Mazdéisme. Préface de : De Lafont ; de Relig, p. 54 ; 298
Burnouf ; Paris 1897 Introd, p. 6

(٣) انظر - L'Islamisme son Institution, Paris 1877, : Perron
p. 24 — 25.

(٤) انظر - Mah, p. 9. : Tor Andrae

في الحياة الدينية الصرفة : جاء الاسلام بمقائد أساسية كمقيدة التوحيد^(١) ، وهي : « لا إله إلا الله » . فكانت الدعوة إلى التوحيد شبه ثورة على عقيدة الأغلبية من سكان الجزيرة العربية الوثنية ، وحتى الأديان السالوية المعروفة وقتئذ فيها كان قد اندس فيها نوع من الوثنية : فإله اليهود أصبح إلهم وحدهم^(٢) ، ولأنهم — بحسب ما ورد في القرآن كانوا يمدون « عزيراً »^(٣) — أحد رجال دينهم الصالحين — على أنه ابن الله ، كما كانوا لا يقيمون ما جاء في التوراة بحيث ضرب القرآن المثل بهم بقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ مُخَلَّوْا التَّوْرَاتِ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحَارِثِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ ٦٣ : ٥٥ ﴾ ثم إن النصرانية العربية لم تعد نصرانية صحيحة ، فالقبائل النصرانية في الجزيرة كانت لها نفس طباع العرب في الثأر ، ومنهم من كان يسمى كالعرب بعبد الله^(٤) ، أو يحلف برب مكة^(٥) ، أو باللات والعزى^(٦) من أسنام العرب . ومن ناحية أخرى : أضعفت عقيدة المسيحية غامضة بد ما غلبت عليها الفلسفة اليونانية^(٧) ، وكل فرقة فيها تختلف عن الأخرى في جوهر العقيدة نفسها ، ولا بد أن الجدل زعزع أسس هذه العقيدة . فذلك كانت دعوة الاسلام بالسمو إلى إله واحد مجرد ، دعوة إلى الإيمان بالمثل .

كذلك نصت العقيدة الإسلامية — كما تخرج من القرآن^(٨) — على الاعتراف

(١) النبهان بن حيون ، دعائم الإسلام ، تحقيق ليضى ، القاهرة ١٩٥٠ ، ١ ، ص ٥٠ و ٦٠ .

(٢) انظر . Les Arabes, p. 33 : Bertram

(٣) القرآن ٩ : ٣٠ . عزير هذا هو الذى عرف اليهود بدينهم ، الذى كانوا قد تناسوه . الطبري ، قصص الأنبياء ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٤) ابن هشام ، ١ ص ٢٠ .

(٥) شعراء النصرانية ، جمع وتصحيح شبغو ، ١ ص ٤٥١ ؛ انظر . Tor Andrae : Mah, p. 24.

ورد في شعر عدى بن زيد .

سمى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب

(٦) ابن هشام ، ١ ص ١١٦ .

(٧) أرنولد ، الدعوة ، ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنحرأوى ، ص ٦٦ .

(٨) سورة ٣٣ آية ٤٠ .

محمد كرسول الله وأنه خاتم النبيين، إذ أن الاسلام يشمل ضمناً معنى الاعتراف برسالاته^(١)، وهو وإن أرسل إلى العرب إلا أنه اعتبر نفسه أنه مرسل^(٢) لكافة الناس؛ فالدين الاسلامي يجب أن يعم العالم كله؛ ليعيد الناس إلى ملة إبراهيم^(٣) — أى الاسلام — التي فطر الناس عليها. فالاسلام وسيلة للربط بين الشعوب التي تعتقه، إذ رسالته كالسبحية^(٤) عامة، وليست كاليهودية^(٥) خاصة.

وموق ذلك فرض الاسلام عقيدة الأيمان بالحياة الأخرى، وهي بالنسبة لأغلبية العرب لم يكن من السهل تصورها^(٦)، فجسم السور — التي نزلت على النبي في مكة — محض على الايمان بحياة أخرى بعد الموت. وكانت هذه السور تذكر اليوم الآخر قريباً، ثم ذكرته بعد ذلك بعيداً، وأن الله وحده هو الذي يعرف اليماد، ولهذا اليوم سميت منها: نفخة^(٧) واحدة، أو نداء من النداء^(٨)، أو صوت خفيف يشبه الرعد، أو رجة^(٩) للأرض، فتسقط الجبال كالرماد، وتتحق السماء^(١٠)، ويمتلئ الكون بالدخان^(١١)، وعندئذ يستقط الأحياء صرعى، ويخرج الأموات من قبورهم^(١٢) بعد نفخة أخرى، ليقفوا أمام الله والملائكة ليحاسبهم^(١٣) على ما سلف من أعمالهم: فمن كان قد أساء ساقهم الملائكة إلى

(١) انظر رأى Margoliouth في هذا الصدد: The Early development of Mohammedanism London 1914 p. 15 . انظر . قبله .

(٢) القرآن ٣٤ : ٢٨ .

(٣) هـ ٣٠ : ٣٠ .

(٤) فح أن السبحية كانت رسالة خاصة لبنى إسرائيل ، إلا أنها اكتسبت العموم على يد الخواريين .

(٥) انظر . ارتود ، الدعوة ، ص ١٧ .

(٦) انظر . قبله .

(٧) القرآن ٦٩ : ١٣ .

(٨) هـ ٥٠ : ٤١ .

(٩) هـ ٥٦ : ٤ — ٦ .

(١٠) هـ ٢١ : ١٠٤ .

(١١) هـ ٤٤ : ١٠ ؛ ٣٧ : ٥٥ .

(١٢) هـ ٣٩ : ٦٨ .

(١٣) هـ ٧٨ : ٣٨ .

إلى النار التي وتوقدها الناس والحجارة^(١)، وأما من عمل صالحاً فإنه يدخل الجنة^(٢)، التي فيها قاكهة ولحم طير وحيور^(٣) أبكار وولدان، وأنهار^(٤) من ماء ولبن وغير وعسل. هذا هو تصور القرآن للحياة الأخرى، ولعل العرب أيام النبي لم يفهموا من تصور الدار الآخرة إلا اللطائف وليس الحسيات، خصوصاً وأن سياق القرآن يفهم منه ضمناً وجود جنة وروحية يتمتع فيها الناس برؤية الخالق ولا يشعرون فيها بتعاب الدنيا: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِماً، إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ٥٦ : ٢٥ - ٢٦﴾^(٥). ولعل القرآن - كما يذكر خلف الله^(٦) - إنما قصد من مثل هذا الوصف ماثيره الألفاظ من انفعالات ليس لغاتها، ولكن بقصد الردع، ودفع الناس إلى الخير، والأخذ بمبدأ الصرامة في الحياة الدنيا.

كذلك جاء الإسلام بواجبات دينية تعرف عند الفقهاء «بالمبادات»^(٧)، من حيث هي خضوع لله، وحث على الفضائل، وتعتبر من أركان الإسلام، وسررتها على حسب أهميتها:

الصلاة : وهي من دعائم^(٨) الدين الإسلامي، وتعني في كلام العرب الدعاء^(٩). وهذه الصلاة التي فرضت على المسلمين - كما قيل عن النبي - هي

(١) قس ٢ : ٢٤ .

(٢) قس ٩٠ : ١٠ .

(٣) قس ٥٦ : ٢١ فاجمعها .

(٤) قس ٤٧ : ١٥ .

(٥) قس ٣٥ : ٣٤ - ٣٥ .

(٦) الفن القصص في القرآن الكريم ، القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، ص ١٤٤

و ١٤٧ و ١٥٣ .

(٧) التمام بن محمد ، دعائم الإسلام ، ١ ص ٧ .

(٨) ينقل كتاب الدعائم أن النبي قال في حديث له إن القصور بقول القرآن (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ١٠٣) ، قال : مفروضاً . انظر . دعائم ، ص ١٥٩ .

(٩) اللسان ، ١٩ ص ١٩٨ - ١٩٩ . إن كتابة حرف الألف في هذه الكلمة

« صلاة » وأوياً مثل « صلوة » يتكرر في القرآن . انظر . Ency. de l'isl. (art Salât) 4, p, 99 sqq.

صلاة ابراهيم^(١) ، أراه إياها الوحي « جبريل^(٢) » ؛ فصل في الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء حين ذهب الشفق ، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر . وإن كنا لا نجد في القرآن تحديداً لهذه الصلوات الخمس مجموعة هكذا : « تذكر إحدى السور صلاتين^(٣) ، إحداها عند غروب الشمس والثانية عند ظلمة الليل لعلها العشاء ، مع ترتيل القرآن في الفجر ؛ وتذكر ثانية^(٤) صلاة الصبح والمغرب والعشاء ؛ وفي ثالثة^(٥) حض على الصلوات والصلاة الوسطى التي قد يكون المقصود بها صلاة الظهر أو العصر . وهذه الصلوات اليومية عبارة عن ترتيل للقرآن والركوع والسجود ، وهي تكون وقوفاً ، وفي حالات خاصة مثل المرض تكون والمصل جالس^(٦) ، كما أنها لا تكون بالضرورة في المسجد أو في جماعة إلا صلاة الجمعة^(٧) التي تحمل عمل صلاة الظهر ، وعندئذ ينتظم المسلمون في صفوف . وعلى عكس الأديان الأخرى ؛ فإن يوم هذه الصلاة لا يكون يوم عطلة ، كما يكون يوم الأحد عند المسيحيين مثلاً ، بل هو يوم صلاة وعمل^(٨) . كذلك وجدت أنواع^(٩) أخرى من الصلاة غير هذه الصلوات اليومية ، مثل :

(١) ابن هشام ، ١ ص ١٥٩ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٥٨ . نجد مثيلاً لهذه الرواية عن الصلوات في أوقات النهار بما فيها من سجود وركوع عند الكلام عن « الثانية » دين القرس . انظر . ابن اسحق ، الثانية تحقيق Pluegel بعنوان : Mani, seine Lehre und seine Schriften. Ein Beitrage zur Geschichte des Manichaeismus aus dem Fihrist des Abu'l Faradsch Muhammed b. Ishak al-Warack 1862, p. 50.

انظر . بعده .

(٣) القرآن ١٧ : ٧٨ . انظر أيضاً للوطأ ، طبة دلفي ، ص ٤ ؛ دعائم ، ١

ص ١٥٩ .

(٤) القرآن ١١ : ١١٤ ؛ انظر : دعائم ، ١ ص ١٦٠ .

(٥) القرآن ٢ : ٢٣٨ . الصلاة الوسطى قد تكون أيضاً صلاة الجمعة . دعائم ، ١

ص ١٦٠ .

(٦) للوطأ ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٧) دعائم ، ١ ص ١٨٥ — ١٨٩ .

(٨) القرآن ٦٢ : ٩ — ١٠ .

(٩) للوطأ ، ص ٦٤ فما بعدها ؛ دعائم الإسلام ، ١ ص ٢١٦ فما بعدها .

صلاة الخوف والكسوف والاستمطار والاستسقاء والصلاة على الجناز والميتين ؛ وأيضاً الصلوات السبحة السنّة والثاقفة^(١) ، أى الصلوات التي استنها النبي مع كل صلاة ، والتي يقوم بها الشخص تطوعاً .

وقد كانت هذه الصلاة تتم بما يعرف « بالأذان^(٢) » أو من غيره إلا في صلاة الجمعة ، والمقصود به « المناداة » أو « النداء^(٣) » إلى إقامة الصلاة . وبذلك أصبح لمنادات المسلمين للصلاة طابع خاص بهم ، حيث لم يقلوا استخدام نواقيس المسيحيين أو أبواق^(٤) اليهود . وقد كان الأذان في أول الأمر بسيطاً لا يعتمدى هذه العبارة : « الصلاة جامعة^(٥) » ؛ وإن اختلف في صيغته^(٦) ، وأيضاً في هل جاء به الوحي^(٧) كالصلاة ، أو أنه جاء في منام صحابي^(٨) أو أكثر .

كذلك لا تقام الصلاة إلا « بالوضوء^(٩) » ، والمقصود به التطهر من الدنس . وقد بيّن القرآن^(١٠) شروطه : فهو غسل الوجه ، والأيدى إلى المرفقين ، والأرجل إلى الكعبين ، ومسح الرأس . وقد كان الوضوء من الأمور المعروفة

(١) دعائم ، ١ ص ٢٤٩ . من هذه الصلوات صلاة التراويح — التي لا يقوم بها الشيعة — وهي الصلاة التي تضاف إلى صلاة المشاء في رمضان ، وتتكون من عشرين ركعة وعمر تحيات . انظر عنها . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٦٦ .

(٢) دعائم الإسلام ، ١ ص ١٧٧ .

(٣) القرآن ٦٢ : ٥٤٩ : ٦٣ .

(٤) أبو مسلم ، صحيح ، طبعة القاهرة ١٢٩٠هـ ، ١ ص ١١٢ ، فإ بعدها ؛ ابن سعد ، ٢/١ ص ٧ : انظر . وثقوبون ، تاريخ اليهود ، ص ٢١ .

(٥) ابن سعد ، ٢/١ ص ٧ : ٨ .

(٦) يقول الشيعة إن الأذان على عهد النبي كان يشمل عبارة « حي على خير العمل » ؛ ولكن عمر بن الخطاب — الخليفة الثاني للنبي — أمر بحذفها ، وقال : « إذا سمع الناس أن الصلاة خير من العمل تهاوتوا بالجهاد وتحققوا عنه » انظر . دعائم الإسلام ، ١ ص ١٧٢ .

(٧) نفسه ، ١ ص ١٧٢ .

(٨) ابن سعد ، ٢/١ ص ٧ .

(٩) دعائم الإسلام ، ١ ص ١٢١ ، فإ بعدها ؛ مسلم ، صحيح ، ١ ص ٨٠ ، فإ بعدها .
يعبر أيضاً عنه في الجمالية « بالفصل » . ابن هشام ، ١ ص ١٠١ : ١٢ .

(١٠) القرآن ٥ : ٦٥ .

في الجاهلية^(١) ، يقوم به الشخص قبل الطواف بالكعبة . ولكن الظروف متعددة منها المرض أو قلة الماء - خصوصاً بالنسبة لسكان البادية - كان للصلي «يتيم»^(٢) ، أى يضرب الأرض ضربة لوجهة ، وضربة ليديه ويمسحهما إلى الرقبتين^(٣) .

الصيام : كان من فروض^(٤) الدين الهامة ، وهو يمتنع ترك الطعام والشراب والنكاح^(٥) ، وكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل عن الآثام^(٦) . ولا يكون الصيام إلا برؤية هلال^(٧) الشهر التاسع من السنة القمرية ، أى في شهر رمضان ، وذلك من الفجر حتى التروب^(٨) . وهذا الصيام له مثيل في الأديان^(٩) الأخرى ، كما عند اليهود^(١٠) ؛ ولكن لم يعرف عند العرب بمثل هذه القواعد . وعلى عكس الصلاة ظهر الصيام متأخراً ، إذ فرضه النبي على المسلمين في المدينة^(١١) ، حيث اعتبره زكاة^(١٢) الجسد ؛ وإن استثنى^(١٣) منه من كان مريضاً أو على سفر فعد من أيام آخر ؛ أما من لا يستطيعه فعليه أطعام المساكين . ويقول ابن العبري^(١٤) المسيحي (Barhebraeus) : بهذا الصدد عن الصيام الاسلامي : إنه رياضة وتذليل وقع للشهوة ، تحصل به رقة القلب وصفاء النفس .

(١) ابن هشام ، ١ ص ١٠١ .

(٢) القرآن ٥ : ٦ .

(٣) اللوطا ، ص ١٩ .

(٤) سورة ٢ آية ١٨٣ .

(٥) اللسان ، ١٥ ص ٢٤٢ .

(٦) الابنهي ، المستطرف ، ١ ص ١٣ .

(٧) اللوطا ، ص ٨٥ .

(٨) سورة ٢ آية ١٨٧ .

(٩) سورة ٢ آية ١٨٣ .

(١٠) ولفلسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٢٢ .

(١١) السورة (٢) مدنية .

(١٢) الابنهي ، المستطرف ، ١ ص ١٣ .

(١٣) القرآن ٢ : ١٨٤ .

(١٤) مختصر النول ، تحقيق الأب سالمان ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ١٦٨ .

الزكاة^(١) : وهي من فرائض^(٢) الدين ، وترادفها كلمة « صدقة »^(٣) ، بمعنى ما كان يجمعه^(٤) النبي من المسلمين . وقد بين القرآن^(٥) أوجه صرفها ، فقد أراد دفعها إلى ثمانية أصناف هم : الفقراء ، والمساكين أو الضعفاء ، والماملين على حياتها ، والمؤلفة قلوبهم وذلك بدفعها للترغيب^(٦) في الاسلام ومحاربة الكفار ، والرقبي ، والفارين أو الذين عليهم دين^(٧) ، وفي سبيل الله ولعل المقصود به الجهاد^(٨) ، وابن السبيل أى المسافر . وهذه الزكاة كانت تؤخذ في الحرث والعين والماشية والمعادن^(٩) ، وإن اختلف إلى من تدفع : للحكام أو أن الناس تنصرف فيها بإرادتها^(١٠) ؛ وإن تمسك خلفاء النبي الأوائل بيجابيتها بأنفسهم ؛ كما كان يفعل^(١١) النبي . وقد كانت الزكاة من الواجبات الدينية حتى في الأديان الأخرى مثل المسيحية واليهودية ، فكان يجمعها رجال^(١٢) الدين لتدفع للمساكين . كذلك كانت العرب قبل الاسلام تدفع الصدقة بتركها لآلهة أو بذبحها ، وإن كانت تسمى بأسماء مختلفة ذكرها القرآن^(١٣) ، منها : البحيرة والسائبة والوصيلة

(١) القرآن ٢٣ : ٤ : ٨٧ : ١٤ .

(٢) قصه ٩ : ٦٠ .

(٣) قصه ٩ : ٦٠ : ١٠٣ .

(٤) للوطأ ، ص ١٠٣ فافهما .

(٥) القرآن ٩ : ٦٠ .

(٦) البان ، ١٠ ص ٣٥٣ .

(٧) قصه ، ١٥ ص ٣٣١ .

(٨) قصه ، ١٣ ص ٣٤٠ .

(٩) للوطأ ، ص ١٠٣ .

(١٠) دعائم ، ١ ص ٢٩٣ .

(١١) القرآن ٩ : ١٠٣ : دعائم ، ١ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(١٢) ابن هشام ، ١ ص ١٣٨ .

(١٣) سورة ١٠٢ : ٥ . « البحيرة » هي تاج الناقة التي يشق أذنها وتوهب للآلهة ، فيلتقم بلبنها الرجال دون النساء ، و « السائبة » هي ما يترك من المال أو البهائم وتكون حراماً ، و « الوصلة » وهي ساج تلتج الشاة إذا كانت أنثى ويحرم أكلها ، وهي أيضاً يتفخم بلبنها الرجال دون النساء ، و « الحلى » الفحل التي يترك ولا يركب إذا صار نبداً ، وإذا مات جل للآلهة . النويرى ، ٣ ص ١١٦ . - ١١٧ .

والحامي . وإنه من الخطأ أن تصور أن اهتمام الاسلام بالزكاة كما يظهر من الآية السابقة يرجع إلى المشاكل الاجتماعية^(١) ، في جميع حالاته ، أو أنه نوع من التضامن الاجتماعي كما في وقتنا ، وإنما هو يقصر من الناحية الدينية من حيث أنه حث على الشفقة والرحمة ، واستغلالها في الجهاد ونشر الدين .

الحج : وهو من الواجبات الدينية على المسلمين ؛ الذين يستطيعون^(٢) الذهاب إلى مكة ؛ وهو نفسه الحج الذي كان يقام في مواسمه^(٣) المعروفة قبل الاسلام ، وينسب إلى زمن^(٤) ابراهيم — مؤسس الحنيفية — بما في ذلك من الطواف وري الجار والتضحية والسمي بين الصفا والمروة . وإن كان الاسلام قد حث على الحجاج أن يلبسوا شيئاً من الملابس^(٥) الموحدة، تتألف من القميص غير المصبوغ^(٦) ، تنطلي أعلى الفخذ والصدر والأكتاف ؛ على أن تبقى الرأس عارية ، كما يلبس نملين^(٧) . ويعتبر الحج الذي قام به النبي في آخر حياته ، وهو حجه الوداع^(٨) ، الأساس الذي قام عليه الحج إلى الآن . كذلك أبقى الاسلام على التنوع الآخر من الحج وهو « العمرة »^(٩) ، وهو يشمل الطواف ، والسمي بين الصفا والمروة ، ويكون في غير أشهر الحج^(١٠) .

(١) انظر . Tor Andrae : Mah, p. 74 .

(٢) القرآن ٢ : ١٩٧ .

(٣) انظر . Zaayer : Het Mekkanesche Feest. Leiden 1880, p. 20 .

(٤) التعليل ، قصص الأنبياء ، ص ٦٠ .

(٥) اللوطأ ، ص ١٢٥ .

(٦) قسه ، ص ١٢٦ .

(٧) قسه .

(٨) انظر . قبله .

(٩) القرآن ٢ : ١٩٦ .

(١٠) اللوطأ ، ص ١٣٤ ؛ انظر . Le Pèlerinage : Gaud-Demombynes à la Mekke, p. 192 — 193 .

أما ما جاء به الاسلام في الحياة الاجتماعية فآثره واضح ، وذلك لأن الدين الجديد اعتنى بالأسس التي يقوم عليها المجتمع ، بمكس بعض الأديان الأخرى التي تقوم في جانب والحياة في جانب آخر مثل المسيحية ؛ أو بعض المقائد السياسية التي قامت والتي تقوم متخلصة من كل أثر ديني ، مثل الشيوعية التي تجحد الدين ، ومع ذلك لا يمكن أن نقول إن الدين الاسلامي ملج نظم الحياة بنصوص صريحة ، ولكنه على كل حال صاغ هذه النظم وفق فكرته الأساسية كدين .

فاعتني الإسلام - قبل كل شيء - بتهديب المجتمع العربي ، فسمى إلى إصلاح الخلل في الأخلاق الذي كان سائداً في الجاهلية . فلكي يحفظ للأمة كيائها جعل الزنا^(١) ، الذي هو اختلاط للأنساب ومفسد للنوع ، جريمة كبرى « فاحشة »^(٢) ، مع أنه لم يكن في الجاهلية بالجريمة ذات الشأن . ولكن الاسلام وإن كان لم يقض على كل النظم الجاهلية التي تبيع المجتمع الجنسي ، فشرع الزواج من مثنى وثلاث ورباع^(٣) ، وأخذ بنظام نكاح الإماء^(٤) وهن الجوارى ، وزهبت بعض مذاهبه إلى تحليل زواج التمة^(٥) - وهو الزواج المؤقت - فلمله لم يرد أن يأخذ المجتمع العربي بطريق التمييز الفجائي لا يترتب على ذلك من أخطار قد تدبّر أصول هذا المجتمع ؛ كما أنه وضع بعض القيود بأن جعل المدل أساساً في الزواج بأكثر^(٦) من واحدة ، وذكر أن الانسان لا يستطيع - مع ذلك - أن يمدل ، أما بالنسبة للإماء ، وهو نظام يستطرد إلى نظام الرق والاسترقاق ، فقد وضع له قيوداً تجعل عدمه خيراً من وجوده فدعا إلى تحرير^(٧) الرقيق ، أما زواج التمة فقد بين النبي^(٨) كرهه له .

(١) الفرقان : ٢٥ : ٦٨ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣١ ص ٢ .

(٢) الفرقان : ١٧ : ٣٢ .

(٣) قس ٤ : ٣ .

(٤) قس ٢٤ : ٣٢ .

(٥) الموطأ ، ص ١٩٦ .

(٦) الفرقان : ٤ : ٣ .

(٧) قس ٤ : ٩٢ : ٥٨ : ٤٣ : ١٣٤ : البخاري ، صحيح ، بولاق ١٣١٤ هـ .

(٨) (المجلد الثاني) .

(٨) الموطأ ، ص ١٩٦ .

كذلك عالج الاسلام حرية المرأة وفق روحه الدينية بقصد صيانتها ، وذلك دون أن يكون من أنصار تحريرها بالمعنى المعروف في وقتنا . فقد جعلها في حماية زوجها^(١) بحكم أن الرجل أقوى من المرأة ولإتفائه^(٢) عليها ؛ كما حذمن إبناءه^(٣) زينتها إلا لزوجها وأقارب زوجها ؛ مما كان سبباً في جعل المرأة المسلمة ، أو حتى المسيحية في الشرق تلبس النقاب^(٤) ، وأعطى الحق للزوج في وعظها أو هجرها في المضاجع^(٥) إذا لم ترتدع ، أو ضربها . ومع ذلك فالاسلام قد رفع من شأن المرأة عن ذي قبل ، وسار في سبيل ذلك بخطوات واسعة بقضائه على بعض مبادئ المجتمع الجاهلي ، مثل : وأد^(٦) البنت خشية الاملاق ، أو وراثة نكاح المرأة وهو ما يعبر عنه « بنكاح المقت »^(٧) ، أو نكاح ما نكح الآباء أو الاخوة ، أو المات أو الخالات أو بنات الأخ أو بنات الأخت أو الأم أو أمهات الزوجات أو الأخوات في الرضاة أو اللحم بين الأختين^(٨) . كذلك حفظ الاسلام حقوق المرأة مما لم يكن معترفاً به من قبل ، مثل : حفظ حقوقها في الزواج والأولاد والطلاق والأجور^(٩) ، وطلب باستئذان^(١٠) البكر والأيم في نفسيهما ، وإحسان المعاملة^(١١) ، بل أصبح للزوجة حق مفارقة الزوج إذا كانت المعصمة بيدها . ولا ريب أن القى ساعد على اتخاذ الاسلام هذه الخطوات ، أن حياة الأسرة العربية كانت متقدمة في الحجاز

(١) انظر رأى Perron : Femmes Arabes, p. 171.

(٢) القرآن ٤ : ٣٤ .

(٣) قصه ٢٤ : ٣١ .

(٤) انظر . Tor Andrae : Mah, p. 78 .

(٥) القرآن ٤ : ٣٣ .

(٦) قصه ١٧ : ٣٤ .

(٧) انظر قوله في التورى ، ٣ من ١٢٠ . و« المقت » من مقيت أى ميفوض مكروه .

الأوسى ، ٢ من ٥٣ .

(٨) القرآن ٤ : ٢٣ .

(٩) سورة النساء (٤) .

(١٠) الموطأ ، ص ١٨٩ .

(١١) ابن هشام ، ٢ من ٩٦٩ (خطبة الرخاع) ٤ الأبيشي ، للنعطف ، ٢ من ٢٧٨ .

عنها في بقية أنحاء الجزيرة ، بحيث أن السيدة خديجة هي التي اختارت^(١) النبي زوجها لها .

وفوق ذلك أوجد الإسلام تشريعات كثيرة لصالح المجتمع العربي ، والرفع من شأنه حتى يقيمه على دعائم قوية : فنظم القصاص أو ما يعرف « بالحدود »^(٢) ، وهي زواجر^(٣) وضما الله للردع عن ارتكاب ما حظر ، وتركما أمر ، معظما كان معروفاً^(٤) عند العرب أو اليهود ؛ فوضع لها قواعد وشروطاً حتى لا يساء تطبيقها . فثلا ترك الشفاعة^(٥) للشارق ، وإذا قطعت يده فقطعت يده اليمنى^(٦) من مفصل الكوع ، وإن استمر في السرقة قطعت إحدى رجليه أيضاً وهي اليسرى من مفصل الكعب ؛ أو ضرورة وجود البيّنة^(٧) في حالة رجيم الزاني . كذلك حارب الربا كل الحاربة — وهو أخذ الفائدة — وذلك لأن معظم القاعين به هم اليهود ، الذين اعتبروه نوعاً من التجارة^(٨) ؛ مع أن دينهم كان يحرمه ؛ وقد صور^(٩) الإسلام من يأخذه بالشيطان . كذلك منع الخمر^(١٠) والميسر — وهذا الأخير هو وقتشذ القمار على لحم الجمل — وإن كان تحريم الخمر لم يحدث دفعة واحدة^(١١) ، وكان هذا التحريم في السنة الرابعة أو الخامسة^(١٢) الهجرية ؛ وإن ذكر بعض

(١) انظر . الباعى ، صور من التاريخ الإسلامى ، ص ٢٧ ؛ ٢٨ . انظر أيضاً ابن سعد ١/١ ص ٤٦ س ٥ — ٦ .

(٢) القرآن ٦٥ : ١ .

(٣) للوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٣٢٢ / ٨ ١٩٠٩ م ، ص ١٩٤ ؛

انظر . Tyan : Hist. de l'Org. Jud. Paris 1943. 2 p. 365 .

(٤) الوطأ ، ص ٣٤٧ ؛ ابن همام ، ص ١ ؛ ١٢٢ .

(٥) الوطأ ، ص ٣٥١ .

(٦) للوردى ، أحكام ، ص ١٩٧ .

(٧) نفسه ، ص ١٩٦ .

(٨) وقسيسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٨ .

(٩) القرآن ٢ : ٢٧٥ .

(١٠) نفسه ٢ : ٢١٩ .

(١١) نفسه ٢ : ٢١٩ ؛ ٤ : ٤٣ ؛ ٥ : ٩٠ — ٩١ .

(١٢) التورى ، ص ٧٩ فابعدا .

الفقهاء إن المحرم المحرم في القرآن هي التخنفة ققط من عصير المنب والنمر^(١) .
ويبدو أن سبب تحريم الاسلام للخمر هو تهيتها للشخص للخطيئة ، والمنع من
الصلاة لله ؛ فضلاً عن أنها توقع البغض والمداوة بين الناس بما يخوضون فيه
في مجالسهم الخمرية من أعراض النير^(٢) . كذلك نظم الاسلام ما يعرف
« بالماملات »^(٣) من بيع وأقضية وميراث .

وفي الواقع لم يدع الاسلام أنه بنى مجتمعاً في غاية التنظيم ، وإنما على أية حال
نهض بالمجتمع القديم ، ووضع بذوراً طاهرة تحفظ عليه كيانه من طغيان المادة ،
بل هناك فكرة سائدة هي أنه ليس من السهل إقامة مجتمع مثالي ، لأن ذلك
يمازس طبيعة التطور .

أما التشريعات السياسية في الاسلام ؛ فإنها كانت هي الأخرى تقوم مرتبطة
بالتقيد الأخلاقية ؛ ففي الاسلام اشتراكية خلفية^(٤) لا تؤمن بحق الملكية التي
تجمل الناس عبداً للأرض ، أو بحق فرض العمل فرضاً على الناس مما يجعلهم
أشبه برقيق الأرض ، فالاسلام كالأديان الأخرى دعا إلى المساواة وأنه ضد ظلم
المجتمع واضطهاده ، بحيث نادى باعتاق الرقيق : « تحرير رقة^(٥) » ، أو « فك
رقة^(٦) » . كذلك وإن كان الاسلام لم يحدد نظام الانتخاب أو يوضح نظام
الشورى^(٧) ، إلا أن مسلكه ضد اللوك والحكام يبين أنه ضد الاستبداد^(٨) ؛
وأن هؤلاء يعتبرون خلفاء الله في الأرض ؛ لحماية الناس من الاستبداد .

من كل هذا نرى أن الاسلام حفز البدو إلى تحسين كيانهم ، بما أقامه لهم
من أسس قوية ، وتشريعات نظمت مجتمهم المضطرب .

(١) قس ، ٤ ص ٧٦ — ٧٧ .

(٢) للوردى ، الأحكام ، ص ١٩٩ .

(٣) قس ، ص ٢١٩ ؛ انظر أيضاً للوطا ، ص ٢٢٤ فابعدا .

(٤) ميكال ، حياة محمد ، ص ٥٤٢ .

(٥) القرآن ٤ : ٩٢ ؛ ٥٨ : ٣ .

(٦) قس ٩٠ : ١٣ . (٧) قس ٤٢ : ٣٨ . (٨) قس ٢٧ : ٢٤ .

الخلفاء الراشدون

$$٦٦١ - ٦٣٢ = ٤٠ - ١١$$

ميلادية	هجرية	
٦٣٢ - ٦٣٤	١١ - ١٣	أبو بكر الصديق
٦٣٤ - ٦٤٤	١٣ - ٢٣	عمر بن الخطاب
٦٤٤ - ٦٥٦	٢٣ - ٣٥	عثمان بن عفان
٦٥٦ - ٦٦١	٣٥ - ٤٠	علي بن أبي طالب

الفصل الثالث

عصر الخلفاء الراشدين

ظهور منصب الخلافة وتولية أبي بكر - ردة العرب - قمع الردة - سر حركة الفتوح - فتح العراق - فتح الشام - تولية عمر بن الخطاب - فتح فارس - فتح الجزيرة - فتح مصر - فتح برقة وطرابلس - معاهدة البقل - تنظيم البلاد المفتوحة - تولية عثمان - سيطرة المسلمين في البحر - فتح أرمينية - جمع القرآن - أسباب الفتنة الأولى - تولية علي - الصراع على الخلافة - ظهور الفرق الإسلامية - التحكيم - عام الجماعة الأول .

قد عرفنا مدى التطور السياسي الذي ظهر في الحجاز بهجرة النبي إلى المدينة وممارسته فيها الزعامة السياسية بجانب الزعامة الدينية^(١)، وأنه جعل من المسلمين « أمة^(٢) » واحدة ؛ أي طائفة دينية متميزة قائمة بذاتها ، وبهذا حقق النبي في المدينة مبدأً جديداً في حياة المجتمع العربي يكون فيه الشعور القبلي من نسب وحسب وغصبية ثانوياً بجانب الرابطة الدينية^(٣) .

وقد كان موت النبي مفاجأة لم يصدقها العرب^(٤) ، بحيث أوجدت مشكلة هي : مسألة خلافته الشائكة . حقاً إن النبي - لا يبدو - أنه عين لمنه « الأمة » المسلمة نظام الحكم بعده ، إلا أنه أوجد لها مبدأ الطاعة ونص عليه

(١) انظر ، الرئيس ، النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ، ص ١٥ .

(٢) الفرقان ١٠ : ٤٧ ؛ انظر - Ency. de l'isl. (art Umma) 4, p. 1070 .

(٣) الفرقان ٣ : ٢٨ ؛ ٩ : ٢٣ ؛ انظر . أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٢ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢١٩ .

في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ٤: ٥٩؛ ويقصد بأولي الأمر من يقوم بأمر الأمة الإسلامية^(١). ويظهر أنه طالما كان النبي حياً كانت الخلافة على رئاسة «الأمة» الإسلامية من بعده ناعمة؛ وإن كان الراغبون فيها كثيرين:

فكان بنو هاشم يطعمون فيها خصوصاً وأنهم ظنوا أن انتصار النبي على البيت الأموي — أدى تزعيم مقاومة الدعوة الإسلامية — معناه عودة زعانتهم في مكة والحجاز. وقد كانوا ينتظرونها لعل^(٢)، ذلك لأن أباهم النبي في الأيام السوداء^(٣)، وعلى نفسه كان من أوائل المسلمين^(٤)، ومن أقربهم قرابة^(٥) من النبي: فهو ابن عمه، وزوج ابنته فاطمة^(٦)؛ فضلاً عن أنه أعلن أن النبي أوصى^(٧) إليه صراحة في إمامة المسلمين من بعده. ولذلك نجد العباس عم النبي — وكان قد تأخر^(٨) إسلامه إلى ما قبل فتح مكة — يقبل على ابن أخيه علي، ويقول له^(٩): «ابسط يدك ولنبايعك». ولكن لعل علياً تباطأ في قبول ذلك لظهور اطماع من أكثر من جانب، وخوفاً من أن تدخل الشبهة في أن النبوة ملك متوارث^(١٠)، وأنشغل بدفن النبي^(١١).

(١) يذكر الشيعة أن المقصود بأولي الأمر من الأمة من نسل علي؛ وقلبك يميلون الطاعة لهم من أولي دعائم الإسلام ويطلقون عليها «الولاية» انظر. دعائم الإسلام، ١ ص ٣؛ ٢ ص ٢٥.

(٢) التوبخني، فرق الشيعة، تحقيق صادق، النجف ١٣٥٥ / ١٩٣٦، ص ٢.

(٣) انظر. قبله.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٣٧؛ ٣ ص ٩٨.

(٥) نفسه، ٣ ص ٩٨.

(٦) تزوجها بالمدينة، وماتت بعد وفاة النبي بمائة يوم؛ وقد ولدت لعل الحسن والحسين وعثمان وأُم كلثوم وزينب. للمعارف، ص ٧٠.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٦٨. نقل الشيعة أحاديث كثيرة تؤيد وصية النبي لعل؛ فقد كان من عادة الأنبياء أن يختاروا أوصياء من أسرهم (دعائم، ١ ص ٢٥). وقد حدثت هذه الوصاية، أثناء حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة بقرب غدير خم، مكان بين مكة والمدينة. نفس المرجع، ١ ص ٢٠ — ٢١؛ انظر. ماجد، نظم القاطمين وورسومهم في مصر، ١ ص ٥١؛ فابعدا.

(٨) انظر. قبله.

(٩) القرطبي، النزاع والاختصاص، ص ٦.

(١٠) نفسه، ص ٤٨.

(١١) ابن هشام، ٢ ص ١٨ — ١٠٢٠.

ومن ناحية أخرى كان المهاجرون — وهم الذين هاجروا مع النبي إلى يثرب ، يريدون ^(١) الخلافة فيهم ، ويميلون بها إلى أبي بكر ^(٢) ، ذلك لأنه كان من السابقين ^(٣) إلى الإسلام ، والمشاركين في الدعوة من أولها إلى آخرها ، حتى استحق لقب « صديق » ^(٤) ، وكان إيمانه بدعوة الإسلام ، وبضرورة تغيير العرب لدينهم يفوق إيمان جميع المسلمين ، فيقول النبي ^(٥) : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبرة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر » ؛ هذا وأنه والدعائشة ^(٦) زوج النبي المحبوبة .

كذلك الأنصار — وهم مسلمو المدينة — الذين نصرُوا النبي وعملوا على إنجاح دعوته كانوا يطعمون في الرئاسة فيهم ، خصوصاً وأن النبي حتى بعد فتح مكة رجع معهم إلى المدينة ، ولم يبق في قومه ^(٧) ، ودفن بها . وظهر أنهم كانوا يميلون بالخلافة إلى سعد بن عبادة ^(٨) سيد الخزرج ^(٩) ؛ ولكن سعد بن عبادة لم يكن يملك الشخصية التي تجعله يخلف النبي . أضف إلى ذلك أن الأوس — وهي القبيلة الأخرى الهامة بالمدينة — كانت قد فقدت سيدها سعد بن معاذ ^(١٠) ، الذي توفي قبل وفاة النبي ^(١١) . ومعنى هذا أنه لم يكن بين الأنصار من يستطيع أن

(١) قس ، ص ١٠٥ س ١١ ؛ ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مصر ١٣١٧ هـ ، ٤/١ ص ٩٧ . انظر أيضاً نص الرسالة للنسوبة إلى أبي بكر وعلي ، وما يصل بها من كلام عمر بن الخطاب وجواب علي ؛ وهذه الرسالة قد تكون موضوعاً ولكنها تبيح عن ظروف الوقت أصدق تغيير . الثوري ، ص ٧ ، ٢١٣ فإيلها .

(٢) التوحيدي ، ص ٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢ ، ٣٨ .

(٤) ابن هشام ، ص ١ ، ١٦١ .

(٥) قس ، ص ١٠٢ س ١٠ — ١١ ، انظر . هيك ، الصديق أبو بكر ،

الطبعة الثانية ١٣٦٢ هـ ، ص ٣٤ .

(٦) تزوجها في السنة الأولى من الهجرة . ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢ ، ٧٧ .

(٧) قس للرجح السابق ، ص ٢ ، ١٨٥ .

(٨) ابن هشام ، ص ٢ ، ١٠١٥ .

(٩) قس ، ص ٢ ، ٦٧٥ س ٢ .

(١٠) قس ، ص ٢ ، ٦٧٤ — ٦٧٥ .

(١١) قس ، ص ٢ ، ٦٩٧ .

يضم صفوف الأنصار ، ويحقق لهم أملهم في جعل الخلافة فيهم .
على كل حال حلت مسألة خلافة النبي الشائكة بسرعة عجيبة ، وفي نفس
العام الذي توفي فيه (١١ / ٦٣٢) . ولعل ذلك يرجع إلى الخوف من
الفتنة على هذه الأمة الناشئة ، خصوصاً وأن بعض القبائل أعلنت خروجها
على طاعة النبي في حياته ^(١) . وينسب حل هذه المسألة إلى صحابي كبير ، هو :
« عمر بن الخطاب » ^(٢) ، الذي كان يهدف قبل كل شيء إلى توحيد الصفوف منماً
٢٢فتنة ^(٣) ، والرجوع بالعرب إلى تقاليدهم في اختيار « السيد » ^(٤) أو « الزعيم » ،
لي أن تكون الرئاسة في قريش ^(٥) وحدها . فأعلن في مبيعة بني ساعدة ^(٦)
— وهو المكان الذي كان يتشاور فيه المهاجرون والأنصار بالمدينة — أن أبا بكر
يحكم — سنه وتجربته — خليفة ^(٧) رسول الله . فلقى هذا الإعلان في أول الأمر
معارضة من الأنصار وبخاصة من الخزرج ^(٨) ؛ إلا أن أغلبهم وافق على اختياره
بعد أن تأكدوا أن الأمر سيستمر شوري ^(٩) بينهم وبين المهاجرين .

وقد تأكدت طاعة الأنصار والمهاجرين لأبي بكر بما يعرف « بالبيعة » ^(١٠) ،
وهي كلمة في القرآن ^(١١) تعني العهد على الطاعة ، وتكون ببسط ^(١٢) اليد أو

(١) التوبختي ، ص ٤ ؛ انظر بعده .

(٢) ابن الجوزي ، كتاب تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٣٤ و ٣٥ .

(٣) انظر . الرسالة المنسوبة إلى أبي بكر . التزوي ، ص ٧ و ٢٧٣ فا بعدها .

(٤) انظر . قبله .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٣ — ١٥٤ ؛ التوبختي ، ص ٣ .

(٦) ابن هشام ، ص ٢ من ١٠١٣ — ١٠١٧ .

(٧) ابن حزم ، الفصل ، ص ٤ من ١٠٧ . المقصود بالخليفة في القصة من يخلف النبي ،
وذلك انتهى أبو بكر مناجاته « بخليفة الله » ، وقال : ولكن « خليفة رسول الله » . ابن خلدون ،

المقدمة ، ص ١٥١ .

(٨) ابن الأثير ، ص ٢ من ٢٢٤ .

(٩) نفسه ، ص ٢ من ٢٢٣ .

(١٠) ابن هشام ، ص ٢ من ١٠١٦ ؛ حسن وعلي إبراهيم ، النظم الإسلامية ، القاهرة
١٩٣٩ ، ص ٢٩ .

(١١) القرآن ٤٨ : ١٠ . هذه الكلمة مصدر باع الظل . ابن خلدون ، المقدمة ،

ص ١٦٥ .

(١٢) ابن هشام ، ص ٢ من ١٠١٦ ؛ ص ١١ .

بضربها^(١) على يد البايغ . ويظهر أن البيعة تكون من الرجال والنساء على السواء؛ فقد سبق أن بايعت النساء^(٢) النبي ، وتكون مبايعتهن من غير لمس أو مصافحة ، وإنما فقط بإعلان الطاعة بالكلام . أما أن تكون البيعة بتقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو القيل ، كما ستكون في العصر العباسي ، فهذه أساسها في تقاليد الفرس^(٣) لا العرب . ومع ذلك فإن علياً — على ما يظهر — تأخر^(٤) في المبايعة ، أما سعد بن عباد فيبدو أنه لم يُجبر^(٥) على المبايعة إلى أن قتل في حروب الشام . وفي الحق أن أبا بكر يمثل بحق روح « سيد » العرب ، التي امتزجت بروح الدين الجديد ؛ ويتبين هذا في أول خطبة له ألقاها من على منبر النبي في المسجد ، قال فيها^(٦) : « أيها الناس إني قد وليتُ عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنتُ فأعينوني ، وإن أسأتُ فقوّموني ، الصدق أمانةٌ ، والكذب خيانةٌ ، والضعيفُ فيكم قوّىٌ عندي حتى أرفعَ عليه حَقَّهُ إن شاء الله ، والقوّى فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذَ الحقَّ منه إن شاء الله . . . أطيعوني ما أطعتُ الله ، ورسوله ، فإذا عصيتُ الله ورسوله ؛ فلا طاعة لي عليكم . . » .

ولكن رأى أهل السقفة في خلافة أبي بكر للنبي لم يكن وأى السواد الأعظم من عرب الجزيرة ، فمنهم من ارتد^(٧) عن دين الإسلام بحكم أن الإسلام^(٨) انتهى بموت النبي ، ومنهم من توقف عن المبايعة لأبي بكر مع تمسكهم بالإسلام ،

(١) نضه ، ١ ص ٣٠٠ ص ٤ .

(٢) القرآن ٦٠ : ١٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ١٧١ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٥ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢ .

(٥) نضه ، ٢ ص ٢٢٤ ص ١٢ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ١٠١٧ ؛ انظر . هيكل ، الصديق ، ص ٧١ .

(٧) انظر . الطبري (Annales) ١ : ١٨٨١ — ١٨٨٤ ؛ انظر . مجموعة

الوفائق ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٨) اللوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٤٧ .

وامتنعوا عن دفع الزكاة التي كان النبي يجبرها من القبائل ، حتى يصح^(١) عندهم لن الأمر، ومن الذي استخلفه النبي . فكان على ولي الأمر الجديد أن يرسل الحملات الحربية نحو من رجع عن الإسلام ، أو من لم يبادر بمبايعته ، أو امتنع عن دفع الزكاة ، وسمى هؤلاء : « بأهل الردة^(٢) » . وهذه الحروب التي سيق معظمها في الجزيرة بين سنتي إحدى عشرة واثنتي عشرة من الهجرة (٦٣٢ - ٦٣٤)^(٣) ، هي أشبه بأيام العرب ووقعاتهم ، حيث سميت كل منها يوماً من أيامها المشهورة^(٤) .

وفي الحق أن الوحدة السياسية لعرب الجزيرة جميعاً لم تقم في أي وقت ، وليس لدينا سند تاريخي واحد يشير إلى قيامها في زمن النبي ، قبل موته بثلاث سنوات كانت مكة وأرباضها في عدااء سافر مع المدينة ؛ وإن كان من المحتمل أنه عند موت النبي وبيعة أبي بكر بالخلافة كان قد تكون في المنطقة الوسطى من الحجاز حكومة واحدة تشتمل على مكة والمدينة وبعض القبائل العربية المجاورة ؛ أما الجزء الأكبر من قبائل الجزيرة فلم يكن خضوعها لتنفيذ المدينة إلا خضوعاً اسمياً ، مظهره : ارسال الوفود^(٥) إلى المدينة ، وإتاء الزكاة^(٦) التي كانت تؤخذ من غلات البلاد لأن الجزيرة لم تكن تعرف العملة إلا في أيدي^(٧) تجار قريش المتعاملين مع بيزنطة وقرس ، واعطاء الخمس^(٨) من الغنائم التي يحصلون عليها في غاراتهم ، ومفارقة الشركيين ، وقبولهم المال^(٩) أو القراء^(١٠) لجباية الصدقة وتعليم الدين ، لأن العرب كانوا أمة أمية .

(١) التويضي ، ص ٤ .

(٢) نهد ، التاريخ ، الأحكام ، ص ٤٤ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢٠٢ .

(٤) الميداني ، ص ٢٧١ فما بعدها .

(٥) ابن هشام ، ص ٩٣٣ ؛ انظر . قبله .

(٦) ابن سعد ، ٢/١ ص ٢٣٣ . ففلاكان النبي يأخذ صدقة اليمن من التمر والشعير

والقدرة والمنطة والزبيب والبن . انظر . البلاغ ، فتح ، ص ٧٢ .

(٧) انظر . قبله . (٨) ابن سعد ، ٢/١ ص ٢٣٣ .

(٩) ابن هشام ، ص ٩٦١ - ٩٦٢ .

(١٠) هم المحافظون للقرآن أو الذين يقرمون الكتاب . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٥٣ .

ومن ناحية أخرى كان الجزء الأكبر من العرب في الجزيرة - فيما عدا عرب المدينة ومكة - لا يعرف من الإسلام غير اسم محمد والقرآن ، ولم يكن في كل الحجاز من متحمس لدين الإسلام غير أهل المدينة من الأنصار ، وأهل مكة من المهاجرين . ففي الواقع لم تحفل العرب بالإسلام ، كما لم يحفلوا من قبل بأى دين من الأديان السماوية الأخرى ، ولم يحاولوا فهم قوانينه ، أو القيام بمظاهره من صلاة وصيام ووضوء ؟ حيث نعرف قسوة الحياة في البادية وقلة الماء . وإهمال العرب للإسلام ظهر في حياة النبي نفسه ، فهم يطالبونه بإسقاط الصلاة أو الزكاة ^(١) ، وكلاهما من تعاليم الإسلام وأركانها . وقد قدر القرآن هذه الطبيعة العربية في محادثة الدين ، وعدم الاحتفال به ، بقوله : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ٤٩ : ١٤ ﴾ . ولا ريب أن النبي نفسه تعب من استهتار العرب بالدين ، وعدم ميلهم إليه ؛ فوصف القرآن العرب بالبشارة الآتية : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ٩٧ : ٩ ﴾ . لذلك كانت العرب في ذلك الوقت قوم ^(٢) بإسلامها .

وحق قبل موت النبي لم تتردد روح الانفصال ^(٣) عن الظهور ، وإن كانت البواش الدينية لم تلعب إلا دوراً ضئيلاً . فقد كان عرب الجزيرة يطلبون الفكاك من سيطرة المدينة ؛ حيث أن روح الإسلام لم تسكن وصلت بعد إلى قلوب القبائل ؛ ولكي تقطع ^(٤) صلتها بالمدينة منمت الزكاة التي سماها بعض العرب « أتاوة » ^(٥) ، والتفتوا حول زعماء من قبائلهم ادعوا « النبوة » ^(٦) ، وهؤلاء كانوا يدعون إلى بعض نفوذ للدينة والإسلام باسم « الله » ^(٧) و « الوحي » ، وليس باسم آلهة العرب

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٢ ؛ البلاذري ، فتوح ، ص ٩٤ .

(٢) ابن سعد ، ٢/١ ص ٧٠ ص ١٠ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٨ ؛ انظر . بعده .

(٤) . الوحي ، ص ٤ .

(٥) . ابن الأثير ، الكامل ، ٧ ص ٢٣٨ .

(٦) . الوحي ، ص ٤ .

(٧) ابن الأثير ، ٢ ص ٢٣٢ ص ١١ ٢٤٢ .

القديعة ؛ كما حاولوا أن يقلدوا^(١) القرآن في عباراتهم الدينية . ويعرف ابن خلدون^(٢) « التنبؤ » بأنه من خواص النفس الإنسانية ، ومرتبة من مراتب ادراك الغيب ، وأنه انسلخ إلى الروحانية بالفطرة . وقد تصحبه الخوارق وهي الأفعال التي يمجز البشر عن فعلها ؛ ولذلك كان التنبؤ أعلى مرتبة من الكهانة التي تنال بالاكتساب والاستعانة بالمدارك والتصورات . ويبدو أن بعض العرب كانت تسمى^(٣) إلى التنبؤ ، وأنه لم يكن غريباً عنها حتى قبل الإسلام : فمثلاً كان الشاعر أمية بن أبي الصلت^(٤) يطمع في النبوة ويسمى لها — وإن كنا لا نعرف وسائل الحصول عليها ، وإن أُعتبرت عندهم من القراسة^(٥) أو الشعور بالمعبد ؛ كذلك كان عبد المطلب — جد النبي — يأتيه في المنام آت^(٦) يكلمه من حفر يثر زمزم ، بل إن التنبؤ بالأمور كان يشمل الأخبار اليهود واليهان النصارى^(٧) في الجزيرة ، الذين تحدثوا بأمر النبي قبل مجيئه . ولكن بعد محمد مُنِعَ التنبؤ ، فهو — كما ورد في القرآن^(٨) — خاتم النبيين ؛ كما مُنعت الكهانة^(٩) أيضاً . ولذلك وجدنا أن من يدعى النبوة يسمى : « بالكذاب^(١٠) » ؛ ويصغر اسمه تحقيراً لشأنه .

فصارى القول كفرت عامة العرب ، واندلع العصيان في كل مكان ، وأصبح

(١) نفسه ، ص ٢ ، ص ٢٤٤ (آخر الصفحة) .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٣ فما بعدها .

(٣) نفسه ، ص ٨١ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ، ص ٨٧ . لديها في وقتنا ما يجر عنه بكلمة Telepathy .

(٦) ابن هشام ، ص ٩١ — ٩٤ .

(٧) نفسه ، ص ١٢٩ .

(٨) القرآن ٣٣ : ٤٠ .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨١ .

(١٠) أطلق النبي هذه الكلمة على «سيلة» ، التي ادعى النبوة . انظر . ابن هشام ،

ص ٩٦٤ — ٩٦٥ . سيكون التنبؤ في عهد المبشرين قياً بعد من التكلمات والتواجر .

التورى ، ص ١٤ — ١٦ .

للمردون^(١) حرباً على من يقبى على اسلامه . وقد أخذ أبو بكر على عاتقه أن يحارب أهل الردة ، فقد كان في رأيه : أنه لا يجوز أن يهادنوا^(٢) أو يصالحوا ، أو حتى يتساهل معهم في بعض أمور الدين ؛ وإلا اقتضى بناء الإسلام ركناً ركناً . وقد بدأ جهاده معهم بالطريقة السلمية : بأن أرسل رسلاً بكتب^(٣) مفتوحة إلى المرتدين ، يدعوهم فيها من جديد إلى الرجوع إلى الإسلام وقواعده ، وإلا ظلموا .

ولكن يظهر أبو بكر تصميمه على ذلك خرج إلى ذى القصة^(٤) — وهي قرب المدينة^(٥) — ليوجه منها الزحف^(٦) إلى أهل الردة . فخرجت إليه بعض قبائل البدو وعلى رأسها عيس^(٧) وذبيان وغطفان قاتلها وهزما ، فهربت فلولها إلى قبيلة أسد في « عين بُزَاحَة »^(٨) — قرب مكة^(٩) — التي كان فيها رجُل اسمه طلحة بن خويلد^(١٠) ، كان قد ادعى النبوة في عهد النبي — وسميه المسلمون تحميراً له « طلحة »^(١١) — وكان قد سخر من تأدية المسلمين الصلاة ، وأمرهم بترك السجود^(١٢) وعبادة الله وقوا ؟ وكان يدعى أن جبريل ينزل عليه ، وكان يقول السجيع .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٢٣١ س ٢٣ .

(٢) للابورص ، الأحكام ، ص ٤٦ — ٤٧ .

(٣) الطبري (Annales) ١ : ١٨٨١ — ١٨٨٤ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ،

ص ٢٠٧ — ٢٠٩ ؛ انظر . رفيق العظم ، كتاب أشهر مشاهير الإسلام ، الطبعة الثالثة ، ص ١٠٩ — ١١١ .

(٤) فتح الحجاز والصاد للهمة . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٢٣٥ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ، ص ١١٤ .

(٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٩٥ س ١٠ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٨) يضم الباء . نس المرجع ، ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٩) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

(١٠) فتوح البلدان ، ص ٩٥ .

(١١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٢٣١ .

(١٢) نس ، ٢ ، ص ٢٣٢ .

بعد هذا النصر الأول وجه أبو بكر من ذي القعدة الزحوف^(١) إلى أهل الردة بقيادة أحد عشر قائداً^(٢) ، بعد أن منحهم عهود^(٣) قتال المرتدين . ونحن لا نستطيع أن تتبع خطة سير كل واحد منهم — وإن كنا نعرفهم باسمائهم^(٤) — ولكن لا ريب أن أكبر السامعين فيها : خالد بن الوليد ، وهو الشخصية المعروفة ببطشها ، والتي ظهرت أول ما ظهرت في غزوة أحد التي انكسر فيها المسلمون ، ثم دخل الإسلام وعرف بشجاعته ومكيدته في فتح مكة وموقعة مؤتة التي انقطع فيها في يده تسعة^(٥) أسياف حتى لقبه النبي « سيف الله »^(٦) . ويوصف^(٧) بأنه كان رجلاً طويلاً مهيباً ، ضخمياً بعيد الناكب واسع الهيكل ، يعتبر من القواد الأفذاذ الذين لم يعرف لهم التاريخ مثيلاً من قبل . وقد قال^(٨) أبو بكر لخالد قبل أن ينادي ذي القعدة لحرب أهل الردة : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

خرج خالد من ذي القعدة إلى الشمال نحو « عين بزاخه » ليقبض على بقايا^(٩) غطفان وعيس وذبيان ، ومن انضم إليهم من أسد^(١٠) وغزارة ؛ وقد استطاع خالد تفريق جمهم وهرب طليحة عند قبيلة كلب^(١١) في الشام ؛ مع أنه كان هو

(١) فتوح البلدان، ص ٩٥ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٧٣٤ .

(٣) الطبري (Annales) ١ : ١٨٨٤ — ١٨٨٥ ؛ مجموعة الوثائق ،

ص ٢٠٩ — ٢١٠ ؛ هيكل ، الصديق ، ص ١٤٧ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٧٣٤ .

(٥) البخاري ، طبعة بولاق ١٣١٤ هـ ، ص ١٤٤ (المجلد الثاني) .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ١٦٠ ؛ انظر . Ency. de l'isl. (art Khâlid) 2, p. 930 — 931 .

(٧) الأزدى ، فتوح الشام ، تحقيق W. N. Lees ، طبعة Calcutta ١٨٥٤ ،

ص ١٧٧ ؛ الوائلي ، فتوح الشام ، ١ ، ص ٤٣ .

(٨) الليثاني ، ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٢٣٤ .

(١٠) قصة ، ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ فتوح البلدان ، ص ٩٩ .

(١١) قصة ، ٢ ، ص ٢٣٥ .

الآخر معروفاً بشدة بأسه^(١) في القتال ؛ وعرف هذا اليوم « يوم بُزَاخَة »^(٢) .
وقد أسر طليحة ارسل إلى المدينة وقبِلت توبته^(٣) ، وعاد إلى إسلامه^(٤) ،
وسيكون له شأن في حرب فارس^(٥) .

بعد ذلك سار خالد إلى بلاد بني عامر^(٦) المجاورة ، وهي تشمل البلاد الممتدة
من شرق المدينة حتى الخليج الفارسي ، وكانت تسكنها^(٧) قبائل بنو عَيم وعشايرها
من بني حنظلة ، وكان معظم هؤلاء من البدو . وكان النبي قد بث إليهم يدعوهم
إلى الإسلام ، وجعل زعيمهم مالك بن^(٨) نويرة على سدقات بني حنظلة . ولكن
بعد موت النبي نجد أن مالك بن نويرة مع تمسكه بالإسلام ، كان قد حجز^(٩)
الصدقة فقط ، حتى يصح^(١٠) عنده لمن الأمر ، ومن استخلفه النبي . ومن ناحية
أخرى كانت هناك امرأة ذات شخصية غير واضحة اسمها « سَجَاح »^(١١) ،
نشأت في قبيلة تنقلب النصرانية الموجودة في الشمال قرب منطقة الجزيرة (مصبوتاميا) ،
قد أقبلت عند قومها من بني عَيم ؛ الذين اتفوا حولها . ومع أنها لم تدع النبوة
إلا أنها تكهنت^(١٢) على حسب ما كان معروفاً في الجاهلية . ونحن لا نعرف
قصص سَجَاح منذ مجيئها إلى بلاد بني عامر ، وجمع القبائل حولها ، فلعلها كانت تريد

(١) القمي ، دول الاسلام ، الطبعة الثانية ، حيدرآباد ١٣٦٤ هـ ، ١ ، ص ٦ .

(٢) البداي ، ٢ ، ص ٢٧١ .

(٣) للاورى ، لأحكام ص ٤٥ .

(٤) برهان الدين ، سيرة حلية ، طبعة مصر ، ٢ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(٥) ابن خلدون ، للفتحة ، ص ٨١ . شهد القاضية وتولدت مع اللين ، واستشهد

في سنة ٢١ هـ . انظر . القمي ، دول الاسلام ، ١ ، ص ٦ ؛ أبو الفتح والجل ، أيام

الرب في الاسلام ، ص ١٤٣ ملش (١) .

(٦) فتوح البلدان ، ص ٩٧ .

(٧) ابن هشام ، ٢ ، ص ٩٦٥ ؛ البلاذري ، فتوح ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٨) ابن هشام ، ٢ ، ص ٩٦٥ ص ٦ .

(٩) البلاذري ، فتوح ، ص ٩٨ .

(١٠) التوبخي ، ص ٤٤ ؛ انظر . قبله .

(١١) فتوح البلدان ، ص ٩٩ .

(١٢) نفسه . ولكن ابن الأثير يقول إنها ادعت النبوة . الكامل ، ٢ ، ص ٢٣٩ .

أن تدافع عن قومها باتماون^(١) مع مالك بن نويرة ضد نفوذ المدينة الطاغية ، ولعلها في سبيل ذلك ذهبت^(٢) أيضاً إلى بلاد الحيمامة التي تجاور بلاد بني عامر لتستعين بهم كذلك . على كل حال انقطعت أخبار سجاح فجأة ، فلم نعد نسمع عنها شيئاً ، فلمها عادت^(٣) إلى بني تغلب في الجزيرة وماتت عندهم ، أو أنها أسلمت ثم انتقلت إلى البصرة ، وعاشت حتى زمن معاوية . مهما يكن فإن خالداً سار نحو بلاد بني عامر ليقا تل فيها المرتدين ؛ فهزم المشائر التي قاومتها وبمات فيهم الرعب^(٤) ، كما قتل مالك بن نويرة مع استسلامه هو وبني حنظلة^(٥) ، وتزوج امرأته الحيلة^(٦) ؛ ولكن - ولاريب - أن الذي جعل خالداً يقدم على ذلك ، هو أن منع الصدقة كان يمتد بردة ، وأن هذه الردة كانت تُبطل^(٧) المناكحات بارتداد أحد الزوجين . ثم سار خالد إلى أرض الحيمامة^(٨) ، وهي بلاد واسعة تمتد حتى الخليج الفارسي ، تسكنها قبائل عديدة من ربيعة أقواها بنو حنيفة^(٩) المعروفة بكثرة عددها ، وشدة بأسها ، وكثرة وقائعها . وقد ظهر فيها في حياة النبي رجل اسمه مسيلة ، ويسميه السهلون « مسيلة » نصيراً واستمراءً ، وقد شهد له رجال بأنه رسول^(١٠) الله ، وأنه يناجي ربه ويُنزل عليه ملك^(١١) بآيات^(١٢) مثل القرآن ؛

(١) قسه ، ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٩٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٦ ص ٤١ .

(٤) قسه ، ٢ ص ٢٣٦ فلا يسمعها .

(٥) البلاذري ، فتوح ، ص ٩٨ .

(٦) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص ٧٠ .

(٧) للاوردي ، الأحكام ، ص ٤٧ ص ٦ .

(٨) هي قرية من البحرين . معجم البلدان ، ٨ ص ٥١٥ .

(٩) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٧ ص ٢٤٥ ص ٨ ؛ وكلاهما .

معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، دمشق ١٩٤٩ ، ١ ص ٣١٢ و٣١٣ .

(١٠) الجليظ ، الحيوان ، ٤ ص ٣٧٢ .

(١١) قسه ، ٤ ص ٣٧٣ .

(١٢) السيوطي ، الألفان ، ٢ ص ٧٠٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٤ .

(آخر الصفحة) .

بل أنه كان يعرف في السحر والنجوم^(١) ، ويأتى بالمعجزات^(٢) . ويظهر أن مسيلة كان كاهناً^(٣) يدرك الأمور قبل وقوعها ، مما جعله يظن أنه يقيناً واستمر في عبادته^(٤) . وقد دعا مسيلة إلى نفسه ، وكان يطوف في الأسواق التي يلتقي فيها الناس للبيع والشراء والبلهان^(٥) ، مثل : الأبله والأخبار والحيرة لنشر الدعوة ؛ كما أنه كتب^(٦) إلى النبي محمد ليشاركه في رسالته وفي ملكية نصف الأرض ، ولكن محمداً رد^(٧) عليه بقوله إن الأرض يورثها الله من يشاء من عباده . وكان دين مسيلة يشتمل على بعض مبادئ الإسلام كإقامة الصلاة وإن جعلها ثلاث^(٨) صلوات بدلاً من خمس بحذف صلاة الفجر والعشاء ، وأيضاً تنفيذ الشرائع^(٩) من قطع الأيدي والأرجل ؛ وإن دخلت دعوته عقائد نصرانية ومجوسية^(١٠) ؛ فدعا إلى الزهد والصوم ، والامتناع عن شرب الخمر والتششف . وكان مسيلة ذا شخصية قوية يسيطر على أتباعه ، مع أنه كان قصيراً^(١١) شديد الصفرة أفتس الألف ، يلبس ملابس البدو المهلهلة .

وقد جمع مسيلة جيشاً كبيراً عدده أربعون ألفاً^(١٢) ، تمكن به قبل وصول

(١) الحيوان ، ٤ ، ص ٣٧٠ .

(٢) نفسه ، ٤ ، ص ٣٧١ ؛ ٣٧٢ . فتلا وضع بيضة في فارورة شيلة النقي دون أن تكسر .

(٣) نفسه ، ٤ ، ص ٣٧٠ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨١ من ٢٠ .

(٥) الحيوان ، ٤ ، ص ٣٦٩ . الأبله بلد على شاطئ دجلة ، في زاوية الخليج الفارسي (ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ، ص ٨٩) . والأخبار مدينة على القرات (نفسه ، ١ ، ص ٣٤١) . والحيرة مدينة قرب الكوفة . نفسه ، ٣ ، ص ٣٧٦ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ، ص ٩٦٥ ؛ انظر مجموعة الوثائق ، ص ١٧٨ ؛ عبد اللطيف خان ، رسالات نبوية ، طبعة الهند ١٣٤٦ هـ ، عدد (٩٣) .

(٧) صبح الأعشى ، ٦ ، ص ٣٨١ ؛ انظر مجموعة الوثائق ، ص ١٧٩ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٢٤١ .

(٩) فتوح البلدان ، ص ٨٩ .

(١٠) انظر عن هذه الكلمة بيده .

(١١) فتوح البلدان ، ص ٩٠ من ١٧ - ١٨ ؛ انظر . هيكل ، الصديقي .

ص ١٦٦ .

(١٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٢٤٤ من ١٠ .

خالد من هزيمة جيش صغير للمسلمين مرسل من المدينة بقيادة عكرمة بن ^(١) أبي جهل — أحد قواد الردة البارزين — وقد حفزه هذا النجاح إلى التقدم نحو الشمال ؛ ليقابل الجيش الذي كان يقوده خالد بن الوليد . فتقابل جيش مسيلة مع جيش خالد بمكان من الصحراء في طرف اليمامة يسمى « عَفْرَاء » ^(٢) ، واشتبكا في معركة فاصلة لم تشهد لها الجزيرة مثيلاً من قبل ، حيث كان القتال فيها قتالاً بسبب الكبرياء ^(٣) ، فقتل خالد جيشه إلى أقسام أو « زابات » ^(٤) من المهاجرين والأنصار وغيرهم من مسلمي البوادي ، كما كان أهل اليمامة يذودون عن « أحسابهم » ^(٥) ونسائهم اللاتي صحن الرجال في القتال على عادة العرب . وقد اضطر المسلمون إلى التقهقر ^(٦) في أول الأمر أمام جيش مسيلة ، ولكن بفضل قيادة خالد للاهرة تمكن المسلمون من كبح جماح عدوم . ولما أيقن مسيلة بالهزيمة أسرع في الانسحاب إلى ريف ^(٧) اليمامة للزروع ؛ ليتحصن بداخله ، ولكن المسلمين تبعوه واشتبكوا في مذبحة هائلة منى الطرفان فيها بخسائر قاذحة ، قتل مسيلة ^(٨) وعشرة آلاف من أتباعه ، كما قتل كثير من وجوه المسلمين ^(٩) وقراء القرآن ، بحيث سمى هذا المكان الذي دارت فيه المعركة « بحديقة » ^(١٠) الموت « وسمى يوم المعركة « يوم اليمامة » ^(١١) ، نظراً لأهمية المعركة التي دارت رحاها . أما قصة أنصار مسيلة الذين هربوا والتجأوا ^(١٢)

- (١) قس ، ٢ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ . هو ابن أبي جهل — عدو النبي — الذي قتل بدر ، أسلم بعد الفتح ، وقتل يوم اليرموك . للطوف ، ص ١٧٠ ، الكامل ، ٢ ص ٤٩ ، ٨٨ .
- (٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٩٣ — ١٩٤ .
- (٣) فتوح البلدان ، ص ٨٩ .
- (٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .
- (٥) قس ، ٤ انظر ، هيكيل ، الصديق ، ص ١٧٠ .
- (٦) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٤ ، ص ١١ .
- (٧) هو المنطقة المزروعة من اليمامة . ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٩٤ .
- (٨) فتوح البلدان ، ص ٨٦ .
- (٩) قس .
- (١٠) قس .
- (١١) الليثي ، ٢ ص ٢٧١ .
- (١٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٧ .

إلى الحصون ، فإنهم اقتدوا حياتهم بالتسام . وبذلك كسرت شوكة بني حنيفة إلى الأبد بعد أن دفع المسلمون ثمنها غاليا .

بعد ذلك أتجه خالد إلى البحرين على الخليج^(١) الفارسي ؛ ليخلص عامل المدينة الملاة بن عماد الحضرمي^(٢) ، الذي حاصره القبائل المرتدة في مدينة «مجر» ، قصبة^(٣) البحرين ، وإحدى أسواق^(٤) الرب المشهورة . وكان سكان البحرين معظمهم من عناصر الفرس واليهود والنصارى^(٥) الذين يسكنون الساحل ، ومن بدو الرب من قبائل عبد القيس^(٦) من ويمة^(٧) ويكر وعيم^(٨) داخل البلاد . ومع أن هذه البلاد كانت من مملكة^(٩) فارس ، إلا أن النبي دعاها إلى الإسلام^(١٠) ، وأرسل إليها عماله^(١١) ومعه الملاة لجمع الصدقات ونشر الدين . ويبدو من الكتب^(١٢) المتبادلة بين النبي وزعماء الرب من سكان البحرين أنهم قبلوا^(١٣) الإسلام . كما أخذ الصدقة من مجوسى^(١٤) هجر ؛ يل وأرسلوا وفدا^(١٥) منهم إلى المدينة . ولكن ارتدت الرب بعد موت النبي ، وإن بقي^(١٦) بعضهم مسلماً ، وقد زعم

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٢ .

(٢) ابن سعد ، ٢/١ ص ٢٨ ؛ انظر . *Annali dell'Isl.* 8 : 185. : Caetani

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٢ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ١ ص ٣١٣ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٤ ص ١٧ .

(٦) ابن سعد ، ٢/١ ص ٥٤ .

(٧) قس .

(٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٥ .

(٩) قس ، ٢ ص ٧٤ ص ٤ — في البلاذري ، فوح ، ص ٧٨ .

(١٠) ابن سعد ، ٢/١ ص ٢٧ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٥٦ — ٦٤ .

(١١) ابن سعد ، ٢/١ ص ١٩ ؛ ٢٨ .

(١٢) قس ، ٢/١ ص ١٩ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٥٦ — ٦٤ .

(١٣) ابن سعد ، ٢/١ ص ١٩ .

(١٤) قس .

(١٥) قس ، ٢/١ ص ٥٤ .

(١٦) ابن الأثير ، السككل ، ٢ ص ٢٤٩ .

طائفة من المرتدين الثمان^(١) بن المنذر أوقفط المنذر ، ولعله من سلالة ملوك الحيرة ، أما أغليبيهم فإنها ارتدت برئاسة رجل اسمه « الحطيم » . فسار المسلمون إليهم بقيادة الملاء عامل النبي ، فهزموه الحطيم وألجأه إلى حصن مدينة « هجر » ، إلى أن جاء خالد بن الحيمامة فقتل « الحطيم »^(٢) ، ودخل « هجر » وأخذ الملاء ، ثم غادرها أي « هجر » بعد ذلك إلى الرائق . وبقي الملاء في البحرين وهاجم^(٣) المنذر الذي هرب بعد هزيمة الحطيم إلى الحصن المسمى « جوثاء »^(٤) ، فهزموه وقتل المنذر ، وعرف ذلك اليوم « يوم جوثاء »^(٥) .

أما عُمان وهي تقع شرق^(٦) البصرة ، فإن أبابكر وجه إليها عسكره^(٧) بن أبي جهل بعد هزمته على يد مسيلة . وكانت عُمان بلاداً^(٨) كثيرة تسكنها على الخصوص قبيلة الأزدي^(٩) ، التي هاجرت إليها من اليمن . وكان النبي قد بعث بكتبه^(١٠) إلى شيوخها من أسرة « الجلسندي »^(١١) — ملوك عُمان في الجاهلية — بل وجاهه وقد^(١٢) منهم إلى المدينة ، وأرسل إليهم أحد رجاله^(١٣) ليأخذ صدقة أعيانهم .

(١) فتوح البلدان ، ص ٨٣ .

(٢) نفسه ، ص ٨٤ . الحطيم في اللغة الثليل الزخعة ، وهو من الحطم وهو الكسر .

ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٩٧ .

(٣) فتوح البلدان ، ٣ ص ٨٤ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ١٥٥ . وهي تقع في البحرين أيضاً .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٨٥ ؛ انظر . أبو الفضل والبجائي ، أيام العرب في الإسلام ،

ص ١٧٢ .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٢١٥ .

(٧) ابن الأثير ، التكميل ، ٧ ص ٢٤٤ .

(٨) معجم البلدان ، ٦ ص ٢١٥ .

(٩) فتوح البلدان ، ص ٧٦ ؛ كفاية ، معجم قبائل العرب ، ١ ص ١٦ — ١٧ .

(١٠) صبح الأعشى ، ٦ ص ٣٨٠ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٦٩ .

(١١) ابن الأثير ، التكميل ، ٢ ص ٢٥٢ .

(١٢) ابن سعد ، ٢/١ ص ٨٠ — ٨١ .

(١٣) فتوح البلدان ، ص ٧٦ .

ولكن قبيلة الأزد ارتدت عن الاسلام بعد موت النبي ، والتفت حول زعيمها المسمى « ذى التاج »^(١) ، قتل عكرمة هذا الزعيم ، وعدداً كبيراً من المرتدين ، ودخل « دبا »^(٢) قسبة عُمان ، وهى سوق من أسواق العرب الهامة .

بمسد ذلك انتقل ^(٣) عكرمة إلى بلاد جنوب الجزيرة : الشَّحْر^(٤) وَحَضْرَمَوْت^(٥) واليمن ، وهى بلاد واسعة بمحذاء بحر الهند ، وكانت اليمن منها على الخصوص خاضعة لنفوذ الفرس^(٦) منذ أن طرد منها الأحباش ؟ وإن كانوا — قبل الاسلام — قد تركوها وشأنها ؛ بسبب انشغال الفرس بحروبهم مع بيزنطة ومشاغلتهم الداخلية ، وبقي لهم فى « سمناء » — عاصمة اليمن — نفوذ اسمى ، يتمثل فى شخص الحاكم الفارسى « باذان »^(٧) . وقد أصبح يسكن جنوب الجزيرة قبائل^(٨) البدو من : طيء وخولان وكندة ومرهات وحير ومنجج ومحمدان ، وهى القبائل التى حلت مكان الشعوب المنيية والسبئية والحيرية ؛ كما كانت تسكنها طائفة « الأبناء »^(٩) ومعظمهم من سلالة الجيش الفارسى الذى أرسل لطرود الحبش . ويظهر الاسلام أرسلت القبائل البدوية فى جنوب الجزيرة وفودها^(١٠) المدينة للنبي ، وقبلت الاسلام ، ورضيت بدفم^(١١) الزكاة ، كمظم قبائل شبه الجزيرة . كذلك أسلمت فى ذلك الوقت طائفة « الأبناء »^(١٢) ، وعلى رأسهم « باذان »^(١٣) .

(١) البلاذرى ، فتوح ، ص ٧٦ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٤٠ — ٣١ .

(٣) البلاذرى ، فتوح ، ص ٧٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٥٢ ص ١٩ .

(٤) جمع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٢٤٠ .

(٥) انظر . قبله .

(٦) انظر . قبله .

(٧) انظر . قبله . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ ص ١٥ . فى البلاذرى وبإلزامه

فتوح ، ص ١٠٥ .

(٨) ابن سعد ، ٢/١ ص ٥٩ وما يليها .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٥ .

(١٠) ابن سعد ، ٢/١ ص ٥٩ ؛ ٦٦ ؛ ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٣ .

(١١) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦١ — ٩٦٢ .

(١٢) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٦ .

(١٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٣ ص ٢٢٧ ص ١٥ — ١٦ .

التي قبل أن يكون نائب^(١) النبي في « مناء » ، واستمر على ذلك إلى أن مات . ولم يمض وقت قليل حتى كان عمال^(٢) النبي قد انبثوا في كل مناطق جنوب الجزيرة في اليمن وحضر موت على الخصوص ، ينظمون جيازة الصدقة ، ويقومون بنشر العدل والدين ؛ كما بعث النبي إلى اليمن باثنين من كبار الصحابة هما^(٣) : علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد ، ولعل ذلك لتنظيم هذا القطر النبي بالزراعة والتجارة .

على كل حال لما ارتدت قبائل جنوب الجزيرة ؛ لتتخلص من قوذة المدينة نجد ابن عكرمة بنديمان توجه إلى منطقة « الشحر »^(٤) ، ليقتطع على من ارتدوا حتى ظفروهم . ثم توجه بعد ذلك إلى مقع حَضْرَ مَوْت ، وكان على رأس المرتدين فيها من قبائل كندة شخص اسمه الاشعث بن قيس^(٥) ، كان قد جاء مع وفد بلاده إلى النبي . وقد ساعد عكرمة أحد عمال حَضْرَ مَوْت من قبل النبي ، وهو زياد^(٦) ابن لبيد البياضي ، في القضاء على المرتدين الذين التجأوا إلى حصن لهم ، فحصرهم^(٧) . حكمة وزياد بن لبيد حتى جهدوا ، وتمكن المسلمون من فتح الحصن ، وأسر^(٨) الاشعث بن قيس ، الذي أرسل إلى أبي بكر وقبيل توجه ، وتزوج فيها بعد باخت الخليفة « أم فروة »^(٩) .

(١) قس .

(٢) قس ، ٢ ص ٢٢٧ س ١٧ فإ بعدها .

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٩٩٩ .

(٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٧٧ ابن الأثير يقول مهرة (انظر . الكنايل ، ٢

ص ٢٥٩ — ٢٥٣) . ولعلها تيلة (ياقوت ، معجم البلدان ، ٨٠ ص ٢١١) . يمكن بين عمان واليمن ، في منطقة الشحر .

(٥) ابن هشام ، ٢ ص ٩٥٣ .

(٦) قس ، ٢ ص ٦٩٥ .

(٧) البلاذري ، فتوح ، ص ١٠١ .

(٨) قس ، ص ١٠٤ .

(٩) ابن حجر . الإصابة في تمييز الصحابة ، مصر ١٩٣٩/١٣٥٨ ، ١ ص ٦٩ ؛ ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٥ هـ ، ١ ص ٦٩ . شهد بعد ذلك موطن اليرموك والقادسية ، وكان ممن أكرم علياً بالتحكيم ، وتوفي سنة ٤٠ هـ . انظر للملوك ، ص ١٧٠ ؛ انظر . بعده .

أما في اليمن ففي حياة النبي كان قد ظهر شخص من قبيلة مذحج^(١) - كان أول^(٢) من ادعى النبوة - اسمه عبيدة^(٣) بن كعب وهو الأسود^(٤) العنسي ، وقد استطاع أن يسيطر على أجزاء كثيرة من اليمن ، وطرد^(٥) عمال النبي منها ؛ ثم دخل « صنعاء »^(٦) وقتل « شهر بن باذن » ، وأكره زوجته « آزاد »^(٧) على الزواج منه ، كما سيطر على « نجران »^(٨) الواقعة على حافة بلاد الحجاز الجنوبية ، وكانت تدفع الجزية^(٩) للنبي بمقتضى عهد^(١٠) بينها وبينه . وقد كان العنسي كفيده من التنبئين يدعى إدراك النيب ، ويستعين في سبيل ذلك بمجر^(١١) « معلم » ، فسمى : « بني الحمار » ، كما سمي نفسه باسم مهمم : « رحمان اليمن »^(١٢) . ولكي يزيد الأسود العنسي من التفاف قبائل اليمن حوله استدل^(١٣) الأبناء ، وهي الطبقة

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٢٧٨ ص ٦ - ٧ .

(٣) اقرأ في النص « عبيدة بن كعب » (انظر البلاذري ، فتوح ، ص ١٠٥) ، ولكني أقرأها « عبيدة » مفرد « عبيدة » وهي صيغة تسمى أميرا أو سلطانا قاهرا (الاسان ، ١٣ ص ٤٤٩ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، شرح الألفاظ ، ص ٣٣٤) ، خصوصا وأنه كان يسمى أيضا « الأسود بن كعب » ، لسواد لونه كصفه خالقه عليه .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٢٢٨ .

(٦) البلاذري ، فتوح ، ص ١٠٥ .

(٧) الكامل ، ٢ ص ٢٢٩ ص ٥ .

(٨) نفسه ، ٢ ص ٢٢٨ ص ٧ ص مهمم البلدان ، ٨ ص ٢٥٩ .

(٩) البلاذري ، فتوح ، ص ٦٨ .

(١٠) تاريخ النبطيين (P. O.) ١٣ ص ٦ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٨٠ وما يليها .

(١١) فتوح البلدان ، ص ١٠٥ . في بعض المراجع الأخرى ، تكتب « بني الحمار » ، ولعل ذلك بسبب أنه كان دائما يخطى جنوب أولئك قبائل على شرب الحمر . الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ ص ١٥ ؛ الصباح النير ، ١ ص ٢٨٠ ؛ انظر . هيكل ، الصديق أبو بكر ، ص ٨٦ .

(١٢) الزمن موافق ، وإن كانت هذه الكلمة على ما يظهر غير حجازية ، بحيث أن العرب في الحجاز اعتبروها دخيلة . انظر . 306 p. Ency. de l'isl. I. ، كذلك قد يكون « الرحمان » أيضا له في اليمن قبل الاسلام . انظر . Gesch. des Nöldeke .

(13) Qurāns, p. 92 - 93 ; n (1) هيكل ، الصديق ، ص ٨٨ ماضي (١) .

(١٤) فتوح البلدان ، ص ١٠٥ .

الارستقراطية التي كان معظمها من سلالة الفرس ، الذين كانوا يسيطرون في البلاد . وقد استطاع النبي في حياته أن يقض على ردة الأسود العنسي بتأليب القبائل التي لم تسكن قد ارتدت من حجير وحمدان ^(١) ، أو بإسمالة أهل نجران النصراني ^(٢) الذين كانوا حلفاء النبي ، وأيضا طبقة الأبناء ^(٣) المسلمين . وبفضل هذا تمكن عمال النبي من تدبير مؤامرة في صنعاء ساعدتهم عليها امرأة شهر الفارسية «آزاد» ، التي كانت تحقد على الأسود قتل زوجها ، فدبج الأسود العنسي ذبح الشاة ^(٤) وهو قائم ، بحيث أنه كان يخور خوار الثور ؛ وكان قتل الأسود العنسي قبل وفاة ^(٥) النبي بأيام . وبذلك عادت اليمن إلى طاعتها ، وأرسل أهل نجران وفداً ، فجدد أبو بكر ^(٦) لهم العهد الذي عقده مع النبي . وقد ارتدت بعض القبائل من حجير في عهد أبي بكر ، فكان عكرمة ^(٧) أكبر مساعد على القضاء على هذا التمرد بمدعيه من حضرموت .

أما شمال الحجاز فتعرف أن قبائل عديدة كانت تسكن تخوم الشام ، مثل : جذام وكاب ^(٨) وقضاة وطى ^(٩) وعذرة ولى ^(١٠) ؛ وإن هذه القبائل كان أغلبها من النصراني ^(١١) وبعضها من اليهود ^(١٢) ، بل إن من كان منها بدوّة الجندل — وهي إحدى الأسواق ^(١٣) الهامة لعرب الشمال — كانت تعترف للبيزنطيين ^(١٤)

(١) الكامل ، ٢ ، ص ٢٣٠ س ٣ .

(٢) قصة ٢ ، ص ٢٢٩ س ٤ .

(٣) فتوح البلدان - ص ١٠٦ .

(٤) قصة .

(٥) قصة .

(٦) الكامل ، ٢ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٧) قصة ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٨) سعيد بن طارق ، التاريخ المجمع ، ٢ ، ص ١٣ .

(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ، ص ٢٣١ : ٢٣٤ .

(١٠) قصة ٢ ، ص ١٥٦ س ١٥ — ١٦ .

(١١) قصة ٢ ، ص ٢٢٧ س ٥ .

(١٢) ابن سعد ، ٢/١ ص ٣٨ .

(١٣) الطبري ، تاريخ ، ١ ، ص ٣١٣ .

(١٤) المسعودي ، التنبيه ، ص ٢١٥ : انظر . Cheim . La Lutte , p. 21 .

بالسيطرة . وقد ذهب النبي إلى هذه القبائل بنفسه في غزوة « تبوك » ، ولعله أراد أن يشعرها بوجود الاسلام ؛ وقد أمضى النبي معها مفاوضات ، كما أنها أرسلت وفودها^(١) إلى المدينة ؛ ومن الكتب المتبادلة بين النبي وبعض القبائل ، نعرف أن بعضها أسلم^(٢) . بل إن النبي كان قد أرسل خالد بن الوليد إلى دومة الجندل من جديد لهم^(٣) أسنماها ، مما يدل على وجود وثنيين في هذه المنطقة يجانب المسيحيين . ولكن هذه القبائل الشمالية مثل غيرها من قبائل الجزيرة قبلت ظهر المجن للمدينة وارتدت^(٤) ، ولعل ذلك كان قبل وفاة النبي ، الذي جهز بها^(٥) بقيادة أسامة بن زيد آل الشمال . وعلى الرغم من حاجة المدينة إلى جميع من فيها للدفاع عنها ضد القبائل التي أخذت تهجم عليها ، فإن أبا بكر صمم^(٦) على إرسال البعث ، ولعل سبب ذلك قد يكون رغبته في تنفيذ^(٧) إرادة النبي ، أو التوجه^(٨) على قبائل العرب بقوة المدينة ، وأيضا القضاء^(٩) على حركة الارتداد ، خصوصاً وأن هذه المنطقة الهامة كانت منفذاً لتجارة الحجاز . وإن كنا نجعل ماقام به البعث وفاقته ومدى نجاحه ، إلا أنه يبدو أنه لم ينبجح في القضاء على حركة الارتداد في شمال الحجاز ، بدليل أن أبا بكر أرسل نحوهم قواداً آخرين ، مثل :

(١) ابن هشام ، ٢ ص ٩٠٢ — ٩٠٤ ؛ انظر . قبله .

(٢) ابن سعد ، ٢/١ ص ٤٤ ؛ ٦٦ — ٦٨ .

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٦١ ؛ انظر مجموعة الوثائق ، ص ١٦٧ لما بعدها .

(٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٦١ . كانوا يجلبون ود . انظر . ابن هشام ، ١ ص ٥٢ ؛ الأسنم ، ص ١٠ ص ٣ ؛ انظر . قبله .

(٥) البلاذري ، فتوح ، ص ٦٢ .

(٦) ابن هشام ، ٢ ص ١٠٠٦ — ١٠٠٧ ؛ انظر . هيكيل ، الصديق ، ص ١٠١ .

(٧) انظر . قبله

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٦ ص ١١ ؛ ٢٠ .

(٩) نفسه ، ٢ ص ٢٢٧ ص ١١ — ١٣ .

(١٠) نفسه ، ٢ ص ٢٢٧ ص ١٠ .

عمرو بن الماص^(١) وثغر حجيل^(٢) بن حمنة نحو قضاة ؛ كما أن^(٣) غالباً حينما ترك العراق إلى الشام استولى في طريقه على دومة الجندل ، التي قد تكون آخر من سلم لنفوذ المدينة .

كل هذه الحملات التي وجهت نحو المرتدين في أنحاء الجزيرة انتهت بنجاح ، وساعد على ذلك عدم اتحاد القبائل الردة في حلف واحد ؛ بسبب طبيعتها البدوية التي لم يكن من الممكن أن تتخلص من المصيبة ؛ وذلك على عكس الأمة الإسلامية الواحدة ، التي تربطها صلة الدين وذكريات الجهاد في سبيله . فانهز أبو بكر هذه التفرقة وطمعهم قبيلة قبيلة^(٤) ، معتمداً على قواد مهرة . هذا فضلاً عما امتاز به هذا المجوز الحنك وقواده من الحزم والتصميم في قتال المرتدين ؛ وذلك بحرقهم^(٥) بالنار ، وقطع^(٦) أيدي وأرجل بعض النساء المرتدات ، والرحم بالحجارة ، ورميهم من الجبال ، وتنكيسهم في الآبار ، وتعزيقهم بالنبال^(٧) ؛ وحتى بسى النساء والقرارى . وكان نتيجة ذلك أن بسطت المدينة سيطرتها على ربوع الجزيرة العربية ؛ ولما كانت هذه الجزيرة في عهد أبي بكر تعتبر بحق وحدة سياسية لا تتخللها جيوب المقاومة ، وهي الوحدة التي تكونت لأول مرة في تاريخ الجزيرة القديم ، بحيث تحول العرب إلى أتباع زعيم واحد يسرون خلفه . وكان انتصار أبي بكر على المرتدين هو انتصار الاسلام على الشعوب القبلي ، ومعناه أيضاً أن نشرت صفحة جديدة في تاريخ العرب .

(١) الطبري (Annales) ١ : ١٨٨٠ و ٢٠٨٢ انظر . Caetani : Ann. 367 La Lette, p. 28 : Cheira dell'Isi an. 12 no. عن عمرو بن الماص ، انظر . قبله .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٤ س ٩ . هو منسوب إلى أمه . انظر . الطرف ، س ١٦٥ .

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٦٢ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ و ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٢٣٦ س ١٨ .

(٦) البلاذري ، فتوح ، ص ١٠٢ س ١١ — ١٢ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٦ س ١٨ — ١٩ .

هذه القوة العربية التي أوجدها ووجدها تصميم أبي بكر سرعان ما انتشرت على الأرض، واستطاعت في سرعة البرق الخاطف الإطباق على البيزنطيين^(١) والفرس^(٢)، وهما أكبر دول العالم آنئذ، بسرعة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً من قبل، وأصبح لقب « خليفة » مساوياً لقب « Imperator »^(٣) البيزنطى، فما السر في ذلك ؟

فلعل ذلك راجع إلى أن جيران العرب الأقوياء من بيزنطيين — وهم ورثة الرومان — في شمال الجزيرة العربية، والفرس في شرقها، كانا قادرين في أيام قوتها أن يحجزا العرب في بلادهم، ولكن الخصومة الشديدة التي كانت بينهما قد أدت إلى ضعفهما. وهذه الخصومة بين الفرس وكل من يسود في منطقة البحر الأبيض تأصلت منذ قديم الزمان، وكلها عداا طبيعى بين الشرق والغرب، فظهرت بين دول الفرس : الآكينيين^(٤) والبارثيين^(٥)

(١) تلعب هذه القوة إلى مدينة يرزلة القديمة، التي أنشأها اليونان في ٦٥٢ ق.م، قرب الإسكندرية، وهي التي اتخذت منذ ٣٢٦ م اسم القسطنطينية، نسبة إلى قسطنطين (Constantinus) مؤسس الدولة الرومانية المسيحية في الشرق، بعد أن زالت دولة الرومان الوثنية نتيجة لهجمات البرابرة. انظر : Runciman. La Civilisation byzantine 330 — 1453. trad, Lévy. Paris 1952, p. 9 — 14. ولكن هذه القوة كانت تعرف للعرب باسم دولة « الروم ». القرن ٣ : ١٠؛ الأزدي، فتوح الشام، طبعة كلكتا ١٨٥٤، ص ٣٠؛ انظر. يند.

(٢) انظر. ما على.

(٣) قصد بهذا اللقب هنا ملك على عدة بلاد ؟ وإن كان أصله من كلمة Imperium بمعنى السلطة. انظر. Homo. Roman Political Institutions. London 1929, p. 217; 220.

(٤) سعيد بن بطريق، ص ١٧٤؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٣. وهو يسمى أيضاً الكيانية، وهو اسم يوناني عرف عن الاسم الأصل : هخامنشية (أى الدولة الفارسية)، وهذه الدولة حكمت في إيران من ٥٥٨ ق.م، إلى أن قضى عليها الإسكندر الأكبر حوالي ٣٣١ ق.م.

(٥) Aymard : L'Iran Antique, p. 345 sqq. : Huart et Delaporte. La civilisation iranienne. Paris 1952 p. 48. انظر. يند.

(٥) سميت بالبارثيين نسبة إلى المكان الذي ظهرت فيه، وهو شرق إيران التي كان يعرف بيارث (خراسان الحالية)؛ كما أنها سميت أيضاً بالاسكانيين أو بالارثكانيين. وهذه الأخيرة نسبة إلى « ارشك » مؤسس دولتهم، وقلوا إن هذا اللقب اتخذوه لأشهرهم لأشهرهم =

والساسانيين^(١) من ناحية، وبين سكان المدن اليونانية والماورقيين^(٢) والرومان وأخيراً البيزنطيين من ناحية أخرى. وقبل ظهور الاسلام انتهى ملك فارس خسرو الأول السمي أنوشروان (٥٣١ - ٥٨٩) حدوث نزاع^(٣) بين عرب الحيرة وعرب القساسنة فجهم على أملاك البيزنطيين في عهد الامبراطور جستنيان^(٤) (٥٢٧ - ٥٦٥)؛ فاستولى على أجزاء كثيرة من الشام والجزيرة^(٥)، بحيث أنه استمر يحارب أكثر من اثني عشر عاماً، فلما قل الرجال أدخل النساء^(٦) في الجيش. ولكن ما لبث أن دخل جيش بيزنطي بقيادة الامبراطور موريس - يسميه العرب^(٧) موريق - في فارس، ليساعد أبرويز خسرو الثاني (٥٩٠ - ٦٢٨)، الذي قتل والده هرمز^(٨) الرابع، واستولى على العرش. ولكن بعد قتل موريس نجح خسرو الثاني يقلب البيزنطيين

== يملكون لسيهم بالدولة الأكيدية، فيقولون إنهم من سلالة أرشك بن أردشير الثاني. (انظر .

حسن يربنا، إيران قدم، طهران ١٣١٣ هـ. ش، ص ١٢١ وما بعدها؛ L'Iran Antique, p. 321).

ويسمى العرب البارثيين باسم دولة الطوائف، لكثرة ملوكها؛ وهي استمرت من ٢٤٧ ق.م إلى ٢٢٤ م. انظر. اليقوي، تاريخ، ١ ص ١٧٩ - ٤ - ٥؛ انظر هذه.

(١) نسبة إلى جد مؤسسها «أردشير» واسمه ساسان، وكان من رجال الدين؛ وهي استمرت من ٢٢٤ م حتى مجيء الإسلام. أبو الفدا، المختصر، ١ ص ٤٧؛ انظر .

Civil. Iran, p. 120 : Grousset ; Op. cit, p. 341 sqq. : H. et Del (٢) هو اسم الأسرة أو الدولة التي تنسب إلى القائد اليوناني Seleucos، الذي حكم في شمال الجزيرة بعد موت الاسكندر الأكبر، واستمرت من ٣١٢ ق.م إلى ٨٤ ق.م.

انظر . Grousset ; Histoire des Lagides, Paris 1934, p. 43 : Bevan. Civil. Iran, p. 88

(٣) انظر . التالي، فرر. أخبار ملوك الفرس وسيرهم، تحقيق Zotenberg، ص ٦٥٥ - ٦٠٦.

(٤) يسميه اللؤرخون العرب أحياناً بختيانيوس. اليقوي، تاريخ، ١ ص ١٨٦ ص ١٢.

(٥) اليقوي، تاريخ، ١ ص ١٨٦؛ انظر . Op. cit, : H. et Del p, 354 sqq.

(٦) يذكر Essad Bey ذلك في كتابه : Mahomet, Paris 1948, p. 36 : Op. cit. 354 - 5 : H. et Del

(٧) اليقوي، تاريخ، ١ ص ١٩١. اسمه باللاتينية هو Mauricius انظر . بل، مصر، ص ٢٥٢.

(٨) انظر . Op. cit, p. 356 - 7 : H. et Del

ظهر الحين ، وينزو في آسيا الصغرى والجزيرة وسورية وفلسطين ومصر^(١) . وتبع ذلك هجوم الجيش البيزنطى لاستعادة المستعمرات المفقودة بقيادة هرقل^(٢) (٦١٠ - ٦٤١) ، في سنة ٦٢٢ . وقد كان لهذا الصراع صدى في القرآن^(٣) ، بحيث أنه لدينا سورة تسمى : « سورة الروم » ، ذكر فيها غزو الفرس ، والتنبؤ بتبلي الروم . فكان هذه الخصومة قد رسمت للدولتين بيدها الهلاك^(٤) ، بحيث أن الحاجز الشمالى والشرقى لم يجد مقاومة من جانب أمة العرب الفتية المتحدة على يد أبى بكر .

ولكننا لا نوافق بعض المستشرقين^(٥) في قولهم : إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحساس الدينى ، وإن الحروب التى قاموا بها تعتبر حروباً دينية . فنحن لا نظن أن العرب — ومعتظمهم من البدو — كانت تسودهم الروح الدينية والرغبة في نشر الاسلام ؛ فقد رأينا كيف انتقضت العرب ، وأنها لم ترجع إلى الاسلام إلا بمجد السيف . ومهما تكن البواعث الدينية قوية عند الخلفاء وبعض أتقياء المسلمين في المدينة ومكة ؛ فإنه من غير الممكن أن يخرج البدوى — وهو الذى لا يهتم^(٦) بالدين — لنشر الاسلام . بل جاء القرآن بنص صريح في حرية العقيدة : ﴿ لا إكراه في الدين ٢ : ٢٥٦ ﴾^(٧) . ولا تمام هذه الحرية لم ينص على وجود طبقة كهنوتية^(٨) ، كما جرى العرف منذ أن وجدت الأديان ؛ فالاسلام دفع بالحرية

(١) الديهورى ، الأخبار الطوال ، طبعة مصر ، ص ١٠٦ . فاجدما ، سيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ١ ص ٢١٦ ، ٢١٨ ، انظر . بل ، مصر ، ص ٢٥٤ .

(٢) السموى ، التنبؤ والاشراف ، تحقيق De Goeje ، طبعة Brill ، ١٨٩٢ ،

ص ١٤٧ ، انظر . بل ، ص ٢٥٤ : Seston ، Civil. Iran, p. 137 .

(٣) انظر ، سورة (٢٠) مكية .

(٤) انظر . Gibbon : Decline, 5 p. 207 .

(٥) انظر . Lives of Mahomet and his Successors, Ivring Paris 1850, p. 174 .

(٦) انظر . Studi di Storia Orientale, Milano 1911, I, : Gaetani p. 365sq .

(٧) انظر أيضاً القرآن ١٠ : ٩٩ .

(٨) انظر . Le Dogme. p. 29 sqq. : Gold

الإنسانية خطوات . ولا ريب أن المسلمين الذين ذاقوا الأمرين من الكفار في عقيدتهم ؛ لا يمكن أن يجبروا غيرهم على اعتناق دينهم ؛ هذا بالإضافة إلى أن الكتب التي كتبها النبي ^(١) أو قواد ^(٢) الفتوح مع غير المسلمين ، فيها تأمين على الحرية الدينية . أما « الجهاد » الذي ورد في القرآن ^(٣) أو على لسان ^(٤) أبي بكر وأصبح عند بعض المذاهب ^(٥) ركنًا من أركان الشريعة ، فهو لم يكن يعنى في أى وقت غير الدفاع عن الإسلام ومعاربة أعدائه ، وليس إطلاقًا تحويل الناس إلى الإسلام . بل على العكس جاء الإسلام في وقت ليس فيه حرية للمقيدة في كل أجزاء المعمورة ، بل اضطهاد وتعذيب ؛ فقد كانت الدولة البيزنطية تفرض مذهبها الرسمي ^(٦) على أهالي مستعمراتها في صورية ومصر ، ومن لا يقبله لا يمترض فقط للأذى ، وإنما تنسب إليه تهمة الخروج ^(٧) على الدولة ؛ بل إن هذه الدولة حينما اعتنقت المسيحية — بعد الرومان الوثنيين — كانت تجبر اليهود ^(٨) في بيت المقدس على التنصر أو القتل . وحتى في فارس نجد أن الدولة الساسانية كانت تهاوم بالقتل والتعذيب كل حركة إصلاحية ^(٩) دينية .

-
- (١) انظر : مجموعة الوثائق ، ص ٣٢ و ٣٤ — ٣٦ ؛ انظر . قبله .
 (٢) انظر مثلاً صلح خالد مع أهل الحيرة للمسيحيين . أبو يوسف ، الحراج ، ص ٨٤ — ٨٥ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢١٨ — ٢٢٠ ؛ انظر . بعده .
 (٣) القرآن ٩ : ٨١ .
 (٤) ابن هشام ، ص ١٠١٧ .
 (٥) دعائم الإسلام ، ص ١ ؛ انظر . L'Islam, Beyrouth : Lammens . 1941, p. 82.
 (٦) قصد به المذهب المعروف باسم « الملكاني » ، وهو مأخوذ من لفظة « ملاك » . ولعل أصل هذه التسمية سريانية . انظر ، فتح الرب لمصر ، ترجمة فريد أبي عبيد . الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٣٤ هامش (٢) ؛ بل ، مصر ، ص ٢٢٨ هامش (١) .

(٧) انظر . Histoire de Syrie 2ed, p. 155. : Thóumin .

- (٨) سميد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ١ ص ١٣٣ — ٢ .
 (٩) فتلا قتل ماني ومزدك ، وكلاهما كان من المصلحين الدينيين . انظر . بعده .

ومع ذلك فإن بعض الباحثين يرون أن الفتوح تفسر على أنها هجرة^(١) عربية؛ خصوصاً وأنه سبق أن خرجت هجرات من داخل الجزيرة نحو المناطق الخصبية المحيطة بها، بحكم أن المناطق الخصبة تجذب البدو إليها، مثل: هجرة^(٢) العاموريين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين والفلسطينيين والاسرائيليين؛ بحيث كانت شبه الجزيرة أشبه بمستودع للجنس السامي ينساب من حين إلى حين. وقد زاد من مصائب الجزيرة قبل ظهور الاسلام بمدة قرون، اختلال نظم المين الزراعية؛ بحيث حدثت هجرات يمنية عديدة نحو بلاد الشام والخليج الفارسي، بعضها كان يخضع لفارس، وبعضها الآخر للدول التي سادت في البحر الأبيض كاليونان والرومان وأخيراً البيزنطيين. ومع ذلك فليس لدينا ما يدل على أن حركة الفتح العربي سببها الجفاف^(٣) أو حتى الجوع^(٤) - وإن كان البيزنطيون^(٥) يظنون ذلك - كما أن المستشرق كيتاني «Caeta i» يميل إلى تفسير دوافعها الأولى بقصد^(٦) النار.

كذلك لا نعتقد أن العرب حصلت على سلاح جديد أرادت تجربته، بحيث كان عاملاً حاسماً في حدوث الفتوح. فنحن نعرف أن الحرب عند العرب كانت فغرية، فكل قبيلة تحارب على حدة ملتفة حول زعيمها^(٧)، حيث بنشروا راية^(٨).

(١) انظر . Studi di Storia Orientale, Milano 1911, 2 : Caetani
p. 831 - 861 : أنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنحراوى،
الجزيرة ١٩٤٧، ص ٤٧.

(٢) انظر . Arabia and the far east, p. 7 : Huzyyin
Les Peuples, p. 403 ; 421 ; 521 : Driot et Vand.
(٣) انظر . Arabia, P. 7. : Huzyyin

(٤) Islam at the Cross roads, London 1923 p. 2 : O'Leary
(٥) الواقدي، فتوح الشام، طبعة Calcutta، ١٨٥٤، تحقيق W. N. Lees،
ص ٩.

(٦) انظر . Annali. ann. 12. no. 305 — 312 ; ann 14, : Caetani
La Lutte, p. 31 — 32. : Cheira ; no 95 — 96.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ص ١، ٣٨١.

(٨) ابن خلدون، المقدمة، ص ٧٠٤.

أو ما يعرف «بالقواء»^(١)، وهم يقعون على النساء^(٢) معهم في المؤخرة لتشجيع المقاتلة وإثارة غيبتهم عليهم، إذ من «العرض» كما يتنا، وقد يصطحبون معهم الشاعر^(٣) الذي يستثير هم الأبطال. أما خططهم في القتال فتكون بالكر والفر^(٤)، أو الزحف بالصفوف؛ ويقوم المقاتلون^(٥) بالطنن بالرمح والرمي بالنبال والضرب بالسيف. ولا ريب أن العرب ستعرف عند التقائها بالجيوش البيزنطية والفارسية خططا^(٦) جديدة، وتوزيمات للمقاتلة أسهل في الحركة. أما آلات حربهم فكانت أقل جودة من آلات الحرب عند أعدائهم^(٧)، وقليل من العرب كان يلبس الدروع، كما كان أكثرهم امرأة^(٨)؛ ولكن العرب حينما شاهدوا أسلحة غيرهم لم ينتظروا إلا قليلاً حتى كانت لهم مثل هذه الأسلحة^(٩) من خوذ ودروع... الخ. أما الأبل وهي الحيوانات الصبورة والسريعة^(١٠)، فقد كانت معروفة عند أعدائهم؛ هذا فضلاً عن أن هؤلاء كانوا يملكون عدداً كبيراً من الخيل، التي كان وجودها يعتبر عنصراً هاماً في الحرب القديمة.

وأخيراً أكبر الظن أن الهامع إلى هذه الفتوح يرجع على الخصوص إلى ارتفاع معنويات العرب بالدين الجديد. وقد لاحظ ابن خلدون — كما جاء في مقدمته^(١١) —

(١) ابن الأثير، الكامل، ص ٣٨١ س ٦ — ٧؛ التورى، ص ٦ من ١٦٨ ص ٧.

(٢) الواقدي، فتح الشام، ص ٢ من ١٢٠؛ ياقوت، معجم البلدان، ص ٦ من ١٩٢.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠٤ من ٨ — ١٠.

(٤) قسه، ص ٢١٤.

(٥) الأزدى، فتوح الشام، ص ١١٥؛ انظر. Hist. des Arabes. : Huart. Paris 1912, I, p. 34

(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١٥ — ٢١٦. كتحسيم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناحين وساقه إلى غير ذلك من الصاير التي تدل على تطور خطط القتال.

(٧) وضع ذلك قد عرفوا بعضها، يحكم صلة الجوار مثل الجانيق في فاني نصب على أهل الطائف متجنيناً. انظر قبله في التورى، ص ٦ من ١٦٥.

(٨) الواقدي، فتوح الشام، ص ١ من ٦٢؛ ١٢٤؛ ١٣٨.

(٩) قسه، ص ١ من ١٣٨؛ الأزدى، ص ٢٢٩.

(١٠) انظر. Herodotus. 7 96 (vol 3, p. 398).

(١١) المقدمة، ص ١١٩ — ١٢٠.

أن العرب لا يحصل لها الملك إلا بظهور نبوة أو أثر عظيم من الدين ؛ وذلك لأن بينهم كانت تدفعهم إلى الطغاحن والفردية ، وأن سلطة الدين وحدها هي التي تمكن من تقويمهم المتوحشة ، وتعمل على تأليف قلوبهم ، وبذلك يحصل لهم التغلب والملك. والواقع أن ظهور الاسلام بين العرب، كان من شأنه أن أوجد بينهم رابطة الدين التي تسمو على الرابطة القبلية . وقد كان القرآن من جانبه يثير فيهم الاحساس بالكرامة^(١) ، بقوله مثلاً : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ۖ ﴾ ١١٠ : ٣ . ومن ناحية أخرى كانت الثقة في المجلس العربي قد بدأت تظهر حتى قبل الإسلام ، وذلك حينما خرج جيش الحبشة بقيادة أبرهة^(٢) مهزوماً من مكة ؛ كما نسمع أن العرب تحببت ملك فارس ، واشتبكت مع جيوشه في موقعة ذي قار^(٣) ، التي انتصروا فيها . ولكن العرب التي قويت ممنوياتها بالاسلام ، وتوحدت بعد حرب الردة ما زال بعضهم تحت سيطرة بيزنطة في بادية الشام ، والبعض الآخر تحت سيطرة الفرس في بادية العراق ، أو في منطقة الخليج الفارسي ؛ وها هي الفرصة سانحة لأبي بكر في أن يلم شمل العرب جميعاً ، أو يحول^(٤) من لم يسلم منهم إلى الدين العربي، كما فعل بالقسبة لعرب الجزيرة ، مما يكون قد جر إلى حركة الفتوح ، خصوصاً وأن النبي وضع بذور هذه السياسة ، حتى أنه قام بنفسه بنزوة تبوك^(٥) ، بل إن سورة براءة^(٦) نزلت لتؤيد هذه السياسة .

(١) انظر . ارتواد ، الدعوة ، ترجمة حسن ابراهيم وغيره ، ص ٣٤ .

(٢) انظر أيضاً القرآن ٤٣ : ٣ .

(٣) انظر قبله .

(٤) انظر قبله .

(٥) انظر . Caetani : Annali, ann. 12 no305 ؛ Cheira ؛ La lutte, p. 31 .

(٦) انظر قبله .

(٧) انظر . القرآن سورة ٩ ؛ انظر . قبله .

على العموم ما أن انتهى خالد بن الوليد من حروبه مع المرتدين في البحرين حتى طلب منه الخليفة أبو بكر السير^(١) إلى «العراق»^(٢) ، أو ما يعرف في ذلك الوقت باسم «السواد»^(٣) ؛ لكثرة زرعه ونخيله وأشجاره : وهو يشمل النصف الجنوبي من دجلة والفرات الممتد حتى الخليج الفارسي ، والذي يتاخم بأرض العرب حيث توجد بادية «السماوة»^(٤) .

وقد كان يسكن العراق عدة عناصر منها : عناصر فارسية «عجم»^(٥) أتت إليه من إيران ، وعناصر آرامية أو سريانية^(٦) ، انتقلت إليه منذ قديم الزمان من داخل الجزيرة وما لبثت أن دخلت في جملة الفرس وهم ما يعرفون «بانباط»^(٧) السواد أو العراق ؛ لتمييزهم عن نبط الشام ، وأخيراً عناصر عربية من قبائل تنوخ^(٨) وبكر^(٩) ، كانت تسكن البادية على الخصوص .

ومنذ قديم الزمان ، وقد نشأت في العراق دول عديدة ، أشهرها مملكة

(١) الطبري (Annales) ١ : ٢٠١٦ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢١٧ .
(٢) لعل هذه التسمية آتية من «المروق» ، للدلالة على كثرة شجره . انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٣ فما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl, t2, p. 546
(٣) سمي هكذا لخضرته ، وذلك على عكس جزيرة العرب الصفراء التي لا زرع فيها ، خصوصاً إذا نظر إليه من بعد . انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ١٥٩ ؛ Ency de l'Isl, t2, p. 546
The Lands of the Eastern Caliphate. : Le Strange ؛ Cambridge 1930, p. 24.

(٤) معجم البلدان ، ٥ ص ١٣٠ . هي الأراضي التي بين الكوفة والشام .

(٥) الكامل ، ٢ ص ٣٦٥ ؛ ٢ ص ٢٦٨ ؛ ٩ ص ٩ .

(٦) السمودي ، التنبية والاشراف ، ص ٧٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٣٧٩
ص ٤ ؛ ابن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، بيروت ١٩١٤ ، ص ٦ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٣ ص ١٢ - ١٣ ؛ السمودي ، التنبية ، ص ٣٦ ؛ ٧٨ .

(٨) معجم البلدان ، ٣ ص ٣٨٠ .

(٩) الكامل ، ٢ ص ٢٦٤ .

بابل^(١) « Babylonia » الآرامية ، التي عرفت للعرب باسم « كلدة »^(٢) ، وملكها باسم « النماردة »^(٣) . ولكن منذ أن ظهرت في فارس الدولة الآكينية ، وهي التي استطاعت أن تقضي على مملكة بابل^(٤) في ٥٣٩ ق م ، فإن العراق كان يخضع لنفوذ دول الفرس في إيران . وقبل الاسلام بعدة قرون نجد أن الفرس شجعت عرب البادية المجاورين لهم على تكوين مملكة الحيرة^(٥) على حدودهم ؛ لتمنح غارات البدو من داخل الجزيرة العربية ، بحيث سيمرفون « بالبلاد »^(٦) لطاعتهم الفرس ؛ ولكن ما لبث هؤلاء أن خافوا منهم ؛ بمسد أن اعتنق سكان الحيرة المسيحية على المذهب النسطوري^(٧) ، فاختصموا^(٨) لسلطانهم نهائياً ، وبثوا في بلادهم الحاميات في « حصون »^(٩) أو « قصور »^(١٠) ؛ كما أن أغنياء الفرس المسمون « دهاقين »^(١١) ، أصبحوا يملكون معظم الأراضي الخصبة في السواد .

ونحن لا نعرف السبب الذي من أجله أقدم العرب على مهاجمة العراق ، وهل كان ذلك بناءً على خطة مدبرة في المدينة بسبب ارتفاع معنويات العرب بالدين

(١) ابن ساعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٦ .

(٢) سميذ بن بطريق ، ١ ص ١٨ س ١٢ . الكلديون هم أهل بابل ، وظهر أن هذه الكلمة سريانية . التنبيه ، ص ٧ و ٣٥ .

(٣) التنبيه ، ص ٣٦ .

(٤) سميذ بن بطريق ، ١ ص ٧٤ ؛ انظر . La Civil. Iran, : Beneviste . p.45.

(٥) انظر . قبله .

(٦) معجم البلدان ، ٣ ص ٣٨٠ . انظر . حسن ابراهيم ، الدولة العربية ، ص ٤٣ . وقد سبق أن ذكرنا رأياً آخر يصد هذه التسمية هو : إعتناهم للسيحية . انظر التنبيه ، ص ٧ ؛ الشافعي ، حشرات ، ص ٢٣ ؛ انظر . قبله .

(٧) انظر . قبله .

(٨) التنبيه ، ص ٣٩ س ١٧ .

(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٣ س ٦ .

(١٠) الدينوري ، الأخبار الطوال ، طبعة مصر ، ص ١١٥ .

(١١) هذه الكلمة أصلها فارسي « دحكان » من كلمة « ده » أي قرية ، ثم عرفت لدى « دحكان » ، بمعنى ملك الأرض ، والجمع « دحقاتة » أو « دحقاتين » انظر . Noldeke : Geschichte der Perser und Araber, p. 440 ؛ فان فلورن ، السيادة العربية ، ترجمة حسن ابراهيم وذكى ابراهيم ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٤٥ .

الجديد كاذباً، والفرس في ضم عرب العراق إلى حظيرة الإسلام ؛ خصوصاً وأن الجيوش العربية للتصرة بقيادة خالد كانت تحارب بجوارهم في اليمامة والبحرين . ومن ناحية أخرى يدل الواقع على وجود عداوة بين العرب والفرس ، بسبب أن هؤلاء طعموا في العرب ، وأخضعوا لهم معظم أطراف الجزيرة العربية في البحرين^(١) واليمن . كذلك كان ملوك الفرس يستعملون القسوة مع العرب : فثلاً شهيداً الثاني - أو سابور^(٢) - (٣١٠ - ٣٧٩) يسمى « بنى لأكتاف^(٣) » ، لكثرة ما قتل من العرب انتقاماً لوالده ، الذى يبدو أن العرب قتلوه^(٤) ، أو أن خسرو الثاني (٥٩٠ - ٦٢٨) قتل ملك الحيرة النعمان^(٥) ، مما جر إلى موقعة ذى قار ، التى انتصر فيها العرب على العجم . فكان إذن لابد من تسوية هذا الثأر القديم ؛ وقد رأينا القرآن^(٦) يعلن سرور العرب برجوع الروم وغلبيتهم على الفرس . ومن ناحية أخرى نعرف أن السهول الخصبة في الدجلة والفرات كانت تجذب^(٧) البدو دائماً إليها من داخل الجزيرة ، حتى أنهم سموها السواد لكثرة زروعها . مهما يكن من أمر فقد كانت مهاجرة خالد للعراق مفاجأة للحاميات الفارسية فيها ، خصوصاً وأن معظمها كان قد سحب إلى داخلية إيران ؛ بسبب اضطراب شئونها الداخلية . ولكن معلوماننا من خطة هجوم العرب في العراق غير واضحة^(٨) ؛ وإن كان من الجائز أن خالداً سار أولاً في بعض أجزاء البادية ،

(١) انظر . قبله : Massé : La Civil. Iran, p. 168

(٢) عن هذا الاسم Sapor . انظر . L'Iran Antique, p. 343 . انظر . قبله .

(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٣ س ٣ ؛ الثعالبي ، غرر ملوك الفرس ، ص ٥١٩ ؛ انظر . قبله .

(٤) انظر . L'Iran Antique, p. 346

(٥) انظر . قبله ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Sāsānides) 4 p. 187

(٦) القرآن ٣٠ : ١٠ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. t 2, p. 549

(٨) الكامل ، ٢ ص ٢٦١ .

حيث سهّل فتحها وجود قبائل عربية فيها ، وأن قائداً آخر اسمه المثنى ^(١) بن حارثة الشيباني كان يقوم بالغاثة فيها قبل مجيء خالد ؛ وقد أمضى خالد مع رؤساء العرب معاهدات ^(٢) تؤمنهم على ديانتهم — التي كانت مسيحية في الغالب — وإن أمرهم يمسّ الواجبات كدفع الجزية ^(٣) ، وترك مساعدة الأعداء . ثم سار خالد في منطقة السواد ^(٤) واستخدم السفن ^(٥) لعبور قنوات المياه الكثيرة المتفرعة من الفرات ، فاستولى على قرى ^(٦) عديدة ، وحصون كثيرة . ويظهر أن مقاومة الفرس في العراق كانت شديدة ، مما جرّ إلى مواقع هامة منها : موقعة ذات السلاسل ^(٧) التي ترتب عليها الاستيلاء على : مينا « الأَبْسَلَة » ^(٨) الهام على الخليج الفارسي ، وذلك على الرغم من أن الفرس ربطت نفسها في السلاسل حتى لا تنفر ، وأن معظم أهلها هربوا في السفن ^(٩) ، وموقعة « المِثْي » ^(١٠) أو النهر — لعله أحد فروع الفرات — التي قتل فيها ثلاثون ألف فارس ؛ وموقعة « أَلَيْس » ^(١١) ، على الفرات ، التي جرت فيها القماء أنهاراً . وعلى العموم نجد نتيجة لهذه الانتصارات أن الدهاقين في العراق أمرهوا بالتسليم إلى خالد من كل النواحي ^(١٢) ؛ وقد عومل

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٦٢ .

(٢) الطبري (Annales) ١ : ٢٠٤٤ — ٢٠٤٥ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ،

ص ٢١٨ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٣٣ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢١٨ .

(٤) تاريخ النسطورين ، (في P.O.) الجزء ٢/١٣ ، ص ٥٨٠ [٢٦٠] .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٥ .

(٦) الطبري (Annales) ١ : ٢٠١٦ — ٢٠١٧ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٦٢ .

(٨) معجم البلدان ، ١ ص ٨٩ — ٩٠ .

(٩) نفسه ، ٥ ص ٢٧ .

(١٠) نفسه ، ٣ ص ٢٥ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٦٣ .

(١١) الكامل ، ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٢٨ .

(١٢) الكامل ، ٢ ص ٢٦٨ .

الفلاحون المحروس كالنصارى على أساس أنهم من أهل^(١) الكتاب ، ففرضت عليهم الجزية^(٢). ولكن أبابكر لم يترك قائده خالفاً في العراق ليستفيد من نصره في معاجة فارس ، وإنما أمره^(٣) بترك العراق في يد القائد الثاني بن حارثة الشيباني، ليتقابل مع قوات كانت مزسلة لفتح الشام ؛ وقد كانت فتوح العراق أول فتوح في الاسلام .

بعد العراق جاء دور الشام أو ما يسميه العرب أيضاً « الشام »^(٤) واليونان بِسُورِيَّة Syria^(٥) : وهو صقع كبير يمتد من شمال الحجاز إلى البحر الأبيض ، ومن الفرات إلى الديار المصرية ؛ فيشمل الأراضي الخصبة قرب الساحل التي تغذيها عدة أنهار أهمها: اليرموك^(٦) ، والأردن^(٧) ، وبردى^(٨) والأردن^(٩) وقوبي^(١٠). وأيضاً بأدبة واسعة تمتد حتى قرب الحجاز ومصر تعرف « بالبقاء »^(١١) . وقد كان يسكن الشام عناصر أغلبها سامية ، جاءت باستمرار من داخل الجزيرة

(١) نفسه ، ٢ من ٢٦٣ س ١٦ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥٥ ؛ انظر . بعده .

(٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٣٣ .

(٣) الطبري ١ : ٢٠٧٦ ؛ انظر مجموعة الوثائق ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ؛ الكامل ،

٢ من ٢٧٩ س ٤ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ من ٢١٧ . قيل في هذه التسمية عدة أقوال منها : لأن الشام على يسار جزيرة العرب أو لأنه من شمال الأرض . انظر . نفسه ، ٥ من ٢١٧ فأبداها ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، المجلد الأول ، ص ٨ .

(٥) معجم البلدان ، ٥ من ١٧١ ؛ ٢١٨ . أطلق الإغريق هذه التسمية على بلدة « صور » ثم تمت على البلاد الشامية كلها . انظر . La Palestine under : Le Strange The Moslems, London 1890, p. 14.

(٦) وهو يصب في نهر الأردن . معجم البلدان ، ٨ من ٥٠٤ .

(٧) وهو يصب في بحيرة طبرية . نفسه ، ١ من ١٨٥ فأبداها .

(٨) وهو يمر بمدينة دمشق . نفسه ، ٢ من ١١٨ — ١١٩ .

(٩) وهو في شمال الشام يمر بمصر وحمات ، ويسميه العرب أيضاً بالعاصي لتعابه إلى القنال بدل الجنوب . نفسه ، ١ من ٢٠٦ ؛ ٩٦ .

(١٠) وهو يمر بحلب . نفسه ، ٧ من ١٨٨ .

(١١) نفسه ، ٢ من ٢٧٦ — ٢٧٧ .

العربية في شكل موجات ضخمة منتظمة كالفصول^(١) ، مثل^(٢) : المأموريين والكنمانيين والفنيقيين والآراميين والعبرانيين والفلسطينيين والاسرائيليين والأنباط ، وأخيراً العرب اليمنيين من قبائل الضحاجم وكلب وغسان وعذرة وجذام وجهام ؛ حيث أن هذه قبل الإسلام كانت تكون معظم^(٣) سكان الشام ، وتمتد في جنوبه من دمشق حتى حدود الحجاز .

ومنذ قديم الزمان ، نشأت في الشام دول عديدة نتيجة لهذه الهجرات ؛ ولكونه منطقة اتصال طمعت فيه الدول المسيطرة في حوض البحر الأبيض ، مثل : المصريين القدماء والبطالمة والرومان ، وأخيراً البيزنطيين ، الذين كانوا يمرقون للعرب باسم «الروم»^(٤) . ومن ناحية أخرى كانت دولة الشرق الكبرى — فارس — تطمع فيه هي الأخرى ؛ ولذلك اكتسحت جيوشها^(٥) عدة مرات ؛ وإن كان بقاؤها فيه غالباً لا يطول .

ومع ذلك ، فإنه كانت تظهر في الشام من آن لآخر دويلات^(٦) من سكانها لها كيان مستقل ؛ تقوم فيه بتشجيع الدولة المستعمرة ، لتقف حارسة لحدود أملاكها في الشرق ، ضد غارات عرب الحجاز أو الفرس ، مثل^(٧) : مملكة النبط وتدمر وأخيراً الفساسنة ؛ فكان هؤلاء يسمون :

(١) انظر . Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie S. d. p. 31.

(٢) انظر . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨٢ — ١٨٣ ؛ Driot et Vand : Arabia, p. 7. : Huzyyin ؛ Peuples, pp. 403 ؛ 421 ؛ 521 تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع ، الطبعة الثانية ١٩٤٩ ، ص ١٠ فأيسما .

(٣) الكامل ، ص ٢ ص ٢٦٠ ؛ ٢٧٠ ؛ انظر . قبله .

(٤) القرآن ٣٠ : ١ .

(٥) انظر . قبله .

(٦) انظر . قبله .

(٧) انظر . قبله .

« روم العرب »^(١) لحالفهم البيزنطيين . ويدعو أن حروب الفرس الأخيرة في الشام ، وتنب هرقل البيزنطي عليهم في ٦٢٢ م^(٢) ، جعل بيزنطة تشرف على الشام اشراقاً مطلقاً ، فقسمة أقساماً حربية عرفت باسم « Thema »^(٣) ، وبثوا فيه الحاميات ؛ وهذا النظام هو الذي سيطرته العرب فيما بعد وسيعرف عندهم .
« بالحند »^(٤) .

وقد كان ظهور المسيح في الشام سبباً في أن تحول أهله منذ عهد مبكر إلى الدين الجديد؛ وساعد على ذلك أن الدولة البيزنطية — التي ورثت الرومان في الشرق — جعلت المسيحية ديناً رسمياً حوالي القرن الرابع الميلادي . ومع ذلك كان سكان الشام — الذين كان أغلبهم وقتئذ من العرب المنتصرة^(٥) — يمتنعون المسيحية على أساس مذاهب مخالفة للمذهب البيزنطي أو ما يعرف بالملكاني^(٦) ، بالنسبة إلى الاختلاف في طبيعة المسيح ، مثل : المارونية^(٧) في شمال الشام والمقوقية^(٨) في جنوبه ؛ وهذه الأخيرة كانت منتشرة في مصر أيضاً . كذلك تميزت المسيحية الشامية أيضاً

(١) الطبرى (Annales) ١ : ٢١٠١ ؛ انظر . Chefra , p. 19

(٢) انظر . بل ، مصر ، ترجمة عواد وعبد الطيف ، ص ٢٥٤ ؛ انظر . قبله .

(٣) أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تحريب طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ ،

ص ١٣١ — ١٣٢ ؛ Diehl et Marçais : Le Monde Orientale de 395 à 1081 2ed p. 223 ; 224.

(٤) جمها « أجناد » ، والتجنيد التجمع . ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٥) الراشدي ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢١ ؛ الكامل ، ٢ ص ١٩٢ ص ١١ — ١٢ ؛

انظر . La lutte , p. 19 : Chefra

(٦) انظر . Early Christianity in Arabia, London 1895, : Wright

La Syrie , p. 155 — 160 : Thoumin ؛ انظر . قبله .

(٧) نسبة إلى مارون راهب ظهر في عصر الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢ م) عالٍ بالبلطيين للمسيح : الحية وبشرية . انظر سعيد بن بطريق ، ١ ص ٢١٠ ص ١٣ — ١٨ ؛ الخليلي ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٨) نسبة إلى يقوب البرذهاني Jacobus Baradensis ، ومنحبه هو الأرثوذكسية (عن « الأرثوذكسية » ، سعيد بن بطريق ١ ص ١٤٦ ص ١٥) أي أنماح الدين الصحيح ، وهولا يمتزج إلا بطيعة واحدة للمسيح ؛ وهذا المذهب كان مذهب المصريين أيضاً . انظر . ابن حزم ، الفصل في اللال والأهواء والتحل ، ١ ص ٤٩ ؛ انظر . قبله وبسده .

بالهبة^(١) التي لملها جاءت من مصر ، إذ ظهرت في نفس الوقت التي ظهرت فيه في مصر ؛ بحيث كثرت في الشام الصوامع^(٢) والقيارات في هذه المنطقة .

وفي الواقع أننا نستطيع أن نقول : إن حرب العرب ضد الشام بدأت منذ عهد النبي ، وذلك حينما أرسل حملة « مؤتة »^(٣) التي التقت فيها عرب الحجاز بروم^(٤) العرب في أطراف الشام ، ثم أعداده بث أسامة^(٥) بن زيد قبل وفاته . وإن كنا لا ندري قصد النبي من هذه الحملات ، إلا أننا نستبعد أن يكون إرسالها بقصد فتح الشام أو محاربة البيزنطيين^(٦) ؛ وذلك لصغر أعداد هذه الحملات ، ولشغل النبي في الحجاز التي لم تكن استقرت بعد . ولعل النبي كان يرى من وراء ذلك إلى إظهار عرب الشام بظهور دولة عرب الحجاز وضرورة التحالف^(٧) معها بحكم صلة العروبة ، أو لعله أراد تأديب قبائلها بسبب اعتدائها على الأمن من سكان الحجاز . كذلك - في أول الأمر - سار أبو بكر على أساس خطة النبي : فأرسل^(٨) بث أسامة بن زيد على الرغم من حاجة المدينة لهذا البعث في الدفاع عن نفسها ، كما اتبع البعث بعدة حملات^(٩) أخرى ؛ لإعادة عرب شمال الحجاز إلى الطاعة ، وبخاصة عرب دومة الجندل^(١٠) التي كانت تعتبر من تخوم^(١١) الشام ، وتابعة لبيزنطة . ولكن

(١) ساويرس ، سير الأباء البطركة (في P. O) ١ ص ٤٩٨ .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ .

(٣) قس ، ٢ ص ١٥٨ فما بعدها ؛ أبو الفرج الأصبهاني ، مقاتل الطالبين ، ص ٦ فما بعدها ؛ انظر . قبله .

(٤) الطبري ١ : ٢١٠١ ؛ انظر قبله .

(٥) الكامل ، ٢ ص ١٩٢ ؛ انظر قبله .

(٦) يستعمل للزورخون الإسلاميون عادة كلمة « الروم » (الكامل ، ٢ ص ١٥٩) ، ولكننا لا نظن بأن قصدهم كان البيزنطيين ، فن سياق تاريخهم يبدو أنها حرب ضد روم العرب في هذه المناطق . انظر . La lutte, p. 21 ; Chefra

(٧) كما فعل مثلاً في غزوة تبوك ؛ انظر . قبله .

(٨) انظر . قبله .

(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٣٤ ؛ انظر . قبله .

(١٠) البلاذري ، فتوح ، ص ٦٢ ؛ انظر . قبله .

(١١) انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ١٠٧ ؛ التنبية ، ص ٢١٥ ؛

انظر . Chefra : La lutte, p. 21 ؛ انظر . قبله .

من المحقق أن أبا بكر بعد أن انتهى من المرتدين في الجزيرة وجه الحملات - هذه المرة - بقصد إخضاع عرب الشام للحجاز ، بدليل إرسال الحملات الأولى نحو جنوب الشام^(١) على الخصوص . وإن كنا نجعل الأسباب المباشرة أو غير المباشرة لذلك ؛ فلعل الحوادث هي التي جر بعضها بعضاً ، وإن نجاح الحملات الأولى ضد المرتدين من عرب الشمال جر إلى السير في فتح الشام ؛ أو لعلها خطة مدبرة للغزو والفتح خصوصاً وأن حركة الفتوح كانت قد بدأت في المراق ، وإن لاحظنا أنها في هذا القطر لم تمتد أيضاً عرب المراق . ولكن « Caetani »^(٢) يرى أن الذي جعل أبا بكر يقدم على فتح الشام هو حدوث اتفاق بين عرب الروم وعرب الحجاز للفارة في الشام - كما حدث في المراق - وبخاصة أن يرتبطة كانت قد منعت العمل السنوي عنهم ، بسبب ما حدث من اضطراب نتيجة لهجوم الفرس الأخير . ولكن أستاذنا شعيبة^(٣) يرد على هذا الرأي بقوله إنه لم يصلنا ما يؤيد هذا الاتفاق إلا من الأسقف الأرمني Sebeos (توفي حوالي القرن السابع الميلادي) الذي يتعامل على العرب ؛ وأنه على العكس كان هناك عداوة واضحة بين عرب الحجاز وعرب الشام استمر في عهدي النبي وأبي بكر ، بل استجد أن عرب الشام سيقاومون حملات أبي بكر مع حلفائهم البيزنطيين^(٤) .

على كل حال : لما استنفرت^(٥) أبو بكر عرب الجزيرة لغزو الشام - وقد كانت هذه البلاد معروفة لهم ؛ بسبب تجارتهم فيها - جاءت أعداد كبيرة من جميع أجزائها^(٦) ، وبخاصة من اليمن وعلى رأسهم عكرمة^(٧) بن أبي جهل

(١) انظر بعده .

(٢) انظر . Annali, ann 12 no 309

(٣) انظر . La lutte, p. 30 ; 34 - 35

(٤) الواقدي ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢١ .

(٥) انظر نس كتاب الاستنفار في الأزد ، ص ٥ - ٦ ، الواقدي ، كتاب فتوح

الشام ، ١ ص ٢ - ٣ .

(٦) البلاذري ، فتوح ، ص ١٠٧ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٧٦ ؛ انظر . قبله .

— بطل حروب الردة المعروف — فوجههم أبو بكر نحو الشام بقيادة عدد^(١) من القواد أشهرهم ثلاثة عرفوا في حروبهم مع عرب شمال^(٢) الحجاز ، وهم : عمرو^(٣) بن العاص ، وشرحبيل^(٤) بن حسنة ، وأضاف إليهم يزيد^(٥) بن أبي سفيان . وقد أراد الخليفة أن يكون زحف القواد الثلاثة من جهات متعددة : فسار عمرو بن العاص عن طريق «أبلة»^(٦) أو ساحل البحر الأحمر (القلزم) نحو أرض فلسطين ، وسلك يزيد وشرحبيل طريق «تَبُوك»^(٧) أو البلقاء نحو شرق الأردن . وقد قوبل القواد الثلاثة بمقاومة^(٨) ، وبخاصة من العرب المنتصرة في هذه المنطقة ، وهم الذين كانوا في عداوة مع عرب الحجاز منذ عهد النبي ، مما جعلهم يطلبون المدد من المدينة ؛ وإن كانوا قد ثبتوا أقدامهم بتجاح في جنوب الشام ؛ مما يؤيد أن محور سياسة^(٩) أبي بكر في هذه الفتوح كان ضم العنصر العربي الشامي إلى عرب الحجاز .

ولذلك يرسل إليهم الخليفة للبدد الذي توافد على المدينة ، بقيادة أخذ الصحابة ، هو أبو عبيدة بن الجراح ، الذي كان النبي يلقبه «بأمين الأمة»^(١٠) ، وكأنه

(١) الأذرى ، ص ٤ — ٥ . (٢) انظر . قبله .

(٣) وهو القائد الذي كان قد أسلم مع خالد (المبارك ، ص ١٤٦) ، وأرسله أبو بكر لمحاربة قضاة الطبري (Annales) ١ : ١٨٨٠ ؛ انظر . قبله . وقد شبه عمرو نفسه بهم من سهام الله ، وأن أبا بكر هو الراي . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٧٦ .

(٤) المرجع السابق ، ٢ ص ٢٣٤ س ٩ ؛ انظر . قبله . وهو منسوب إلى أمه ، وهو أحد كتاب النبي . للمبارك ، ص ١٦٥ ؛ انظر . الواقدي ، فتوح الشام ، (ملاحظات) Notes, p. 28.

(٥) كان أبوه هو الذي قاد المقاومة للكية ضد المسلمين ، ولكن التي قرره بعد فتح مكة ، وفعل أبو بكر نفس الشيء ، فبينه قائداً لحملات الشام . انظر . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٧٦ ؛ انظر . قبله .

(٦) الواقدي ، فتوح الشام ، ١ ص ٢٢ س ٧ . وهي على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام . يقول ، مجمل البلدان ، ١ ص ٣٩١ .

(٧) البلاذري ، فتوح الشام ، ص ١٠٨ ؛ انظر . Chefra ، La lutte, p. 36 - 7 .

(٨) البلاذري ، فتوح الشام ، ص ١٠٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٧٧ ؛ ٢٨٦ .

(٩) انظر . La lutte, p. 37 : Chefra .

(١٠) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٠ س ١١ .

ينظر على يديه حماية أمة الاسلام، والرفع من شأنها؛ فخرج نحو البلقاء^(١) في اتجاه دمشق. وفي نفس الوقت أمر^(٢) خالدًا - قائده بالعراق - بالتوجه إلى الشام، على أن تكون له القيادة^(٣) العامة «أمير الأمراء»^(٤) على جميع جيوش المسلمين. فما كان من خالد إلا أن أسرع بترك العراق صاعدًا الفرات نحو الشام، فاستولى في طريقه على عدة بلاد - معظم سكانها من العرب - منها: معين النمر^(٥) وقرقيسيا^(٦) ودومة الجندل^(٧) وتدمر^(٨)، وظهر فجأة أمام دمشق^(٩). وكان عبور خالد الصحراء القفر إلى الشام من هذا الطريق دليلًا على عبقريته الحربية: وتنقل الرواية أنه لجأ إلى تمطيش^(١٠) الجبال قبل منادوته العراق وسقيها بالماء، ثم شد أفواهها حتى لا تجتر، وجب الخليل وركب الجبال، فكان كلما وصل إلى مكان ليس به ماء نحر بعض الجبال وشق بطونها وأخذ ما فيها من الماء؛ ليسقيه للجند والخيال. ومأن وصل خالده قرب دمشق حتى علم بتحرك جيش كبير للروم ضد المسلمين، فأمر^(١١) جميع جنوده بالتجمع في أجنادين^(١٢)، وهي بلدة قرب الرملة من أرض

(١) قس. ٢ ص ٢٧٧ و ٧٠؛ البلاذري، فتوح، ص ١١٢؛ الواقدي، فتوح الشام، ١ ص ٢٤.

(٢) الطبري (Annales) ١ : ٢٠٧٦ و ٢١١٠؛ ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٧٩؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٣) الأزهري، ص ٥٧.

(٤) البلاذري، فتوح الشام، ص ١٠٩. كلمة أمير تعني قائد. انظر. قبله.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٢ ص ٢٦٩. وهي بلدة على سيف الصحراء قرب الفرات، عرفت بكثرة ثمرها. ياقوت، معجم البلدان، ٦ ص ٢٥٣.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٠. وهي بلد على نهر الخابور أحد فروع الفرات، معجم البلدان، ٧ ص ٥٩ - ٦٠.

(٧) الكامل، ٢ ص ٢٧٠؛ انظر. قبله.

(٨) الواقدي، فتوح الشام، ١ ص ٤٤.

(٩) الأزدى، ص ٦٤؛ البلاذري، ص ١١٢. وهي قصبة مدن الشام. معجم البلدان، ٤ ص ٧٢.

(١٠) الواقدي، فتوح الشام، ١ ص ٤١.

(١١) الأزدى، ص ٧٢ - ٧٣.

(١٢) موضع من نواحي فلسطين. انظر. معجم البلدان، ١ ص ٢٦. يظهر من سياق كلام الطبري أنها قلعة، انظر. (Annales) ١ : ٢٤٠٨ : Ency. de l'Isrl. (art Adinadain) ١, p. 144.

فلسطين ، حتى لا يؤكلوا القمة سائنة وهم متفرقون . فقد أرسل هرقل من حمص^(١) في شمال الشام أخاه تيودور « Theodoros »^(٢) — الذي سماه العرب « وردان »^(٣) — على رأس جيش كبير يزيد عدده على مائة ألف^(٤) من الروم والعرب المنتصرة^(٥) (الأنباط)^(٦) ، وسعه البطارقة والقسس والرهبان^(٧) بالصلبان ؛ وقد سُلحوا بالأسلحة المروفة في ذلك الوقت : فكان للقاتلة منهم يلبسون خفاف الحديد في أرجلهم ، وهي مكفونة في الدروع^(٨) ، لا يرى منهم إلا الحدق . وحينما وصل تيودوروس إلى أجنادين نظم جيوشه أمام العرب على أحدث ما هو معروف عند الروم من فن الحرب ، فوضع قارصاً بين كل اثنين من المشاة^(٩) : أحدهما ناشب والآخر راسع .

أما المسلمون الذين تجمعوا في أجنادين فقد كان عددهم لا يزيد على ثلاثين^(١٠) ألفاً من قبائل^(١١) متمددة اتخذت لها رايات وألوية^(١٢) ، شمارها^(١٣) عقيدة الاسلام :

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٢ من ٢٧٨ س ١٤ . بلد معصور بين دمشق وحلب في داخل البلاد . نجم البلدان ، ٣ من ٣٣٩ .

(٢) انظر . Histoire d'Héraclius, traduite de l'arménien : Sébéos . De Goeje . et annotée par Macler, Paris 1904, p. 96 : Mémoire sur la conquête de Syrie, 2ed. Leyde 1900, p. 35.

La lutte, p. 39 : Cheïra (٣) الأزدي ، من ٧٢ — ٧٣ . اختلف في اسمه ، بسبب خلط مؤرخي العرب بين موقعي أجنادين واليرموك — فتلا ابن الأثير يقول « تدارق » ، الكامل ، ٢ من ٢٨٩ س ٢٠ .

(٤) فتوح البلدان ، من ١٣ ؛ انظر Gibbon : Decline 5, p. 314 . يقول الوالدي تسعين ألفاً . انظر . فتوح الشام ، ١ من ١٢٧ .

(٥) المرجع السابق ، ١ من ٣١ ، ٥٣ ، ٩٨ . (٦) تم غير أنباط السواد . انظر . قبله . (٧) قس ، ١ من ٥٧ .

(٨) قس ، ١ من ١١٠ . (٩) الأزدي ، من ١١٤ . (١٠) فتوح البلدان ، من ١٠٩ .

(١١) الأزدي ، من ٧٧ س ٤ . (١٢) الرافدي ، فتوح الشام ، ١ من ٣ . كان لحال راية خاصة به اسمها العقاب . انظر . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ من ٢٨١ .

(١٣) الرافدي ، فتوح الشام ، ١ من ٣٣ .

« لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وكانوا على عكس الروم منهم المرأة^(١) الحفاة ، الذين ليس عليهم غير السراويل ، وفي أيديهم أسلحة لاتصل إلى قوة أسلحة الروم ؛ وإن كان بعضهم من أهل اليمن يلبس الدروع والبيض^(٢) (أى الخوذ) . وقد نظمهم خالد إلى فرق للرجال : ميمنة وميسرة^(٣) ، وجعل الفرسان وخدم ليحاربوا على حدة ، وكان منهم من يمتطي الخيل أو الإبل^(٤) . أما خالد نفسه ، فقد تمم^(٥) بهامة صفراء ، واشتهر بحريرة حمراء حتى يراه الجميع .

ومع عدم تكافؤ المدد والسلاح من الجانبين ، فقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على الروم بشجاعتهم وارتفاع روحهم المعنوية بالدين الجسديد : فتمكن المسلمون من قتل عدد كبير من الروم بلغ خمسين^(٦) ألفاً في هذه الواقعة ، التي دارت وحاشا في جمادى الأولى^(٧) من سنة ١٣ هـ (يوليو ٦٣٤) . وهذه أول وقعة عظيمة^(٨) بين عرب الحجاز والبيزنطيين ، منذ أن ظهر الاسلام .

ولقد كان للانتصار في « أجنادين » وقع عظيم ؛ بحيث اعتقد المسلمون أن هذا النصر من الله^(٩) ، خصوصاً وأن العربي في العهد الاسلامي الأول كان مستعداً لأن يقبل كل ما يحدث له على أساس أنه من الدين ، وأن النبي قد تنبأ^(١٠) بالنصر . وقد استغلت المدينة هذا النصر استغلالاً كبيراً في حث المسلمين على الجهاد^(١١) ، بحيث

(١) نفسه ، ١ ص ٦٢ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٣ من ٢١ — ٢٢ .

(٣) الأزدى ، ص ٧٦ — ٧٧ .

(٤) الواقدي ، فتوح الشام ، ١ ص ١٨ من ٨ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٢١ .

(٦) نفسه ، ١ ص ١٢٧ من ٢ .

(٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١١٤ .

(٨) الأزدى ، ص ٨١ من ١ .

(٩) الطبرى (Annales) ١ : ٢١٥٨ ؛ انظر . Cheïra : La lutte , p. 40sq .

(١٠) نفسه ١ : ٢٢٥٤ ؛ 42 ؛ 41 . Ibid ,

(١١) الواقدي ، فتوح الشام ، ١ ص ٣٤ ؛ انظر . Cheïra : La lutte , p. 41 .

أنه أشمل الحماش في عرب الجزيرة مما جعلهم يقولون زراقت^(١) على الشام ، وشجعهم على السير بدون تردد في مشروع الفتح ، يل منهم من فكر في سكنى الشام نهائيا .

وعلى العكس كانت الهزيمة لاعدائهم الروم في «أجنادين» طعنة غير متوقعة ، بحيث لم يصدق هرقل أنهم «ليسوا بشرا»^(٢) . ومع ذلك لم يتصوروا إطلاقا بأن هزيمتهم في «أجنادين» ستؤدي إلى القضاء على امبراطوريتهم في الشرق ، وانما اعتقدوا أنها عنة زلت بهم من المسيح^(٣) ؛ بسبب ما ارتكبوه من الخطايا^(٤) والذنوب ، وأنه من الممكن اصلاح الخطأ بالرجوع إلى المسيح .

* * *

توفي أبو بكر في ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣^(٥) (٢٣ أغسطس ٦٣٤) بعد هذا الانتصار الرائع ، وذلك بعد أن قضى في الخلافة حوالي سنتين (١١ - ١٣ / ٦٣٢ - ٦٣٤) ؛ وقد حافظ على الاسلام من ردة العرب ، ووجه الجيوش نحو الفتوح ، مما يجعلنا نعتبره من أعظم مؤسسي الدولة الاسلامية بعد النبي . وكان على المسلمين أن يبحثوا لهم عن خليفة جديد ، ولكن أبا بكر أخذ على عاتقه قبل موته اختيار خليفة لهم ؛ حتى يجنبهم الفرقة في هذه الظروف المصيبة ، فكتب لعمر بن الخطاب - وهو الذي كان قد رضى^(٦) عن طيب خاطر

(١) الواقدي ، فتوح الشام ، ١ ص ١٣١ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ١١٨ .

(٣) الأزدى ، ص ١٢٣ ص ١ .

(٤) أنظر - Sébéos - Op. cit. , p. 97 : La lutte , p. 40 : Chefra ; p. 56

(٥) الواقدي ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٢ .

(٦) ابن الجوزي ، كتاب تاريخ عمر ، ص ٤١ ص ١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٨٧ ؛ أنظر - Ency de l'isl. (art Abu Beker), I, p. 84 .

(٧) أنظر ما حدث في السيفة - ابن الأثير ، الكامل ، ٢ ص ٢٢٠ ، فابدهما ؛ هيك ، الصديق ، ص ٦١ ؛ أنظر - قبله .

أن يترك مقاليد الحكم له بعد موت النبي - عهداً^(١) بالخلافة ، لقي قبولاً من جميع المسلمين .

فأوس عمر بن الخطاب حقه في الخلافة بناءً على اختيار أبي بكر له ، لذلك تسمى في أول الأمر : « خليفة خليفة رسول الله »^(٢) ، أو حتى « خليفة أبي بكر »^(٣) . ولكن ثبت بالتجربة تمقيد^(٤) المخاطبة بهذا القب ، فتسمى عمر « بالخليفة » فقط . كما أنه أضاف إلى هذا القب لقباً جديداً متمشياً ومناسباً لمهد الفتوح ، هو لقب : « أمير المؤمنين »^(٥) ، لأن الأمير عند العرب يقصد به من ولي^(٦) جهة من جهات المسلمين ، أو سرية أو جيشاً ، والمؤمن هو المسلم الذي دخل الإسلام في قلبه^(٧) ، خصوصاً وأن العرب رجعت إلى الإسلام بمدار تداوها ، وخرجت للجهاد ؛ فكان عمر أول^(٨) من يقسم به ، وتوارثه الخلفاء من بعده ، لا يشاركون فيه أحد .

في الواقع أن مؤرخي العرب يبرزون شخصية هذا الخليفة كأعظم ما يكون في جزيرة العرب وقتئذ لحماسه الشديد للإسلام ، ولوقوفه الحاسم في يوم السقيفة ، ولأنه أيضاً أبوحفصة زوج^(٩) النبي - فما لا ريب فيه أنه أشهر خلفاء المسلمين ، فمصر عمر يعتبر العصر الذهبي للإسلام ، ولم يحدث أبداً في تاريخ الإسلام أن عهدين كل^(١٠) ثانيهما أولهما ؛ كما حدث في عهدي أبي بكر وعمر .

(١) انظر نص كتاب عمر . ابن الجوزي ، تاريخ عمر ، ص ٣٦ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٩٢ ؛ رقيق الظم ، كتاب أشهر مشاهير الإسلام ، ١ ص ١١١ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ ص ١٦ .

(٣) ابن الجوزي ، عمر ، ص ٤١ ص ١٦ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ .

(٥) نفسه . يبدو أن هذا القب كان مألوفاً عند العرب وقتئذ ؛ فقد كان سعد بن أبي وقاص أحد فؤاد جيوش العرب في فارس يدعى بأمر المؤمنين أيضاً . نفسه .

(٦) نفسه ، ابن حزم ، الفصل في اللال والأهواء والتسل ، طبعة مصر ١٣١٧ هـ ، ٤ ص ٩٠ .

(٧) منه تستند أيضاً إلى القرآن : (قالت الأعراب آئنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلفنا ، ولا يدخل الإيمان في قلوبكم ٤٩ : ١٤) .

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ .

(٩) الكامل ، ٢ ص ٢١٠ ؛ انظر Ency. de l'Isl. t 3, p. 1061 وهي مات سنة ٦٤٦/٢٦ الكامل ، ٣ ص ٤٧ .

(١٠) انظر . Chefra . p. 44 : La lutte .

ولكن ما أن تولى عمر الخلافة حتى أمر بمنزل^(١) خالد بن الوليد من قيادة الجيش في الشام ، وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، أحد قواد الحملة في سورية .
ويبدو أن عمر اتخذ هذه الخطوة لأنه كان قد غضب من أن خالداً سعى إلى تولية علي^(٢) بن أبي طالب بعد موت النبي . وإن كان من الجلي أن الرجال الأشداء^(٣) ينحشرون الأشداء مثلهم ، وعلى الأخص شخصية قائد مثل خالد : فاقه^(٤) الردة ، وبطل « أجنادين » . ولم يجيب خالد أمل المسلمين فيه ، أو يعمل على اقتسامهم ، فلم يعترض على عزله بل اذعن وعمل كجندى^(٥) تحت قيادة القائد الجديد ، واستمر يقاتل مع المسلمين ولا يرجع^(٦) إلى المدينة ، حتى توفي في سنة ٢١ هـ^(٧) (٦٤٢) بمصر^(٨) . وفي الواقع لم يظفر قائد منذ الاسكندرية بمركز يضارع مركز خالد ، بحيث أصبح اسمه شيئاً يدل على القوة والبطولة ، ويخوف به الأعداء .

ومع ذلك فإن العرب سارت بخطوات سريعة نحو الاستفادة من نصرها في اجنادين ، فقصده^(٩) كل أمير إلى ناحية من الشام ليتزوها ويثبث غاراته . فتمرو قصد فلسطين^(١٠) ، وشرحبيل الأردن^(١١) ، وأبو عبيدة وخالد دمشق^(١٢) ، ويزيد

(١) ابن الجوزي ، تاريخ عمر ، ص ٦٧ . اختف في تاريخ الزل ، فتلا ابن الأثير بحسب تارة بعد اليرموك وقبل حصار دمشق ، (الكامل ، ص ٢ ، ص ٢٩٣) وتارة أثناء حصار دمشق قبل اليرموك (نفسه ، ص ٢ ، ص ٢٩٣) ؟ وهذه الأخيرة هي الأصح ، كما تؤيدها روايات المؤرخين القدامى مثل الواقدي والأزدى والبلاذري . انظر مثلاً : فتوح ، ص ١١٥ .

(٢) الكامل ، ص ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٣) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ٢ ، ص ٦ . انظر من خطاب عمر لأبي عبيدة .

(٤) الكامل ، ص ٣ ، ص ٧١ .

(٥) نفسه ، ص ٢ ، ص ٢٩٣ .

(٦) معجم البلدان ، ص ٣ ، ص ٣٣٩ .

(٧) الطبري (Annales) ١ : ٢٦٤٥ : ٤ انظر - Caetani : Annali , an 21

no 88 . يقول القتيبي انه توفي وله ستون سنة ولم يبق في جسده نحو شهر إلا وعليه طاهر

الصمداء . انظر ، دول الاسلام ، ص ١ ، ص ٦ .

(٨) معجم البلدان ، ص ٣ ، ص ٣٤٠ . ص ١٥ — ١٧ .

(٩) نفسه ، ص ١١٦ .

(١٠) نفسه .

(١١) نفسه .

(١٢) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ١ ، ص ١٣٣ .

الساحل^(١) . ولكن امبراطور الروم أسرع بإرسال جيوش جديدة وصلت حتى شرق الأردن ، مما جبر إلى حدوث مارك هامة انتصر فيها العرب ، وهي : « فضل^(٢) » (في ذي القعدة ١٣ / يناير ٦٣٥) - قرب عمان^(٣) من أرض الأردن - وهي التي مهتت لسيطرة العرب في شرق الأردن ، و « مرج الصفر^(٤) » (في المحرم ١٤ / مارس ٦٣٥) - قرب دمشق^(٥) - التي هبأت لهم الاستيلاء على دمشق^(٦) نفسها ، وفتحت لهم طريق الفزوح حتى جبال طوروس^(٧) وحدود بلاد الروم .

هال هرقل انتصارات العرب المتتالية ، ووصلهم حتى حدود بلاده في آسيا الصغرى ، فاستجاش^(٨) الجند من كل شعوب امبراطوريته : من الروم والصفالية والروس والأرمن ، وحتى من العرب المنتصرة - حلفائهم - بقيادة زعيمهم جيلة^(٩) ابن الأيهم النسائي ، فاقبلوا على العرب في جحافل عديدة^(١٠) كأنها الجراد ، بقيادة

(١) فتوح البلدان ، ص ١١٧ .

(٢) الأزدى ، ص ٩٤ و ٩٧ .

(٣) قس ، ص ٩٧ فإ بعدها فتوح البلدان ، ص ١١٥ .

(٤) معجم البلدان ، ص ٦ و ٣٤٠ . اختلف في ترتيب سنوات هذه المعركة : ف قيل

إن غل بعد فتح دمشق في عام واحد (الكامل ، ص ٢ و ٢٩٤ ؛ الأزدى ، ص ٩٤) ؛ ولكن الواقدي يرى أنها قبل دمشق . (انظر - البلاذري ، فتوح ، ص ١١٥ ؛ ١١٨) . ونحن أيضا نميل إلى هذا الرأي ، من سياق تواريخ المؤلفين .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١١٨ .

(٦) معجم البلدان ، ص ٥ و ٢٦٧ ؛ ٧ ص ١٦ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ١٢٠ .

(٨) قس ، ص ١٣١ . استولى العرب على عدة بلاد منها : ميديا وجيل وبيروت وبنطك وجس وسجدة وشعر ومرة النعمان وغامية . انظر . قس ، ص ١٢٧ و ١٣٠ و ١٣١ .

(٩) سديد بن بطريق ، ص ٢ و ١٣ .

(١٠) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ٢ و ١٢١ .

(١١) قس ، ص ٢ و ١٢٤ . اختلف في عددهم : فابن خلدون يذكر ٤٠٠ ألفا (القسمة

من ١٢٥ ص ٢٦) ، والأزدى ٣٠٠ ألفا أو ٤٠٠ ألفا (الأزدى ، ص ١٣٤ ؛ من ١٨٥) ، والبلاذري زهاء ٢٠٠ ألفا (فتوح ، ص ١٣٥ ص ٣) ، وابن الأثير ٢٤٠ ألفا . الكامل ، ص ٢ و ٢٨١ .

« باهان »^(١) ، الذى يظهر من اسمه أنه كان أرمينياً . ولم يكن قد هُزِل من إرسال هذا الجيش الجرار فقط طرد العرب من الشام ، وإنما أيضا غزو^(٢) الجزيرة العربية ؛ وكأنه قد مدى الخطر على بلاده من وجود العرب في الشام ، الذين لن يقنعوا^(٣) به قط ، وإنما قد يسمون إلى غزو بيزنطة نفسها . وقد اسطحب الجيش البيزنطى — على عادته في الحرب — القس^(٤) والرهبان ، الذين وضعوا الأناجيل على صدورهم ، وحركوا الصليبان والباخر .

أما العرب الذين رأوا تحفز هذا الجيش للاقتضاض عليهم ، هربوا الانسحاب إلى مكان يسهل منه إرسال للد^(٥) عبر الصحراء ، خصوصاً وأن عددهم كان أقل^(٦) بكثير جداً من عدد عدوهم . ومع أن بعض العرب نصحت بالرجوع^(٧) إلى الجزيرة وترك الشام ، فإن الأغلبية قررت البقاء فيه ، ولم ترهبها كثرة العدو . فقد سبق للعرب أن انتصروا في اجنادين وفصل ومرج الصفر على الرغم من قلة عددهم ؛ هذا وأن المارك على حسب اعتقادهم هو حكم^(٨) من الله لهم وأولهم . ولذلك قال^(٩) خالد في هذه المناسبة لسنا بمرتحلين « حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » . أضف إلى هذا أن أغلبية المقاتلين العرب كانوا من البدو الفقراء ، فلم يرضوا أن يتركوا الشام الثرى ويرجعوا إلى جزيرتهم القاحلة ، وها هي بعض عبارات^(١٠) أهل الحجاز منهم : « وكيف ندع هذه الأعين المتفجرة ،

(١) الأزدى ، ص ١٣٤ ؛ سعيد بن يريق ، ص ١٤ ، ص ١ . ويسمى أيضاً « باهان » .

(٢) انظر . Sebēos p. 96

(٣) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ١١٥ ، ص ١٨ .

(٤) قس ، ص ١ ، ص ٥٧ ، ص ٢٤ ، ص ١١٣ .

(٥) قس ، ص ٢ ، ص ١١٩ .

(٦) يذكر البلاذرى عدد المسلمين ٢٤ ألفاً (فتوح ، ص ١٣٥ ، ص ٧) ، وابن خلدون لجند الشام وفارس ٣٠ ألفاً (للفتنة ، ص ١٢٥ ، ص ٤ — ٥) . والأزدى ، ص ٣٠ ألفاً (الأزدى ، ص ١٨٥) ، وابن الأثير ٤٦ ألفاً (السكائل ، ص ٢ ، ص ٢٨١) .

(٧) الأزدى ، ص ١٣٧ ، ص ١٥٢ .

(٨) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ٦٤ ، ص ٩ .

(٩) الأزدى ، ص ١٥٢ ، ص ١٥ .

(١٠) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ٢ ، ص ١١٨ ، ص ١٠ ، ص ١٠٠ .

والأنهار والزرع والأعشاب، والذهب والفضة والحجر، وزرج إلى قحط الحجاز وجدوبة الأرض، وأكل الشعير ولباس الصوف» ولهذا قرر العرب التراجع - بناء على نصيحة^(١) خالد - ونزلوا وادياً يعرف باليرموك^(٢) يصب في نهر الأردن، ويصفه لنا الجغرافيون بأنه : سهل فسيح على سيف صحراء الأردن ، يصلح لأن يكون معسكراً لجيش كبير .

ولكن الجيش البيزنطي سار في أعقاب الجيش العربي وعسكر هو الآخر في ادى اليرموك يلزاه^(٣) العرب ، وإن وصل إليه منهوك القوى^(٤). وقد أراد باهان يادى ذى بدي أن يستميل العرب بترك الشام، بأن عرض عليهم المال^(٥) ، والابقاء على اواصر الجيرة التي كانت في الماضي بين الروم بينهم . ولكن العرب لم يرضوا بشتر الحرب ، وبدأوا ينظمون صفوفهم استعداداً للقتال ؛ كما وضمو النساء والأولاد على جبل^(٦) خلف ظهورهم - على طريقهم في الحرب - وأخذوا يرقبون الجيش البيزنطي دون أن يستجلبوا الهجوم . وقد أفاد هذا التريث العرب لكثرة ما أتاهم من المدد^(٧) الذي عبر الصحراء ؛ هذا فضلاً عن أنهم تمكنوا من استمالة^(٨) العرب المتنصرة بقيادة جبلة ، الذين كانوا في صفوف الجيش البيزنطي ؛ فالعرب - ولا ريب - يميل^(٩) بعضهم إلى بعض بحكم الجنس . ولا استعد المسلمون ، وضيق البدو بالنسحاب العرب المتنصرة ، اختارت قيادة العرب

(١) نفسه ، ٢ من ١١٩ من ١٤ .

(٢) انظر - ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ من ٥٠٤ .

(٣) الواقدي ، فتوح الشام ، ٢ من ١٢٢ ؛ انظر - Theophanis :

Ency. de l'Is. (art al-Yarmûk) ؛ انظر - Chronographia ed Boor, p. 332

t4, p. 1223 .

(٤) انظر - Sébéos, p. 97 .

(٥) الأزدي ، ١ من ١٨١ .

(٦) الواقدي ، فتوح الشام ، ٢ من ١٢٠ من ١٨ .

(٧) نفسه ، ٢ من ١١٩ .

(٨) نفسه ، ٢ من ١٢٨ ؛ البلاخري ، فتوح ، ١ من ١٣٦ .

(٩) الواقدي ، فتوح الشام ، ٢ من ١٢٤ من ١١ - ١٢ .

بحذق يوم هجومها : ففي مساء يوم ذى نيباب^(١) شديد ، غابت فيه الشمس وأظلم الأفق ، وعصفت الرياح ، وسفت الرمال ، هاجم العربهم ونساوهم^(٢) البيزنطيين ؛ بحيث أن هؤلاء سادت بينهم الفوضى وأخذوا يتساقطون في الوديان العميقة التي تجاور منطقة اليرموك ، حتى سقط منهم عدد كبير^(٣) ، وتيمهم الملحون يقتلون الأحياء منهم في كل وادٍ^(٤) ، وفرت قلوب جيوشهم نحو الشمال ؛ وقد دارت هذه الواقعة الحاسمة في ١٥ من رجب من سنة ١٥^(٥) / ٢٣ أغسطس ٦٣٦ .

وقد كانت موقعة اليرموك حاسمة تحلّل الروم فيها خسائر فادحة ، فلم يستطيعوا بعدها أن يرسلوا حملة أخرى كبرى ، بل ينسب للمؤرخون^(٦) العرب وداعاً رمزيًا من هرقل للشام عند هزيمة جيوشه هو : السلام عليك يا سورية - سلام مودّع لا يرى أنه يرجع إليك أبداً : « Vale Syria et Ultimum Vale » . وعلى العكس مهد النصر للعرب استمادة المدن السورية التي انسحبوا

(١) قصة ، ٢ ص ٢٣٧ س ١٠ ؛ الأزدي ، ص ٢٠٧ س ١٣ .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٢٨٤ س ٨ .

(٣) اختلف في عدد القتلى من جانب البيزنطيين ، يقول الواقدي أو الأزدي أنهم حوالي ١٠ آلاف (فتوح الشام ، ٢ ص ٢٣٩ ؛ الأزدي ، ص ٢٠٧) ، والبلاذري ٧٠ ألفاً (فتوح ، ص ١٣٥ س ٩) ، والقمي ٥٠ ألفاً (حول الاسلام ، ١ ص ٤) ، أما Sébéos فيقول ألفين فقط ؟ انظر . Op. cit. p. 98 .
(٤) الأزدي ، ص ٢٠٨ س ١ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٣٧ . تخطت الروايات العربية بين اليرموك وأجنادين ، ولكن النصوص المتقدمة تشير دائماً إلى أن أجنادين قبل اليرموك (الأزدي ، ص ٨١ س ١) ، ولعل الاضطراب جاء من أن للمؤرخين للتأخرين (الكامل ، ٢ ص ٢٨٧) ، الذين يحد بهم الوقت عن هذه الواقعة الأولى . ويحاول بعض المؤرخين المحدثين إيجاد تحليل ذلك الاضطراب بوجود بلد اسمها يقرب من اسم أجنادين قرب اليرموك ، مع أن هذا البلد لا وجود له عند ياقوت (معجم البلدان) . انظر - De Goeje : Mém sur la conquête de la Syrie 2ed P. 59 suiv. Ency. de l'Isl, 4, p. 1223. ؛ بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ١١٣ هامش (١٧) .

(٦) الأزدي ، ص ٢١٣ س ١٣ - ١٤ ؛ انظر : Chefra : La lutte, p. 45. أورد هذه الصيغة اللاتينية الكاتب المعروف الأستاذ الطاع في كتابه المعمرى عن « مساوية » . انظر كتاب الحلال ، عدد ٥٥ ، ص ٤١ .

منها ، فزحفوا من جديد على دمشق ^(١) التي رحب أهلها بهم ؛ ثم أخذت المدن تتساقط ^(٢) الواحدة بعد الأخرى ، ولم تمد الحاميات الرومية الباقية في أى مكان في الشام قاذرة على صد اندفاع جيوش العرب الفتية . ولكن « إيلبياء » ^(٣) (بيت المقدس) في فلسطين اشترطت أن تسلم للخليفة نفسه ، على أن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم ؛ فقبل عمر وقدم في سنة ١٧/٦٣٨ ^(٤) وهو راكب بعيراً أحمر ، وخلفه جفنة ^(٥) مملوءة بالتمر وقربة ماء ، ودخل القدس التي سلمها إليه البطريرك صفرنيوس « Sophronius » ^(٦) ، فتح أهلها الأمان ^(٧) ، وسلى هناك ركتين على الصخرة المقدسة ، وخط المسجد ^(٨) الذي سيعرف باسمه .

ولا ريب أن عجب عمر ، وقبوله تسلم القدس يدل على مدى اهتمامه بالشام ؛ وقد كان أن نظر العرب إلى هذا القطر نظرة جدية ، حيث أنهم سيمتدرون فيها بعد في عهد الأمويين ^(٩) أرضاً عربية أفضل من الحجاز ؛ لفناء وموقعه الممتاز ، ووجود الصخرة المقدسة ^(١٠) به . وقد انتهز عمر فرصة وجوده بالشام ، وعقد في « الجابية » ^(١١) —

(١) الأزدى ، ص ٢٠٨ .

(٢) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ٢٠١ من ١١ فاجدها .

(٣) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ٢٤٤ ؛ انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ١ من ٣٩٢ — ٣٩٣ . أصل هذه التسمية غير معروف ، وله على اسم أحد الأباطرة . يسمى هندريوس « اندريانوس » الذي أخرج اليهود وأسكن اليونان . سعيد بن بطريق ، ١ من ١٠١ — ١٠٢ .

(٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٦ من ٧ .

(٥) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ٢٥٧ .

(٦) سعيد بن بطريق ، ص ١٧ .

(٧) أنايوس (Agabios) ، العنوان ، تحقيق Vasiliev ، ص ٢١٥ ؛ سعيد

ابن بطريق ، ص ١٧ .

(٨) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ٢٦٧ من ٦ .

(٩) انظر . بعده .

(١٠) الواقدي ، فتوح الشام ، ص ٢٧١ .

(١١) ابن الجوزي ، تاريخ عمر ، ص ٦٨ من ٨ ؛ الواقدي ، فتوح الشام ، ص

٢٧١ . انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ص ٣٣ ؛ انظر . قبله .

عاصمة الفساسنة^(١) — مؤثراً من قواده، وضع فيه خطة استمرار النزو، وأفضل السبل^(٢) للاحتفاظ بالبلاد المفتوحة في الشام والعراق .

والواقع أنه بعد موقعة اليرموك لم يمد في سورية مقاومة إلا في المدن الساحلية^(٣)؛ التي كانت يزنطة تحتفظ بها عن طريق تموينها من البحر، أو كانت قد استعاضتها^(٤) قبل وقعة اليرموك . وعلى الرغم من حدوث طاعون شديد سنة ١٨ (٦٣٩)، عرف بطاعون عمواس^(٥) — قرية من أرض فلسطين — توفي فيه كبار قواد الشام المروفيين، وهم^(٦) : أبو عبيدة بن الجراح وشرجيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، وغيرهم من الصحابة؛ فقد استمر العرب قابضين على زمام السيطرة في الشام، ولم تستطع يزنطة استعادة ما ضاع . بل عمل معاوية — القى ولي^(٧) الشام بعد موت أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان — على الاستيلاء^(٨) على المدن الساحلية؛ وبذلك تمت فتوح الشام .

بعد الشام جاء دور بلاد الفرس؛ وقصد بها البلاد التي سماها العرب «فارس»^(٩) أو اليونان « Persis » : وهي تلك الهضبة^(١٠) أو منطقة الاستبس من الأراضي

(١) انظر . قبله .

(٢) يقول الواقدي إنه « دون الدواوين » فتوح الشام ، ص ٢٧٦ من ١٠ .

(٣) البلاذري، فتوح ، ص ١٢٧ ، ١٤٠ — ١٤١ .

(٤) السكامل ، ص ٢٩٦ .

(٥) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٩ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ من ٢٢٦ .

(٦) البلاذري، فتوح ، ص ١٣٩ — ١٤٠ . روى أنه مات فيه نحو خمسة وعشرين

ألفاً من المسلمين .

(٧) نفسه ، ص ١٤١ .

(٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٧ ، ١٤٠ — ١٤٢ .

(٩) هذه الكلمة « فارس » معربة عن الكلمة الفارسية « فارس » أو « بارس » .

وهي تسمى المتعلقة الواقعة شرق حجلة ، ولبن أطلقها اليونان على جميع بلاد الفرس . ياقوت ،

معجم البلدان ، ٦ من ٣٢٤ — ٣٢٥ ؛ انظر . Massé : Civil. Iran, p. 32

The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge 1930, : Le Strange p. 248.

(١٠) انظر . Op. cit, p 3 — 4 et cartes : H. et Del.

الصلبة والمصحارى والجبال؛ التي تمتد في الجنوب إلى ساحل بحر الهند، وفي الغرب إلى الخليج الفارسي ودجلة والفرات، وفي الشرق إلى السند، وفي الشمال إلى بحر قزوين ونهر جيحون^(١).

ومنذ الزمن القديم كانت بلاد الفرس مقاماً لهجرات متعددة من أجناس البحر الأبيض^(٢)، إلا أنها ما لبثت أن أصبحت مستودعاً للجنس الآري^(٣) «Aryas»، التي ظهر على الخصوص في المنطقة الشمالية الغربية من الحضبة، أو ما يعرف بميديا «Mydia»^(٤)، وهي التي سيسمى العرب «بالجبال»^(٥)، لكثرة جبالها. ويظهر أن الآريين — وبهم سميت إيران^(٦) — كانوا يسكنون أول الأمر هذا البلاد مع الهندوس الذين غادروها إلى الهند، بدليل قارب اللغتين: الزند^(٧) الإيرانية والسكترية الهندية. ولكن جاء إلى بلاد إيران هجرة الفرس، التي امتدت على الخصوص حتى دجلة، فسميت بهم المنطقة التي سميت «فارس»^(٨) شرق الفجلة؛ وإن أيدجوا مع العناصر السابقة في أنحاء إيران، وكونوا الشعب الذي سماه العرب «السجم»^(٩)، كما ظهرت لهم اللغة التي عرفت «بالفهلوية»^(١٠).

وقد كانت هذه الهجرات المتعددة سبباً في حدوث اضطراب في بلاد الفرس

(١) وهو نهر بلاد خراسان يحدد منطقة ما وراء النهر، ويعرف أيضاً بنهر بلخ، (ياقوت، معجم البلدان، ٣، ١٨٨)، أما اليونانيون فيسمونه Oxus انظر. Le Strange : Lands of the East., p. 8

(٢) انظر. Op. cit., p. 47sq. : H. et Del.

(٣) انظر. Le Mazdéisme. L'Avesta, Paris 1897, p. 19 : De Lafont

(٤) انظر. Lands of the East, p. 5 : Le Strange

(٥) معجم البلدان، ٣، ص ٤٤ — ٤٥.

(٦) انظر. Lands of the East, p. 248 : Le Strange

(٧) ابن ساعد، ص ٦ : انظر. Le Mazd., p. 20 : De Lafont

(٨) انظر. ياقوت، معجم البلدان، ٣، ص ٣٧٤.

(٩) الكامل، ٢، ص ٢٦٨.

(١٠) ابن ساعد، ص ٦ : التنبيه، ص ٧٨؛ براون، تاريخ الأدب في إيران، ترجمة الفولاني، القاهرة ١٩٤٠، ص ١١.

عما أطمع^(١) فيها ممالك العراق كالأشوريين والبابليين ؛ الذين كان أغلبهم من الجنس السامي^(٢) . ولكن الفرس استطاعوا أن يوحّدوا بلادهم بقيادة كورش الأكبر^(٣) « Cyrus » (٥٥٨ - ٥٢٩ ق . م) ، الذي أسس في فارس الدولة الأخمينية أى العظيمة ، وهى التى أطلق اليونان عليها الاسم المحرف : الأكينية « Achaemenid »^(٤) . وقد استطاع كورش الأكبر هذا سنة ٥٣٩ ق . م القضاء على بابل « Babylonie » ، وكان جده المسمى أيضا كورش قد استولى على نينوى « Ninive » عاصمة آشور سنة ٦١٤ ق . م ؛ كما أن خلفاءه اشتهروا بمجربهم ضد مصر^(٥) والمدن اليونانية^(٦) ، ومدوا سيطرتهم من النيل حتى التركستان^(٧) . ولكن الاسكندر^(٨) الأكبر استطاع أن يقضى على هذه الدولة سنة ٣٣١ ق . م ؛ بحيث أن بلاد فارس تفرقت إلى قطيعات على كل منها ملك ؛ وإن خضعت حوالى سنة ٢٤٧ ق . م إلى أسرة الارشكانيين^(٩) « Arsacides » ، التى ظهرت

(١) انظر . H. et Del : p. 187 . Op. cit.

(٢) انظر . La Civilisation Babylonienne, 1945, p. 1 : Pirenne

(٣) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٧ . وهو كورش الثانى . انظر . H. et Del : Op. cit, p. 231.

(٤) انظر . قبله .

(٥) انظر . سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٤ ؛ Herodotus I. 123 — 130 ؛

La Civil. Iran, p. 48 : Aymard

(٦) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٧٤ ؛ H. et Del : Op. cit, p. 239—240

(٧) انظر . H. et Del : p. 225 . Op. cit.

(٨) Herodotus I. 1 — 4, 9 — 16

(٩) انظر . فخر ، تاريخ أوروبا فى الصور القديمة ، ترجمة نصحي وعواد ، القاهرة

١٩٥٠ ، ص ٤٣ ؛ فابدهما ؛ Civil. Iran, p. 48 : Aymard

(١٠) انظر . Massé : p. 33 . Civil. Iran,

(١١) أبو الفداء المختصر فى أخبار البشر ، ١ ص ٤٥ ؛ انظر . H. et Del : Op. cit : p. 321

(١٢) نسبة إلى أورشك مؤسسها ، الذى ينسب إلى دولة الأكينيين . حسن بيرى ،

إيران قديم ، ص ١٧١ فابدهما ؛ انظر . H. et Del : p. 320 . Op. cit.

في يارث^(١)، وهي خراسان الحالية ؛ ففتحتم عليهم الظروف مهمة قتال الساسانيين^(٢) - خلفاء الاسكندر في الشرق - فكان الملك منهم يلقب « بشاهنشاه^(٣) » أي ملك الملوك ، وهم الذين يسميهم العرب « ملوك الطوائف^(٤) ». ولكن هذه الدولة الممزقة توحدت من جديد على يد « الساسانيين^(٥) » سنة ٢٢٤ ق . م ، بقيادة اردشير^(٦) ، وهي الدولة التي سيحاربها العرب .

ولم يكن السبب الذي مهد لفتح العرب فارس في عهد هذه الدولة ؛ هو أن قواها كانت قد انهكت في حروب مستمرة مع الرومان ثم مع الروم ، وأوحى مع العناصر المنغولية المعروفة « بالهياطة^(٧) » التي حددت حدودها الشمالية منذ القرن الخامس ؛ ولكن أيضاً بسبب سوء حكم ملوكها : فقد كان ملوك هذه الدولة يستبدون بشعب فارس ، ويحكمونه بالحق الإلهي القدس ، معتبرين أنفسهم ظل الله^(٨) على الأرض ؛ فكان الشعب ينظر إليهم بعين الكراهية . وقد زادت

(١) انظر أيضاً حسن بيرتا ، إيران قديم ، ص ١٢١ لما بعدها ؛ H. et Del : Op. cit. p. 321.

(٢) تنسب هذه الدولة إلى Seleucos أحد قواد الاسكندر ، وهي حكمت في الفرق من ٣١٢ ق.م إلى ٨٤ ق.م . انظر : E. van H. : Histoire des Lagides, p. 43 ؛ انظر . قبله .

(٣) انظر Massé : Civil. Iran, p. 88

(٤) البطوني ، تاريخ ، ١ ص ١٧٩ ، ٤ - ٥ .

(٥) أبو القاسم المختصر ، ١ ص ٤٧ ؛ انظر . H et Del : Op. cit. 341 ؛ انظر . Ency. de l'Isl. 4, p. 186 sqq نسبة إلى ساسان جلدردشير ، مؤسس الدولة .

(٦) سعيد بن طريف ، ١ ص ١٠٦ ؛ البطوني ، تاريخ ، ١ ص ١٧٩ .

(٧) يقول البلاذري عنهم لهم ترك أو فرس (الفتح ، ص ٣٩٤) ، ولكن المقصود بهم قبائل منغولية تعرف للأوربيين باسم الهون البيض ، كانت قد ظهرت في القرن الخامس الميلادي واستولت على حدود إيران الحالية . انظر شعيرة ، الملكة الحليفة ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة طرواق (الاسكندرية حالياً) ، المجلد الرابع سنة ١٩٤٨ ، ص ٤ .

انظر Le Monde musulman et byzantin, : Gaudetfroy - Demombynes . Paris 1931, p. I.

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣١ - ٩ - ١٠ .

المهومة عمقا بين الشعب واللوك ؛ بسبب أن هؤلاء عملوا على تهوية^(١) نفوذ رجال الدين ؛ بقصد الاقواء على طغيانهم ومباركتهم ، وتمسكوا بالبلد القاتل ؛ بأن الدولة والدين اخوان^(٢) ، غاربوا كل حركة دينية انشقاقية .

ومع ذلك فإن دين الفرس القديم وهو ما يعرف بالمجوسية^(٣) — ككل ديانة — لم يكن يقبل الاستبداد : فهو في أصله يعترف باله عادل^(٤) ، يتمثل في خالق العالم وكل ما فيه اسمه « آهورامزدا »^(٥) ، ويرمز له بالنور^(٦) . أما عناصر خلق هذا الاله فهي بخاسة ما يعرف بلفظة « يزت »^(٧) أي ما يستحق الإحباب ، مثل : الشمس والماء والريح والأرض ، وهي عناصر ضرورية للوجود . ولكن هناك الشر المسمى « اهرمن »^(٨) ، الذي لا يخلق وانما يهدم ، ويرمز له بالظلام^(٩) ؛ وأنه في عداوة مستمر مع الخير ، إلا أن الخير سيفوز^(١٠) في نهاية الأمر ، ويميش

(١) انظر . Hist. des Rel., p. 140: Saurat ؛ Ency. de l'isl. 4, p. 187 .

(٢) للسعودي ، مروج الذهب ، ٢ ص ١٦٢ .

(٣) هي كلمة فارسية انتقلت إلى العربية لتدل على دين الفرس ، وللمؤمن بهذه الديانة يسمى « مجوسي » مثل يهودي ، والمجمع مجوس (انظر عن هذه الأخيرة القرآن ٢٢ : ١٧) ؛ وهي — بحسب رواية العرب — ديانة تنسب إلى شخص معين اسمه منج كوش ، ظهر قبل زرادشت — مستحکم عنه — الذي يدعى بها ، ومن اسم منج كوش أخذت لفظة « المجوسية » . لسان ،

٨ ص ٩٨ — ٩٩ ؛ انظر . Ency. de l. isl. (art Madjûs) t3, p. 101 .

(٤) ابو الفداء المختصر ، ٨٣ ص ٨٣ ؛ انظر . De Lafont . L'Avesta, p142;151 .

(٥) هذا الاسم مكون من « آمورا » أي الخالق ، و « مزدا » أي المعرفة أو الخير

(٦) انظر . The Persian Religion according : Benveniste ؛ L'Avesta, p. 139 .
to the Chief Greek texts, p. 15.

(٧) لسان ، ٨ ص ٩٩ ؛ L'Avesta, p. 144 .

(٨) انظر . H. et Del' The Pers. Rel, p. 27 ؛ L'Avesta, p. 180 sqq .

(٩) Op. cit, p. 408 ؛ عبد الله رازي ، تاريخ إيران ، طهران ١٣١٧ ش ، ص ١٢٢ .

(١٠) انظر . The Pers. Rel, p. 15 ؛ L'Avesta, p. 147 .

(١١) لسان ، ٨ ص ٩٩ ؛ L'Avesta, p. 152 .

(١٢) انظر . L'Avesta, p. 148 ؛ الرازي ، اعتقادات فرق المسلمين والمشرقيين ،

القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٨٦ .

الناس في هناء . كذلك الانسان يحاسب^(١) على عمله بمد موته ، وتوزن^(٢) حسناته ، فإذا أحسن عبر الصراط « بِل جِينَوَات^(٣) » إلى الجنة حيث يوجد عرش الخالق^(٤) آهورا مزدا ، أما إذا أساء فيذهب إلى الجحيم^(٥) التي هي عذاب . ولذلك كانت الجوسية ديانة رمزية ، لا تعتمد في التماثيل كما عند المسيحيين أو الوثنيين ، وإنما تشعل النار « انش^(٦) » وتظمها في المعابد « بيوت النيران » ، أو تشعلها على رموس الجبال ، على أنها مصدر النور الذي هو أساس الخير الذي يحرق^(٧) الشر . وقد كان رسول هذه الديانة إلى الفرس نبي^(٨) اسمه زَرَادشت « Zarathustra »^(٩) ، ظهر في عصر قديم في منطقة ميديا^(١٠) — وهي منطقة الجبال — موطن الآريين ، ودعا الفرس إلى ما سماه الدين الجوسى ، وحضهم على ترك السحر؛ وحاول هذا النبي تفسير^(١١) الوجود على أساس مبدأي الخير والشر ، ولذلك عرفت هذه الديانة للعرب أيضا « بالثنوية »^(١٢) . وهذا الخير والشر نجد له شبا في عقائد المسلمين ، حيث توجد فكرة الخير ممثلة في الله ، والشر في إبليس أو الشيطان . وقد جمع

(١) انظر . L'Avesta, p. 179

(٢) انظر . Ibid, p. 225

(٣) انظر . Ibid, p. 222; 224

(٤) انظر . Ibid, p. 225

(٥) انظر . Ibid, p. 226

(٦) ابن صاعد ، ص ١٧ ؛ L'Avesta, p. 180 ؛ The Pers. Rel. p. 23 ؛ المهرستاني ، اللؤلؤ والنحل ، تحقيق Cureton ، طبعة London ، ١٨٤٦ ، ص ١٠٧ .

(٧) انظر . L'Avesta, p. 151

(٨) ابن حزم ، اللؤلؤ ، ص ١٠ ؛ L'Avesta, p. 152; 201

(٩) الرازى ، اعتقادات ، ص ٨٦ ؛ انظر . Hastings : Ency. of Relig. and Ethics, 12, p. 807 هذا الاسم معناه النجم النجمي . انظر . L'Avesta, p. 109 - 110

(١٠) يقول الرازى آذريجان انظر . اعتقادات ، ص ٨٦ . هو ولارب شخصية واقعية ، دعا في أول الأمر عشيرته ، ثم هاجر إلى خراسان فأمن به الملك يشتاسف وابنه اسبنديار ، وكانت له ثلاث زوجات . انظر . L'Avesta, p. 114 sqq ؛ الرازى ، اعتقادات ، ص ٨٦ .

(١١) انظر . L'Avesta, p. 151 - 152

(١٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ص ١٨٠ .

زرادشت هذه العقائد من تراث الأجداد الديني في عدة كتب^(١) أو سور^(٢) ،
تشتمل على أغاني^(٣) وحكم مسجوعة وحوار بينه وبين آهورا مزدا ، سماها :
« الأفتا^(٤) » أى النص الأصلي ، وهى التى عربت باسم « الابدستاق^(٥) »
أو « الابدستا » .

و ثم ظهرت حركات دينية اصلاحية ترى إلى جعل الدين المجوسى القديم يتلاءم
مع تطور الزمن والمجتمع الفارسى الجديد ؛ التى ظهر من اندماج المعجزات المختلفة
في إيران ، خصوصاً وأن ملوك الفرس الذين كانوا يقيمون في إصطخر^(٦)
« Persopolis » أو غيرها^(٧) في داخل البلاد ، اختلوا في عهد الساسانيين إلى
الطيسفون^(٨) « Gtésiphon » عند وسط دجلة والفرات ، فاقتر بوا من مواطن
اليونان والسيحية ، بل إنهم بنوا مدينة جديدة سموها « جُندُ يسَاور^(٩) »

(١) انظر . L'Avesta, p. 8 . أشهرها كتب : وندياد ويناو وبيرد وكاتا
Ibid, p. 81 sqq . يذكر السومى أسماء أخرى . انظر - التنية ، ص ٩١ - ٩٢ ؛
كأن للأستاذ شرحاً اسمه « الزند » (السكامل ، ١ ص ١٤٦) ، وشرح الشرح اسمه
« بازند » هـ ، ١ ص ١٤٦ ؛ التنية ، ص ٩٢ .

(٢) التنية ، ص ٩١ .

(٣) انظر . L'Avesta, p. 88; 97 .

(٤) انظر . Ibid, p. 1. sqq ؛ التنية ، ص ٩١ ؛ Horn : Geschichte
der Perischen Litteratur, Leipzig 1901. S. (2)
الأفتا أحرقت أيام غزوة الاسكندر (التنية ، ص ٩٢) ؛ وإن ذكر Burnouf أن بقية هذا
الكتاب المقدس كانت تضيع عند غزوة المسلمين لولا هروب بعض الفرس الذين سيمرون بالبارسين
إلى الهند . انظر . L'Avesta. Préface p. lx . Ency. de l. Isl. (art Pârsis) ؛
t 3, p. 1097

(٥) التنية ، ص ٩١ . (٦) معجم البلدان ، ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ كانت

عاصمة الأكانيين انظر . Le Strange . The Lands of the Eastern caliphate ,
p. 6; 275 (٧) معجم البلدان ، ١ ص ٢٧٦ .

(٨) هـ ، ٦ ص ٨٠ ؛ ٧ ص ٤١٣ . هـى مسكن للوكة الساسانيين ، فكان كل واحد
منهم إذا ملك بى نفسه مدينة إلى جانب التى قبلها وسماها باسمه ، وإن كان أشهرها « توسفون »
التي عرجها العرب إلى الطيسفون والطيسفونج ، وذلك ستسى في العهد العربى « بالمدائن »
لكثرة مدنها . انظر . Ency. de l'isl. (art al - Madâ'in) t 3, p. 76 sqq .

(٩) معجم البلدان ، ٣ ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ تاريخ النبطيين (ف. P. O.) ١/٤ ص ٢٢١
[١١] . وهى تنسب إلى سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢) .

في خوزستان في منطقة شرق الخليج الفارسي ؛ ليقموا فيها ما كانوا يجلبونه من سبي الروم أو المسيحيين ؛ مما جعل ثقافة البحر الأبيض وديانته تنتشر في فارس .
وتم ذلك لم يعترف ملوك الفرس الساسانيون بضرورة الإصلاح ، وتمسكوا بالدين المجوسي على علاقته مع أنه كان قد أهمل في عهد^(١) ملوك الطوائف ؛ مما كان له أثره في اضطراب البلاد ؛

وقد ظهرت في آخريات أيام الملك شهبور الأول (٢٤١ - ٢٧٢) — سابور^(٢) — رجل يدعى ماني^(٣) ، وإليه تنسب فرقة^(٤) الثانية ، وادعى بأنه ملك موهبة النبوة^(٥) وهو في سن الثانية عشرة ، فكان يأتيه الملك المسمى «التوم»^(٦) برسالة مؤداها : تخليص الإنسانية من دنس المادة . وقد آمن بزرادشت وعيسى^(٧) ، وآمن بالخير والشر^(٨) ؛ كما ألف ماني كتاباً^(٩) عديدة ، ودعا إلى الزهد ورفض الدنيا ومقاطعة النساء ؛ لينقطع النسل ويضمحل هذا العالم الجسدي^(١٠) ، وكان يؤمن أيضاً بالتناسخ^(١١) . ولما كانت الأرواح الطاهرة الإلهية قد امتزجت بالأبدان النجسة^(١٢) ، فإنه شرّع الصيام وفرض صلوات^(١٣) بأن يقوم الرجل فيمسح بالماء الجاري أو غيره ، ويستقبل النير الأعظم قائماً ، ثم يسجد ويقوم

(١) الطوقى ، تاريخ ، ١ ص ١٧٩ ؛ انظر H. et Del. : p. 343 . Op. cit.

(٢) انظر . Op. cit. P. 343 : H. et Del.

(٣) الطوقى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٠ فأ بعدها .

(٤) انظر . ابن اسحق الوراق ، الثانية ، تحقيق Fluegel ، ص ٤٩ .

(٥) نفسه ، ص ٥٠ .

(٦) نفسه .

(٧) ابن حزم ، الملل ، ١ ص ١٠٢ .

(٨) الطوقى ، تاريخ ، ١ ص ١٨٠ ص ٧ .

(٩) نفسه ، ١ ص ١٨١ ص ١٢ .

(١٠) الثعالي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٥٠٢ ؛ انظر . Hist. des : Saurat .

Rel, P. 139.

(١١) تاريخ البسطورين ، (في P. O.) ، ١/٤ ، ص ٢٢٨ [١٨] .

(١٢) الثعالي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٥٠٧ .

(١٣) محمد بن اسحق الوراق ، ص ٦٤ فأ بعدها .

ويذكر بعض التسيحيات؛ فتكون إحدى الصلوات عند الزوال، والثانية بين الزوال وغروب الشمس، ثم صلاة بعد غروب الشمس، ثم صلاة العتبة بعد المغرب. ويظهر أن ماني ذهب إلى الهند^(١) وبشر فيها أيضاً بجنهه، كما أرسل تلاميذه حتى اليمن^(٢). وتعتبر الدعوة الثانية إلى الزهد مرآة للحياة التمسدة التي كان يمانها شعب فارس في ظل دولة الساسان. ويظهر أن ماني هرب في آخر أيام شهبور، فلما جاء بهرام الأول (٢٧٣ - ٢٧٦) دعا ماني وأتباعه بالخروج عن الدين الجوسى وقتله^(٣)، ثم صلبه على باب مدينة جنديسابور، كما قتل من أتباعه اثني عشر ألفاً. ومع ذلك انتشرت الثانية بعد ذهاب ماني بين الفرس وفي خارج بلادهم، فنذكر عن تأثر ماني كثيراً من بطارقة^(٤) يزنطة؛ وبقيت^(٥) هذه الديانة إلى العهد الاسلامي.

والظاهر أن هذا الاضطهاد الديني لم يمنع من ظهور حركة أخرى، تهدف في نفس الوقت إلى اصلاح^(٦) المجتمع الفارسي. فبعد قرنين من ظهور ماني، قام مزدك^(٧) (أو مزدك) في عهد الملك قباد الأول (٤٨٨ - ٥٣١) بحركة^(٨) جديدة، في نفس الوقت الذي ظهرت فيه في الهند حركة دينية؛ لاصلاح مفاصل الديانة البرهمانية. وقد آمن مزدك - مثل ماني - بالنور والظلمة^(٩)، ولكن امتازت

(١) اليقوتى، تاريخ، ١ ص ١٨١.

(٢) تاريخ السطورين (P. Oud)، ١/٤، ص ٢٢٧ [١٧].

(٣) الثعالبي، غرر أخبار ملوك الفرس، ص ٥٠٣؛ اليقوتى، تاريخ، ١ ص ١٨٢.

(٤) سعيد بن بطريق، ١ ص ١٣٨. تذكر من تأثر ماني الفيلسوف أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) ظل متابعاً عهداً طويلاً قبل اعتناقه النصرانية. دواز، الدين، ص ١١؛

Hist. des Rel., P. 261-3: Saurat

(٥) انظر، محمد بن اسحق، ص ٦٦. كانت تسمى الديناورية في عهد الخليفة الأموي؛

الوليد بن عبد الملك. انظر، ص ٦٦.

(٦) انظر، Ency. de l'Isl., (art Mazdak) t 3, P. 492.

(٧) اليقوتى، تاريخ، ١ ص ١٨٦؛ الثعالبي، غرر أخبار ملوك الفرس، ص ٥٩٦.

(٨) انظر، ص ٦٦.

(٩) انظر، Ency. de l'Isl. t 3, P. 492 sqq.

تعاليمه بالإصلاح الداخلي والاشتراكية^(١) الصريحة؛ فهو قد فسر الافستا لصالح الشعب^(٢) : فكان يرى^(٣) أن الله جعل الأرزاق في الأرض؛ ليتقاسمها المباديينهم بالسوية، حتى لا يكون لأحدهم فضل على الآخر، ولكن الناس تظالموا وتغالبا، فغلب الأقوياء الضعفاء واستأثروا بالأرزاق والأموال عليهم، والواجب المفروض أن يؤخذ للعقلين من المكثرين، حتى يتساووا في الأملاك، ومن كان عنده فضل من الأموال والنساء والخدم والأمتعة فما هو أولى به من غيره. وقد مال الفقراء إلى مزدك وأحبوه حباً شديداً، واعتقدوا فيه النبوة^(٤)؛ خصوصاً وأن المجاعة^(٥) كانت تم إيران وقتئذ، وأهلكت كثيرين. ويظهر أن الملك قبادقيل الانخراط^(٦) في سلك دعوة مزدك؛ لرغبته في الحد من نفوذ طبقة رجال الدين «الموابنة»^(٧)، وطبقة الحكام «المرازبة»^(٨) : فالأولى كان الملك يعتمد عليها في مباركة حكمه مما جعلها تسيطر على كل شيء، والثانية كانت تقوم بإمداد الجيش بالجند بحيث كانت تسيطر على المملكة. وقد كان أن حشر مزدك الغوغاء والمساكين، وجعلهم

(١) انظر - Ibid. : انظر - Nöldeke : Geschichte der Perser, Leyde, 1879, P. 455-467
 Le règne de roi Kawādh I et le Communisme mazdakite, (Det Kgl. Danske Videnskabernes Selakab, Hist. Filol. Meddelelser t, ix, no 6), Kopenhague 1925.

(٢) التنبية، ص ١٠١-١٠٢.

(٣) الثعالي، غرر أخبار ملوك الفرس، ص ٦٠٠؛ سعيد بن بطريق، ص ١٠٦
 ص ١٥ فما بعدها.

(٤) الثعالي، غرر أخبار ملوك الفرس، ص ٦٠٠.

(٥) قصة، ص ٩٧.

(٦) قصة، ص ٩٦.

(٧) انظر - L'Avesta, P. 237. كان رئيس هذه الطبقة يسمى موبدان - موبد
 أي أعلم العلماء؛ وهم طبقات المهرستاني، ص ١٨٠؛ انظر - La Perse, : Huart
 Antique, Paris 1925 P. 169 sqq.

(٨) «المرازبة» واحدا «مرزيان»، وهو صاحب البلد وبخاصة الثغر، لأن
 «المرز» هو الثغر. اليمقوى. تاريخ، ص ١٠١؛ التنبية، ص ١٠٤؛ انظر -
 la Persa Antique, P. 170. : Huart ; Ency. de l'Isl. t3, P. 360. وقد
 كان من نظام المرزبة ألا يعد بعضهم بعضاً إلا بأذن الملك. الطبري (Annales) ١ : ٢٠٣٧-٢٠٣٨.

يسيطرون على المملكة^(١) ، وأغضى قباز عن نفوذه خوفاً من العامة ، بل منع مزدك الملك نفسه من حاشيته^(٢) .

ولكن خلفه خسرو الأول (٥٣١ - ٥٧٩) جمع إليه الموابنة^(٣) والارستقراطية حتى يستعيد سلطانه المفقود ؛ خصوصاً وأن رجال الدين كانوا لا يستسيغون هذه الآراء المزدكية في السواة : إذ كيف^(٤) يعمل الناس بعضهم لبعض مع تساويهم ، وكيف يعرفون أولادهم ويصححون أنسابهم إذا تشاركوا في النساء ، وكيف لا تنخرب الدنيا مع هذه الحالة . ولذلك أعد هذا الملك عدته فأوقع بالمزدكيين عند النهروان^(٥) بالقرب من القرات ، فقاتله منهم نحو ثمانين^(٦) ألفاً ، وسقى الأرض من دماهم ، وحينئذ قتل مزدك قال هذا الأخير - الذي كان يعتقد أن حركته الإصلاحية ستبقى بعده - : « أو تقدر على قتل الناس كلهم^(٧) » . وقدس الرواية من استعادة الملك نفوذه ونفوذهم ، ولقبوه المادل «دادكر» و «أنوشروان»^(٨) أي النفس الخالقة .

ولكن خلفه هرمز الرابع (٥٧٩ - ٥٩٠) الذي وجد أن الارستقراطية استمدت سلطانتها ، وبدأت تطلو عليه ، أراد أن يوجد التوازن باتباع سياسة إصلاحية متأثرة بالحركة^(٩) السابقة . ولكن سوء الحظ حاله فهجم الأعداء من الترك والبيزنطيين^(١٠) على بلاده ، وهم الذين كانوا يترقبون الحالة الداخلية ؛

(١) الثعالي ، غرر أخبار ملوك فارس ، ص ٥٩٧ - ٥٩٨ .

(٢) نفسه ، ص ٦٠٠ - ٦٠١ .

(٣) نفسه ، ص ٦٠٢ .

(٤) نفسه .

(٥) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٤٧ .

(٦) الثعالي ، غرر أخبار ملوك فارس ، ص ٦٠٥ .

(٧) نفسه ، ص ٦٠٤ .

(٨) نفسه ، ص ٦٠٦ . وهذه الكلمة مكونة من آتوش بمعنى خالد وروان أي هس .

انظر Op. cit. p 354 : H. et Del

(٩) الكامل ، ١ ص ٢٧٧ ؛ انظر Les Penseurs ، : Carra de Vaux .

de l'Islam, 3, p.9.

(١٠) الكامل ، ١ ص ٢٧٧ وما بعدها .

ليطمعنوا فارس . لذلك انتهزت الارستقراطية ضعف مركز الملك نتيجة لمزاعه
فمزله وسلمت عينيه^(١) ، وقبضت على نواصي الأمور ، وطلبت من ابنه أبرويز
خسرو الثاني قتل^(٢) أبيه . وبعد قتل هرمرز أصبح مصير الملوك في يد الارستقراطية ،
ولذلك لم يستقر الملوك في الحكم إلا قليلا^(٣) ، وقد كان منهم النساء والصبيان^(٤) ،
مما أجرى أمور الدولة — كما يقول الثمالي^(٥) مؤرخ ملوك الفرس — أسوأ مجاريها ،
فتحرك الأعداء ، وتمرد المرازبة^(٦) ، وهبت ريح العرب . وقد كان آخر ملوك
الفرس يزجدرد الثالث ؛ الذي تولى المرش عندما بدأ الفتح العربي لفارس ،
وقد كان هو نفسه غلاماً^(٧) مراهقاً ، ودولة العجم لم يبق منها إلا رمق .

فتجن نفرف أن العرب كانوا قد بدأوا في حرب الفرس بفزو منطقة السواد
أو المراق^(٨) ؛ ولكن أخروا فتحهم لفارس إلى ما بعد الانتهاء من معاركهم
الأولى في الشام . ويظهر أن العرب بعد نجاحهم في الشام قصدوا إلى تكوين
امبراطورية كبيرة في هذه الناحية ، خصوصاً وأنهم كانوا قد سبروا غور قوة الفرس
في المراق فوجدوها خاوية ضعيفة ؛ كما كان العرب يعتقدون أن النبي تنبأ لهم
بالاستيلاء^(٩) على فارس .

والظاهر أن عمر — كما ذكرنا — لم تكن تمجبه الشخصيات القوية ، فعزل
الثني بن حارثة الشيباني ؛ الذي كان خالف تركه في المراق بعد ذهابه إلى الشام ،

(١) الكامل ، ١ ص ٢٧٧ .

(٢) قس ، ١٠ ص ٢٧٩ .

(٣) قس ، ٢ ص ٢٦٨ ص ١٢ .

(٤) الثمالي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٦ ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ؛

٢٩٨ .

(٥) الثمالي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ١ ص ٧٣١ .

(٦) بخاسة رسم والفيوخذان الذين سبقا تلان العرب . الكامل ، ٢ ص ٣٠٨ .

(٧) الثمالي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٧ .

(٨) انظر . Ency. de l'Isl, (art al'Iraq) t 2, p. 549

(٩) الكامل ، ٢ ص ٢٦٧ ص ٧ .

وولى مكانه أبا عبيد^(١) بن مسعود الثقفي وزوده بالامدادات ، وبقي الثني يحارب تحت لواء^(٢) القائد الجديد ، كما فعل خالد . وقد بدأ أبو عبيد غزاته بعبور الفرات على جسر^(٣) ، ولكن الفرس ردوا العرب على أعقابهم وكادوا يسحقونهم بحيث غرق كثير منهم ، ودهس أبو عبيد^(٤) تحت أرجل الفيلة . ولم ينقذ فلول الجيش العربي إلا لإسراع الثني — القائد السابق — إلى الدفاع عن الجسر ، وإن كان هو نفسه جرح ، وسميوت^(٥) متأثراً بجرحه ؛ وقد سميت هذه الموقعة الخامرة بموقعة الجسر ، وكانت سنة ١٣ هـ (٦٣٤) .

وفي نفس الوقت قرر يزجرجرد أن يخوض معركة حاسمة ضد العرب ، فندب رستم^(٦) — أحد الرازبة الأقوياء — على رأس جيش كبير^(٧) مزود بالفيلة^(٨) لملاقاة العرب ، وقد ساروا ومهم راية كسرى الكبيرة السمتة : « جِزْفَش »^(٩) كاويان « المصنوعة من جلد البقر ؛ كما اتفقوا^(١٠) مع أهل العراق على القتال معهم . ويظهر أن الخليفة قدر خطورة هذا الزحف ، فأمرع بإرسال الامداد التي

(١) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ١١٢ ؛ ابن الجوزي ، تاريخ عمر ، ص ٦٧ . يقال إن السبب هو أن الثني لم يكن من السابقين إلى الاسلام ، على عكس أبي عبيد الذي كان قد شهد يدراً . الكامل ، ص ٢٩٧ .

(٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ١١٢ — ١١٣ ؛ الكامل ، ص ٢٩٩ .

(٣) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ١١٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ص ٩٠٥ .

(٤) الكامل ، ص ٣٠٢ .

(٥) نفسه ، ص ٣١١ . وكانت وفاته قبل موقعة القادسية . انظر - بعده .

(٦) معجم البلدان ، ص ٥٠٥ .

(٧) انصالي ، غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٨ .

(٨) يختلف المؤرخون في تقدير عددهم ، فتلا ابن خلدون يذكر أنهم كانوا حوالي ٢٠٠ ألف أو حتى ستون ألفاً (للقسمة ، ص ٨) ، أما ابن الأثير فيقول أنهم كانوا ١٢٠ ألفاً .. الكامل ، ص ٣١٦ .

(٩) المرجع السابق ، ص ٣١٩ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٥٨ .

(١٠) الكامل ، ص ٣٠١ ؛ ٣٣٥ ؛ فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ ؛ انظر H. et Del. : Op. cit. , p. 359. هذه الكلمة مكونة من درفش بمعنى علم ، وكاويان بمعنى رأس البقرة . ويقصد بها العلم الكبير .

(١١) الطبري (Annales) : ١ : ٢٢٣٠ ؛ الكامل ، ص ٣١٤ .

محبب بعضها من الشام^(١)، ووجه معها الخطباء والشعراء^(٢) والنساء^(٣) على عادة العرب في القتال، وجعل القائد عليهم سمد^(٤) بن أبي وقاص، وهو صحابي أشتهر بشجاعته في غزوة أحد؛ بل يبدو أن الخليفة عمر فكر في الذهاب^(٥) بنفسه للقتال. وقد تقابل الجيشان في الصحراء، عند مكان قرب الحيرة اسمه «القادسية»^(٦) وهي التي كانت تعرف عند العرب في الجاهلية على أنها باب فارس^(٧). وقد حشي وطيح الحرب بين العرب والفرس، واستمرت للمركة عدة أيام^(٨): وكان العرب يقاتلون بالنهار، ومن يخرج منهم يُرسل إلى النساء^(٩) لترعاه، فإذا جن الليل يدوون^(١٠) بالقرآن دوى النحل. وقد انتصر العرب على الفرس؛ لتعودهم على الحرب في الصحاري، كما أن سمد بن أبي وقاص أعلم العرب أن مقتل الفيل من خرطومته^(١١)؛ فقتل^(١٢) قائد الفرس رستم، وأخذت رايهم الكبرى. ويبدو أن هذه الموقعة كانت بحد عام ١٤^(١٣) (٦٣٥ - ٦٣٦) — وهو عام اليرموك — لكثرة ما أرسل إلى الحارثيين من امدادات؛ وعرفت عند العرب بالفتح الأعظم^(١٤)، لما سيقرب عليها من انتصارات متعددة هامة.

(١) الطبري (طبعة مصر) ٣ ص ٧٩ ص ٩.

(٢) الكامل، ٢ ص ٣١١ ص ٩. كانت العرب في بضعة وثلاثين ألفاً. الكامل،

٢ ص ٣١١.

(٣) الطبري (Annales) ١: ٢٣٦٣.

(٤) قصة ١: ٢٢٢٣ - ٢٢٢٧ و ٢٢٣٠ - ٢٢٣١؛ انظر . Ency. de

l'isl, (art Sa'd B. 'abî Waqqâs) t 4, p. 30-31.

(٥) الكامل، ٢ ص ٣١٠؛ ابن الجوزي، تاريخ عمر، ص ٦٧.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ٧ ص ٥؛ فابنها؛

(٧) الطبري ١: ٢٢٢٨.

(٨) الكامل، ٢ ص ٣٠٩؛ فابنها.

(٩) قصة، ٢ ص ٣٣١.

(١٠) الطبري (Annales) ١: ٢٣٦٦.

(١١) فتوح البلدان، ص ٢٥٨.

(١٢) الكامل، ٢ ص ٣٣٥؛ تاريخ النسطوريين (P. O.) ١٢/٢،

ص ٢٢٧ [٣١٧].

(١٣) الكامل، ٢ ص ٣٣٧. اختلف في التاريخ، فليل في سنة ١٤ أو ١٥ أو ١٦.

(١٤) الثعالي، غرر أخبار ملوك الفرس، ص ٧٤٠.

استغل العرب هذا النصر في القادسية ، وما أحدثه من اضطراب بين الفرس ، لغزو العاصمة طيسفون^(١) ، الواقعة عند اقتراب دجلة والفرات ، وهي التي أطلق عليها العرب المدائن^(٢) لكثرة مدنها . ففتح العرب منها المدينة الشرقية ، وعند ذلك رفع الفرس المار وأحرقوا^(٣) الجصور ؛ لينعوا المسلمين من الاستيلاء على المدينة الغربية ، ولكن المسلمين عبروا دجلة سباحة وعبرت الخيل^(٤) ، وسقطت المدائن جميعا في قبضة يدم بكنوزها^(٥) وإوانها^(٦) وقصورها ، وذلك سنة ١٦هـ^(٧) (٦٣٧) . ولكن يزجرج الذي رأى أطباق العرب عليه ؛ أسرع بالانسحاب^(٨) إلى داخل فارس ، كما أرسل في طلب المون من ملك الصين^(٩) .

ويظهر أن الفرس لم يتيس من صد العرب ، فجمع يزجرج في منطقة « جلولاه »^(١٠) جوعاً هائلة^(١١) ، بمد أن أسر بحفر الخنادق حولها . ولكن العرب الذين كانوا بقيادة سعد بن أبي وقاص حاصروا المدينة ، وحملوا عليها حملة واحدة وتمكنوا من دخولها ، وأجبروا الفرس فيها على الحرب ؛ وكان ذلك آخر سنة ١٦هـ^(١٢) (٦٣٧) . وقد مهد هذا النصر الجديد للعرب « جور »^(١٣) جبال زاجوراس الهائلة إلى هضبة إيران .

(١) مجمل البلدان ، ٦ ص ١٣٤ ؛ انظر . قبله .

(٢) هسه ، ٧ ص ٤١٣ ؛ انظر . قبله .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٦٤ .

(٤) أغايوس ، النوان ، تحقيق وترجمة Vasiliev ، طبعة Paris ، ١٩٠٩ ،

٢ ص ٢١١ .

(٥) الكامل ، ٢ ص ٣٥٨ ؛ Sebôos, p. 99 .

(٦) المقصود بالإوان قاعة كبيرة ذات أعمدة سامقة .

(٧) الكامل ، ٢ ص ٣٥٤ .

(٨) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٢٧ .

(٩) يروي الثعالي أنه أرسل أحد بناته إلى ملك الصين . غرر أخبار ملوك الفرس ، ص ٧٣٩ .

(١٠) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٤ لما بعدها ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٦٢ . انظر أيضا

مجمع البلدان ، ٣ ص ١٢٩ .

(١١) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٧٨ — ١٢٩ .

(١٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٥ ص ١٠ — ١١ .

(١٣) انظر . Op. cit, P. 359 : H. et Del .

ولكى يتابع العرب فتحهم المظفر في فارس عملوا في سنة ١٧^(١) هـ (٦٣٨) على انشاء معسكرين على سيف الصحراء لإزالة جيوشهم : فكان أحدهما بقرب الحيرة ، وأطلقوا عليه الكوفة^(٢) ، والآخر في الجنوب عند شط العرب وسموه البصرة^(٣) ؛ وقد عرف كل من هذين المعسكرين بالمصر^(٤) ، أى الأرض التى على الحدود^(٥) ، ولأنهما أثنان سميا بالمصرين ؛ كما أنه قريهما من العراق سميا أيضا بالمراقين^(٦) .

وبفضل امدادات البصرة والكوفة ذهب المسلمون لمقابلة جيوش الفرس الكثيرة ، التى تجمعت من جديد بقيادة الفيروزان^(٧) فى مدينة « نهاوند »^(٨) القديعة ، بمنطقة الجبال الشمالية موطن الآريين . وقد عمد عمر إلى عزل سمد بن أبى وقاص ، الذى قيل عنه إنه أساء^(٩) استغلال سلطته فى الكوفة ، وعين بدلاً منه النعمان بن مُقَرَن^(١٠) المزنى ، الذى قُتل عند انتقام الجيشين ؛ وإن كان العرب نالوا النصر بمد قتال شديد على يد حذيفة بن اليمان^(١١) . وقد سميت هذه الواقعة التى دارت رحاها حوالى سنة

(١) الكامل ، ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) الطبرى (Annales) ١ : ٢٣٦٠ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٣٥ ؛
Explication du Plan du Kûfa (Irak) Le Caire. : Massignon
M. I. F. 68, P. 388. يظهر أنها سميت هكذا لاستدارتها ؛ أو لاجتماع الناس بها .
ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٢٩٥ فأبعدها .

(٣) قسه ، ٢ ص ١٩٢ فأبعدها . اشتقاق اسمها من الحيطارة التى ليست صلبة ، أو حتى من أصل فارسي ؛ وكانت تهم بيعة عن الدجلة على عكس ما هى عليه حالياً .

(٤) وثلك يقال لى عمر : « مصر الأمصار » . البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٧٥ — ٢٧٧ ؛

انظر . Ency. de l'IsI, 3, P. 591

(٥) لسان ، ٧ ص ٢٤ .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٣ .

(٧) قسه ، ٨ ص ٣٣١ .

(٨) قسه ، ٨ ص ٣٢٩ — ٣٣٢ .

(٩) ابن سمد ، ١/٣ ص ٧٩ فأبعدها ؛ Ency. de l'IsI. t 4, P. 31

(١٠) كان قد اشترك فى القاصية من قبل . الكامل ، ٢ ص ٣١٥ ؛ ابن الجوزى ،

تاريخ عمر ، ص ٦٨ س ١٢ . (١١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٣٢٩ .

١٩ (٦٤٠) بفتح الفتوح^(١)، نظراً لأنها قصمت^(٢) ظهر المقاومة الفارسية، وبعدها هرب يزدجرد بقاؤه منسجماً نحو خراسان^(٣)، وهي البلاد الواسعة في الشمال الشرقي من إيران.

في نفس الوقت خرجت جيوش هرية عديدة من الكوفة والبصرة عبر الخليج الفارسي؛ ليفزو بعضها خوزستان^(٤)، في الزاوية المجاورة للخليج الفارسي؛ فاستولت على مدن كثيرة منها: «أسطخر»^(٥) (Persopolis) — العاصمة القديمة لفارس — و«جند يسابور»^(٦) المدينة الحصينة التي كانت ممسكراً لأسرى الروم، واستولوا أيضاً على بعض الجزائر في الخليج الفارسي، وذلك بعد أن استخدموا السفن^(٧) لذلك.

كذلك خرجت قوات أخرى للتوغل في منطقة بلاد الجبال، فاستولت على ديسور^(٨) والرئي^(٩) وهذان^(١٠) وغيرها من المواقع، في سلسلة من الانتصارات الرائعة، حتى أن الخليفة الذي تولى الخلافة بعد عمر اقتصر عمله على جني الثمر.

(١) البلاذري، فتوح، ص ٣٠٥، الفهرست، الأخبار الطوال، ص ١٣٤. اختلف في تاريخ فتحها، فقبل سنة ١٩ أو ٢٠ أو ٢١. انظر معجم البلدان، ص ٨، ص ٣٢٩؛ الكامل، ص ٣، ص ٢.

(٢) معجم البلدان، ص ٨، ص ٣٣٩.

(٣) تاريخ النسطورين (P. O.)، ص ١٣/٢، ص ٨١ [٢٦١]؛ انظر عن هذه البلاد. ياقوت، معجم البلدان، ص ٣، ص ٤٠٧.

(٤) انظر. Sébēos, p. 101. عن هذه البلاد انظر. معجم البلدان، ص ٣، ص ٤٨٨—٤٨٩.

(٥) الكامل، ص ٢، ص ٣٧٧. انظر عنها ياقوت، معجم البلدان، ص ١، ص ٢٧٦؛ The Lands of the Eastern caliphate, p. 6; 276. : Le Strange Ency. de l'Isl. (art Istakhr) 2, p. 592 sqq.

(٦) الكامل، ص ٢، ص ٣٨٧. انظر عنها معجم البلدان، ص ٣، ص ٤٨٩؛ ١٤٩ — ١٥٠. هذه المدينة بناها سابور ذو الاكتاف؛ وقصت سنة ١٩ هـ.

(٧) انظر. Sébēos, p. 101.

(٨) القهي، دول الاسلام، طبعة حيدرآباد ١٣٦٤ الثانية، ص ١، ص ٤؛ البلاذري،

فتوح، ص ٣٠٧؛ انظر عنها ياقوت، معجم البلدان، ص ٤، ص ١٨٨ — ١٨٩.

(٩) معجم البلدان، ص ٤، ص ٣٥٥. انظر عنها ياقوت، معجم البلدان، ص ١، ص ٢٧٦؛

أو ٢٠ هـ، على يد عمار بن ياسر عامل الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص.

(١٠) ابن الجوزي، تاريخ عمر، ص ٦٨؛ ياقوت، ص ٨، ص ٤٧١؛ انظر عنها. فتحها الفيرة بن شعبة في آخر حكم عمر حوالي سنة ٢٤ هـ.

رأى يزديجرد ضياع ملكه؛ فولى هارباً^(١) إلى سجستان^(٢) في وسط الهضبة، ومنها إلى كرمان^(٣) ومسكران^(٤) على البحر الهندي، ثم إلى خراسان، آنلاً أن يجد من المرازية — حكام المقاطعات — معاونة ليعود إلى مقاتلة العرب. ومع أنه قوبل من المرازية بالحس لمقاومة العرب، إلا أن مرزبان خراسان كان قد حقد عليه لرفضه أن يزوجه ابنته، وأزعج قتله بالاستماعة بخاقان^(٥) الترك، الذي رحب بالانتقام من عدوه الفارسي؛ فأسرع يزديجرد وابنه فيروز بالهروب، حيث حرب هذا الأخير إلى الصين^(٦) لعله يجد فيها المعاونة، وهي أكبر دول الشرق وتتشدد. ولكن القدر كان يقف ليزديجرد بالرصاد، فقد أرسل إليه مرزبان خراسان الخائن أحد اتباعه ليذبحه وهو غثبيء في إحدى الطواحين^(٧)؛ وذلك سنة ٦٥١/٣١، في عهد الخليفة الثالث هبمان. وبموت يزديجرد مات آخر الساسانيين، وما زالت ذكرى جهاده تعيش بيننا متمثلة في طائفة في الهند تعرف باليارسين^(٨)، تؤرخ لنفسها من يوم توليته العرش.

وفي الواقع أن العرب وجدوا مقاومة شديدة من جانب الفرس، كما وجدوا مشقة كبيرة في استئثارهم على عكس ما حدث في سوريا؛ وذلك لأن الفرس كانوا يختلفون بجنسهم الآري عن السوريين الذين كانوا من نفس جنس العرب. ومنبعد أن فارس ستظل محتفظة بقومييتها متمثلة في لغتها ونظمها المسديدة التي

(١) الثعالي، غرر أخبار ملوك الفرس، ص ٧٤٢ — ٧٤٣.

(٢) معجم البلدان، ص ٣٧ — ٣٩.

(٣) حقه، ص ٧٤١ فأبعدها.

(٤) حقه، ص ٨، ١٣٠ فأبعدها؛ الثعالي، غرر أخبار ملوك الفرس، ص ٧٤٥. (٥) هو

لقب تركي من أسلاف «تغان» انظر P. 926-7, 2, Ency. de l'Isl. (art Khākān).

(٦) لعله هرب أيضاً إلى بلاد الترك. انظر عن هذا البلاغري، قنوح، ص ٣١٦؛

بدر الدين الصبيح، العلاقات بين العرب والصين، القاهرة ١٩٧٠/١٣٧٠، ص ٢٤؛ ٣٢.

(٧) الثعالي، غرر أخبار ملوك الفرس، ص ٧٤٥.

(٨) انظر Les Zoroastriens de Perse R. M. M. vol 3. : Menant.

Ency. de l'Isl. ; Oct. et Nov. 1907; 10; 11-12. 193—221; 421 — 453. (art Pārsis) t 3, p. 1097 — 1098.

ستنتقل إلى الحضارة العربية ، بل إن الاسلام نفسه سيتطور^(١) في فارس إلى ما يعرف بالذهب الشيعي^(٢) ، بحيث أصبح الاسلام بصفة عامة حتى وقتنا الحاضر سنة وشيعة .

و بعد أن قام العرب بالاستيلاء على العراق والشام ، وخلال انتصاراتهم على الفرس في إيران ، عمدوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على ما يسمونه : « الجزيرة »^(٣) أو ما يعرف اليونان باسم ميزوبوتاميا « Mesopotamia »^(٤) : وهي المنطقة الشمالية الخصبة بين دجلة والفرات ، التي تجاور الشام ، وتمتد إلى منطقة الدروب^(٥) عند سلاسل جبال طوروس والجيال^(٦) الفارسية .

وقد كان يسكن هذه المنطقة عناصر مختلفة ، منها : الآراميون الذين عرفوا غالباً باسم لمجتهم : « السريان »^(٧) ؛ ولكن قبل الاسلام كان غالبية سكانها من العرب الذين — على ما يظهر — جاهدوا نتيجة للغزوات أو الفارة^(٨) ، فغالطوا أهلها وكثروا بها ، أو لملهم هاجروا إليها في عهد الساسانيين^(٩) ؛ حتى

(١) انظر René Grousset : L'Ame de l'Iran. Paris 1961, P. 8-9.

(٢) انظر R. M. : Aubin . Le Chisme et la nationalité persane.

M. vol 4, Mars 1908 n. (3), p. 457 sqq.

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٦ . تسمى أيضاً « جزيرة اقوز » وإن كنا لا نعرف سبب هذه التسمية .

(٤) Strabo : (Book 1, p. 153) : Geog 1 : 2 ; 34 . انظر Le Strange :

The Lands of the Eastern Caliphate, P. 24.

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٤٩ . وهذه الكلمة تعني الطريق بين الجبال .

انظر قسمة ، ٤ ص ٤٨ .

(٦) انظر . قبله .

(٧) مراد كامل والبكري ، تاريخ الأدب السرياني ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٣ ، وهو

لنظ المثلث اليونان على من يتكلمون إحدى اللهجات الآرامية في هذه المنطقة .

(٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٩٧ .

(٩) قسمة : انظر . The Lands of the East. Cliph, : Le Strange .

كانت الجزيرة بالنسبة لهم «دياراً»^(١)، عرفت بأسماء قبائلهم التي استقرت فيها مثل: ديار ربيعة ومضر وبكر وتغلب^(٢)؛ كما وجدت فيها بعض عناصر من السكان المجاورين من الأرمن والكرد والفرس.

وقد عرفت هذه المنطقة ديانات متعددة قبل الاسلام، منها على الخصوص ديانة مجهولة الأصل يسميها المؤرخون العرب «الصباية»^(٣) أو «الصائية»^(٤)، التي مركزها حران^(٥) في وسط الجزيرة؛ وقد كان أخص ما يميزها الاعتراف بخالق^(٦) هو سيد الأرواح «روحانيات»^(٧)؛ ولذا تسمى أيضاً «وب الأرباب»^(٨)، وكان الصمود^(٩) إليه هو بالقيام بصلوات^(١٠) — تشبه صلوات الفرس — عددها سبعة، والصوم ثلاثين يوماً. كذلك كانت هذه الديانة تترف بعملين أشبه بالأنبياء منهم شيت وادرس^(١١) مما يدل على قدمها، ولها كتب منها صحف شيت^(١٢) أو «الكنز الكبير»^(١٣). ولكن قبل الاسلام حدث لهذه الديانة المجرّد كما حدث للحنيفية في الجزيرة العربية، فتحوّلت

(١) نفسه؛ انظر Id.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ٣ ص ٩٦؛ الطبري، تاريخ، ١ ص ٢٩٨ ص ٢٠.

(٣) الرازي، اعتقادات، ص ٩٠.

(٤) المهرستاني، الملل والنحل، ١ ص ١٨٠؛ ٢ ص ٢٤٤. وهي كلمة سريانية

(التنبيه ١ ص ٩٠ — ٩١) لعلها اسم أحد الفلاسفة أو المعلمين (أبو القدا، المختصر في أخبار البشر، ١٣٢٥ هـ، ١ ص ٨٧) أو أصلها من فعل «صبا» أي خرج من دين إلى آخر؛ على أنهم في الظاهر نصارى وفي الباطن عبدة الكواكب. للمصباح اللثير، ١ ص ٥٠٩.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٣ ص ٢٤٢؛ انظر Ency. de l'isl.

(al - Sâb'a), 4, P. 23

(٦) الرازي، اعتقادات، ص ٩٠؛ أبو القدا، المختصر، ١ ص ٨٢.

(٧) المهرستاني، الملل، ١ ص ١٨٠؛ انظر Ency. de l'isl. 4, p. 22. لعلها

اللائكة - القرظي، الحطط القرظية، طبعة مصر ١٣٢٤، ١ ص ٣٦٨ ص ١٦.

(٨) نفسه، ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥.

(٩) نفسه، ٢ ص ٢٢٦.

(١٠) أبو القدا، ١ ص ٨٢.

(١١) نفسه؛ المهرستاني، ٢ ص ٢٠٦؛ ٢٤١.

(١٢) أبو القدا، ١ ص ٨٢.

(١٣) الأدب السرياني، ص ١٢. لا تعرف شيئاً عن هذا الكتاب، وإن كان لا بد

أنه يحتوي على عقيدة الصائية.

إلى عبادة النجوم^(١)، والسيارات^(٢) المبع : كزحل والريخ والمشتري والشمس والقمر.. الخ، أو ماعرف « بالهياكل^(٣) »، على أنها عالية^(٤) رمز للروحانيات . كما أنهم جعلوا لها سوراً^(٥) وتماثيل، أو ماعرف « بالأشخاص^(٦) » ؛ فظهر من هنا عبادة الكواكب^(٧)، وصموا : ببدة^(٨) الكواكب أو عبدة الأصنام^(٩) . كذلك انتشرت في الجزيرة النصرانية^(١٠) للتأثرة بمقيدة بنظرة ، وبخاصة النسطورية^(١١) ، بحيث أن قبيلة تغلب^(١٢) العربية كانت نصرانية ، كما أنه انتقلت إليها المجوسية^(١٣) من فارس .

وقد نشأت في هذه البلاد التي كانت في طريق التجارة والمهجرات منذ أقدم العصور دول عديدة أشهرها : آشور^(١٤) « Assyria » ، التي كانت عاصمتها نينوى^(١٥) « Nineve » على الدجلة . ولكن بعد أن ظهرت في إيران دول قوية ، أصبحت الجزيرة موضع نزاع بينها وبين الدول السيطرة في البحر الأبيض .

(١) الرازي ، اعتقادات ، ص ٩٠ .

(٢) الدهرستاني ، ١ ص ١٨١ ٢٤ ص ٢٢٤ .

(٣) قسه ، ١ ص ١٨٠ .

(٤) قسه ، ٢ ص ٢١٣ .

(٥) الرازي ، اعتقادات ، ص ٩٠ .

(٦) الدهرستاني ، ١ ص ١٨٠ ٢٤ ص ٢٤٥ .

(٧) الرازي ، اعتقادات ، ص ٩٠ .

(٨) الدهرستاني ، ١ ص ١٨٠ .

(٩) قسه ، ١ ص ١٨١ .

(١٠) البلاذري ، فوح ، ص ١٧٣ — ١٧٤ ؛ انظر Nau ، Les Arabes ، Chrétiens de Mesopotamie et de Syrie du VIIe au VIIIe siècle. Paris 1933, p. 5.

(١١) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٥٨ ؛ انظر - Bell ، The Origin of Islam ، p. 9 — 10 ; 24 — 25.

(١٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ١ ص ٢٩٨ ص ٢٠ .

(١٣) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٥٨ ؛ انظر - Nau ، Op. cit, p. 24.

(١٤) انظر - The Lands of the East. Caliph, p. 24. : Le Strange.

(١٥) Ibid ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ ص ٣٦٨ .

ومع ذلك فقد ظهر فيها دويلات مستقلة عن هذه الدول الكبرى — تشبه الدويلات الحاضرة في الشام — ولعل أشهرها دويلة الرها^(١) « Edessa » : فهذه الدويلة كان يسكنها عناصر آرامية^(٢) أو عربية^(٣) ، بدليل أسماء^(٤) ملوكها مثل أبجير ووائل ومعين ؛ وقد يكون الفرس^(٥) هم الذين قضوا عليهم . أما قبل الاسلام ، فكانت هذه البلاد طائفة منها للروم^(٦) ، وطائفة للفرس ، أى أنه لم يكن لها كيان مستقل .

ونحن لا نعرف شيئاً للغزو العربي في هذه المنطقة ؛ إلا أن العرب كانوا راغبين في تأمين^(٧) فتوحاتهم في الشام والعراق وفارس ، بدليل أن فتح الجزيرة جاء متربطاً على السير في حركة الفتوح ؛ خصوصاً وأن العرب كانت تقدر سهولة^(٨) فتح هذه البلاد الغنية^(٩) التي تقع بين العراق والشام الخاضعين لهم . ويظهر أن غزوها كان يتمدد قرى ومؤخر الجابية^(١٠) ، أو أنه جاء من جانب قائد الشام أبى عبيدة^(١١) أو حتى من جانب قائد فارس سعد بن أبى وقاص^(١٢) . كذلك يبدو أن الدافع إلى غزو الجزيرة ، هو أن الجيوش البيزنطية كانت لا تزال تحتفظ فيها ببعض المواقع^(١٣) ، على الرغم من هزيمتها في الشام .

-
- (١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١ ؛ انظر . الأدب السرياني ، ص ١٧ . ونسب أيضاً « أناسا » . قس ، ١ ، ص ١٥٩ .
 (٢) الأدب السرياني ، ص ١٢ .
 (٣) يقول ياقوت أنهم قبيلة من منبج . معجم البلدان ، ٤ ، ص ٣٤٠ .
 (٤) الأدب السرياني ، ص ٢٣٤٧ — ٢٤ .
 (٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ، ص ٩٧ .
 (٦) قس ، ٤ ، ص ٤٩ ؛ أبو يوسف ، الحراج ، ص ٤٦ .
 (٧) انظر . Cheïra : La lutte , p. 47 .
 (٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ، ص ٩٧ .
 (٩) البلاخري ، فتوح ، ص ١٧٣ .
 (١٠) قس ، ٣ ، ص ٩٨ .
 (١١) قس .
 (١٢) قس ، ٣ ، ص ٩٧ .
 (١٣) أبو يوسف ، الحراج ، ص ٤٦ .

وقد بدأ العرب غزوم بلاد الجزيرة في آخر سنة ١٨^(١) (٦٣٩) بقيادة
مياض^(٢) بن غنم ؛ فاستولى على أهم مدنها ومنح بعضها الأمان ، مثل : الرقة^(٣)
على الفرات ، وحران^(٤) القديمة « Carraha » ، والرها^(٥) التي اتخذها مسكراً^(٦)
لفتح بقية المدن ؛ بحيث وصلت جيوشه إلى طرف بلاد الروم عند سميساط^(٧)
« Samosate » ، وإلى حدود أرمينية^(٨) عند نينوى عاصمة آشور القديمة ، فبنى
بجوارها مدينة الموصل^(٩) .

بعد فتح الجزيرة وجه العرب حملة لفتح مصر^(١٠) : وهي البلاد التي تحيط بنهر
النيل من حدود أرض النوبة^(١١) إلى ساحل البحر الأبيض ، ومن برقة^(١٢) إلى

(١) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٢ . اختلف في تاريخ الفتح قليل أيضاً سنة ١٩ . ابن
الأثير ، الكامل ، ص ٣٩٤ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٧٢ . توفي سنة ٦٤٠/٢٠ . الكامل ،
ص ٣٩٨ .

(٣) قسمة ، مجسم البلدان ، ص ٢٧٢ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ، ص ٢٧٠ .
(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٤ ؛ مجسم البلدان ، ص ٣ . في التوش السبابة
خارنو : بمعنى طريق . انظر . شيدر ، روح الحضارة العربية ، ترجمة وعطيق جوى ، بيروت
١٩٤٩ ، ص ٩٩ حاشية (١) .

(٥) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٤ .

(٦) قسمة ، ص ١٧٥ ؛ انظر . Chefra . La lutte, p. 48 .
(٧) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٤ — ١٧٥ . Sebeos, p. ٤9 sqq . انظر .
La lutte, p. 49 . عن هذه البلدة ؛ انظر . مجسم البلدان ، ص ١٣٨ .
(٨) انظر . بعده .

(٩) تاريخ النسطوريين (في P.O.) ، ص ٢/١٣ ، ٦٢٨ [٣٠٨] . عن الوصل
انظر . ياقوت ، مجسم البلدان ، ص ١٩٥ فأبعدها .

(١٠) انظر . عنها ياقوت ، مجسم البلدان ، ص ٦٨ .
(١١) انظر عنها . الادريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من
كتاب زهرة اللغات في اختراق الآفاق ، تحقيق Dozy و Leyde ، طبعه
١٨٦٦ ، ص ١٣ ؛ انظر . بعده . هذه البلاد التي فتح جنوب مصر ، قد تكون نسبة إلى
مدينة زبابة وبها عرفوا ؛ انظر بعده .

(١٢) هو صنع كبير يجاور اسكندرية . انظر . مجسم البلدان ، ص ٢٣٣ .
انظر . بعده .

ساحل البحر الأحمر . وكانت هذه البلاد تسمى قديماً بلسان أهلها « كِت »^(١) أى الأرض السوداء ، وذلك على عكس المنطقة التى تحيط بها ، فكانوا يسمونها « دشرت » — ومنها أخذت الكلمة الأوربية « Desert » — ويقصدون بها الأرض الحراء أى الصحراء . ولكن غلبت على هذه البلاد التسمية اليونانية : « Aegyptos »^(٢) — ومنها أخذت الكلمة الأوربية « Egypte » — التى لعلها مشتقة من أحد أسماء منف القديمة عاصمة مصر ؛ وهى التى ستنقل مختصرة إلى العرب بإضافة « القبط »^(٣) للدلالة على أهل مصر المسيحيين ؛ فهذه الكلمة الأخيرة مأخوذة من المقطع الأخير من « Aegyptos » . ويظهر أن مصر لم تسم مصر إلا من الساميين أو من العرب ، حيث تعنى : الأرض التى على الحدود^(٤) أو الحضر^(٥) أو الكثيرة^(٦) الخيرات ؛ وقد ورد ذكرها فى القرآن^(٧) عدة مرات ، مما يدل على أنها كانت معروفة للعرب فى الجاهلية بهذا الاسم .

ويسكن هذه البلاد منذ قديم الزمان جنس جمع خصال الحاميين^(٨) والساميين ؛ وإلى عهد الفراعنة لم يكن فيه إلا أثر ضئيف من الجنس الرمى . وقد

(١) انظر . Driot et Vand . p. 3 . Op. cit. . وربما أخذت كلمة « كيت » ، قتل على الفم الخامس بضمير المتناسر .

(٢) Strabo : Geog. 1. 2. 29 (Books 1 — 11) p. 131 . انظر . Ency de l'isl. (art Egypte) t. 2. p. 5.

أصل هذه التسمية غامض ؛ كما أن الآشوريين كانوا يسمونها « هيكوجاه » أى بيت روح جاح . انظر . مراد كامل ، القبط فى ركب الحضارة ، صفحة من تاريخ القبط ، الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ٩ .

(٣) أبو القدا ، المختصر ، ١ ص ٨٢ . انظر . Ency de l'isl. 2. p. 5 . يذكر القيرزى أنه اسم جد المصريين . المخطوط ، ١ ص ٢٨ :

(٤) لسان العرب ، ٧ ص ٢٣ — ٢٥ . انظر . صفحة من تاريخ القبط ، ص ٩ . ينسب القيرزى « مصر » أيضاً إلى شخص (المخطوط ، ١ ص ٢٨ فابديها) وهى لم ترد فى كتاب يوحنا النقيوس إلا لتنى اسم بليدة غائصة . انظر ما قبل عن ذلك فى : Ency. de l'isl. (art Misr) t3. p. 591 .

(٥) تفسير الطبرى ، تحقيق محمود شاكر ، ٢ ص ١٣٢ .

(٦) القيرزى ، المخطوط ، ١ ص ٣٤ .

(٧) القرآن ١٠ : ٨٧ ، ١٢ : ٢١ ، ١٠٠ : ٤٣ ، ٥٠ :

(٨) انظر . Driot et Vand . p. 8 ; 18 . Op. cit.

استطاع هذا الجنس أن يكون حضارة تعتبر من أقدم الحضارات^(١)، التي تمتد تاريخها السياسي إلى أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد . ولكن مصر فقدت استقلالها بفتح الاسكندر الأكبر في ٣٣٢ ق م ، وخضعت بعد ذلك للبطالة والرومان والبيزنطيين ، إلى أن جاءها العرب كغزاة . ومع ذلك فصر خلال احتلال هذه الشعوب النصرية عنها ظلت تكون شعباً منفصلاً في الجنس^(٢) واللغة^(٣) ، والتقاليد .

ومع أن مصر عاشت بدينها الأول آلاف السنين ، إلا أنها اضطرت إلى تركه في ظل الحكم الروماني ، بسبب أن المثل شوهه بما أدخله فيه من عباداته وعبادة ملوكه أو أباطرته ؛ ولذلك تحولت منذ وقت مبكر إلى المسيحية التي كانت تنادي ضد الظلم الروماني ، وكانت في جوهرها^(٤) قد تشبه ديانتها القديمة . فعمل المسيحية انتشرت في مصر على يد أحد تلاميذ المسيح ، وهو القديس مرقس^(٥) ، كما أنه قد ظهر فيها قبل أي مكان آخر نظام الرهبنة^(٦) ؛ وإن كان لا ريب

(١) انظر . Ibid, p. 16 sqq. ؛ انظر أيضا ما يقوله ابن ساعد الأندلسي، طبقات الأمم ، ص ٣٨ فما بعدها ؛

(٢) انظر . بل ، مصر ، ترجمة عواد وعبد الحليم ، ص ٦٠ .

(٣) انظر . Blackman . trad- : Les Fallahs de la Haute-Egypte .

Franc. Marty, Paris 1948, p. 15. وهو يبحث عن الأصل المصري من الناحية الأنثروبولوجية حتى وقتنا .

(٤) انظر Driot et Vand : Op. cit, p. 7 — 8. حيث أن اللغة القبطية هي

آخر مظهر لغة المصرية القديمة . انظر . صفحة من تاريخ القبط ، الهيئات القبطية ، علم

نبي عبد المسيح ، ص ٣٦ ؛ انظر أيضا . Crum : Coptic Dictionary, Oxford 1929 .

(٥) فلا الثالث في المسيحية يشبه ثالث أوزيريس وإيزيس وجوريس في الديانة المصرية

القديمة ؛ كذلك الإيمان بحياة آخرة وخلود الروح والثواب والعقاب : صفحة من تاريخ القبط ، ص ٦٠ .

(٦) سعيد بن بطريق ، ١ ص ٩٥ — ٥ .

(٧) أول راعب هو أبنا أطولان الذي بنى القليرات وجمع الرهبان . انظر . سعيد بن

بطريق ، ١ ص ١٢٢ — ٢٠ ؛ انظر . O'Leary : The Coptic Churches and Egyptian Monasticism. The Legacy of Egypt ed Glanville Oxford 1941, p. 317sqq.

في أن المسيحية انتشرت في جميع أنحاء مصر في القرن الثالث الميلادي ،
بدليل كثرة روايات اضطهاد الدولة الرومانية وتذويبها^(١) للمصريين . وحتى بعد
أن جاءت بيزنطة - ورائثة الرومان في الشرق - التي جمعت ديانتها الرسمية المسيحية ،
نجد أن المسيحية المصرية تتخذ صبغة تنفق وعقلية أهلها : وهو الاعتقاد في الطبيعة^(٢)
« Physis » الواحدة للمسيح ، أو ما عرف بالأرثوذكسية^(٣) أي الدين الصحيح ،
أو أيضا اليمقوبية^(٤) نسبة إلى يعقوب البراذعي الذي بشر بها ؛ وذلك على عكس
البيزنطيين الذين قالوا بالطبيعتين^(٥) الإلهية والبشرية للمسيح ، أو ما عرف بالذهب
المكائي^(٦) ، نسبة إلى الملك أو الامبراطور البيزنطي . وقد كان هذا الموقف الديني من
جانب المصريين - على الرغم من الجامع^(٧) التي عقدت لتقريب وجهات النظر -
سبباً في أن جدل المسيحية في مصر تواجها حركة قومية^(٨) منذ ظهورها ،
خصوصاً وأن البيزنطيين كانوا كالرومان يضطهدون المصريين اليماقبة ،
ويزيلون بطاركه^(٩) كنيسةهم ؛ ويستحلون سفك دماهم^(١٠) . ولكن المصريين
قاوموا البيزنطيين كما قاوموا مع الرومان من قبل ، وكانوا يثورون ويقتلون^(١١) بطاركة

(١) انظر . A History of Egypt under Roman Rule, : Milne . London 1924, p. 128 ; 212.

(٢) سعيد بن بطريق ، ١ من ١٩٥ س ١٦ ؛ ابن حزم ، الملل ، ١ من ٤٩ .

(٣) سعيد بن بطريق ، ١ من ١٤٨ ؛ انظر Munier L'Egypte Byzantine . Précis de l'hist-d'Egypte t 2. Paris 1982, p. 48 ؛ سيدة كاشف ، مصر في بحر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧ ، س ٥ .

(٤) نسبة إلى يعقوب البراذعي الذي سمي هكذا ، لأنه كان يلبس البراذع والثياب البالية
المخرفة ؛ وهو قس من أهل نصيبين . تاريخ السطوريين (P. O.) ٧/٧ من ١٤١ [٤٩] ؛
سعيد بن بطريق ، ١ من ١٩٥ .

(٥) سعيد بن بطريق ، ١ من ١٨٢ س ١٨ .

(٦) لعل هذه الكلمة نسبة إلى شخص ظهر في بلاد الروم (المهرستان) ، ١ من ١٧٣ ؛
أو نسبة إلى ملك أي الامبراطور البيزنطي . انظر . قبله .

(٧) مثل مجمع نيقية في ٣٢٥ واضوس في ٤٣١ وخلقندونية في ٤٥١ . سعيد بن
بطريق ، ١ من ١٥٥ ؛ ١٥٧ ؛ انظر . بعده .

(٨) ساويرس ، سير الآباء البطاركة (P. O.) ، ١ من ٤٩٨ ؛ انظر . Munier . Op. cit. p. 48 ؛ بل ، مصر ، س ٢٢٢ .

(٩) هذه الكلمة تعرب الكلمة اللاتينية Patricius . انظر . قبله .

(١٠) سعيد بن بطريق ، ١ من ٢٠٠ س ٥ - ٦ .

(١١) نفسه .

أعدائهم . ويولون عليهم سرّاً بطارقة من عندهم عرفوا في أول الأمر باسم «البابا»^(١) ، ليميزوا عن البطارقة البيزنطيين . وأخيراً لما جاء الامبراطور هرقل^(٢) «Praefectus Augustalis» أرسل نحو المصريين في عام ٦٣١م^(٣) حاكماً «Cyrus»^(٤) . وإن ساء المصريين كان قد عرف بقسوته في القوقاز ، اسمه كبروس^(٥) . ولكن سخريّة بالقوقس^(٦) أي القوقازى - ليحول المصريين إلى عقيدة بيزنطة . ولكن بنيامين^(٧) «Benjamin» البطرك المصرى أرسل إلى القسوس والشعب يطلب إليهم المقاومة والتسك بمذهبهم ، وهرب بنفسه إلى الصحراء في أديرة الرهبان ، واستمر في نجته حتى جاء العرب .

وقد عهد الخليفة عمر بفتح مصر إلى عمرو^(٨) بن العاص ، أشهر قواد المسلمين بمدخله — وكان أسلمه سنة ثمان^(٩) — واشترك^(١٠) في فتح الردة ، ويرجع إليه الفضل في فتح فلسطين المجاورة لمصر . ويوصف هذا الفاتح بأنه كان قصيراً عظيم الهامة مريض

(١) نفسه ، ٩٦ س ٤ ، فأبعدها ؟ ابن خلدون ، المقدمة ، س ١٨٥ . وهي مأخوذة من الكلمة أب أي جد ، ويستقل هذه الكلمة للأسقف روما لتدل عليه ، بحيث أن بطرك مصر سيرف فقط «بأباً» .

(٢) Chronique de Jean, publ. et trad. par Zotenberg, Paris 1879, p. 237.

(٣) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ، ص ١١٨ ؛ بل ، مصر ، ص ٢٥٦ .

(٤) Chronique de Jean, p. 237

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، تحقيق Torrey ، طبعة New Haven ، ١٩٢٠ ، ص ٧٢ س ١٧ . وهو الذى يسمونه خطأ عظيم القبط ؟ وإن كان يبدو بوضوح أنه روى (نفسه ، ص ٧٢ س ١٧ ؛ انظر . بتر ، فتح العرب لمصر ، عربية محدثين أبو حنيفة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٣٧٥ فأبعدها) ؛ وإن كان أصل تسمية القوقس غامضة . انظر Ency. de l'Isi (art Al-Mukawkas), t3, p. 761 sqq ؛ أيضاً A History of Egypt, London 1901, p. 6—7: n (1) : Lane-Poole . (٦) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ س ٧١ يسميه أبو يامين ؛ انظر . Lane-Poole .

A History of Egypt, p. 2.

(٧) المعارف ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ؛ انظر . Ency. de l'Isi, (art 'Amr .

B. al-'As) t1, p. 338 sqq.

(٨) للمعارف ، ص ١٤٦ ؛ انظر . قبله .

(٩) انظر . قبله .

مايين النسيكين^(١)، معروفًا بالدهاء^(٢) وهو مظهر الزعامة بين العرب ، وأنه عارف^(٣) بمصر التي دخلها في الجاهلية - وقد سجد في الحملة على مصر بعض مشاهير الصحابة^(٤) وأبنائهم ؛ مما يدل على أهمية هذه النزوة .

وعلى العكس تحاول بعض الروايات^(٥) العربية أن تجعل فكرة غزو مصر آتية من عمرو بن الماص وحده ، وأنه أخذ على عاتقه السير إلى مصر على الرغم من أن الخليفة عمر كان غير راغب فيه ، وأنه أرسل إليه كتاباً^(٦) يأمره بالرجوع إلا إذا كان دخل في أرض مصر ؛ ولكن القائد المخاطر لم يلق بالاً إلى أوامر الخليفة واجتاز الحدود المصرية ، ليضع خليفته أمام الأمر الواقع . ولكننا نرى أن مثل هذه الرواية ليس لها أساس واقعي^(٧) ؛ ففتح مصر قد يغلب عليه أنه أتي نتيجة تفكير الخليفة وقواده في مؤتمر الجابية^(٨) حين مجيئة الشام ، لأهمية بالنسبة للامبراطورية العربية الناشئة - ولعل التردد الذي تنسبه الرواية العربية إلى عمر ؛ قد يكون مبنيًا على تخوفه^(٩) على سلامة المسلمين . ولدينا نص قاطع أورده ابن اسحق^(١٠) يأمر فيه الخليفة عمرو بن الماص بالتوجه بمسكركه إلى مصر ، بمجرد قراءة كتابه ؛ مما يدل على أن خطة الفتح كانت مدبرة من قبل الخلافة نفسها .

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ س ٤ — ٥ .

(٢) الجاحظ ، رسالة برأيه في معاوية والأمويين ، تحقيق عزت الطاهر ، مصر

١٣٦٥/١٩٤٦ ، ص ١٥ — ١٦ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٥٣ س ١٧ فأبعدها ؛ انظر . على ابراهيم ، مصر في الصور

الوسطى ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٢٣ .

(٤) المنريزي ، المخطط القرظية ، ص ٧٤ .

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٥٣ س ١٧ .

(٦) نفسه ، ص ٥٦ — ٥٨ ؛ سعيد بن بطريق ، ص ٢ س ٧١ .

(٧) Skizzen und Vorarbeiten, Berlin 1899, : Wellhausen . انظر . VI, p. 93.

(٨) ابن عبد الحكم ، ص ٥٣ س ١٧ . وهي قرية قرب دمشق . انظر . مجرم

البلدان ، ص ٣ س ٣٣ .

(٩) سعيد بن بطريق ، ص ٢ س ٢١ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٥٦ س ٤ ؛ انظر .

La lutte, p. 51. : Chefra

(١٠) فتوح مصر وأعمالها ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٤ .

فتفتح مصر كان ضرورياً للقضاء على كل محاولة بيزنطية لاستعادة سورية ، ولعل التفكير فيه حدث بعد اليرموك^(١) مباشرة : فقد كان على العرب أن يعملوا ألف حساب لرد فعل يأتي من جانب الجيوش البيزنطية الكبيرة في مصر ؛ خصوصاً وأن بعض قوات^(٢) فلسطين كانت قد انتقلت إليها؛ هذا وحتى لا تقع جيوش العرب بين رحي^(٣) جيوش آسيا الصغرى ، وجيوش مصر .

ومن ناحية أخرى كان احتلال بيزنطة لسواحل مصر وما تهيئه لأساطيلها من قوة بحرية ، فيه تهديد للجزيرة العربية نفسها من هجوم اسطول بيزنطي في البحر الأحمر على سواحلها ، أو في البحر الأبيض على سواحل سورية . ولعل العرب أنفسهم طمعوا في احتلال سواحل مصر بقصد إنشاء قوة بحرية^(٤) ، تمهيداً للثقل على البيزنطيين في البحر كما تغلبوا عليهم في البر .

وأخيراً لا ننسى أن مصر كانت معروفة عند العرب من الذين زادوها^(٥) منهم في الجاهلية أو من تجار^(٦) القبط الذين كانوا يذهبون إليهم بترائها الواسع ؛ فهي في نظرم المدرة^(٧) السوداء أى الخصب ، وأنها أكثر من سورية والعراق أموالاً^(٨) ؛ مما يجعل من فتحها قوة^(٩) للسلمين وهدواً لهم . فضلاً عن إمكان إضمار بيزنطة بجرمانها من هذا القطر النقي بميرة^(١٠) ورجاله .

(١) انظر . Chefra . p. 51 : La lutte .

(٢) العنبري (Annales) ، ١ : ٤٤٠-٤٤١ ؛ انظر . شكرى فيصل ، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٨٤ .

(٣) انظر . Chefra . p. 51 : La lutte .

(٤) المخطط ، ٣ ص ٣١٧ ؛ ٣١٩ ؛ انظر . Chefra . p. 51 : La lutte .

(٥) انظر . قبله .

(٦) السيوطي ، حسن المحاضرة ، مصر ١٣٢٧ هـ ، ١ ص ٦٩ من ٤ .

(٧) ابن عبد الحكم . ص ٤٤ ص ٨ .

(٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٧ .

(٩) نفسه .

(١٠) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥١ .

على كل حال اجتاز الجيش العربي الحدود المصرية من ناحية الشام سنة ٦٣٩/١٨^(١)، في فترة يسيرة تبلغ أربعة^(٢) آلاف جندي؛ فاستولى على رفح^(٣) أول رمال الصحراء المصرية، ثم المريس^(٤) على ساحل بحر الروم وكان يسكنها قوم من العرب المنتصرة، ثم نزار بقرب الساحل في طريق صحراوي وعمر مملوء بالكثبان إلى أن وصل إلى الفرما^(٥) «Pelusium» القديمة، حصن على الساحل معظم سكانه من القبط^(٦)، فوقعت في أيدي العرب بعد حصار استمر نحواً من شهرين^(٧)، قاتل القبط والروم فيهما قتالاً شديداً^(٨)؛ ويسقطها آمن العرب الطريق المؤدية إلى مصر، وربطوا بينهم وبين قواعد تخوينهم في الشام.

بعد الفرما سار العرب إلى بلبيس^(٩) في أول الدلتا، حيث قاتلوا فيها، ومنها ساروا إلى عين شمس^(١٠) «Heliopolis» أو أون^(١١) القديمة، وكان معظم حاميتها من القبط ومن أهل النوبة «النوب»^(١٢)، حيث قاتلوا العرب حتى أشرفوا

(١) اختلف في تاريخ الحملة . انظر . الكامل ، ٢ ص ٣٩٤ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٣٦٨ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٥٦ ص ٦ . اختلف في عددكم ، قليل أيضاً ثلاثة آلاف وخمسمائة .

(٣) قس ، ص ٥٦ ص ١٦ ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٢٦٦ ؛ ٦ ص ٣٧٧ .

(٤) ابن اسحق ، فتوح مصر ، ص ١٢ ص ١٩ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ١٦٢ ؛ ٣٧٧ .

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ ص ١٨ . قد يكون اسم يوناني (معجم البلدان ، ٦ ص ٣٦٧ ؛ بعضها) ، أما بلوزيم «Pelusium» ، فهي على اسم أحد أفرع النيل .

Strabo : p.141 (Book I) Geog. 1: 2: 31 ؛ انظر . Lane-Poole History of Egypt, p. 2.

(٦) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٦٨ .

(٧) قس ، ٦ ص ٣٧٨ . يقول سعيد بن بطريق ، (٢ ص ٢٢ ص ٢) أن حصارها كان شهراً . انظر أيضاً ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ ص ١٨ .

(٨) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٦٨ . يذكر ابن عبد الحكم أن القتال من جانب الروم ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ ص ١٨ .

(٩) معجم البلدان ، ٢ ص ٢٦٢ ؛ ٦ ص ٣٧٨ ؛ للقرنزي ، المخطوط ، ١ ص ٢٩٦ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٥٩ .

(١٠) معجم البلدان ، ٦ ص ٢٥٦ .

(١١) انظر . Chronique de Jean, p. 231 .

(١٢) . القلقشندي ، ١٣ ص ٣٧٤ . هذا يدل على أن الأواصر القديمة بين الدمين كانت وطيفة ، حتى عندما جاء العرب إلى مصر .

على المملكة^(١)، ولكنهم سلوا أخيراً فتحهم العرب الأمان؛ وبعد ذلك سار هؤلاء إلى أم دُنين^(٢) القريبة - ولعلها اسم عربي لنف^(٣) القديمة - فقاتلهم الروم فيها بشدة بقيادة Theodoros^(٤) البيزنطى، ولكن الروم هزمت حينها وصل للعرب مدد^(٥) عبر الصحراء بقيادة الزبير بن الموام أحد الصحابة. ثم أحاط العرب بمركز حصين قرب النيل اسمه بابليون^(٦) « Babylonia » أو قبط « الحصن »^(٧) أو حتى « قلعة الشمع »^(٨)؛ كان فيه الروم وكيروس الحاكم البيزنطى، ومعهم حامية من القبط^(٩) قاتلت العرب بمجاس، وكانت ترى أن الموت أهون إليها من التسليم.

ولما طال الحصار دخل كيروس فى مفاوضات^(١٠) مع عمرو بقصد عقد هدنة^(١١)؛ وإن كنا لا نعرف السبب الذى دفعه إلى ذلك : فلمسه قدر

(١) قصة ١٣ من ٣٢٤؛ الكلل ٢ من ٣٩٥ - ٣٩٧.

(٢) هى القدس فى عهد القاطنين (قرب الأزبكية حالياً) معجم البلدان ١ من ٣٣٣؛

٦ من ٣٧٨.

(٣) انظر عن هذا Lane-Poole Hist. of Eg, p. 3; n (1).

(٤) انظر . 230 p. Sebeos؛ 6 p. 2, Ency. de l'Is.

(٥) ابن عبد الحكم، ص ٥٩ من ١٢ فابدها ص ٦١؛ انظر Chronique.

de Jean. p. 231؛ سعيد بن بطريق، ص ٢ من ٧٧. اختلف فى عدد المدد، فقبل

أربعة آلاف (نفس للراجع). وفى رواية أخرى اثني عشر ألفاً؛ وأنه جاء بجاءا.

معجم البلدان، ٦ من ٣٧٨؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ١ من ٥٦ من ٩؛ انظر.

بئر، فتح العرب لمصر، ص ١٧٢.

(٦) ابن عبد الحكم، ص ٦١ من ٢. هو حصن قديم (المخطوط، ٢ من ٦١)؛ ولله

سمى هكنا بسبب أن أحد قرائنة مصر جلب جماعة من أسرى بابل وأزلهم فى هذا المكان

(انظر مااله بئر، فتح العرب لمصر، ص ١٨١)، أو لله مشتق من اسم مصرى قديم (انظر.

Ency. de l'Is, (art Babylone) l.p. 560 - 561)، وبقائه لازالت حتى

موجود الآن؛ انظر The Foundation of Fustat, J. R. A. S. 1907, : Guest.

p. 49sq.

(٧) ياقوت، معجم البلدان، ٦ من ٣٧٩؛ ابن عبد الحكم، ص ٦٩.

(٨) للفرزى، المخطوط، ٢ من ٦١. لله سمي هكنا لأنه كان يوجد عليه الشمع.

(٩) السيوطى، حسن المحاضرة، ١ من ٥١ من ٢.

(١٠) ابن عبد الحكم، ص ٦٣ من ١٧؛ السيوطى، حسن، ١ من ٥١.

(١١) الكلل ٢ من ٣٩٢ من ٦ - ٧.

المهزمة أو رغب في كسب الوقت للمقاومة . ولكن كان على كيروس أن ينقل شروط الهدنة إلى هرقل ليقراها^(١) أو على الأهل يكتب إليه ليمله^(٢) ؛ وإن كان كيروس قد فضل السفر إلى بيزنطة . وعلى الرغم من موت هرقل سنة^(٣) ٦٤١/٢٠ ، مما كان سبباً في تأجيل عقد هذه الهدنة ؛ إلا أن خلفه وحفيده^(٤) قنسطانز الثاني « Konstas II » (٦٤٢ — ٦٦٨) وأمه ، كانا غير راغبين في مواصلة القتال لحاجتهما إلى القوات البيزنطية في مصر لقتال عناصر الصرب والسكريات في البلقان^(٥) ، واللومبارديين في إيطاليا^(٦) ؛ ولذلك سمحوا لكيروس بامضاء^(٧) الهدنة .

وفي أثناء غياب كيروس في بيزنطة كان العرب قد اقتشروا في طول مصر ومرضاها : فاستولوا على الفيوم^(٨) في وسط مصر وقتلوا فيها القائد القبطي يوحنا^(٩) ؛ كما استولوا على حصن بابليون^(١٠) ، وعبروا النيل في الدلتا ، ليتجهوا إلى الاسكندرية العظمى — حامية مصر منذ أن فقدت إستقلالها على يد اليونان — يقيناً منهم أنها إذا فتحت انتهت مقاومة الروم في مصر^(١١) . ولكن العرب قبلوا من

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧١ س ٣ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٩ .

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥١ س ١٨ — ١٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٥٢ آخر هذه الصفحة .

(٤) انظر . Sébéos , p. 104 .

(٥) انظر . نفسه .

(٦) بركمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ١٢٠ .

(٧) انظر . Chronique de Jean , p. 247 — 248 ؛ انظر . سيده كاشف ،

مصر في بحر الاسلام ، ص ١٤ .

(٨) انظر . Chronique de Jean , p. 232 ؛ انظر . ياقوت ، معجم البلدان ،

٦ ص ٤١٤ — ٤١٦ .

(٩) انظر . Chronique de Jean , p. 228:230 .

(١٠) ابن عبد الحكم ، ص ٦٣ س ١٦ .

(١١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٢ س ٢٥ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٢٣٤ .

القبط في قرى كثيرة من منطقة الدلتا بمقاومة^(١) عنيفة مثل: مُطوخ^(٢) وُسُلطيس^(٣) ودَمَيس^(٤) وقرطاس^(٥) ومَصِيل وِبَلْهَب^(٦) ، بحيث أنهم لم يستطيعوا فتحها إلا بعد أن أحرقوا المزارع ، وسبوا^(٧) أهلها ، فكانت مصر^(٨) — كما نرى — تقاوم من قراها . وأخيرا وصل العرب أمام الإسكندرية^(٩) وحاصروها ، وإن بدت صعبة الفتح بسبب حصونها المتينة^(١٠) ، ولاحاطتها بالبحر الأبيض والبحيرات .

في الواقع ان مقاومة المصريين للعرب تدل على أن هؤلاء كشف حرم لم يكونوا يزيدون أن يتقلدوا كسلمة إلى العرب بعد الروم ؛ وهم الذين كانوا منذ احتياقهم المسيحية مدفوعين بروح قومي يتمثل في اللغة والأدب والفن القبطي ؛ التي كان يعبر عن شخصية مصر القديمة . ولكن يظهر أن أغلب مؤرخي المسلمين لم يرضوا ان يذكروا هذه المقاومة إلا تليفاً ، حتى لا يظهر المصريون عظمه المقاوم للمسلمين ؛ وذلك لأن مصر فيما بعد ستتحول إلى الإسلام وتحتل مركز الزعامة فيه . وعلى العكس ذكروا كثيراً أن المصريين عاونوا النزاة

(١) ابن اسحق ، فتوح مصر ، ص ٣٦ ؛ الكامل ، ص ٢ من ٣٩٧ ص ٤ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ من ٣ — ٤ ؛ مجمل البلدان ، ص ٢ من ٢٨٢ Chronique de Jean, p. 286.

(٢) قرية بالمهوف الغربي . مجمل البلدان ، ص ٦ من ٦٧ .

(٣) قهص ، ص ٢ من ٢٨٢ ص ٣ . يذكرها مع بلهيب .

(٤) قرية قرب صمود . قهص ، ص ٤ من ٧٧ .

(٥) قهص ، ص ٧ من ٥٥ .

(٦) قهص ، ص ٢ من ٢٨٢ . كانت هذه البلدة مركزاً لقوة على العرب حتى بعد فتح مصر . الخطط ، ص ١٢٨ .

(٧) مجمل البلدان ، ص ٢ من ٢٨٢ ص ٤ . وان ذكر هس المرجع أن بعض السلي أرجعه عمر إلى أهلها ، بعد أن خرج الروم . قهص .

(٨) ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ من ٣ — ٤ .

(٩) هي للبلدية التي بناها الإسكندر وسماها على اسمه ، كما سمي ثلاث عشرة مدينة غيرها باسمه . ياقوت ، مجمل البلدان ، ص ١ من ٢٣٤ — ٢٣٦ .

(١٠) الخطط ، ص ١ من ٢٤٦ .

بما كانوا يمدونهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة^(١) والمالفة، وأنهم كانوا يصلحون لهم الطرق ويقيمون الجسور لتسهيل تنقلات جيوشهم، بل وجعلوا القوقس الحاكم البيزنطى - الذى رضى لهم - عظيم القبط^(٢). ولكننا نستطيع أن نذكر مقاومة المصريين للعرب بما ذكره المؤرخون عن مقاومة قرى مصر، ومما وقع فيه المؤرخون المسلمون من الاختلاف عند معالجتهم مسألة يجبون الخوض فيها، وهى مسألة فتح مصر: وهل كان يصلح أو عنوة^(٣)، أو حتى هل كان للمصريين عهد^(٤)!! ولكن نحاذا البيزنطيين من ناحية، وإدراك المصريين ألا فائدة من مقاومة جيوش العرب التى لم تقف أمامها جيوش يزنطة أو فارس، جعل مقاومتهم تفت. ومع ذلك استمر أهل^(٥) الإسكندرية - وأغلبهم من القبط - يقاومون وقتاً، حتى أن الخليفة وجد أن حصار الإسكندرية قد^(٦) طال. ولكن بحى كيروس بعد أن أمضى الاتفاقية، وقبوله الأذنان للعرب، وسحب الروم من مصر؛ بحيث أتهمه القبط بقتلهم^(٧) مصر، وأرادوا رمية بالحجارة، جعلهم يرضخون للأمر الواقع. وتنفيذاً لنصوص الاتفاقية^(٨) خرج الروم من الإسكندرية بأهلهم ومنازلهم وأهلهم سنة ٦٤٢، حيث حملتهم المراكب واحتل العرب مصر. ومع ذلك يذكر يوحنا النقيوس أن مصر ظلت تقاوم

(١) ابن عبد الحكم، ص ٧٤ س ١٦ - ١٧؛ ٧٣ س ٤؛ حسن المحاضرة، ١، ص ٥٢؛ المخطوط، ١، ص ٢٦٣.

(٢) نفسه، ص ٤٦ س ٩.

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٨٤ - ٩٠؛ المخطوط، ٢، ص ٧٢؛ فابدها؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ١، ص ٥٥.

(٤) للفرزى، المخطوط، ١، ص ٢٦٧؛ معجم البلدان، ٦، ص ٣٨٠.

(٥) فتوح البلدان، ص ٢٢٠؛ ٢٥٣؛ Chronique de Jean, p. 253.

(٦) الطبرى، ١، ص ٢٥٨٢؛ حسن المحاضرة، ١، ص ٥٣؛ المخطوط، ١، ص ٢٢٦.

(٧) ابن اسحق، فتوح مصر، ص ١٨.

(٨) انظر عن للمامسة: 8؛ Chronique de Jean, p. 247؛ سبيح كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٤؛ طه بدر، مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٣ - ١٤.

اثنى عشر^(١) عاماً أخرى ؛ كما أن العرب كانوا يخافون من أن تنتفض^(٢) مصر في أى وقت .

وقد اتهم العرب باطلاً أثناء احتلالهم الإسكندرية بأنهم خربوا مكتبتها^(٣) الضخمة « Bibliothèque » ، التي أنشأها ملوك البطالة . ويظهر أن قصة حرق هذه المكتبة لم تظهر إلا أخيراً ؛ ولعل البيزنطيين هم الذين بدأوا بتبديد ما في المكتبة ، خصوصاً وأن من شروط الصلح أن يخرج الروم بكل ما يستطيعون من المال^(٤) ، والتاع . ومن ناحية أخرى نعرف أن المكتبة احترقت^(٥) حينما جاء يوليوس قيصر « Cesar » مطارداً بومبي « Pompeius » حقي الإسكندرية ، فلعلها احترقت أثناء حصار المصريين له .

وكمز لاحتلال العرب مصر ، أنشأوا فيها مدينة لهم قرب حصن بابلون سموها « الفسطاط »^(٦) — وهو اسم غير عربي لعله من اللاتينية « Fossatum » ، بمعنى الخنمية^(٧) أو المدينة^(٨) — فسكنها قبائلهم في خلط^(٩) أو قطائع . فقد أبى الخليفة عمر أن يجعل الأمير الذي أقامه في مصر وجيشه يتخذ الإسكندرية المظلي

(١) انظر . Chronique de Jean, p. 236 .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٥ س ١١ .

(٣) انظر ما قاله للأورخ ابن البري (Barhebraeus) عن هذا . انظر . مختصر تاريخ الدول ، تحقيق أطول صالحاني ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ١٧٦ ؛ انظر أيضاً بل ، مصر ، ص ١٠٣ .

(٤) حسن المحاضرة ، ص ١ س ٥٤ س ١٠ — ١١ ، Chronique de Jean, p. 251 .

(٥) انظر . Bevan . Histoire des Lagides, trad, p. 407 .

(٦) معجم البلدان ، ص ٦ س ٣٧٧ قال بهما . هي تقرأ أيضاً فسطاط وفساط .

قصة ، ص ٦ س ٣٨٠ . من معانيها أيضاً بيت من الشعر ، المخط ، ص ٢ س ٥٩ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ٩١ س ١٩ ؛ معجم البلدان ، ص ٦ س ٣٧٩ ؛ انظر . جزر ، فتح العرب مصر ، ص ٢٥٠ .

(٨) المخط ، ص ٢ س ٧٦ س ١٢ .

(٩) قصة ، ص ٢ س ٧٦ قال بهما ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ص ١ س ٥٧ .

— العاصمة اليونانية — مقاماً، أو يُنزل العرب بكان يفصلهم فيه عن جزيرة العرب قنوات المياه ^(١) التشابكة الآخذة من النيل . وقد سميت القسطنطينية « مصر » لكونها مدينة للعرب على الحدود ^(٢) مثل البصرة والكوفة ؛ وإن عرفت أيضاً « بفسطاط » ^(٣) مصر « أى بالأمميين ممّا . وسيصبح هذا المسكر مدينة عظيمة ^(٤) ، حتى لما أقام الفاطميون القاهرة ^(٥) ؛ فمرفت إلى وقتنا الحاضر بمصر القديمة . كذلك بنى عمرو فيها مسجداً ^(٦) مكان إحدى كنائس ^(٧) القبط ، ما زال يحمل اسمه حتى الآن ، وذلك على نسق الجوامع التي كانت تقام في مدن الأمصار .

وستبقى مصر بعد هذا الفتح بعيدة عن حويلات ^(٨) مؤرخي الشرق إلى العصر العباسي ، فطول هذه البدة كانت الخلافة لا تهتم بمصر إلا من حيث أنها تنتج الحنطة أو القمح ^(٩) ، الذي كان ينقل إلى الحجاز عن طريق قناة حفروها من النيل إلى بحر القلزم ^(١٠) عرفت باسم : « خليج أمير المؤمنين » ^(١١) ، بحيث اعتبرت مصر خزانة ^(١٢) أمير المؤمنين

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٩١ س ٥ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٩ ؛ المخطوط ، ١ ص ٢٦٠ — ٢٧٠ .

(٢) المخطوط ، ٢ ص ٧٦ . انظر ما ذكرناه عن هذا الاسم ؛ انظر أيضاً .
Ency. de l'isl. (art Misr) t3, p. 591.

(٣) انظر . قبله .

(٤) القرطبي ، المخطوط ، ٢ ص ٦٢ .

(٥) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٨٢ .

(٦) المخطوط ، ٢ ص ٥٩ . ستشرق القسطنطينية في عهدهم ، نتيجة لهاجة الصليبيين .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ٩١ — ٩٢ .

(٨) ابن اسحق . فتوح مصر ، ص ٥٢ س ٢٣ .

(٩) انظر . Etudes sur le siècle des Omeyyades, : Lammens . p. 305.

(١٠) سميد بن طارق ، ٢ ص ٢٦ — ٢٧ ؛ انظر . Weill . Geschichte der .
Califan. Mannheim 1846, I, p. 130 sqq.

(١١) الكامل ، ٢ ص ٣٩٥ س ١ .

(١٢) المخطوط ، ٣ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٨ .

(١٣) معجم البلدان ، ٨ ص ٧١ .

التي يحمل منها القوة والمال إلى جنده؛ كما كان الحال في عهد الرومان والبيزنطيين^(١). ولقد ناز المصريون عدة مرات على حكامهم بخاصة الأمويين، الذين اعتبروا أن مصر فتحت عنوة وأن أهلها عبيد^(٢)، ولم أن يزيدوا عليهم ما يشاءون من المال. كذلك في عهد المباسيين قام^(٣) المصريون بثورة عاتلة في سنة ٢١٦هـ/٨٣١، اضطرت الخليفة المأمون إلى الحضور بنفسه إلى مصر للقضاء عليها؛ فقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنذ ذلك ولم تهم للقبط قاعة. فلمل هذه المقاومة تبطل فرية السيوطي^(٤) في أن أهل مصر كانوا عبيداً لمن غلب. ولكن ظروف^(٥) عديدة أقبل المصريون على الإسلام، كما أنهم تركوا لتهمهم القديمة، وساعد على ذلك وجود أصول سامية في حرونها وتراكيبها. وعند ذلك بدأت تظهر شخصية مصر الإسلامية في عهد الطولونيين والأخشيديين، إلى أن أصبحت مركزاً للخلافة الشيعية في عهد الفاطميين، وللخلافة السنية في عهد المماليك.

بعد فتح مصر سار عمرو إلى برقه^(٦) أو ما يسميه اليونان بنطاولس^(٧) « Pentapolis » أي المدن الخمس، وإلى طرابلس^(٨) « Tripolis » أي المدن الثلاث؛ وكلاهما عبارة عن موقع كبير يتكون من شريط ساحلي، تتوافر فيه الزراعة بسبب

(١) بل، مصر، ص ١٢٩؛ ٢٣٦؛ ٢٤١.

(٢) الكامل، ٢ ص ٣٩٧ ص ٢٦.

(٣) الخطط، ١ ص ١٢٧.

(٤) قسه، ١ ص ١٢٨ ص ١١ فا بعدها ٤٤ ص ٣٩٦.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة، ٢ ص ١٧٨ ص ٢٢.

(٦) ليس بمجال ذكر هذه الظروف هنا.

(٧) معجم البلدان، ٢ ص ١٣٣ فا بعدها. وهي معرفة عن الكلمة اليونانية « Cyrenaica » التي اشتقت من مدينة قورينه « Kyrene » الإغريقية انظر : Cary : Oxford classical Dict. s. v.

(٨) يحرف العرب هذه الكلمة إلى انطابلس. معجم البلدان، ٢ ص ١٣٣.

(٩) وهي تسمى أيضاً طرابلس. قسه.

سقوط الأمطار في أودية تنساب إلى برك ، ولوجود المياه في الآبار ، وخلفه صحراء مجدبة أوجبال ؛ حيث يكتون جزءاً من البلاد الممتدة حتى المحيط ، التي كانت تعرف قديماً بـ «لبنوية»^(١) «Libya» ، وللمرب «بالمغرب»^(٢) .

وقد كان يسكن برقة وطرابلس عنصر من الناس يعرف للمرب باسم «البربر»^(٣) ، لهم من أجناس البحر الأبيض أو الجنس الحامى^(٤) ، وهم من نفس الجنس الليبي القديم الذي عرفه الفراعنة^(٥) : فكانت أغليبتهم كالعرب يعيشون في قبائل معظمها من البدو ، الذين ينتقلون بين الوديان والجبال للاعتجاج ؛ أما من كانوا قد اختلطوا منهم بحياة الروم فيسمون «بالفارقي»^(٦) أى التحضرين ؛ وقد كانت أم قبائل^(٧) برقة وطرابلس : لواته وهوارة ونفوسة .

وقد كانت هذه البلاد تخضع غالباً للدول المسيطرة في مصر ، فاحتلتها البطالة والرومان^(٨) ومن بعدهم البيزنطيون^(٩) ، الذين غزوها عن طريق البحر^(١٠) . ويظهر أن البيزنطيين كانوا هتد النزو العربى — تحت ضغط^(١١) هجرات البربر — قد اقتصر على احتلال عدة مدن قليلة محصنة بالسوار مثل طرابلس .

(١) نفسه ، ص ٧ ، ٣٤١ . تطلق هذه الكلمة الآن على برقة وطرابلس وفزان . انظر . الزاوى ، تاريخ الفتح العربى في ليبيا ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢ . انظر أيضا . Geog. 1: 2; 25 (Books 1 — 11) p. 119. : Strabo

(٢) معجم البلدان ، ٨ ص ١٠٣ .

(٣) حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٢ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ١٣٤٩١٠٤ . سمو هكنا لمرطتهم بلغة غير مفهومة للمرب . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩ ص ١١ فإ بعدها .

(٤) انظر . Les Races de l'Afrique trad. Franc. : Seligman Payot. Paris 1935, p. 86.

(٥) انظر . Op. cit. , p. 171. : Driot et Vand

(٦) الكامل ، ٣ ص ١٣ ص ٩ ؛ انظر . Ency. de l'Is. (art Barka) l. p. 677.

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ — ١٧١ ؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ ؛

الكامل ، ٣ ص ١٣ .

(٨) انظر . Hist. des Lagides trad. Lévy p. 32 : Bevan ؛ نصحى ، تاريخ مصر في عصر البطالة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ١ ص ٣٢ ؛ ١١٦ ، ١٧ .

(٩) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٢٩ ص ٥ .

(١٠) ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٢٩ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٣ .

(١١) الكامل ، ٣ ص ١٣ . فتلا السجوا من سيرة تحت ضغط نفوسه .

ونحن لا نرى سبباً لنزوح هذه المنطقة؛ إلا رغبة العرب في تأمين الحدود الغربية لامبراطوريتهم، خصوصاً وأن وجود بعض الحاميات البيزنطية في مدن برقة وطرابلس كان فيه تهديد لهم. ولذلك خرج عمرو في سنة ٦٤٢/٢١^(١) بعد أن انتهى من فتح مصر متجهاً نحو برقة، فاستولى عليها بعد أن قاتل^(٢) أهلها، وحينما ذهب إلى طرابلس وحاصرها رحل الروم^(٣) عنها في السفن، وتبع ذلك أن سلت مدينة سبيرة^(٤) بدون قتال، ولما توغل في قرآن^(٥)، استولى على زويرة^(٦) في الجنوب، قرب بلاد السودان.

وعلى عكس ما حدث في مصر لم يبق العرب في هذه البلاد، وإنما اكتفوا بفرض ضريبة^(٧) عليها، وأجازوا لأهلها ييم أبنائهم ليدفعوا جزيتهم. ولكنهم ضمنوا خضوعها، كانوا يرسلون من وقت لآخر السرايا من مدن^(٨) مصر بقصد الفدية^(٩)، ولاشار البربر بسطوتهم؛ بحيث أن هذه السرايا كانت تصل إلى المناطق المجاورة لطرابلس في إفريقية^(١٠).

(١) قس، ٢ من ١٣٤ س ٩ — ١٠.

(٢) البلاذري، فتوح، س ٢٢٤.

(٣) ابن عبد الحكم، س ١٧١. وهي مدينة على شاطئ البحر. معجم البلدان، ٦ من ٣٤ فأينها.

(٤) الكامل، ٣ من ١٣؛ معجم البلدان، ٥ من ٢٨. وتسمى أيضاً سيرت. انظر. ابن عبد الحكم، س ١٧٢.

(٥) معجم البلدان، ٦ من ٣٧٤ — ٣٧٥.

(٦) قس، ٤ من ٤١٨ — ٤١٩؛ فتوح البلدان، س ٢٢٤.

(٧) حسن المحاضرة، ١ من ٦٣؛ فتوح البلدان، س ٢٢٤.

(٨) انظر. Cheïra - La lutte, p. 64.

(٩) الكامل، ٣ من ٤٤.

(١٠) الكامل، ٣ من ٤٥. اسم البلاد الواسعة قبالة جزيرة صقلية. معجم البلدان،

١ من ٣٠٠ فأينها.

وكما أراد عمرو تأمين حدود الامبراطورية العربية الغربية بارسال حملة إلى برقة وطرابلس، أرسل حملة أخرى إلى جنوب مصر، أو ما كان يعرف في وقت الفتح العربي: بالنوبة^(١)، وقديماً للمصريين باسم كوش ووات^(٢) : وهي البلاد الواقعة المريضة في الشطر الجنوبي من وادي النيل، التي تمتد من أسوان^(٣) إلى آخر صعيد مصر، حتى أواسط افريقية.

وكان يعيش في هذه المنطقة جنس من السود «الأساود»^(٤) استمروا المصريون القدماء منذ الأسرة السادسة^(٥)، ثم قتلوا إلى سكانه لتتهم وديانتهم وحضارتهم^(٦). ولكن يبدو أنه بعد العصر الفرعوني انتقلت إليها هجرات من داخل^(٧) افريقية بمحاولة الأصل عرفت «بالنوبة» أو «البرارة»، تجري في عروقها الدماء النوبية^(٨)، وتتكلم لغة^(٩) خاصة؛

-
- (١) معجم البلدان، ٨، ص ٣٢٣. هذا الاسم على ما يظهر فرعوني من كلمة «نب» بمعنى ذهب، ذكره استرابون باسم «Nobai» - Geog. : Strabo - 819 — 17:768؛ انظر - 1009، p. 13، (art Nûba) Ency. de l'isl. كذلك يذكر الإدريسي أنها نسبة إلى مدينة نوبة على مسافة من النيل. (انظر - المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب ترجمة للشقاق، تحقيق Goeje، طبعة Leyde، ١٨٦٦، ص ١٣). ويبدو أن كلمة السودان هي كلمة عامة، تشمل على البلاد التي تمتد من المحيط حتى البحر الأحمر، والتي اقتصرت فيها السود. انظر - ياقوت، معجم البلدان، ٨، ص ٣٢٣، ٥؛ انظر - 518، p. 14، (art Sudân) Ency. de l'isl.
- (٢) انظر - Driot et Vand. : Op. cit. p. 3. يذكر الإدريسي أنه يوجد بالسودان بلدة اسمها كوشه. انظر - المغرب وأرض السودان، ص ١٤.
- (٣) معجم البلدان، ٨، ص ٣٢٣. انظر عن هذه المدينة قسه، ١، ص ٢٤٨.
- (٤) قسه، ٤، ص ٨٢.
- (٥) انظر - Driot et Vand. : Op. cit. p. 208.
- (٦) انظر - Ibid. p. 377 — 378.
- (٧) انظر - 1008، p. 3، (art Nûba) Ency. de l'isl.
- (٨) معجم البلدان، ٨، ص ٣٢٣؛ انظر أيضاً Mac Michael : A History of the Arabs in the Sudan. Cambridge, 1923, I, p. 14sqq Islam in the Sudan. London, 1949, : Trimmingham.
- (٩) 39، p. 1009، (art Nûba) Ency. de l'isl. يقول ياقوت أن ملوكهم من حمير.
- (١٠) انظر - 1008، p. 3، (art Nûba) Ency. de l'isl.

بحيث استطاعت أن تكون في جنوب مصر عدة ممالك^(١) منها: النوبة، ومقرّة، وعلا؛ أما شرق النوبة، بين النيل والبحر الأحمر، فكان يسكنه عنصر بدوي اسرد يعرف بالبحّة^(٢). وكما في العهد الفرعوني حرص المصريون المسيحيون على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية^(٣) أو البعوية بينهم؛ وذلك على الرغم من أن البيزنطيين كانوا يملكون من جانبهم على نشر عقيدتهم^(٤) الملكائية، ويمارضون انتشار العقيدة المصرية. ولكن بقيت أغلبية سكان جنوب الوادي تعيش عيشة بدائية، فهم عراة^(٥) لا يلبسون شيئا، ولا ديانة لهم إلا في الاعتقاد في المعهر، وفي بعض عقائد الأجداد^(٦) الفطرية.

ومع أن معلوماتنا غير دقيقة عن الحملة التي أرسلها عمرو سنة ٦٤٢/٢١ إلى النوبة، فيبدو أنه لم يكن يقصد غزوها، ولكن فقط لإشمار النوبيين باحتلال العرب لمصر حتى لا يهاجوا صعيدها كما كانوا يفعلون^(٧) غالباً، أو لتأديب النوبة «النوب»^(٨) بسبب أنهم عاونوا المصريين في موقعة عين شمس. ولكن النوبيين قاوموا هذه الحملة، بحيث اضطر العرب إلى التمهقر بعد أن لحقت بأغلبيتهم الجراحات وقتلوا حديقهم من مهام النوبيين، حتى أنهم سمّوهم: «رماة الحديد»^(٩).

(١) معجم البلدان، ٨، ص ٣٢٣؛ المخطوط ١، ص ٣٢٠؛ الإدريسي، ص ١٣ - ١٤ و ٢٠ و ٢٦.

(٢) قس المراجع السابقة بخاصة: المخطوط ١، ص ٣١٣؛ ٣١٨؛ الإدريسي، ص ٢١.

(٣) معجم البلدان، ٨، ص ٣٢٣؛ سعيد بن بطريق، ٢، ص ٤٦؛ انظر: Le Christianisme en Afrique, p. 46: Bonet-Maury

(٤) انظر: Ency. de l'isl. 3, p. 1009.

(٥) معجم البلدان، ٨، ص ٣٢٣.

(٦) انظر: Ency de l'isl, 4, p. 519.

(٧) المخطوط ١، ص ٣٢٣.

(٨) قس، ١، ص ٣١٥.

(٩) انظر: قبله.

(١٠) فوح البلدان، ص ٢٣٧؛ انظر: Mém. sur l'Egy, : Quatremère - et sur quelques contrées voisines, Paris 1811. 2. p. 42 suiv.

ولكن في عهد الخليفة الثالث عثمان؛ توجه عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح بحملة قوية نحو النوبة في سنة ٦٥٢/٣١^(١)، استطاعت أن تسجل إلى دنقلة أو دُمنقلة^(٢)، التي على ما يظهر كانت وقتئذ عاصمة النوبة ومقرّة متحدثين^(٣)؛ فوضع أمامها المنجنقيات ودمر الكاندرائية. لذلك سمي الملك المسمى قليدوروث^(٤) إلى طلب الصلح، وقبل ابن أبي سرح — الذي أنهك اقتتال جيوشه — عقد الهدنة. فاتفق الطرفان على ما عرف بالكلمة المهمة « بقط »^(٥)؛ وهي: أن يكون بينهما هدنة وأمان، وأن يسمح بتنقل التجار، وأن يُسلم النوبيون الهاربين من عبيد المسلمين — لعل قصدهم المصريين — وأن يحافظوا على المسجد الذي ابتناه المسلمون بدنقلة؛ ولعلمهم بذلك قصدوا التمهيد لنشر الاسلام. كما نص الاتفاق على أن تحمل النوبة كل سنة إلى ولاية مصر ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق غير المريب المتوسط العمر. ويبدو أن النوبة تمردت من جانبها — وإن لم تذكر الماهدة ذلك — أن تأخذ من مصر قحاً^(٦) وشميراً وعدساً وثياباً وخيلاً عند دفع البقط؛ بخاصة إذا ما حلت بها المجاعات. وقد كان عقد هذه الماهدة يدل على أن العرب لم يكن في نيتهم ضم بلاد النوبة إليهم، أو العودة إلى غزوها، بل أنهم واقفوا على قيامها على حدودهم؛ ومثل هذا الاتفاق جعل أهل النوبة في نظر

(١) ابن عبد الحكم، ص ١٨٨.

(٢) مدينة كبيرة على شاطئ النيل. مجمع البلدان، ٤ ص ٨٢؛ ٨ ص ٣٢٣.

(٣) نفسه، ٨ ص ٣٢٣. لقب ملك النوبة يدل على ذلك.

(٤) الخطط، ١ ص ٣٢٣؛ ١١.

(٥) نفسه، ١ ص ٣٢٢ فاجدها! البلاذري، فتوح، ص ٢٣٧ — ٢٣٨؛ ابن عبد الحكم ص ١٨٨؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ٢٧٨ — ٢٧٩؛ سيدة كاشف، مصر في فجر الاسلام، ص ١٥ وماش (٥)؛ Ency. de l'isl. (art Bakt) I, p. 621. أصل هذه الكلمة غير واضح، فقله من العربية بقط بمعنى البقل والضب (الخطط، ١ ص ٣٢٢) أو من اللاتينية «Pactum» أى اتفاق (انظر: (1) Trimingham, P. 62)، أو من الكلمة المصرية بك بمعنى عبد. (انظر. Ency. de l'isl. I, p. 621). وهذا العهد لا يشمل علواً، وإنما النوبة إلى حدود علواً فقط (الخطط، ١ ص ٣٢٤)؛ وإن كتب عهد مشابه مع البجة نفسه، ١ ص ٣١٦.

(٦) الخطط، ١ ص ٣٢٤؛ ٧ — ٨.

العرب : « مُصَالِحِينَ ^(١) » ، وهو ما عرّفه الفقهاء : « بأهل العهد ^(٢) » .
وفد ترتب على عقد هذه الهدنة أن زاد نفوذ الكنيسة المصرية في النوبة ،
وهي التي أصبحت وحدها مهيمنة في مصر بسبب زوال الدولة البيزنطية ؛ بحيث أنه
لما طلبت النوبة إرسال أساقفة أرسل إليهم البطريرك المصري أساقفة ^(٣) من الباقية ،
كما امتد نفوذ هذه الكنيسة حتى علوا ^(٤) في الجنوب . وفوق ذلك تحولت
الحبشة التي كانت حليفة ^(٥) بيزنطة وعلى مذهبها إلى البيثونية ^(٦) للصرية ؛ فكانت
مصر ترسل إليها أساقفتها أيضا ، وكان ملكها يلقب : « بأوحد ^(٧) ملوك
البيثونية » ؛ وما زالت تخضع للكنيسة القبطية حتى الآن . وسبق أغلبية النوبة
مسيحية حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، إلى أن يرسل إليها سلاطين المماليك في مصر
القبائل العربية والجيوش ^(٨) ، فتتحول إلى الاسلام . ولاريد أن يقاء النوبة مسيحية
حتى ذلك التاريخ ، كان سبباً في أن الاسلام ^(٩) لم ينتشر في أعماق افريقية ،
بحيث أن بعض سكانها مازالوا وثنيين حتى الآن .

(١) نفسه ، ١ ص ٣٢٤ س ٢٦ .

(٢) الماورى ، ١ ص ١٢٣ ؛ انظر . Les Statuts des Pays : Chefra .
des Ahd aux 7e et 8e Siècles. Ann. of the Fac. of Arts. Ibrahim
Univ. vol. I, 1951, p. 43sq.

(٣) الخطط ، ٤ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

(٤) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٤٦ س ٢ — ٣ .

(٥) انظر . قبله .

(٦) الخطط ، ٤ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

(٧) صبح الأعشى ، ٦ ص ٨٥ .

(٨) المقرئى ، الملوك لمرة دول الملوك ، تشر زيادة ، القاهرة ١٩٤١ ، ١/٢ ص ١٦١ .

(٩) « لأن كان اسلام البجة حدث في وقت مسكر منذ عهد الأمويين ، الخطط ، ١

هذه الفتوحات والصراع مع أكبر دول العالم : البيزنطيين والفرس ، قوى من وحدة الأمة الإسلامية ، التي وضع بذورها النبي ، وكانت على وشك الضياع لولا تصميم أبي بكر في الإبقاء عليها ؛ ولكن من الآن — في عهد عمر — لم يعد يسمح إلا بدين^(١) واحد في الحجاز هو الإسلام . وعملا بهذه السياسة نقل عمر إلى الشام وال عراق : نصارى نجران^(٢) ويهود خيبر^(٣) « خيبر »^(٤) أو ماحولها^(٥) . وحتى مسيحي دومة الجندل ، بحيث أصبح الحجاز خالصاً للمسلمين العرب وخدمهم . وعلى العكس كان المقاومة العرب في الامبراطورية المفتوحة يمشون في معسكراتهم كأقلية وسط شعوب تختلف عنهم كل الاختلاف في الجنس واللغة والدين ؛ فقد كانوا يمسكرون : إما في « الإمبراطورية »^(٦) جمع « مصر » وهي المدن التي انشئت على حدود الأراضي ، أو في « الاجناد »^(٧) جمع « جنود » وهي المناطق الحربية في الشام والتي كانت تقابل التقسيم البيزنطي المعروف باسم « Thema »^(٨) ، أو في « الثغور »^(٩) جمع « الثغر » وهي مواقع الحصون على الحدود البيزنطية وستعرف فيما بعد « بالمواضع »^(١٠) لأنها كانت تعصم حدود المسلمين ، أو في الرباط^(١١) جمع « ربط »

(١) فتوح البلدان ، ص ٢٨ س ٢ ؛ للوردى ، الأحكام ، ص ١٥٠ .

(٢) مع أن النبي وأبا بكر سمعا لها بالبقاء على حدود الحجاز الجنوبية . انظر . البلدان ،

فتوح ، ص ٦٥ ؛ ٦٦ ؛ ابن سعد ، ٢/١ ص ٨٥ س ٢٧ .

(٣) البلدان ، فتوح ، ص ٢٣ ؛ ٢٨ .

(٤) سميت هكذا لتكونها من عدة حصون . معجم البلدان ، ٣ ص ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٥) مثل فكة . البلدان ، فتوح ، ص ٢٩ .

(٦) معجم البلدان ، ٤ ص ١٠٧ . (٧) انظر . قيله .

(٨) فتوح البلدان ، ص ١٣٢ . يقول كل ناحية لها جند يقضون أعطيتهم بها تسمى جنداً .

ويقول ياقوت الجند الجميع وجند جنداً أى جمعت جماعاً . معجم البلدان ، ١ ص ٤٢٥ .

(٩) انظر . قيله .

(١٠) معجم البلدان ، ٣ ص ١٦ فاجدها ؛ انظر . Ency. de l'Isi. (art.

Thughûr) 4, p. 777.

(١١) معجم البلدان ، ٣ ص ١٦ ؛ ٢٣٧ .

(١٢) التركان (٨ : ٦٢) . الرباط والرابطة ملازمة نثر المدون أو الجهاد ، وأصله

أن يربط فيه الخيل (لسان ، ٩ ص ١٧٣ فاجدها ؛ انظر . Ency. de l'Isi. (art.

Ribât) 3, p. 1230 sqq. وقد كانت الرباطات أغلبها على الساحل ، كما في

الأسكندرية . انظر ابن عبد الحكم ، ص ١٩١ فاجدها .

أو « رابطة » وهي أما كن محصنة قد تكون على الساحل أو على الحدود لمراقبة العدو وجهاده . وفي كل هذه المعسكرات كان العرب يعيشون عيشتهم القبلية في « خطط ^(١) » أو « قطائع ^(٢) » ، وإن كان لا بد أن يكون لهم فيها مسجد ^(٣) ؛ لكي يقوموا بفروض دينهم ، وليجتمعوا فيه لاتخاذ قراراتهم .

كذلك لم يعد العرب بعد أن فتحوا هذه الإمبراطورية الواحمة يكتفون بالعيش على الغنمة ، كما كان الحال في عهد النبي وأبي بكر على أن يأخذ الخليفة الحرس ^(٤) ؛ ولكن منذ عهد عمر صار القاتلة من الحجاز أو من انضم إليهم من عرب الجزيرة « روادف ^(٥) » ، يقتلمونهم وهائلاتهم من الصبيان والنساء ^(٦) مرتبات ثابتة تسمى : « المطاء ^(٧) » ؛ إذا قيدوا في سجلات ، وهو ما عرف بالديوان ^(٨) — كما كان معروفاً عند البيزنطيين ^(٩) والفرس ^(١٠) — ولعلنا نقبل أن عمر أول ^(١١) من دون النواوين . وكان هذا المطاء بقدره على حسب قرابتهم ^(١٢) للنبي ، أو شهودهم بدماء ^(١٣) أو المواقع المشهورة مثل القادسية ^(١٤) واليرموك ؛ وحتى

- (١) وهي جم خطة . ابن عبد الحكم ، ص ٩١ ؛ الخطط ، ص ٢ من ٧٦ فما بعدها .
(٢) الكامل ، ص ٢ من ٣٦٨ (آخر الصفحة) ؛ اللسان ، ص ١٠ من ١٥٤ .
(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٩١ — ٩٢ ؛ الكامل ، ص ٢ من ٣٦٩ من ١ ؛ اظر . قبله .

- (٤) الكامل ، ص ٢ من ٢٧٣ من ١٤ — ١٤ .
(٥) نفسه ، ص ٢ من ٣٥١ من ٦ ؛ اظر . الصباح للند ، ص ١ من ٣٤٤ — ٣٤٥ .
(٦) الكامل ، ص ٢ من ٣٥١ من ١٦ .
(٧) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٤٩ من ٣ . يسمى أيضا رزق . الكامل ، ص ٢ من ٣٥٢ من ١ .

- (٨) نفسه ، ص ٢ من ٣٥٠ من ٣ من ٣١ . وهي كلمة فارسية تعني السجل أو اللسان الذي فيه الكتاب . ابن خلدون ، القسمة ، ص ١٩٢ ؛ اظر . بعده .

- (٩) سعيد بن بطريق ، ص ١٩٢ .
(١٠) ابن خلدون ، للقسمة ، ص ١٩٢ .
(١١) نفسه ؛ الكامل ، ص ٢ من ٣٥٠ .

- (١٢) فتوح البلدان ، ص ٤٤٩ من ٤ ؛ أبو يوسف ، الحراج ، ص ٥٠ ؛ القسمة ،

ص ١٩٣ من ١ .

- (١٣) الكامل ، ص ٢ من ٣٥٠ .

- (١٤) نفسه ، ص ٢ من ٣٥٠ — ٣٥١ .

النساء^(١) الاتى حضرن هذه المواقم كن يتميزن في عطائهن . وقد استمر العطاء يدفع للعرب حتى سقوط الدولة العربية وقيام الدولة العباسية ، التي اعتمدت على الفرس والترك ، ففتح العرب في عهد الخليفة العباسي المستعصم^(٢) (٢١٨ - ٢٢٧ / ٧٣٣ - ٨٤٢) من تسلم العطاء . وعلى العكس استمر سكان الجزيرة منذ قع الردة يدفعون الزكاة ، التي كان أغلبها من الإبل^(٣) ؛ بحيث وجد ما يعرف بأمرء الصدقة^(٤) ؛ كما أن عمر فرض على بضائع تجار الجزيرة ضريبة «المشر»^(٥) ، خصوصاً وأن العرب كانوا مشهورين بتجارهم الرائجة .

أما غير العرب من سكان البلاد المفتوحة ، فكانوا يعرفون وتشتد بأسماء منها : « رعيه »^(٦) بحكم أن العرب رعايهم ، أو « ذمة »^(٧) اذا كانوا من أهل كتاب ، كالمسيحيين واليهود والجنوس والصابئة^(٨) ، أو « موالى »^(٩) ، إذا اسلموا بحكم أنهم صاروا اتباعاً للعرب . وقد كان على سكان البلاد المفتوحة أن يقدموا العطاء للعرب ؛ بحيث أن هؤلاء أصبحوا يعيشون على حساب الشعوب المفتوحة . وقد كان هناك رأى : أن تقسم^(١٠) الأراضي المفتوحة ، ولكن عمر وجد أن هذه الطريقة قد تؤدي إلى مشاكل من الأولى تجنبها ؛ وقد اقرر : أن الأرض

(١) نفسه ، ٢ ص ٣٥١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان الغرب في أخبار الأندلس والغرب ، لعمرو وتحقيق Colin و Lévi-Provençal ، طبعة Lyden ، ١٩٤٨ - ١٩٥١ ، ٢ ص ٤٠ ص ٥٠ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٢٩ .

(٤) نفسه ، ٢ ص ٢٧٦ ص ١٣ .

(٥) صبح الأعشى ، ٣ ص ٤٦٣ ؛ المخطط ، ١ ص ١٦٧ .

(٦) الكامل : ٣ ص ٣٠ ص ٨ ؛ انظر . الصباح النثر ، ١ ص ٣٥٤ . حسن المباشرة ، ١ ص ٦٧ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ ص ٧ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٣ ، ٢٩ ؛ انظر . تروتون ، أهل القمة في الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن جيفي ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٩ .

(٨) الماوردي ، الأحكام ، ص ١٢٨ ؛ انظر . Les Zoroastriens : Menant de Perse . R. M. M. Oct. 1907, vol. 3, p. 196 .

(٩) لسان ، ٢٠ ص ٢٨٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ٤ ص ١٥٨ ؛ انظر .

Ency. de l'Isi. t 3, p. 479 .

(١٠) ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ ، ابن الجوزي ، تلخيص عمر ، ص ٦٨ .

لا تقسم وتبقى في أيدي أهلها ؛ الذين عليهم أن يبقوا بجوارها يزعمونها ولا ينتقلون^(١) عنها ؛ على أن يدفعوا ضريبة الأرض أو الخراج^(٢) ، التي كانت تفرض في الملكات البيزنطية^(٣) والفارسية ؛ وذلك للدلالة على خضوعهم للعرب ، بحيث كانت تسمى أيضا « جزية^(٤) » . وتشتمل^(٥) هذه الضريبة على المال الذي يجبي كل سنة على الأرض المزروعة ، وعلى الواجبات العينية من حنطة وعسل وزيت وغيرها من منتجات القرية ، وهي تختلف^(٦) بحسب طبيعة الفتح : فإذا كانت البلاد فتحت صلحاً ، ففي هذه الحالة يتفق على قيمة الضريبة ، أما إذا أخذت عنوة فهي تعتبر غنيمة للفاتح وتكون « فيتاً^(٧) » للسلمين ؛ ولكن لما كان العرب لا يستطيعون أن ينفصلوا^(٨) عن الجندية لراحة الأرض ، فإنهم تركوها للاكها على أن يزرعوها لهم . وفي الواقع لم يكن هناك تمييز بين الأرض المفتوحة صلحاً أو عنوة ، وكان الجميع يدفعون ضريبة الخراج ، حتى ولو أسلموا^(٩) . أضف إلى ذلك أنه قرر على أهل القرى من دون المدن ضريبة^(١٠) السلمين إذا مروا بهم ثلاثة أيام ، على ألا

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ س ٢٧ . انظر . Gaud - Platonov : Le Monde Musul, et Byz, p. 202.

(٢) انظر . الماوردي ، ص ١٢٦ فـ ١٢٦ . انظر . Vau Berchem : La Propriété territoriale et l'impôt foncier, Thèse de Leipzig 1861.

Ency. de l'isl. (art Kharâdj) t 2, p. 955 — 956. ٢ p. 20.

(٣) انظر . Massé : L'Islam. Paris 1940, p. 63 . الأحكام السلطانية ، ص ١٣٢ .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٥١ ؛ حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ . انظر . بعده .

(٥) القرطبي ، المحط ، ١ ص ١١٢ — ١١٣ . انظر . Van Berchem : La Propriété, p. 49.

(٦) الماوردي ، الأحكام ، ص ١٣١ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٦٣ .

(٧) هذه الكلمة تعني لال التي لا يؤخذ قهراً ، ولا تخمس كما في الغنيمة ، ولها معنى مال السلمين (الماوردي ، الأحكام ، ص ١١١ فـ ١١١) ، وهي ذكرت في القرآن (ما آتاه الله على رسوله من أهل القرى ، ٥٩ : ٦) .

(٨) حسن المحاضرة ، ١ ص ٧٢ — ٧٤ . انظر . Ency. de l'isl.

Arab. King, 31 n (1), : Well (art Fat) t 2 p. 41 — 42

(٩) الماوردي ، الأحكام ، ص ١٣١ — ١٣٢ . وإن ذكر أنه يجوز أن تسقط بإسلامهم ، الماوردي ، ص ١٣٢ . انظر . بعده .

(١٠) خمسة ص ١٢٩ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٥٦ .

يسموم أصوات نواقيسهم ولا يماهروا بشرب الخمر، ولا يركبوا الخيل ... الخ .
كذلك فرضت ضريبة أخرى على سكان البلاد المفتوحة تعرف بالجزية^(١)،
وتكون بدفع المال على الرؤوس^(٢)؛ وذلك للدلالة أيضاً على عزة الاسلام . وهذه
الضريبة التي ذكرت في القرآن^(٣) وجياها^(٤) النبي، كان يفرضها البيزنطيون^(٥)
على رعاياهم باسم : « Laographia » ، كما أن الفرس^(٦) كانوا يأخذونها
من اليهود والمسيحيين في بلادهم . وقد كانت الجزية في أول الأمر بسيطة أقصاها
ديناران^(٧) في العام ، ولا تؤخذ إلا عن كل نفس من البالغين^(٨) ، ولا تجبي من
النساء والعبيان والشيخوخ^(٩) أو من العبيد ؛ وكانت قابلة للتمديد^(١٠) بحسب
حالة الشخص . أما الذين كانوا يمتنقون الاسلام ، فإنه كان من المفروض أن
يمفوا^(١١) منها ipso facto ، وإن كان عليهم دفع الزكاة ؛ ولكن
ولاية العرب استمروا في فرضها^(١٢) ، مما كان سبباً في ثورة^(١٣) الشعوب .
وقد كان من يدفعها في مصر يوضع حول عنقه ختم من برصاص^(١٤) ، دليل على

(١) للاوردي ، الأحكام ، ص ١٢٦ فابعدما : الوطناً ، ص ١٢١ ؛ ابن الجوزي ،
تاريخ مصر ، ص ١٦٨ ؛ انظر . فون كيرمر ، الحضارة الإسلامية ، تعريب طه بدر ، ص ٦ .
انظر مناقشة للاوردي في معناها . الأحكام ، ص ١٢٨ ؛ وأيضاً ، Ency. de l'isl.
(art Djizya) I, p. 1082 — 1083

(٢) وهي تسمى أيضاً الجناجم انظر . المخطوط ، ص ١٥٩ ص ١٠ .

(٣) القرآن ٩ : ٢٩ . (٤) فتوح البلدان ، ص ٦٨ .

(٥) انظر . Greek-English. Lexicon : Liddil-Scott يظهر أنها كانت
في أول عهد الفتح العربي لحصر لها أسماء أخرى وروجت في الأوراق البردية ، مثل :
La Documentation, : Cheira . انظر . Andriemoss و Diagraphon
Papyrologique. de l'Epoque Arabe. Alexandrie 1948. cf.
(٦) انظر . Menant . R. M. M, n. 10 Oct. 1917, : Les Zoroastriens .
p. 196.

(٧) سعد بن بطريق ، ص ٢٤ ص ٨ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ ص ٥ .

(٨) حسن الحاضرة ، ص ١ ص ٥٦ ص ٢٦ ؛ للوطن ، ص ١٢٢ .

(٩) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ ص ٦-٧ ؛ للاوردي ، الأحكام ، ص ١٢٨-١٢٩ .

(١٠) للاوردي ، ص ١٢٨ ؛ انظر - Ency. de l'isl. I, p. 1082 .

(١١) للاوردي ، الأحكام ، ص ١٣٠ ص ٥ .

(١٢) المخطوط ، ص ١٢٥ .

(١٣) انظر . بده . (١٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٥١ ص ١٥ .

أنه دفعها للعرب وهو صاغر، كما نص القرآن^(١)؛ ولذلك كانت بعض القبائل^(٢) العربية غير المسلحة تعفى من دفعها، لا فيها من اذلال ..

هذا وقد أبى عمر على النظام الإداري القوي وجده في البلاد المفتوحة بدون تعديل كبير، وذلك لأن العرب في ذلك الوقت لم تكن لهم أية حضارة، أو تجارب حضارية تمكنهم من قلب الأوضاع واحلال نظم جديدة؛ ولذلك كان لعمر من الرونة ما جعله يوافق على إدخال نظم فارسية وبيزنطية عديدة في نظام^(٣) الدولة الاسلامية. فقد أبى عمر على الدواوين — وهي أى السجلات — تكتب بلغة^(٤) أهلها: فكان ديوان الشام باليونانية، وديوان فارس أو العراق بالفارسية، وديوان مصر بالقبطية. وقد كان مظهر عمل الدواوين الأساسى هو اخراج المال لأعطية الجند وسائر السكف^(٥)، أما ما يفضل فكان أغلبه يحمل إلى بيت المال^(٦) في المدينة، حتى ولو كان من الضريبة العينية كالحبوب^(٧). كذلك أبى عمر على نظام العملة التي كانت في التداول، على الرغم من أنها كسروية وهرقلية^(٨)، ومنقوش عليها العقيدة المسيحية أو بيت النار، وتوارى عنها قديمة^(٩) قديرجم بعضها إلى ما قبل الاسلام بأربعمائة سنة؛ ولكن عمر أضاف إليها عقيدة^(١٠) الاسلام، وكلمة «جانز»^(١١) للدلالة على أنها عملة جيدة، حسب المييار الرسمي القوي

(١) القرآن ٩ : ٢٩؛ انظر أيضا للوردى، الأحكام، ١ ص ١٢٧.

(٢) انظر Ency. de l'isl. t. I, p. 1082.

(٣) انظر. فون كيرمر، الحضارة الاسلامية، ترجم طه بدر، ص ٦٠.

(٤) المخطوط، ١ ص ١٥٨ س ١٠—١١؛ انظر. La Documentation : Chefra.

Papyrologique de l'Epoque Arabe. Alexandrie 1948. cf.

عن معنى الديوان وتطور ما ظهر الماش قبله أيضا 1006، t. I, p. 1006، Ency. de l'isl. (art Diwān).

(٥) المخطوط، ١ ص ١٥٦ س ١٩ — ٢٠.

(٦) نفسه؛ السكامل، ٢ ص ٧٩؛ ٣ ص ٣١.

(٧) انظر. قبله.

(٨) المقرئى، العقود الاسلامية، طبعة قسطنطينية ١٢٩٨هـ، ص ٥٠.

(٩) السيوطى، حشيش المحاضرة، ٢ ص ١٧١ س ٧.

(١٠) انظر. Catalogue des Monnaies Musulmanes : Lavoix.

Khalifes Orientaux t. I. Préface, p. I, 15 (50) ; 17 (57).

(١١) المقرئى، العقود، ص ٩؛ انظر. Cat, p. 3—4 ; Lavoix.

أقره النبي^(١) وأبو بكر من قبل؛ فبقيت وحدة العملة — كما كانت من قبل — بالدينار الذهبي والدرهم الفضي^(٢)، وفوق ذلك لم يغير عمر في التقسيم الإداري للبلاد المفتوحة: ففي مصر بقيت الكورة^(٣) « Curia » أى المركز، وفي فارس « الرساتيق »^(٤) « أى الولايات »؛ وإن وُلّي على البلاد حكام من قبل الخليفة، هم عادة قواد الفتح يطلق عليهم: « صاحب العمل »^(٥)، كما يلقبون « بالأمر »^(٦).

أما الشؤون القضائية في البلاد المفتوحة فكان يشرف عليها بالنسبة للعرب رجل دين يسمى « القاضي »^(٧)، وإن كان عليه أيضاً أن يشرف على الفتي^(٨) والفتن^(٩). أما الشؤون الخاصة بالقضايا بين الرعية، فكان يشرف عليها رجال الدين من أهالى البلاد المفتوحة، وإن صارت المنازعات القضائية^(٩) للقيط في مصر تمرض على قاضى المسلمين. ولا ريب أن القضاء لم يبلغ مبلغ القوة كما بلغه في عهد عمر، بحيث أنه كان من الجائز أن يشكو أحد الرعايا^(١٠) عامل الخليفة للخليفة.

كذلك رجع الفضل إلى عمر في تنظيم مسألة التاريخ^(١١) المجرى، فالعرب كانت تتبع تواريخ مختلفة على حسب الأحداث الجسام، مثل: يوم الفيل^(١٢). ولكن

(١) القرظي، القنود، ص ٤.

(٢) الدينار أصله لاتيني « Denarius » استخدم في عملة روما، فنقل إلى العربية بصيغة خفيفة « دينار ». وعلى العكس فإن درهم لفظة فارسية معربة. انظر: المتأس - حارى - النفود العربية وعلم النبات، القاهرة ١٩٣٩، ص ٢٣ — ٢٥؛ والملاحظات.

(٣) القرظي، المخطط، ١ ص ١١٦.

(٤) روستاقى من روستاى أو روستا. معجم البلدان، ٧ ص ٤٠٢؛ انظر: A Comprehensive Persian English Dictionary 3ed, : Steingass London 1947, p. 594.

(٥) الكامل، ٣ ص ١٦ س ٥.

(٦) نفسه، ٣ ص ١٥ س ١٤؛ انظر: حسن إبراهيم، النظم الإسلامية، القاهرة ١٩٣٩، ص ١٩٧.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٧٤؛ حسن المحاضرة، ٢ ص ٨٦.

(٨) الكامل، ٢ ص ٣١١ (آخر الصفحة).

(٩) الكندى، الولاية والقضاء، تحقيق Guest، ص ٣٥١.

(١٠) الكامل، ٣ ص ٣٠.

(١١) نفسه، ٣ ص ٣١؛ السخاوى، الأعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ، دمشق.

(١٢) السخاوى، ١٣٤٩/١٩٣٠، ص ٨٠.

بمجيء الاسلام وضع اختيار المسلمين على سنة هجرة النبي إلى المدينة (٦٢٢م) مبدأ لتقويمهم ، لأن تاريخ مبمته مختلف فيه ؛ كما أن وقاته كانت تتغير عندم الشجن ، مما حدا بهم إلى اختيار الهجرة لأنها — في رأيهم — فرقت بين الحق والباطل ؛ كما أنهم لم يختلفوا في تاريخها . ومع ذلك فمن المؤكد أن التاريخ الهجري لم يتخذ أساساً للتقويم ؛ إلا في عهد الخليفة الثاني : عمر بن (١) الخطاب حوالي العام ٦٣٨/١٧ ؛ والذي دعاه إلى ذلك هو أن الامبراطورية الاسلامية كانت قد اتسعت ، واحتاج الخليفة إلى مخاطبة الولاة وتاريخ كتبه إليهم ، أما قبل ذلك في عهد النبي وأبي بكر فكان يؤرخ بسنن إقامة النبي في المدينة (٢) .

وقد اتخذ العرب لتاريخ الهجرة السنة القمرية (٣) ، وهي التي وردت في القرآن عدة مرات : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ تُتْلَىٰ عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ ١٠ : ٥ ﴾ . ولكن على الرغم من أن الهجرة كانت في ربيع الأول ، فإن المسلمين اختاروا شهر الحرم بداية لتاريخهم ، لأنه شهر حرام (٤) ، ولأنه أول الشهور في السنة ومنصرف الناس من الحج . فكانت شهور التقويم بالترتيب الآتي : الحرم ، صفر ، ربيع الأول ، ربيع الآخر ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذوالقعدة ، وذو الحجة . كذلك اتخذ التاريخ الهجري الليالي (٥) أساس التوقيت نظراً لاعتمادهم على السنة القمرية ، ولأن الليل سابق على النهار ، وذلك على عكس المسيحيين الذين اعتمدوا على السنة الشمسية واتخذوا النهار أساساً لتقويمهم . وقد ظهر للعرب — بسبب اختيار الليالي في التاريخ — بعض التعبيرات الخاصة ، منها : أول ليلة في الشهر لأول

(١) ابن الجوزي ، تاريخ عمر ، ص ٤٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Hidjra) .

2. p. 321.

(٢) السخاوي ، ص ٨١٤٧٩ .

(٣) تهمه ، ٧٩ ؛ صبح الأعشى ، ٢ ص ٣٨٨٤٣٥٨ .

(٤) السيوطي ، كتاب التاريخ في علم التاريخ ، مصور بالقرون ستات في جامعة القاهرة ،

برقم ٢٦٠٦٢ ورقة ٧٢ ؛ صبح الأعشى ، ٣ ص ٣٦٤ .

(٥) السيوطي ، كتاب التاريخ ، ورقة ٧٢ .

العام (السنة أو الحول) أو لفرسته أو لقليلة خلت ، ثم لليتين خلتا ، ثم لثلاث خلون إلى العشر ، فخلت إلى النصف ، فلتنصف من كذا ، وهو أجود^(١) من الخمس عشرة خلت ، بمد ذلك قول لأريم عشرة ليلة بقيت إلى العشرين ، ثم لعشر بقين إلى آخره ، فلا آخر ليلة أو لسلكه أو لا نسلخه .

ولكن عمر بن الخطاب الذي أعتبر متمماً لأعمال النبي وأبي بكر ، قتل في أوأخر سنة ٢٣/٦٤٤^(٢) ، على يد عبد فارسي اسمه أبو لؤلؤة الجوسي ، لأسباب غير واضحة لعل منها الحقد الشخصي ؛ وبذلك خُتمت حياة رجل عظيم من رجال الاسلام ، كان يعبر بشخصيته القوية وطوله البائن^(٣) عن سموخ دولة الاسلام .

وقبل موته عيّن ستة من أكابر صحابة النبي ، ليختار المسلمون واحداً منهم ليكون خليفة بعده ، وقد عرف هؤلاء : «بأهل الشورى»^(٤) ، لتشاورهم في هذا الأمر الخطير ، وهم^(٥) : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . وقد بدا منذ تشاورهم في منزل عائشة^(٦) ؛ أنهم يميلون — كما حدث في اختيار الخليفة سابقاً — إلى تفادي تولية علي حتى لا تتحول الخلافة إلى ملك ورأى^(٧) في بني هاشم ؛ خصوصاً وأن عمر أ يضارفض أن يمهّد^(٨) بها إلى ابنه عبيد الله . وعلى المكس كانوا يميلون إلى تولية

(١) قصة ، انظر . ماجد ، مقدمة لدراسة تاريخ الإسلام ، ص ٧٧ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٨ ص ٣ — ٤ .

(٣) قصة ، ٣ ص ٢٦ ؛ ابن الجوزي ، تاريخ عمر ، ص ١٥٢ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٢٨ ص ٥ .

(٥) قصة ، ٣ ص ٣٦ . لعل عمر لم يجد من يستأهلها حتى يعينه ، كما فعل أبو بكر

عنه . انظر . اللاوردي ، ص ٩ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٣٥ ؛ البلاغري ، أنساب الأشراف ، ٥ ص ١٦ تحقيق Goitein ،

ص ٧ — ٨ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٣٥ ص ١١ .

(٨) قصة ، ٣ ص ٣٧ ص ٢٧ — ٢٨ .

(٩) قصة ، ٣ ص ٣٤ .

عثمان^(١) بالذات لسابقته في الاسلام ، وإصهاره للنبي مرتين في ابنتيه رقية ثم أم كلثوم ، ولهجرتة إلى الحبشة ، ومفاوضته الكهين قبل صلح الحديبية . هذا وأن عبد الرحمن كان صهره^(٢) ، وسمداً من أقرباه^(٣) ، وطلعة^(٤) غائب عن المدينة ، ولعل الزبير انضم إليه أيضاً . ولكن قبل أن تملن الأغلبية رأياً في الاختيار ، كان كل واحد من أهل الشورى يخلع^(٥) نفسه ويفوض غيره في اختيار الخليفة ، إلى أن انتهى الأمر إلى عبد الرحمن^(٦) الذي أعلن تولية عثمان الخلافة ، وذلك في الحرم سنة ٢٤/٦٤٤^(٧) . أما على فإنه اعتبر اختيار عثمان تحاملاً^(٨) جديداً على بيت النبي ، ولكنه اضطر^(٩) إلى البياضة مثلاً حدث سابقاً عند اختيار أبي بكر وعمر ؛ وأن لم يمنع هذا أن يبدي بنو هاشم^(١٠) ولعراء^(١١) الأمصار امتعاضهم من هذا الاختيار ، خصوصاً وأن عثمان هو أحد أفراد الأسرة الأموية^(١٢) التي كانت متنافسة لبني هاشم في الجاهلية ، وعارضت النبي والاسلام .

ومن المحقق أن عهد عثمان كل المهدين السابقين ؛ ففي هذه نجد أن العرب الذين كانوا قد احتلوا سواحل سورية ومصر الطويلتين ، أخذوا يفكرون^(١٣)

(١) أنساب ، ٥ ، ص ١ — ٢ ؛ انظر . طه حسين ، عثمان ، القاهرة ،

ص ٥٠ — ٥٤ .

(٢) الكامل ، ٣ ، ص ٣٨ س ٤ .

(٣) نفسه ، ٣ ، ص ٣٥ (آخرها) .

(٤) أنساب ، ٥ ، ص ٨ س ٢١ — ٢٢ .

(٥) الكامل ، ٣ ، ص ٣٦ ؛ للوردي ، الأحكام ، ص ٩ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٦ .

(٧) أنساب ، ٥ ، ص ٨٥ س ٢١ .

(٨) الكامل ، ٣ ، ص ٣٧ س ٩ فما بعدها .

(٩) الأنساب ، ٥ ، ص ٢٢ س ١٥ — ١٨ .

(١٠) الكامل ، ٣ ، ص ٣٥ .

(١١) نفسه ، ٣ ، ص ٣٧ .

(١٢) انظر تأييد بني أمية لعثمان . نفسه ، ٣ ، ص ٣٧ س ١٣ .

(١٣) انظر . الحاح معاوية على الخليفة عمر في القيام بالفتوى والبحر . الخطيب ، ص ٣٠٨ .

(م — ١٦ التاريخ السياسي)

جدياً في القضاء على قوة بزنطة البحرية، التي أصبحت مصدر تهديد لامبراطوريتهم؛ الناشئة: فقد كان احتفاظ بزنطة بالسيطرة البحرية أن جعلها تقاوم^(١) في مدن سورية الساحلية مدة طويلة، كما استطاعت أن تعود إلى مهاجمتها في سنة ٦٤٣/٦٤٤، فاحتلت بعض مدنها لولاهمة حامل الشام معاوية؛ وأنها هاجمت أيضاً الاسكندرية في سنة ٦٤٥/٦٤٥، وإن طردهم عمرو بن العاص. وهكذا رأى العرب الذين تغلبوا على أقوى الجيوش البرية قوة بزنطة البحرية متحداهم، وأن السواحل التي احتلوا تقف حائلاً دون تقدمهم.

وفي أول الأمر لم يكن العرب يستطيعون شيئاً ضد هذه القوة البحرية، التي كانت تصل وتجول أمام سواحلهم، وتسيطر على معظم جزره، بحيث سمى البحر الأبيض باسم «بحر الروم»^(٢)؛ وذلك لأن العرب أمة بدوية^(٣) لم يكن لهم خبرة بركوب البحر وإنشاء السفن. ولكن لكي يقضوا على خطر عدوهم البحري لجأوا إلى تقوية وسائل الدفاع عن سواحلهم بعدة أمور، منها: إصلاح الحصون^(٤) الساحلية القديمة التي تركها البيزنطيون في مصر وسورية، وأخذ بيوت على الساحل لتحويلها إلى قلاع المقاومة تسمى «اخاند»^(٥)، وإنشاء «مناظر»^(٦) أي أماكن يراقب منها العدو، كانت تتخذ المواقيد^(٧) لطلب الإمداد إذا حدث هجوم مفاجئ. كذلك رتب الجند بطول الساحل، حيث كانوا يغيرون كل ستة^(٨) أشهر؛ وفي

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٦ — ١١٧؛ ١٢٦ — ١٢٧؛

١٤٠ — ١٤٢.

(٢) نفسه، ص ١٢٦ — ١٢٧؛ انظر Chefra.

(٣) ابن عبد الحكم، ص ١٧٥؛ انظر Chefra.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٩؛ ص ١٩.

(٥) نفسه، ص ٢٠٠؛ الخط، ص ٣٠٩؛ ص ١٦. انظر وصف عمرو والبحر بقوله:

ثم فيه كدود على عود. نفسه، ص ٣٠٨.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ١٢٨.

(٧) ابن عبد الحكم، ص ١٣٠. وهي كلمة من أخذ منزلاً.

(٨) نفسه.

(٩) البلاذري، فتوح، ص ١٢٨؛ انظر Chefra.

المدوني، الأمويون والبيزنطيون، القاهرة ١٩٥٣، ص ٥٠.

(١٠) ابن عبد الحكم، ص ١٩٢.

الوقت نفسه مُعمل على تكون صفات بحرية للعرب بأنه سُجِّجوا على سكنى السواحل وهو ما عرف «بالرباط»^(١) ، وذلك بمنحهم الانقطاعات^(٢) ؛ حتى يَكُونوا على قدم الاستعداد للدفاع ضد هجوم الأساطيل المعادية .

ولكن في عهد الخليفة عثمان^(٣) بُدِئَ في تجهيز أسطول^(٤) عربي، ليكون ضماناً للقضاء على أى هجوم معادٍ من البحر، فضلاً عن إمكان قيامه بالجهاد^(٥) ضد أملاك البيزنطيين . وقد وكل بناء هذا الأسطول إلى العناصر الخبيرة في «الصناعة»^(٦) — أى صناعة المراكب البحرية — في البلاد المفتوحة في كل من مصر^(٧) وسورية^(٨)، وبخاصة إلى القبط^(٩) الذين ساهموا بنصيب كبير في بناء الأسطول الاسلامي في دور صناعتهم، التي ستعرف بجزيرة^(١٠) مصر أو الروضة ؛ بحيث لم تأت سنة ٦٥٤/٨٣٣ حتى كان للعرب أسطول يتكون من أكثر من ألف^(١١) وسبعمائة قطعة، استطاع العرب به أن يحطموا السيادة البيزنطية في البحر الأبيض، ويستولوا على بعض جزره .

وقد كان نشاط الأسطول العربي كبيراً في أول عهده : فقد كان يُسحق في السفن المقاتلة^(١٢) ونسائهم^(١٣) — على عادة العرب في القتال — من ثور مصر والشام ،

(١) انظر . قبله .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٥ ؛ انظر . أغابيوس (Agabios) ، الفنون ،

طبعة Paris ، ١٩٠٩ ، ص ٢ ؛ ٢١٩ ؛ انظر . Chefra : La lutte , p. 91 .

(٣) الكامل ، ٣ ، ص ٤٨ ؛ ١٩ ؛ الخطط ، ٣ ، ص ٣٠٨ ؛ ٢٣ .

(٤) هذه الكلمة غير عربية (الخطط ، ٣ ، ص ٣٠٧ ؛ ٥ — ٦) ولعل أصلها يوناني ، تطلق على مجموع السفن الحربية وعلى السفينة الواحدة . انظر . عبادة ، سفن الأسطول الاسلامي ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ١٠ ؛ ماجد ، نظم القاطنين ، ١ ، ص ٢١٨ هامش (١) .

(٥) الخطط ، ٣ ، ص ٣٠٩ ؛ ٢٠ — ٢١ .

(٦) نفسه ، ٣ ، ص ٢٨٩ ؛ ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(٧) نفسه ، ٣ ، ص ٢٨٩ ؛ انظر . Bell : Catalogue of the Greek , Papyri in the Brit. Mus. IV, 1376 ; 1410 .

(٨) أغابيوس ، ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٩) الطبري (طبعة مصر) ، ٣ ، ص ٣٤١ .

(١٠) الخطط ، ٣ ، ص ٢٨٩ .

(١١) أغابيوس ، ٢ ، ص ٢٢٠ .

(١٢) الخطط ، ٣ ، ص ٣٠٧ ؛ ٥ .

(١٣) الكامل ، ٣ ، ص ٤٨ (آخر الصفحة) ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٩١ ؛ ١ .

صيفاً وشتاء^(١)، للغارة على سواحل المدو؛ حتى أن عبد الله^(٢) بن قيس الذي استعمله مملوكة في البحر غزا خمسين مرة. ولكن جل جهود أسطول الشام كانت موجهة نحو جزيرة مقبر^(٣) مرس^(٤)، التي كانت تسيطر عليها بيزنطة، وتتخذها قاعدة للهجوم على سواحل الشام ومصر: فنزاهامملوكة بنفسه في سنة ٢٨^(٥)/٦٤٨ بقصد الإغارة، ولعله غزاها ثانية في سنة ٢٩^(٦)/٦٤٩؛ ولكن في سنة ٣٣^(٧)/٦٥٤ غزاها العرب من مصر والشام بقصد احتلالها، وفضلاً أبقوا فيها الحاميات، وأنشأوا الساجد.

ولكن يظهر أن هذا النشاط المتزايد من قبل العرب أخاف بيزنطة، بحيث أن امبراطورها قسطنطين^(٨) الثاني «Konstas II» (٦٤٢ - ٦٦٨م) جمع عدداً من الراكب لم يجمعها من قبل - تزايد على ألف^(٩) مركب - وسار بها بقصد ملاقات أسطول العرب، أو بقصد احتلال الاسكندرية، أكبر موانئ البحر الأبيض؛ فخرجت إليه أساطيل العرب في اعداد^(١٠) كبيرة، بقيادة عامل مصر عبد الله

(١) المخطوط، ٣ ص ٣٠٨ ص ٢٦.

(٢) نفسه، الكامل، ٣ ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) انظر عنها مجسم البلدان، ٧ ص ٢٦.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٣؛ انظر. قولاً زيادة، صور من التاريخ العربي القاهري ١٩٤٦، ص ٤٣؛ عبادة، سفن الأسطول، ص ٢١؛ Cheira : La lutte, p. 99.

(٥) الكامل، ٣ ص ٤٨.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ١٥٢؛ الكامل، ٣ ص ٤٨؛ ٢٢؛ ابن عبد الحكم، ص ١٧٥؛ انظر. Cheira : La lutte, p. 101.

(٧) الكامل، ٣ ص ٥٨.

(٨) ابن عبد الحكم، ص ١٩٠ - ١٩١؛ المخطوط، ٣ ص ٣٠٩ ص ٢.

(٩) اختلف في عددها : فقال أغايوس ١٧٠٠ (انظر. المتون، ٢ ص ٢٢٠)، وابن عبد الحكم مائتين (فتوح مصر، ص ١٩٠)، والبلاذري خمسمائة. فتوح البلدان، ص ١٥٣.

ابن سعد بن أبي سرح . فتقابل الأسطولان في سنة ٣٤/٦٥٥ قرب سواحل آسيا الصغرى في معركة عرفت باسم «ذات السواري» لكثرة سواري^(٦) المراكب . وقد كان القتال عنيفاً بين الطرفين ، فبعد ليلة أمضوها في البادة ، نظم القواد الجند على ظهر المراكب في صفوف^(٧) ، ثم قُرِبت السفن بعضها ببعض بمدربلهاء^(٨) ، مالا يحصى ودمرت^(٩) معظم مراكبهم ، واخذ الامبراطور حياته بصموبة ؛ بفراوه^(١٠) واقتل المدوان بالسيف والخنجر ، قتل من البيزنطيين إلى جزيرة صقلية . وقد كان النصر في هذه الموقعة حاسماً ، حتى أنه شبه بموقعة اليرموك^(١١) التي لم تقم للبيزنطيين بعدها قاعة في الشام ، ومهد لسيطرة العرب البحرية ، فأخذوا يغيرون على جزره مثل صقلية^(١٢) وروودس^(١٣) ؛ وإن كان العرب لم يستفيدوا من هذا الاتصال الباهر في مهاجمة القسطنطينية^(١٤) مباشرة ، التي كان من الممكن أن تسقط بين أيديهم .

(١) الكامل ، ٣ ، ص ٥٨ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٩١ س ١ ؛ Theophanis : Die Kämpfe der Araber , : Well . انظر Chronog. ed de Boor , p. 345 mit den Rômaern, Nachrichten der König. Gesellschaft der : Canard Wissenschaft. Phil. Hist. Klasse, Göttingen 1901, p. 420 Les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire : Cheira et dans la Légende J. A. Jan-Mars 1926, p. 63 — 64. la Lutte, p. 102 — 3,

(٢) الكامل ، ٣ ، ص ٥٨ وتكتب أحياناً سواري . الخط ، ٣ ، ص ٤٣٠٩ انظر . Dozy : Suppl. aux Dict. Arab., I, p. 651. وهي تسمى أيضاً موفة فونيقية (أغايوس ، ٢ ، ص ٢٢٤) لوقوعها قرب قمر Phoenixus على ساحل آسيا الصغرى . انظر . Canard : Les Expéd., p. 63 — 64.

(٣) الطبري (طبعة مصر) ، ٣ ، ص ٣٤١ .

(٤) الكامل ، ٣ ، ص ٥٨ .

(٥) أغايوس ، ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٦) الكامل ، ٣ ، ص ٥٨ — ٥٩ ؛ انظر . Theophanis, p. 344.

(٧) انظر . Theophanis, p. 332 ؛ انظر . Well : Kämpfe, p. 420.

(٨) Cheira : La lutte, p. 103. ؛ Canard : Les Expéd., p. 64.

(٩) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٦ ؛ انظر زيادة ، ص ٤٦ .

(١٠) أغايوس ، ٢ ، ص ٢٢٢ ؛ الخط ، ٣ ، ص ٣٠٩ .

(١١) انظر . Canard : Les Expéd., p. 67.

أما في البر فقد كان الجيش العربي منهمكاً في اتعام فتح فارس ، وكان قتل
يزدجرد في سنة ٣١/٦٥١ له أثره في إنهاء المقاومة في هذه البلاد ، ومد سيطرة
المسلمين فيها إلى الشمال ناحية الترك^(٢) ، وإلى الشرق ناحية الهند^(٣) . ومن ناحية
أخرى كانت الخلافة تشجع الجهاد^(٤) بقصد تأمين أطراف الإمبراطورية : فكان عبد الله
ابن سعد بن أبي سرح يشن الغارات على البلاد المجاورة لتصرف في أفريقية^(٥) غرباً ، في النوبة^(٦)
جنوباً ، حيث قدم مع ملك هذه الأخيرة معاهدة «البقط» ، كما كان معاوية في الشام يث
غاراته في بلاد الروم^(٧) ذاتها ، مستفيداً من انتصارات المسلمين البحرية .

ولكن أم ما حدث في البر في عهد عثمان هو فتح أرمينية^(٨) : وهي سقع عظيم
واسع يمتد إلى جبال القبقي (أو القوقاز)^(٩) والبحر الأسود شمالاً ، وبعض الجزيرة
جنوباً ، وبحر الخزر^(١٠) (أو قزوین) وهضبة آذربيجان شرقاً ، وآسيا الصغرى
والجزيرة غرباً ؛ فيشمل الأراضي الجبلية التي كان يخترقها عدة أنهار عظيمة أهمها :
الدجلة والفرات في الجنوب ، والكر^(١١) « Kyros » والرّس^(١٢) « Araxe »
في الشمال .

(١) الكامل ، ٣ ص ٥٩ ؛ انظر . قبله :

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٤ ؛ ٥٤ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٦٥ ص ٩ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٧٥ ص ٨ ؛ انظر . Cheira . La lutte, p. 69 sqq. :

(٥) الكامل ، ٣ ص ٤٤ ؛ ٤٥ ؛ ٤٦ ؛ ٤٧ . انظر عن أفريقية ، معجم البلدان ،

١ ص ٣٠٠ ؛ فابعدا .

(٦) انظر . قبله ،

(٧) الكامل ، ٣ ص ٤٤ .

(٨) انظر عنها معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٣ ؛ فابعدا ؛ صبح الأعشى ، ٤ ص ٣٥٣ ؛ انظر .

(٩) نفسه ، ٣ ص ٧٥ ص ٨ ؛ انظر . Ency. de l'Is. , (art Arménie) t. I, p. 441 sqq. ؛ المدوى ، الأمويون

واليزنطيون ، ص ١١٣ .

(١٠) معجم البلدان ، ٧ ص ٢٧ .

(١١) نسبة إلى شعب الخزر . معجم البلدان ، ٢ ص ٦٦ — ٦٧ ؛ انظر . بعده .

وهو له أسباء عدة منها بحر قزوین بسبب بلدة قزوین القديمة . انظر عنها معجم البلدان ،

٧ ص ٧٩ ؛ فابعدا .

(١٢) الثانية ، ص ٦٧ ؛ فتح البلدان ، ص ٢٠٣ ؛ انظر . Ency. de l'Is. ,

t. I, p. 442.

(١٣) نفسه ؛ نفسه ، انظر . Id. .

وقد كان يسكن هذه البلاد شعب أسوي لا تعرف أصله ، ينسب إلى هذه البلاد ويعرف بالأرمن^(١) ، تحول إلى المسيحية^(٢) من عهد ميكر ؛ مما كان سبباً في أن بدأت تظهر له شخصيته ، التي لا يزال محتفظاً بها إلى الآن . كذلك كان يعيش في ارمينية جماعات يهودية ومجوسية^(٣) ؛ أتته من البلاد المجاورة .

ولكن وقوع هذه البلاد بين شعوب متعادية جعلها طعمة لغيرانها^(٤) منذ قديم الزمان : كالسوقيين والرومان والبيزنطيين من ناحية ، وعمالك إيران من ناحية أخرى . ويظهر أن فرواً من أسرة الأرشكانيين^(٥) (البارثيين) الفارسية ، استطاعت أن تكون فيها ملكاً دام مدة أربع قرون . وبعد زوالهم من ارمينية سيطر الساسانيون على جزء كبير منها ، فكانوا يمينون عليه حاكماً «مرزباناً»^(٦) ؛ وإن كان البيزنطيون^(٧) من ناحيتهم استولوا على الأجزاء المجاورة لهم . وقد كان ظهور شعب^(٨) انظر في المناطق الشمالية المجاورة لارمينية — وهو شعب مجهول الأصل يتكلم لغة مخالفة للغة الترك — أن جعل الفرس تبني قلعة أو قصوراً من الحجارة على أفواء شعاب جبال القبق أو القوقاز عرفت بالأبواب^(٩) ، لمنع غاراتهم ؛ ومع ذلك عسكن انظر من الاستيلاء على بعض أجزائها^(١٠) . ويبدو أن الروم في عهد قسطنطين^(١١) استطاعوا

(١) انظر . فتوح البلدان ، ص ١٩٩ س ٩ ؛ مجمل البلدان ، ١ ص ٧٠٣ ؛

انظر . Eucy. de l'Is. t I, p. 442.

(٢) انظر . Sebèos, p. 109 sqq. منهميم الكاثوليكية .

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٠ .

(٤) أغابوس ، ص ٢ ؛ Sebèos, p. 4 sqq ؛ انظر . Eucy. de l'Is. t I, p. 442 — 3.

(٥) انظر . Collection des Historiens : Langlois ؛ Sebèos, p. 1 . anciens et modernes de l'Arménie, tome I et II, Paris 1867—9, p. 80.

(٦) أغابوس ، ص ٢ ؛ Sebèos, P. 4 sqq. ؛ ٧٠٣ ؛

(٧) مجمل البلدان ، ١ ص ٢٠٤ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٩٤ ؛ انظر . Laurent :

L'Arménie entre Byzance et les Arabes, Paris 1919, p. 304.

(٨) فتوح البلدان ، ص ١٩٥ س ١٠ ؛ مجمل البلدان ، ٣ ص ٣٢٧ ؛ فابدها ؛

انظر . Eucy. de l'Is. (art Khazar) t2, p. 99 sqq.

(٩) البلاذري ، فتوح ، ص ١٩٤ — ١٩٥ ؛ مجمل البلدان ، ٣ ص ٩٠ .

(١٠) البلاذري ، فتوح ، ص ١٩٤ ؛ ١٩٧ .

(١١) أغابوس ، ص ٢ ؛ ٧٠٤ ؛ انظر . H. el Del , Op. cit, p. 356, ؛

أن يضموا الجزء الأكبر منها بعد هزيمتهم الفرس؛ بحيث أنهم جلبوا^(١) إليها الجوع الكثيرة؛ وإن كان الأرمن حائمي الثورة عليهم للاختلاف في المذهب^(٢). وقد كان لطمع جيران ارمينية، ولطبيعة أرضها الجبلية أن قسمت منذ القدم إلى أقسام^(٣) مختلفة، مثل: ارمينية الكبرى ورمينية الصغرى، أو ارمينية الداخلة أو الخارجة، بل ثلاث أو أربع أو خمس أرمينيات.

ونحن لا نرى في أسباب مهاجمة العرب لارمينية؛ إلا أنهم أصبحوا على حدودها، بعد أن فتحوا بلاد الجزيرة ومنطقة آذربيجان^(٤) الفارسية؛ بحيث أنهم في عهد عمر كانوا قد منحو بعض أهلها المجاورين للجزيرة الأمان^(٥)؛ وفتحوا بعض مدينتها^(٦). أضف إلى ذلك أن غزوها كان ضرورة لتأمين^(٧) حدود إمبراطوريتهم في الجزيرة وسورية لوجود حدود مشتركة، وأن العرب أرادوا تضيق الخناق على دولة الروم بآسيا الصغرى. بحرقها من أرمينية الخاضعة لها، تمهيداً للقضاء عليها كما قضوا على فارس من قبل.

على كل حال نجد أن الخليفة عثمان بن عفان مهد لغزو أرمينية، بجمع القيادة في سورية والجزيرة لماوية سنة ٢٥^(٨)/٦٤٦، فأرسل هذا الأخير قائداً عرف بحروبه مع بيزنطه^(٩)، هو حبيب بن مسلمة الفهري، ليفتزوها بجنود من سورية والجزيرة والمراق

(١) السكامل، ٣ من ٤٣؛ Sebēos, p. 107.

(٢) انظر. Sebēos, p. 109sq.

(٣) البلاذري، فتوح، ١ من ١٩٣ — ١٩٤ و ١٩٩؛ ابن حوقل، تحقيق De Goeje، ٢ من ٢٩٥؛ مسجم البلدان، ١ من ٢٠٣ — ٢٠٤؛ انظر. Ency. de l'Isl. II, p. 449.

(٤) مسجم البلدان، ١ من ١٥٩ — ١٦٠.

(٥) الطبري (Annales) ١ : ٢٦٦٥ — ٢٦٦٦؛ انظر. مجموعة الوثائق، ٢٦٣.

(٦) انظر. مسجم البلدان، ١ من ١٩٠ — ١٩١؛ ٢ من ٩٠.

(٧) انظر. Chebra : La lutte, p. 70.

(٨) فتوح البلدان، ١ من ١٧٨؛ انظر. Chebra : La lutte, p. 72.

(٩) فتوح البلدان، ١ من ١٩٧؛ السكامل، ٣ من ٤٣.

والهجاز . ومع أن العرب قوبلوا في أرمينية بمقاومة من الروم^(١) - الذين جموا
 جوعاً عظيمة من الأرمن وشموب الخزر^(٢) ، فإن مدن أرمينية الهامة أخذت تقع
 في أيديهم ، وعقد حبيب مع أهلها معاهدات^(٣) أمان وصلاح ؛ مثل : قَالِقِلا^(٤)
 مركز أرمينية الرومية ، وكَدِيل^(٥) مركز أرمينية الفارسية ، وقَفْلِيس^(٦) الواقعة
 على نهر السكر قرب بلاد الخزر . كذلك خرج قواد آخرون متوغلين في جميع
 أجزائها ، حتى أن العرب في أنسياعهم بلغوا بِلَنْجَر^(٧) محمية الخزر ، وبرَذمة^(٨)
 في أقصى نواحي آذربيجان الفارسية ، وشمشاط^(٩) في أقصى أرمينية الرومية
 على شط القرات . ولكن بدلا من أن يتولى حبيب عمل أرمينية ، ولي عمان
 حذيفة بن^(١٠) البمان لينتفع بحبيب كخازن في ثنور الشام والجزيرة . والواقع أن
 خضوع أرمينية للعرب كان يعتمد على معاهدات^(١١) الصلح ، أكثر من اعتماد
 على حمايتهم ؛ وبذلك حققت الدولة العربية هدفها في تأمين حدود بلادها ، وتضييق
 الخناق على دولة الروم .

(١) الكلل ، ٣ من ٤٣ من ٩ - ١٠ ؛ انظر . Sebeos, p. 107.

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٩٧ ؛ 444 p. Ency. de l'Isl, I,

(٣) فتوح البلدان ، ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ ٢٠٤ ؛ انظر . مجموعة الوثائق ،

ص ٢٥٨ - ٢٦١ .

(٤) معجم البلدان ، ٧ من ١٧ . قد تكون « Erzurüm » انظر . Ency. de

l'Isl, II, p. 443.

(٥) معجم البلدان ، ٤ من ٣٥ . هي ما تعرف بـ (Dwin) انظر . Ency. de

l'Isl, II, p. 444.

(٦) معجم البلدان ، ٤ من ٣٩٦ .

(٧) قس ، ٢ من ٧٧٨ .

(٨) قس ، ٢ من ١٢١ .

(٩) قس ، ٥ من ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(١٠) فتوح البلدان ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ . توفي سنة ٤٢ هـ بمشق .

(١١) انظر . Sebeos, p. 133 ؛ انظر . Cheira - Les Statuts de pays

des Ahd, p. 47.

ومن الجائر أن يكون لفزو ارسينية أثره الكبير في جمع القرآن في نص موحد: فقد دُهل حذيفة^(١) بن اليمان — أحد قواد العرب — بسبب الاختلاف في قراءة القرآن بين جنوده من أهل المراق والشام؛ فقدم على عثمان، وقال^(٢) له: « ادرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى »؛ فذلك عمل الخليفة على جمع القرآن في نص موحد.

أما قبل ذلك فلم يرد إلينا ما يؤيد أن النبي قام بجمع القرآن في كتاب واحد؛ وإنما كان يُعْلَى ما ينزل به الوحي على بعض الصحابة، الذين عرفوا بكتاب الوحي^(٣)، فكانوا يكتبونه على الرقاع والسبب والأكتاف والأقناب والخفاف والقراطيس وقطع الأديم، حيث كانت تقوم مقام الورق وقتئذ. وإن كنا لا نعرف كيف كان الأملاء، خصوصاً وأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة على النبي، وإنما مفرقاً^(٤)، وأنه كان ينزل عليه ليلاً وهو نائم^(٥)، أو نهاراً حتى وهو راكب ناقته^(٦)؛ كما أن النبي كان ينسخ^(٧) بمض الآيات التي أملاها ويأتي بأخرى محلها.

ولا ريب أن النبي لم يفكر في جمع القرآن في كتاب واحد؛ لأنه كان

(١) أنساب، ٥ من ٦٢ من ١٩. (٢) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ص ١٠٢؛

انظر Le Coran. Introd. Paris 1947; p. 53. : Blachère.

(٣) السيوطي، الاتقان ١٠١ — ١٠٢. الرقاع مفرداً رقعة تكون من جلد أو ورق، والسبب جمع نصيب وهو جريد النخل، والأكتاف جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الغنم كانوا إذا جف كتبوا عليه، والأقناب جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير، والخفاف وهي الحجارة الفلقة، والقراطيس جمع قرطاس وهو الورق، أما الأديم فهو الجلد.

انظر أيضاً Gesch. des Qurāns. Die Sammlung des Qurāns, : Schwally Leipzig 1919, p. 13. n. 2, 3, 4, 5, 6, 7.

(٤) الاتقان، ١ من ٤٨.

(٥) قصه، ١ من ١٣؛ ٣٤؛ ٣٧.

(٦) ابن خلدون، المقنعة، ص ٧٩ من ٢٢.

(٧) القرآن ٢: ١٠٦.

مثل بقية العرب يجبذ^(١) الحفظ في صدور الرجال على الكتابة ، وأن الله هو خير حافظ^(٢) له في الصدور ؛ وأنه وإن كان أملاء متفرقاً فلكي يحفظ لا يكون عليه الاعتماد^(٣) ، ولذلك كان النبي يرسل يقرأ القرآن^(٤) إلى أنحاء الجزيرة لتعليمه للعرب ، ولا يرسل ما كتب منه . وعلى المكس نحن لا نظن إطلاقاً بأن النبي لم يجمعه في كتاب بسبب أنه أمي^(٥) ، فهذه الكلمة في القرآن لا تمنى الجهل وإنما تمنى أن العرب ليسوا من أهل الكتاب ، كالنصارى واليهود .

كذلك لم يفكر أحد في حياة النبي في جمعه ؛ لعدم ضرورة ذلك لوجود صاحب^(٦) الرسالة ولكن بعد موته وتجدد حاس لحجم القرآن بين بعض الصحابة ، مثل : علي^(٧) وعبد الله بن مسعود^(٨) وأبي بن^(٩) كعب وأبي موسى الأشعري^(١٠) ... الخ . فكل من هؤلاء كان عنده نسخة من القرآن جمها باجتهاده وبطريقته الخاصة ؛ وقد انتشرت هذه النسخ مع الفتوح وأصبحت عماد الدين . ولعل أهم ما جمع منها هو نسخة الخليفة أبي بكر ، الذي أمر^(١١) زيد بن ثابت — أحد كتاب الوحي للنبي — بجمع القرآن في كتاب بسبب أنه احترم عدد كبير من القراء يوم الحيمامة سنة ١١/٦٤٣ ؛

(١) كشف الظنون ، ١ من ٢٦ . ينسب إلى النبي بعض الأحاديث بأنه نهى عن الكتابة ، لتبقى العرب على ملكة الحفظ . انظر : نفسه ؛ الخطيب البغدادي ، تهذيب العلم ، تحقيق يوسف المش ، دمشق ١٩٤٩ ، ص ٣٣ .

(٢) (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ١٥ : ٩) انظر أيضاً القرآن ٧٥ : ١٧ .

(٣) الخطيب البغدادي ، تهذيب العلم ، ص ٦٨ .

(٤) الكامل ، ٣ من ٥٦ ص ٥ .

(٥) القرآن ٧ : ١٥٨ ؛ انظر . Noldeke : Geschichte des Qurāns , Gottingen 1860, p. 16.

(٦) انظر . Introd. au Coran, p. 25 : Blachère .

(٧) السيوطي ، الاتقان ، ١ من ١٠٠ . يقال أنه أول من بدأ بجمعه .

(٨) نفسه ، ١ من ١٠٧ ؛ الكامل ، ٣ من ٥٥ . توفي في خلافة عثمان . انظر .

أسباب الأضراف ، ٥ من ٣٢ ص ٢٢ .

(٩) الاتقان ، ١ من ١٠٧ ؛ ١٢٤ ؛ توفي في خلافة عثمان ، انظر . Schwally .

Die Sammlung des Qurāns, P. 30sqq.

(١٠) نفسه ، ص ١٢٤ . كان مصنفه يسمى باب القلوب . الكامل ، ٣ من ٥٥ . توفي

عام ٦٧٢/٥٢ .

(١١) الكامل ، ٢ من ٢٤٧ ؛ ٣ من ٥١ ؛ الاتقان ، ١ من ٩٩ .

ثلاثاً يذهب القرآن . فلما جمعه زيد بقي عند أبي بكر إلى أن توفاه الله ثم عند عمر ، فلما توفي عمر أخذته حفصة . وإن كان من المعلوم أن أبا بكر أو عمر لم يفرض هذا القرآن على أحد ، وذلك بسبب عدم رغبتهما في القيام بعمل لم يعمله النبي . ولكن الخليفة عثمان بن عفان أخذ على حقه أن يقوم بذلك ، لأنه في عهده اختلف^(١) في وجوه قراءته بين المسلمين بسبب تمدد لهجات^(٢) العرب . كذلك قد يكون هناك غرض سياسي بقصد التقليل من نفوذ القراء ، الذي تزايد بسبب أنهم وخدم يعرفونهم مضمون القرآن ، بأن يوجد له نصاً مقروءاً . وقد اعتمد عثمان في تنفيذ^(٣) هذا المشروع على جماعة منهم : زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ؛ وقال لهم إذا اختلفتم فاصكثوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم . وقد اتخذ هؤلاء قرآن أبي بكر — الذي طلبه^(٤) عثمان من حفصة — أساساً لعملهم ؛ فكان هذا الاختيار موقفاً لثقة^(٥) الناس في أبي بكر ، وإن اعتمدوا أساساً على ذاكرة القراء ، وجعلوا النص قرينة^(٦) على صحة الحفظ . فلما أنعوا جمعه نسخوا منه عدة^(٧) نسخ أرسلها الخليفة إلى كل أقرن : في مكة والبصرة والكوفة والشام واليمن والبحرين ، وأمر بإحراق^(٨) ما سواه ، والاهتمام عليه دون غيره . وقد كان هذا القرآن الذي جمع يسمى : «مصحف عثمان» أو «قطب المصحف»^(٩) .

(١) الاثتان ، ص ١٠٣ .

(٢) نفسه ؛ انظر . يحيى تاي ، أصل الخط العربي ، ص ٨٧ ؛ انظر . Ency. de

l'isl. (art Othmân) t 3, P. 1078

(٣) الكامل ، ص ٣ ، ص ٥٦ ؛ الاثتان ، ص ١٠٢ . ولي عثمان في حياته زيداً . الديوان
وبيت المال . نفسه ، ص ٣ ، ص ٩٨ ، ص ٧١ .

(٤) نفسه ، ص ١ ، ص ٥٦ .

(٥) انظر . Qorâns, P. 205 : Noldeke

(٦) الخطيب البغدادي ، ص ٦٨ .

(٧) اختلف في عدد النسخ فقيل أربع أو خمس أو سبع . الاثتان ، ص ١ ، ص ١٠٤ ؛

انظر . Qorâns, p. 234. : Noldeke

(٨) الكامل ، ص ٣ ، ص ٥٦ .

(٩) هذا المصحف لم يبق لنا ، وإن ذكر ابن بطوطة وجوده في الجامع الأموي بدمشق . انظر . رحلته .

(١٠) الاثتان ، ص ١ ، ص ١٠٢ ؛ انظر . Qorâns, P. 193 n (I) : Noldeke

وُقسم إلى سور^(١) بلغ عددها مائة وأربع عشرة سورة ، فيها ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف آية^(٢) : وكل سورة فيه تبدأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ماعدا سورة براءة^(٣) التي يبدو من سياقها أنها جزء من سورة الأَنْفال السابقة لها . ويبدو أن القذاكرة العربية لم تع الترتيب التاريخي لنزول الآيات ، فرتبتها^(٤) على حسب قصرها وطولها ، مما كان سبباً في أن جعل السور المدنية تظهر في أول المصحف والمكية في آخره ، مع أنه ورد عن النبي أنه كان يأمر كتاب الوحي بوضع الآية كذا بعد آية كذا^(٥) . ومع ذلك فأتا نرى أن القرآن كتاب للدعوة الدينية ، وليس كتاباً تاريخياً .

ولكن ما قام به عثمان في جمع القرآن لم يكن عملاً تاماً ، لأن سكان البسلاط المفتوحة حينما أسلموا لم يكن في استطاعتهم^(٦) قراءة القرآن ؛ إلا بمساعدة أهل الحجاز وحفظه عن ظهر قلب ؛ وذلك لخلاو اللغة العربية وقتئذ من التنقيط^(٧) ، فكانت حروفها متشابهة . ويظهر أن الحجاج^(٨) بن يوسف الثقفي في عهد الأمويين أخذ على عاتقه وضع النقط للقرآن ؛ مما سهل قراءته . وإن كان بعض الفقهاء لهم رأى في ذلك : هو أن التنقيط مكروه ؛ لأنه يسيء^(٩) الظن بالنص .

(١) ليل أسلمها من السور أي ما بقي من المزاب ، أو مأخوذين السور بمعنى التصاعد .
الأخلاق ، ١ ، ص ٨٩ .

(٢) نفسه ، ١ ، ص ١١٢ .

(٣) إذا عادت الأفعال وبراءة سورة واحدة ، فانه يكون عدد سور مائة وثلاث عشرة سورة . الأخلاق ، ١ ، ص ١١٢ .

(٤) انظر . القرآن ؛ سعيد بن طريق ، ٢ ، ص ٣٢ ، ص ٢٢ .

(٥) الأخلاق ، ١ ، ص ٨٢ ، ١٠٤ .

(٦) انظر . - Blachère : Introd. P. 66

(٧) انظر يحيى فاضل ، أصل الخط العربي ، ص ٨٧ .

(٨) كشف الظنون ، ١ ، ص ٤٦٧ — ٤٦٨ . انظر بعده .

(٩) نفسه ، ١ ، ص ٤٦٨ ، ص ٤ .

مهما يكن فقد حدث في آخر عهد هذا الخليفة ما يسميه المؤرخون للمسلمون « بالفتنة^(١) » : ويقصدون^(٢) بها انقسام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم ، وهى الوحدة التى أوجدها أبو بكر بقمعة الردة ، وزادها عمر قوة بما أوجد لها من تنظيم . وسيترب على هذه الفتنة حروب بين المسلمين سيروح الخليفة نفسه ضحيتها ؟ ونحن لا نعرف أسباباً مباشرة لوقوعها ، وإن كنا نرجحها بعدة عوامل :

لعل أهمها تنبؤ ظروف المجتمع العربى : فقد أترى أهل الحجاز بمخروج اليهود والنصارى من بلادهم ، وبما ورد لهم من غنائم الأمم المفتوحة التى أخذت تترى عليهم كالسيل ، وباستقبال القصاد من الحجاج المسلمين . وقد خاف الخليفة عمر أن يسكون هذا الثراء الطارىء سبباً فى فساد قريش ، فتؤثر التنعم على الجهاد والفتوحات ، فذلك حصرم بالمدنية ولم يسمح لهم بالإطلاق^(٣) إلى البلاد المفتوحة لتكوين الثروات ، واكتفى بتقرير العطاء . ولكن عثمان الذى تولى الخلافة لم يسر على خطا سلفه ، وإنما زاد فى العطاء وأسرف فى منح الاقطاعات^(٤) والجوائز والصلوات ، وسمح لقريش بالإنتشار^(٥) فى الأمصار ؛ بحيث وجدنا أن الصحابة قد أغتتوا ، فثلاً طلحة^(٦) جمع مائتى ألف .

وقد كان نتيجة هذا الثراء أن ظهر^(٧) الترف واللهو فى المجتمع العربى : فعاد أهل الحجاز إلى حياة الخواصر الحجازية القديمة فنعموا بسماج قصائد

(١) الكامل ، ٣ ، ص ١٠٣ إلى ١١٩ .

(٢) لسان العرب ، ١٧ ، ص ١٩٣ ، ١٩٦ .

(٣) الكامل ، ٣ ، ص ٩١ إلى ١٠٤ .

(٤) المخطط ، انظر .

(٥) نفسه ، ٣ ، ص ٩١ .

(٦) انبواب الأشراف ، ٥ ، ص ٨ إلى ٢٠ — ٢١ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٩ .

الحب^(١) ، كما جلبوا القيان الفارسيات أو الروميات^(٢) ، بحيث اشتهرت مدينة النبي ومكة في عهد عثمان بوجود أمهر الفنانين أمثال^(٣) : طويس وابن حمز وابن سريج . وقد كان الخليفة نفسه يعيش عيشة فيها دعة ورقاهية : فقد^(٤) أسنانه بالذهب ، وكان يأكل^(٥) اللحم والسمن وصفار الضأن والدقيق المنخول ، وينظر إلى امرء على أنه يحمل نفسه مالا تطيق ؛ فقد كان عمر يعيش^(٦) على الميثى الخشن وخبز الشعير ، والثوب الخام المرقوع والقناعة باليسير . وقد كان نتيجة هذا الثراء والاهو حدوث رد فعل بين كثير من فقلاء المسلمين واتقيائهم ، ظهر أثرها في دعوة أبي ذر^(٧) النفارى — أحد أصحاب النبي — إلقاء أخذ بحبب الأقطار بين مكة والمدينة ودمشق داعياً إلى ترك الرقاهية وإكتناز الأموال ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليته ؛ وكان يثير الناس ضد عثمان وعماله ؛ بحيث أن معاوية — عامل عثمان في دمشق — اضطر إلى إرجاعه إلى المدينة ، فنفاه عثمان إلى الرينة^(٨) — من قرى المدينة — ولم يخلص منه إلا بموته سنة ٣١ هـ .

ثم إن عثمان لم يراع المصلحة العامة بقدر رعايته لمصلحة أقربائه : فقد عزل^(٩)

(١) انظر شعر عمر بن أبي ربيعة . انظر . Nallino La Littérature arabe ,

P. 86

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٩ س ٤ .

(٣) انظر عنهم . الأغاني ، (طبعة بولاق) ٤ ص ٣٨ ؛ دائرة المعارف الموسيقية تأليف

Rouant ، ترجمة شلقون ، ص ٥٨ حاشية (١) .

(٤) انساب الأشراف ، ص ٥ س ٤ ص ٦ .

(٥) الطبرى (طبعة مصر) ٣ ص ٤٤٠ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٥٧ ؛ القحفي ، دول الاسلام ، ١ ص ٤٣ ؛ الأنساب ، ص ٥٢ .

فا بيدها ؛ انظر . البياض ، سور من التاريخ الاسلامي ، ص ١٠٨ — ١١٦ .

(٧) هذا المصداق اشترك في تنج مصر ، وغزا افريقية في عهد عثمان . المالكي . وياض النفوس ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٨) الكامل ، ٣ ص ٥٦ فا بيدها ؛ انظر عنها معجم البلدان ، ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٩) انساب ، ص ٢٩ س ١٥ — ١٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤١ .

معظم المال الذين كانوا قد ولاهم عمر بن الخطاب، وعين بدلهم^(١) أقباءه من الأمويين؛ مع أن عبد الرحمن قبل إعلان خلافته أخذ عليه الموائيق ألا يحمل بنى أمية على رقاب^(٢) الناس؛ فولى مروان بن الحكم^(٣) - ابن عمه - على المدينة، وكتب له بخمسة^(٤) غنائم إفريقية، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح^(٥) - أخوه من الرضاة^(٦) - على مصر، مكان عاملها الكفاء عمرو بن العاص، وعبد الله بن^(٧) عامر - ابن خاله - على البصرة، وسعد بن أبي وقاص والوليد^(٨) بن عقبة وسعيد بن العاص - وكلهم من أقبائه - على الكوفة^(٩). وكان معظم هؤلاء المال غير جديرين بمناصبهم، وكان عرب الأمصار يشكون منهم ويشتمون زوالهم^(١٠)؛ فقد كان مروان يسمى طريد^(١١) النبی، وعبد الله بن سعد مطعون الخلق والدين، قد هُدر حمه بسبب تغييره في القرآن عند كتابه الوحي لولا شفاعته^(١٢) عتيان، والوليد بن عقبة كُفب^(١٣) على النبی، وزلت هذا الآية بسببه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ٤٩: ٦٦، وأنه كان يشرب^(١٤) الخمر، وسعيد بن العاص كان يعبث بالأموال وينزع نحو التمتع بالملك كأي ملك من القرس أو الروم، بحيث كان يقول إنما هذا الدواد بستان^(١٥) لقريش؛ وأخيرا

(٢) انساب، ٥ ص ٢٥ س ١٥ - ١٦.

(٢) قسه، ٥ ص ٢٧ س ٨ - ٩.

(٣) قسه، ٥ ص ١٢٥.

(٤) قسه، ٥ ص ٢٥ س ١٧؛ ٢٧ ص ٢٣.

(٥) قسه، ٥ ص ٢٦ س ٥؛ انظر. جاد اللوى، انصاف عتيان، القاهرة ١٩٤٤، ص ٣٢.

(٦) انساب، ٥ ص ٢٨ س ٢، عن عزل عمرو. انظر. الكامل، ٣ ص ٤٥ س ٦.

(٧) انساب، ٥ ص ٣٠ س ٤.

(٨) هو أخو عتيان لأمه. قسه، ٥ ص ٢٩ س ١٨؛ التويرى، ٤ ص ٨٩.

(٩) الكامل، ٣ ص ٤٢؛ ٦٩.

(١٠) مثل عرب مصر، الذين كانوا يشتمون زوال عبد الله بن سعد. انساب، ٥ ص

٢٦ س ٦، ٩، ١١ - ١٢.

(١١) قسه، ٥ ص ١٢٥.

(١٢) انظر. جاد اللوى، عتيان، ص ٣٢.

(١٣) انساب، ٥ ص ٣٥ س ١١ - ١٢؛ انظر. طه حسين، عتيان، ص ٩٣.

(١٤) انساب، ٥ ص ٣١ س ٧؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٧٠ س ٢٠.

(١٥) انساب، ٥ ص ٤٠ س ١٧.

سعد بن أبي وقاص، الذي عزل عن الكوفة بسبب اتهامه بالعبث بأموال الصدقة .
أضف إلى ذلك أن عثمان ينتمى إلى الأمويين ، مما جعل بنى هاشم يفتقون له
بالرصاد ، ويندبون عليه هناته ، لما بينهما من تنافس قديم ^(١) يرجع إلى أيام الجاهلية .
وقد وجد بنو هاشم لهم داعية جريئاً فى شخص رجل يعرف باسم عبد الله ^(٢)
بن سبأ ، ويتلقب بابن السوداء ؛ يبدو أنه كان يهودياً من اليمن ، وأسلم زمن عثمان .
فقد كان هذا الرجل محبوب الحجاز والمراق والشام ومصر ^(٣) داعياً ضد
عثمان ، الذى اغتصب الخلافة مع وجود على وصى النبى ، بل اتهم عثمان
بتبديل بعض السور التى تشير إلى وصاية النبى لىلى فى إمامة المسلمين ؛
خصوصاً وأن حرق مصاحف الصحابة أوجد المجال لثل هذه الاتهامات ^(٤) ؛
مما هيج العارضة فى الأمصار .

ومع ذلك لم تظهر الفتنة إلا بين حرب الأمصار ، الذين كان معظمهم ^(٥)
جفاة من صميم البادية ، لا نههم ^(٦) قريش بقدر اهتمامهم بسير أمور
الدولة الإسلامية سيراً حسناً ؛ فضلاً عن حقدهم على قريش مكانتها ، لظهور
الاسلام فيهم ، وعتمتها معظم خبرات الفتوح . فمؤلا الذين قامت الفتوح على
اكتافهم ، كانوا يريدون أن يكون لهم رأى مسموع ^(٧) فى اختيار الخليفة ،
بحيث أنهم أرسلوا احرأهم « امرأ الأجناد ^(٨) » إلى المدينة بعد موت عمر .

(١) الكامل ، ٣ من ٤٢ س ١٩ .

(٢) انظر . قبله .

(٣) ابن حزم ، الفصل ، ٢ من ١١٥ ؛ الكامل ، ٣ من ٧٢ س ٢١ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art 'Abd Allah B. Saba) t. ١ , P. 30 ، حبان ،
س ١٣١ فما بعدها .

(٤) الكامل ، ٣ من ٨٧ ؛ التوفيقى ، فرق الشيعة ، س ٢٢ ؛ انظر . جاد الملوك ،
عثمان ، س ٤٠ .

(٥) اسباب ، ٥ من ٦٢ س ١٧ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، س ١٧٠ س ٨ ؛ الكامل ، ٣ من ٨٧ س ١٧ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، س ١٧٠ س ١٤ .

(٨) الكامل ، ٣ من ٣٧ .

(٩) قسمه ، ٣ من ٣٧ س ٨ .

وإذا كانوا قد ارتضوا الخليفتين ^(١) الأولين دون معارضة فلكانتهم ؛ ولجسامة الظروف في ذلك الوقت ، وحى ظروف ارتداد العرب والفتح . ولكن هذه الظروف الحرجة كانت قد انتهت ، واقتصرت الفتوح فقط على تأمين ^(٢) حدود الإمبراطورية ؛ فلم تمجهم طريقة اختيار خليفة الاسلام دون ^(٣) مشورتهم ، ومن وراء الكواليس . ومن ناحية أخرى لم ير أهل المدينة تحقيقاً للوعد الذي بذله لهم المهاجرون في سقيفة بني ساعدة بأن يكونوا هم الوزراء ^(٤) ؛ فهم لم يستشاروا إطلاقاً في اختيار عثمان .

لذلك نجد أنه فشت القالة ^(٥) بين عرب الأمصار بنقد الخليفة وتصرفاته ، وساعد على ذلك لينة ^(٦) وحله بعد شدة ^(٧) عمر ، وأيضاً كبر سنه ، فقد بلغ الثانية والثمانين من عمره ^(٨) ؛ مع العلم بأنه لم يجرؤ أحد من قبل قد أبى بكر وعمر ؛ حيث كان كل منهما يسوس الأموال والناسب بالمدل والقسطاس . كذلك وجدنا بعض الصحابة ^(٩) ، وبخاصة على ^(١٠) يقف موقف المدافع عن سنة السلف والعدل ، ويلومه على توليته لأقاربه ^(١١) ، وإنحرافه عن طريق الخلافة ،

(١) الكامل ، ٣ ، ص ١١١ .

(٢) انظر . قبله .

(٣) الكامل ، ٣ ، ص ١١١ س ١١ ؛ انظر . Lamnens : Etudes sur le siècle des Omeyyades, P. 193.

(٤) انظر . قبله .

(٥) ابن خلون ، المقدمة ، ص ١٧٠ س ١٦ .

(٦) انساب ، ٥ ، ص ٢٥ س ١٥ .

(٧) نفسه ؛ انظر . طه حسين ، على وينوه ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٣ .

(٨) سعيد بن بطريق ، ٢ ، ص ٣٣ . هناك رواية أخرى تفيد أن عمره خمس وعشرون سنة .

انساب ، ٥ ، ص ٩٩ س ٥ — ٦ .

(٩) قد يكون منهم عائشة وطلحة والزبير . انظر . نفسه ، ٥ ، ص ٢٦ س ١٣ — ١٤ ؛

ص ٣٤ س ١٦ ؛ ص ٤٩ س ٩ فأبداها .

(١٠) نفسه ، ٥ ، ص ٢٦ س ١٤ — ١٥ ؛ انظر . Ency. de l'isl, (art 'Ali B. .

Abi Tâlib) II, P. 285.

(١١) انساب ، ٥ ، ص ٨٨ .

وسياتيها قبله . وقد ظهرت المعارضة بشكل جدى حينما تزعمها القراء^(١) في الأمصار وأخذ الخليفة يرضى معارضيه^(٢) بمنزل عماله على الكوفة ومصر والبصرة أكثر من مرة .

وفي سنة ٦٥٥ / ٣٥ خرجت^(٣) جماعة من المنحرفين على عثمان من مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة لوم الخليفة ، أما الشام فلم يظهر منها ممتعض لوجود معاوية القوى^(٤) . وبدلاً من أن يُظهر الخليفة قوة وحزماً أمام عرب الأمصار ، ضعف ولجأ إلى مفاوضاتهم ، ووعدهم بإصلاح الأخطاء^(٥) ، واعترف بأنه زل وتاب^(٦) ؛ مما جعل أغلبهم يقبلون العودة إلى الأمصار .

ولكن بعد رحيلهم عن المدينة ، ادعى عثمان في إحدى خطبه أن عرب الأمصار اعترفوا له بأن ما يلثمهم عنه باطلاً^(٧) ؛ ولما كان أهل المدينة على علم بحقائق الأمور فقد استكتفوا على الخليفة الكذب ، فحصبوه^(٨) بالحجارة حتى وقع مغشياً عليه . ومن ناحية أخرى وقع في أيدي عرب مصر الفساد كتاب^(٩) مرسل من عثمان إلى عامله يأمره بمجدة التمردين والثلة بهم وطول الحبس^(١٠) . ولذلك أسرع عرب الأمصار بالعودة إلى المدينة ليجابوه بالكتاب ، ولكنه أنكره ، مما أوغر صدورهم ؛ وجعلهم يحاصرون^(١١) بيته بقصد تعطيشه ومنع القوت عنه ، حتى يخلف

(١) قصة ، ٥ من ٤٤ س ٧٠ .

(٢) ابن خلدون ، ١٧٠ س ١٧٠ ؛ الكامل ، ٣ من ٤٩ .

(٣) انساب ، ٥ من ٣٠ س ٦ فا بعدها ، ٥٩ .

(٤) الكامل ، ٣ من ٧٥ س ١١ .

(٥) انساب ، ٢ من ٤٦ س ٢١ ؛ ٦٤ س ٧ — ١٣ ؛ انظر . جاد المولى ، عثمان ،

ص ٧٧ — ٧٧ .

(٦) انساب ، ٥ من ٦٤ س ١٨ ؛ الكامل ، ٣ من ٨٢ س ٩ ، ١٩ — ٧٠ .

(٧) الكامل ، ٣ من ٨٢ س ٥ — ٦ .

(٨) انساب ، ٥ من ٧١ س ١٢ — ١٣ ؛ انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٦٨ .

(٩) قصة ، ٥ من ٦٢ ؛ ٦٥ — ٦٦ ؛ ٦٧ ؛ انظر . قصة ، ٦٥ .

(١٠) الكامل ، ٣ من ٨٥ س ١٥ .

(١١) الجاحظ ، رسالة في معاوية والأمويين ، ص ١١ .

نفسه من الخلافة . ولكن عثمان رفض وقال ^(١) : « لا أخلع قيعاً بسنية الله » .
ويظهر أن الأمور تطورت بسرعة ، وخرج بعض الصحابة من المدينة ، حتى لا يظن
بأنهم المحركون للمعتريين على الخليفة : فعلى خرج إلى مكان مجاور للمدينة ، كما أن
جلة المهاجرين والأنصار لم يحركوا ساكناً ^(٢) .

فلما سمع المحاصرون بأن عثمان قد كتب إلى معاوية وعماله ^(٣) في الأعمار ،
يستعجد بهم ويأمرهم بإرسال الجنود إليه ، أشعلوا النار في باب داره واقتحموه ،
وكان جالساً في محرابه يقرأ القرآن ، فضربوه بالسلاح ، وبمجوا بطنه بالحراش ،
وشدخوا هامته بالعمد ، فسال دمه على المصحف ^(٤) في حجره . وقد حاولت
زوجته نائلة بنت ^(٥) الفرافصة — التي تزوجها من قبيلة كلب على حدود
الشام — اتقاء سيوف الثوار يدها ، فقطعوا أصبعين ^(٦) من أصابعها ، فبكت
عن قناعها ورفعت عن ذيلها ، ليكون ذلك ردعاً لهم ، ولكن هذا لم يمنع من
قتل زوجها ، الذي ألقى بجسده في الأوساخ ^(٧) . وقد سعت نائلة إلى دفن زوجها ،
وأرسلت بقميصه المخصب بالدم وأصابها التي قطعت إلى معاوية ابن عمه ، لتحريضه
على الأخذ بالخليفة عثمان ، مما ترتب عليه أن هبت ريح الفتنة بين المسلمين .

(١) الكامل ، ٣ من ٨٥ س ٢٠ .

(٢) الجلاظ ، رسالة ، ص ١٢ — ١٣ .

(٣) انساب ، ٥ من ٩٧ س ٥ — ٤٦ الكامل ، ٣ من ٨٥ س ٢٦ .

(٤) انساب ، ٥ من ٨٣ في الجلاظ ، رسالة ، ص ١١ — ١٢ .

(٥) انساب ، ٥ من ١٢ في ابن قتيبة ، عيون ، ٤ من ٤٦ في الجلاظ ، رسالة ، ص ١١ .

(٦) انساب ، ص ١٢ .

(٧) الجلاظ ، رسالة ، ص ١١ .

بعد مقتل عثمان أصبح عليّ وشيك تنفيذ رغبات قلبه في تولي الخلافة ، فقد جاءه الناس كلهم يهرعون وهم يقولون : أمير المؤمنين^(١) . وفي الحقيقة أن عليّاً كان قد شمر في قرارة نفسه - وهو قريب النبي - أنه سُمي عن الخلافة ، وأن تريض تحاملت^(٢) عنده لأنه من بيت هاشم الذي ظهرت فيه النبوة ، وعارض عشائرها إلى أن بسط الاسلام سلطانها ؛ فاضطروه إلى بيعة أبي بكر وعمر ، وأخيراً بيعة عثمان بمحمد السيف^(٣) . ولذلك قبل عليّ الخلافة من عرب الأمصار وكبار^(٤) أهل المدينة لا عرضوها عليه ؛ وإن كان بعض الصحابة توقفوا^(٥) عن بيعته حتى تنجلي الأمور . وقد اتخذ عليّ بجانب ألقاب الخلافة لقب : «الامام»^(٦) ، لا فيه من معنى أحقيته^(٧) امامة المسلمين كما في الصلاة ؛ وبذلك أضفى على الخلافة سلطة دينية بجانب سلطتها الزمنية ، حتى لا يسهل معارضتها .

ولكن يؤكد عليّ سلطته في جميع أرجاء الدولة الاسلامية أرسل بالسكتب^(٨) يشرح فيها قبوله الخلافة من أيدي عرب الأمصار ، وأهل المدينة . ولكن هذه البيعة جعلت العرب في مناطق الأعمال تنقسم على نفسها ؛ بحيث لم يكن يحلو قطر من أقطارها من وجود أعداء له أو حاقدين عليه . وفي نفس الوقت باذر تحت تحريض الثوار بعزل العمال الذين عندهم عثمان ؛ وقد أذعن جميعهم ماعدا معاوية في الشام ، الذي كان هدده

(١) انساب ، ٥ س ٧٠ س ٩ .

(٢) الكامل ، ٣ س

(٣) انساب ، ٥ س ٢٢ س ١٥ - ١٨ .

(٤) قس ، ٥ س ٧٠ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، س ١٦٩ .

(٦) الكامل ، ٣ س ٩٨ س ٧ ، تدل كلمة «امام» على عدة معان في القرآن ، منها : «مقدم» و«هاد» و«زعيم» و«قدوة» . انظر القرآن ٢١ : ٧٣ ؛ ٧٥ : ٧٤ ؛ ٤٦ : ١٢ . انظر . عن هذا اللقب أيضا . مجلد ، نظم الفاطميين ، ١ س ٧٢ - ٧٣ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، س ١٧٩ - ١٨٠ .

(٨) الكامل ، ٣ س ١٠٤ .

إن نال الخلافة بالمقاومة^(١) : فكان يملق على النبر في دمشق قيص عثمان وفيه أصابع^(٢) نائلة ، ويحرض أهل الشام على الأخذ بشأر الخليفة القاتل .
ويظهر أن أعداء علي لم ينتظروا طويلاً في إعلان مقاومتهم لبيعتة ، فقد تجمع في مكة ذاتها الأمويون^(٣) الحاربون من المدينة ، والحاقدون عليه قبوله الخلافة من أيدي قتلة عثمان ، ومن بينهم أزواج^(٤) النبي ، وعلى رأسهن أم المؤمنين^(٥) عائشة . ومن المحقق أن عائشة كانت مؤهلة للقيام بدور سياسي في تاريخ المسلمين ، فهي بالإضافة إلى أنها أحب^(٦) النساء إلى النبي ، كانت تعتبر حجة^(٧) للرجال والنساء في الدين . وقد ازداد العداء لعلى بمجيء طلحة^(٨) والزبير^(٩) من المدينة — وكلاهما من صحابة النبي وأنصار عثمان — فادعيا أنهما بايعا^(١٠) علياً بالإكراه ، وأنه ليس^(١١) أهلاً للخلافة

(١) الكامل ، ٣ ، ص ٨١ س ٨ — ٩ .

(٢) ابن قتيبة ، الإمامة ، ١ ص ١٣٣ ؛ الأغاني (طبعة بولاق) ١٥ ص ٧٠ ؛

انظر . جاد المولى ، عثمان ، ص ٨٧ .

(٣) الكامل ، ٣ ، ص ٩٩ س ٣ ؛ ١٠٦ س ١٥ .

(٤) نفسه ، ٣ ، ص ١٠٦ . كان عثمان يحج بين كل عام . نفسه ، ٣ ، ص ٩١ س ١٨ .

(٥) كان يشاركها في هذا القرب معظم زوجات النبي . (ابن هشام ، ٢ ص ١٠٠١ ؛

انظر . Essad Bey : Mah, p. 211) . ولا ريب أنها كانت لا تزال تحقد عليه منذ ذلك اليوم الذي تاهت فيه في الصحراء أثناء إحدى غزوات النبي ، حينما اضل عقدها وخرجت تبحث عنه ، فلما رجست كانت القائمة قد رحلت ، وهي تغير مودجها ظناً منهم أنها فيه ، فأحضرها أحد الأعراب إلى النبي وكثر قول أهل الإنك ، فأشار على علي التي يطلقها ، ولكن القرآن برأها وعرف ذلك « بالأنك » أو بمحادثة « المقد » . انظر . البخاري ، ٥ (مجلد ٢) ص ١١٦ ؛ ابن هشام ، ٢ ص ٧٣١ لما بعدها ؛ طه حسين ، علي وبنوه ، ص ٢٩ .

(٦) الكامل ، ٣ ، ص ١١٠ س ٢٠ .

(٧) انظر . Essad Bey : Mah, P. 214 .

(٨) هو أحد قوى قرى أبي بكر ، أسلم صغيراً ، وشهد بدرأ ، ودافع عن النبي يوم أحد ، ووفى رسول الله يديه . الكامل ، ٣ ص ١٠٩ ؛ ابن سعد ، ١/٣ ص ١٥٢ — ١١١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl. (art Talha) t4, p. 673sq. وهو حوارى الرسود ، وأحد المضرة الذينوعملوا بالجنة ، كان قاد للحدائق أرسل افتتح مصر (انظر . قبله) وهو وأجد أصطاب القورى . للمارف ، ص ١١٣ ؛ انظر . Wüstenfeld : Die Familie el-Zubeir, Göttingen 1878, p. 28sq. (١٠) الكامل ، ٣ ، ص ١١٠ س ١ ؛ ١٢٢ .

(١١) نفسه ، ٣ ، ص ٨٠ س ٣ — ٤ ؛ ٩ — ١٠ .

بمد عثمان ولا أولى بها منهما . ولكن لما كانت مكة بلداً حراماً لا يقاتل فيها ، اتخذ أعداء عليّ طريق العراق ؛ خصوصاً وأنه كان لطلحة والزبير فيه أنصار ^(١) يرشعونهما للخلافة ، ويحقدون على عليّ قبوله للخلافة من قلة عثمان .

وقد كان على هذا الثالث : عائشة وطلحة والزبير ، أن يواجهوا أنصار عليّ في العراق . وقد حاولت عائشة أن تثير العرب في هذه النواحي ^(٢) على عليّ ، على أساس أن غايتها « الإصلاح » ^(٣) حتى يختار المسلمون من يرغبون في ولاية أمرهم . ولكن كثيراً من العرب استكبروا على زوجة النبي خروجها ^(٤) من بيتها ؛ وانقسمت ^(٥) القبائل على بعضها : فيما بين مؤيديها ومعارضها . ولا كان أنصار عليّ كثيرين في البصرة ، اضطرت إلى محاربتهم واتصرت عليهم ، وحكمت على حامل ^(٦) البصرة بن قبل عليّ بالضرب ، وتنف لحيته . كذلك كاد يحدث انقسام ^(٧) بين طلحة والزبير على إمامة الصلاة ، لولا تدخل عائشة ، بأن أسندت الصلاة يوماً إلى طلحة ويوماً إلى الزبير .

وقد كان لا بد لمليّ أن يترك المدينة ويسير إلى العراق ، فخرجت عائشة وأنصارها لقاتله ، وأخذت مكانها في المركة وهي جالسة في هودج على جل كالراية لتحميم الجند ؛ إلا أن عليّاً لم يستطع أن ينال النصر إلا بعد أن دارت معركة حامية ^(٨) قتل فيها طلحة والزبير ، ومُحرق جل عائشة ، الذي قتل حوله سبعون ^(٩) رجلاً ، ولقد عرفت هذه الواقعة التي دارت رحاها

(١) قصة ، ٣ ص ٨٠ .

(٢) قصة ، ٣ ص ١١٠ ؛ ١١٢ .

(٣) قصة ، ٣ ص ١١٩ ص ١٠ .

(٤) قصة ، ٣ ص ١١٠ ص ٢٢ .

(٥) قصة ، ٣ ص ١٢٥ .

(٦) قصة ، ٣ ص ١١٠ ص ١٦ .

(٧) قصة ، ٣ ص ١٠٧ .

(٨) قصة ، ٣ ص ١٢٤ .

(٩) قصة ، ٣ ص ١٢٧ .

في سنة ٦٥٦/٣٦ بموقعة الجبل^(١). ومع موقف عائشة العدائي، فإن علياً أعادها إلى مكة معززة مكرّمة^(٢)، حيث عاشت بعد ذلك عيشة هادئة إلى أن ماتت سنة ٨٥/٦٧٨، بعد حوالي سبعة وأربعين عاماً من موت النبي. وبذلك خضعت العراق لعلي، وإن هرب^(٣) منها قوم؛ فصاروا إلى معاوية ليحاربوا معه.

وقد استفاد معاوية — عامل الشام الجريء — من هذه العداوة الطارئة، ليتأهب للقاء علي؛ كما سعى إلى تحسين علاقته بالبيزنطيين^(٤)، برد أسرامهم وعقد الصلح معهم، خوفاً من أن ينهزوا الفرصة فيهمجوا على سورية. فلما تم له ذلك، خرج في سنة ٣٧/٦٥٧، على رأس أهل الشام، القين كان عثمان — الخليفة المقتول — قد تزوج^(٥) من كلب إحدى قبائلهم الكبيرة؛ بحيث أن منهم من أقسم ألا يقتل^(٦) أو ينام على الفرش حتى يقتل قتلة عثمان؛ كما كان يحدث عند الأخذ بالثأر في الجاهلية. فتلاقت هذه الجيوش مع جيوش علي من أهل العراق، أمام «سيفين»^(٧)؛ وهي قرية قديمة غربي نهر الفرات، ليس بينها وبينه غير قبضة ماء وطريق مفروش بالحجارة. وبذلك عادت ذكرى العداة القديم بين حرب

(١) الكامل، ٣، ص ١٠٥، فابعدا.

(٢) نفسه، ٢، ص ١٣٢.

(٣) نفسه، ٢، ص ٢١٠؛ انظر - Essad Bey, P. 214.

(٤) التوحي، فرق الشيعة، ص ٥، ص ١٤.

(٥) انظر - Sebēos, P. (1)؛ الأخبار الطوال، ص ١٦٠؛ فتوح البلدان، ص ٥٩؛ ١٦٠؛ انظر أومان، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة طه بدر، ص ١٣١؛ انظر.

La lutte, P. 105 : Cheira

(٦) الكامل، ٣، ص ١٤٧.

(٧) انظر. قبله.

(٨) الكامل، ٣، ص ١٤١—١٤٢.

(٩) انظر - Chronog. p. 423 : Theophanis؛ الأخبار الطوال، ص ١٧٠؛ ١٧٠؛ Ency, de l'isl, (art Siffin,) ١4, P. 347. انظر عن سيفين. ياقوت، معجم البلدان، ٥، ص ٣٧٠.

العراق وعرب سورية ، وهو عداء ليس مبعثه النزاع بين العرب خلفاء الفرس أو الروم — كما كان الحال سابقاً — وإنما الآن بين أشياع على وأنصار معاوية ، وهم جميعاً من المسلمين .

تراست^(١) القبائل العربية المتعادية أمام بعضها في صفوف يرابطها لتدافع عن أحسابها ، وبدأت الحرب بتبادل الخطب^(٢) الحامية والبسازيات^(٣) الفردية ؛ وإن كان على في هذه المرحلة الأولى استطاع بقيادة قائده الأشتر^(٤) النضى السيطرة على مشارب^(٥) الماء . كذلك تبادل كل من على ومعاوية الرسل^(٦) ، وكان قصد على من ذلك أن يبايحه معاوية ، أما معاوية فصمم على أن يسلم إليه على قتلة عثمان ، وأن يتخلى عن الخلافة ويحملها شورى ؛ ولكن عسكر على أجاب على ذلك أمام رسل معاوية بأنها جميعها قتلة^(٧) عثمان . وبرى المؤرخون وقوع معارك عنيفة بين الطرفين بلغ عددها تسعين^(٨) معركة ؛ خاض فيها على ومعاوية وقائع رهيبة وأبديا من صنوف الشجاعة الشيء الكثير .

ولكن يظهر أنه مع تصميم كل من على ومعاوية على القتال إلى آخر رمق ؛ فإن الرغبة في الاستمرار في القتال عند اتباعهما أخذت تضعف^(٩) ؛ وبخاصة عند اتباع على بين عصابة القراء^(١٠) والحفاظ الكثيرين ، الذين قدروا بحكم حماسهم

(١) الكامل ، ٣ ص ١٥١ ؛ ١٥٦ ؛ ١٥٧ ؛ الأخبار الطوال ، ص ١٧٣ ؛ ١٨٥

(٢) الكامل ، ٣ ص ١٥٠ .

(٣) قس ، ٣ ص ١٤٤ ؛ الأخبار الطوال ، ص ١٧٦ ؛ ١٨٢ .

(٤) الأشتر عرف في حروب الروم (فتوح البلدان ، ص ١٦٤) ، واشترك في موقعة

الجل . انظر . عنه Ency. de l'Isl, (art al-Ashtar) , P. 492-93

(٥) الأخبار الطوال ، ص ١٧٠ — ١٧١ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٤٥ .

(٦) الأخبار الطوال ، ص ١٦٢ ؛

(٧) قس ، ص ١٦٥ ص ٧ .

(٨) الفقيه ، ص ٢٩٥ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٠ .

(٩) الأخبار الطوال ، ص ١٩١ ؛ انظر . رضا ، على ، ص ١٧٣ .

(١٠) الكامل ، ٣ ص ١٥٢ ص ٤ ؛ ١٥٦ ص ١٨ ؛ ١٥٩ ص ٩ ؛ الطبرى

(Ann.ales) ١ : ٣٢٧٢ ؛ ٣٢٨٣ ؛ ٣٢٩٢ .

للاسلام أنه إن استمر العرب في إراقة دمائهم رجع الروم والفرس^(١) إلى قتالهم والطعم فيهم؛ وقدودا فتوحاتها الواسعة، التي حوت عليهم الشرف والمطاء والغير المميع. لذلك أخذ الحاس للقتال يفتر بين الطرفين، فكانت المارك تدور يوماً، ثم لا تلبث أن تخمد في اليوم التالي. ولأرب أن عمرو بن العاص الذي عرف بالدهاء^(٢)، واستطاع معاوية أن يستميله إلى صفه، أحس بهذه الروح القاترة للحرب بخاصة في جيش علي^(٣)، فنصح معاوية بربط مصحف دمشق الأعظم على خمسة رماح يحملها خمسة رجال^(٤) أمام المحاربين، بقصد التحكيم^(٥) إلى كتاب الله وسنة نبيه، ووقف إراقة دماء المسلمين، ولم شت الأمة وصلاحها. وكان نتيجة ذلك أن أجبر علي^(٦) على إيقاف القتال مع تمارض ذلك لمصلحته، خصوصاً وأن كفته كانت الراجعة. وتحت الحاح المارضين في القتال وبخاسة القراء، قبل علي^(٧) التحكيم، وكتبوا لهذا صحيفة^(٨) بدأت بذكر أسماء المتقاضين، وهم علي^(٩) ومعاوية دون أن يذكروا للأول لقب أمير المؤمنين، وإنما اسمه واسم أبيه، وحددوا زمان التحكيم في أجل فايتة انقضاء رمضان؛ وإلا فالطرفان في حل من العودة إلى الحرب، وأن يكون باذرخ^(١٠) مكان وسطيين أهل الشام والعراق، ومما الحكمين الذين سيحكمان في هذا النزاع، وهما عمرو بن العاص ممثلاً لمعاوية، وأبو موسى الأشعري^(١١) ممثلاً لعلي^(١٢)؛ على أن يتخذوا

(١) الأخبار الطوال، ص ١٩٩.

(٢) الكامل، ٣ ص ١٤١ س ٨. يوصف بأنه قاب من أياب العرب. نفسه.

٣ ص ١٤١ س ٨.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال. ص ١٩١ — ١٩٢؛ انظر. Ency. de

l'isl, (art Siffin) t4, P. 424.

(٤) الكامل، ٣ ص ١٦٨.

(٥) نفسه، ٣ ص ١٦٢ — ١٦٣؛ انظر. مجموعة الوثائق، ص ٢٨١ فأ بعدها.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ١ ص ١٦١ بخط المؤرخون بينها وبين حومة الجندل،

ولكن هي ولأرب أذوح. الكامل، ٣ ص ١٦٣ س ١٥ — ١٦؛ أبو الفدا، المختصر،

١ ص ١٧٨؛ انظر. Ency. de l'isl, (art Adhroh) t1, P. 138.

(٧) كان فاضياً على الكوفة من قبل عمر (للقدمة، ص ١٧٤ س ٢١ — ٢٢)، ثم

حاملاً لسان (ابن سعد ١/٤ ص ٧٨ فأ بعدها؛ فوج البلدان، ص ٥٥)، ولكنه عزل، انظر

Ency. de l'isl, (al-Ash'ari) t1, P. 488؛ انظر. جاد المولى، عثمان، ص ٥٤؛

له حسين، على وبنوه، ص ٣٥.

القرآن والسنة وحدها وإيراعيا في ذلك القدمة ؛ وأن يقبل على ومماوية حكمهما وليس لها أن يتقضاء ؛ وقد صدق صحابة على وأنصار مماوية على هذه الصحيفة .

في الواقع أن قبول على لهذه الهدنة كان أول الوهن ، فقد أحدث اهتساماً في صفوف أتباعه ، فتجد جزءاً من جيشه ، ينكر عليه وضع حقه في الخلافة - وهو مقدس - للتحكيم بين الناس ، مع أن ميثان وفض التنازل عنها وقتل في سبيلها ؛ بدلاً من أن تكون الحركة وحدها هي الناطقة بحكم الله^(١) ، على مادة العرب في القتال ؛ فعرفوا بسبب ذلك بالهكمة^(٢) . فلما انسحبوا إلى قرية سحروراء^(٣) - مكان قريب من الكوفة - عرفوا أيضاً بالحرورية^(٤) ، حيث اختاروا وإحدآ منهم جملوه زعيماً لهم ، هو عبد الله بن وهب الراسبي^(٥) . وقد بدأت تختمر بين هذه الجماعة المنفصلة فكرة الخروج ، التي لا تجمل تقريش أو لقرابة على^(٦) للني أي دوجة ، وأن الخلافة يجب أن تعود إلى أفضل الناس مهما يكن أصله أو جنسه ؛ وبسبب ذلك سيمعرفون أيضاً « بالخوارج » ، أي الخارجين على على ومماوية .

ولكن جماعة أخرى كان التحكيم هو السبب في ظهورها ، هي للمنزلة ، لأنها اعتزلت^(٧) بيعة على^(٨) ، وامتنعت من محاربتها أو المحاربة معه ؛ فلم تقفهم في حرب

(١) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ، ص ١٥٥ ؛ اقلر . Ency. de l'isl. (art . Kharidjites) 2, P. 967sqq.

(٢) ابن حزم ، الفصل ، ٢ ، ص ١١٣ .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ، ص ٢٥٦ .

(٤) التوحيدي ، فرق الشيعة ، ص ٦ ، ٤ .

(٥) البنداضي ، الفرق بين الفرق ، ص ٥٧ .

(٦) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ، ص ١٥٣ ؛ الكامل ، ٣ ، ص ١٣١ ، ٢٠ .

الجل ، ولم تشترك في موقعة صفين . ولعل هذه الجماعة التي أعزلت السياسة هي أسلاف^(١) المعتزلة ، التي ستكون لها آراء دينية متمدة^(٢) في العقيدة والقرآن .

وعلى العكس ظهرت فرقة أخرى وقفت موقف التأييد على الأقل من الأمويين هي : المرجئة^(٣) ، التي نشأت في هذه الفتنة ؛ وسميت هكذا لأنها قالت بإرجاء الاختلاف في تكفير الناس في أيمانهم^(٤) وأعمالهم إلى الله . فعلى فرقة لا تقبل رأي الخوارج في التكفير ، ولا تريد أن تنغمس في الفتن ، وزيد أن تسالم الجميع وتترك الأمور إلى الله ؛ وهذه العقيدة المحايدة هي أساس فرق المرجئة بفروعها^(٥) .

وفوق ذلك فإن محب علي وأتباعه^(٦) ، وهم الذين عرفوا : بشيعة علي أو فقط بالشيعة ، كانوا يرون أن الخلافة من أركان الدين والمصالح العامة التي لا تقوض^(٧)

(١) التوحيدي ، فرق الشيعة ، ص ٥٠ .

(٢) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ، ١ ، ص ٢٩ — ٣٠ ؛ انظر : Ency. de l'Isl.

(٣) التوحيدي ، فرق الشيعة ، ص ٦ ، (art al-Mu'tazila) t3, P. 841sqq.

(٤) التوحيدي ، فرق الشيعة ، ص ٦ ، (art al-Murjia) , Ency. de l'Isl.

: Macdonald ; Mah. Studien, 2, P. 21 : Gold. انظر : t3, P. 784.

: Van Vloten, lrdjâ. , f Develop. of Muslim Theology, P. 122sqq.

: Z. D. M. G. 46, 1891, pp. 161-171. فون كرمر ، الحضارة ،

تصريح طه بدر ، ص ١٩ ، ٦٥ ، ٦٦ فأبعدها ، وتطبيق (١) ص ١٤٥ .

(٤) الشهرستاني ، الملل ، ١ ، ص ١٨٥ ؛ البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ١٩٠ .

لعل هذا الصرح هو أصح ما يجب عن مبادئ هذه الفرقة .

يا حند فاستمعي لي إن سيرتنا أن نعيد الله لم نهمك به أحدا

ترجي الأمور إذا كانت مشبهة ونصلق القول فبين جارا وعندا

أما على وعيان فلئنهما عبدان لم يفركا بالله مذ عبدا

الأغانى (طبعة بولاق) ١٣ ص ٥٢ .

(٥) ستنقسم إلى فرق أغلبها نسبة إلى مؤسسيها ، منها : الجهمية ، فراسان ، والفيلائية

في الشام ، والمناصرة في العراق ، والفكاك والبصرة والحفوية . التوحيدي ، فرق الشيعة ،

ص ٦ — ٧ .

(٦) قصة ، ص ١٧ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٥ ؛ ١٢ ؛ الكامل ، ٣

ص ١٦٥ ص ٢٧ .

(٧) ابن خلدون المقدمة ، ص ١٥٥ ؛ ١٦٨ .

إلى نظر الناس : ولذلك أوصى^(١) بها النبي لمليّ في غدير خم ، وأنه بناء على هذه الوصاية يعتبر « وليّ الله » ، وأجدر من يتولاها . ولعل المذهب الشيعي الذي قد يكون ظهر منذ موت النبي — كما يقول النوبختي^(٢) — زاده هذه المحن تضامناً ، حتى أنه لما خرجت طائفة المحكمة من صفوف عليّ ، أتت الشيعة لمبايعة^(٣) عليّ .

على العموم اجتمع حكماً^(٤) عليّ ومعاوية : أبو موسى الأشعري ومرو ابن العاص في أذرب^(٥) بين سورية والعراق ، في رمضان ٣٨ / ٦٥٨ ، وصحب كل منهما أربعائة^(٦) رجل من أنصاره ، كما حضره كثير من أبناء الصحابة ؛ مثل : عبد الله بن الزبير وعبد الله بن مرو وعبد الله بن عباس . ومع أنه لم يكن قد اتفق في الصحيفة على موضوع النقاش : فقد كان الفروض أن ينظر الحكمان في لم شمت^(٧) الأمة الإسلامية وصلاحها على أساس ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه . وقد رأى الحكمان بعد الدأولة أن يخلعا علياً ومعاوية ، ويولى الناس أمرهم من يحبون ؛ واتفق أن يبدأ موسى بخلع صاحبه ويقبضه مرو ، ولكن هذا الأخير على العكس عمل على تولية^(٨) معاوية في الخلافة ؛ مما جعل أبو موسى يعلن

(١) التهان ، دعام ، ١ ص ٢٠ ، ٥٢ ؛ في التزالي ، فضائح الباطنية ، تحقيق Gold ، طبعة Leyden ، ١٩١٦ ، ص ٤٨ . ففي أثناء حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة بالقرب من غدير خم ، قام محمد خطيباً في الحجاج ، فقال لهم : « أأنت أولي المؤمنين أن أقسم ؟ » ، قالوا : « بلى يا رسول الله » ، قال : « فمن كنت مولاه فعلي مولاه » ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . . التهان ، دعام ، ١ ص ٢١ ؛ ٢٤ ؛ انظر من هذه الوصاية . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٥١ فما بعدها .

(٢) النوبختي ، فرق الشيعة ، ص ١٧ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ١٧٠ ص ٢٦ .

(٤) ابن حزم ، الفصل ، ٤ ص ١٥٦ .

(٥) انظر . لهله .

(٦) الكامل ، ٣ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٧) قسه ، ٣ ص ١٦٧ ؛ في البهزوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٠٣ .

(٨) البهزوري ، ص ٢٠٤ .

بين الحاضرين خدمة^(١) عمرو ، وقرر على من جانبه العودة إلى القتال .
إلا أن الموقف في العراق لم يكن موطئاً لئلى ، فإن الحكمة أصبحت وقتئذ
عقيلة متعصبة تكفر^(٢) الناس للهوة البسيطة ، وقتلهم ؛ بحيث أثارت الدهر
في منطقة النهروان^(٣) ، وهى مركز قرى قرب المدائن . ومع أن علياً بذل جهده
لاستمالهم^(٤) — وقد عاد إلى القتال — إلا أنهم رفضوا الانضمام إليه ، وكفروه^(٥)
وكفروا الحكيم ، وأعلنوا أن علياً لم يقبل حكم الله ، وأنه إنما كان يقاتل^(٦)
لنفسه ، وليس لبدأ الخلافة . لذلك عزم على قتالهم ، وحاربهم في منطقة تجمعهم
بالنهروان ، وكان يقول^(٧) كلمته الشهيرة : « الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل » ؛
فأنزل بهم هزيمة منكرة ، وذلك في أواخر سنة ٣٧ / ٦٥٨ ؛ وإن لم يقض
عليهم نهائياً ، فهم سيطلون شوكة في جنب الدولة العربية ، وإن كانوا سيتفرون
بدورهم إلى فرق عديدة^(٨) .

في ذلك الوقت كان معاوية قد أخذ يستفيد من هذا الفوز السياسى^(٩) بإثارة
الإضطرابات ضد على في كل أرجاء الإمبراطورية العربية : فأرسل عمرو بن العاص
في بداية سنة ٣٨ / ٦٥٨ ليخضع له مصر الفنية بخراجها^(١٠) ، والتي كانت تهدد

(١) نفسه . يظهر أن أبا موسى هرب إلى مكة بعد ذلك . الكامل ، ٣ ، ص ١٦٨ .

(٢) نفسه ، ١ ، ص ٢٠٩ ؛ البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٥٠ .

(٣) معجم البلدان ، ٨ ، ص ٣٤٧ .

(٤) الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ٢١١ — ٢١٢ ؛ الكامل ، ٣ ، ص ١٧٢ .

(٥) النوبختى ، ص ١٥ — ١٦ . اعتلوا بقول القرآن الكريم (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ٥ : ٤٧) .

(٦) الكامل ، ٣ ، ص ١٧١ ؛ انظر . طه حسين ، على وبنوه ، ص ١١٣ .

(٧) نفسه ، ٣ ، ص ١٦٩ ؛ انظر . نفسه .

(٨) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٦ ؛ انظر . بعده . كبار فرق الخوارج ستة :
الأزارقة والتجدية والصفرية والجاردة والاباضية والثمالبة . الشهرستانى ، الملل ، ١ ، ص ٨٦

(٩) الكامل ، ٣ ، ص ١٣٨ ؛ ١٨٠ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, t1, P, 286 .

(١٠) نفسه ، ٣ ، ص ١٨٠ .

وجوده في الشام لكثرة اتباع علي فيها ؛ فاستطاع عمرو^(١) أن ينتزعها من يد عاملها من قبل علي وهو محمد بن أبي بكر الذي قتل ؛ كذلك أرسل معاوية السرايا^(٢) للقتال نحو العراق والحيرة ومكة ، وضيق علي الخناق في كل مكان . إزاء هذه الضائقات المديدة ، ولكنره ما أسيل من دماء ، يقبل علي هذنة^(٣) من معاوية علي أن يكون نصيبه العراق والشرق ، ولماوية الشام والمغرب ؛ ولا يدخل أحدهما بلد الآخر بثأرة .

زاد هذا الضعف من جانب علي والطمع من جانب معاوية من سحق الطوارج ؛ ولذا قرروا قتل علي ومعاوية ، واستماتوا في سبيل ذلك باثنين : وجهوا أحدهما لقتل معاوية ولكنه لم ينجح^(٤) في مهمته ، وجهوا الآخر وهو عبد الله بن ملجم الخارجي لقتل علي ، فتمكن من قتله في المسجد في رمضان من سنة ٤٠/٤١ بنابر ٦٦١ ؛ وهو يردد^(٥) : « الحكم لله لا لك يا علي » ؛ ولكن قبل أن يموت علي أوصى بأن يقتل قاتله ، وألا يمثل به . وقد دفنه أشياعه سرا في قرية « النجف »^(٦) ، على حافة الصحراء بقرب الكوفة ، خوفاً من أن يبنش الحوارج قبره^(٧) ؛ وهي ستصبح مزاراً للشيعة فيما بعد يحجون إليها حتى وقتنا الحاضر .

(١) وليها من قبل علي عدة عمال ، منهم : نيس بن سعد (الكامل ، ٣ من ١٠٣ س ٤) ، ولكن علي عزله ، وولاهما فائده الأشتر الذي توصل معاوية إلى قتله بالسهم (نفسه ، ٣ من ١٣٩ س ١٧٨) ، ثم وليها محمد بن أبي بكر . ولكن بعد موقعة صفين نجد أن أنصار معاوية يكثرون ويحسون من قتل محمد بن أبي بكر ، وبذلك يمكن عمرو من الاستيلاء على مصر . نفسه ، ٣ من ١٧٨ ؛ انظر . المرقاوي ، كتاب تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والباطين ، ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) الكامل ، ٣ من ١٨٨ س ١٩٠ .

(٣) نفسه ، ٣ من ١٩٣ .

(٤) انظر . نفسه ، ٣ من ١٩٨ .

(٥) نفسه ، ٣ من ١٩٦ س ٥ .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ٨ من ٢٦٦ انظر . Ency. de l'isl. (art .

al-Nadjaf) ١3, P. 871sqq.

(٧) دولندس ، عقيدة الشيعة ، مكتبة المائمي ، ٧٠ س ؛ انظر ما قبل عن دفنه ، والاختلاف في ذلك . ص ٧ قاً منها .

وهكذا مهدت الأقدار لمعاوية التخلص من منافسه ، فوجد الفرصة سانحة ليعلمن خلافته في الشام^(١) ؛ وبهذا الإعلان انقهرت خلافة « الصحابة » ، أو ما سماهم المؤرخون « بالراشدين »^(٢) ، أي الذين كانوا مرشدين من قبل النبي للسير على سنته في الحكم ، أما بعدهم فسيأتي الأمويون ، الذين سيعبرون من نظم الحكم . وبذلك ستخمد ريح الفتنة ، ويمود المسلمون بجماعة واحدة ؛ بحيث سمي هذا العام — الذي أعلن فيه خلافته — « بعام الجماعة »^(٣) .



(الجزء الثاني تحت الطبع)

(١) الكامل ، ٣ ص ١٧٨ .
(٢) انظر لسان ، ٤ ص ١٥٦ .
(٣) الذهبي ، دول الإسلام ، ١ ص ١٠٩ .

تصويب الخطأ

صواب	خطأ	سطر	صفحة
Grundriss	Gundriss	هامش (٤)	١٤
راوية	راوية	١١	٢٠
Müller	Müler	هامش (٤)	٣٢
يررس	يررس	٦	٣٧
ولا	ولا	٩	
(٧)	(١١)	هامش (٧)	
Paris 1879.	Paris 1888.	هامش (٤)	٣٨
vol. 4 ; 7 ; 13	vol. 13.	هامش (٥)	٣٩
ممشر	ممشر	هامش (١)	٤٧
والضخامة	والضخامة	١٢	٨٧
كسهر	كسهر	١٣	١١٣
لا ينزع	لا ينزع	٨	١٢٠
الباطل	الباطل	٤	١٢٢
للالكة	للالكة الى	١٤	١٢٧
انظر	انظر	هامش (١)	
الى يترب —	الى يترب ،	١	١٤١
Caetani	Caeta i	١١	١٦٥
عمت	عمت	هامش (٥)	١٧٢
للمركة	للمركة	هامش (٤)	١٨٤
٤٠٠ ألف و ٣٠٠ ألف أو	٤٠٠ ألفا و ٣٠٠ ألفا أو	هامش (١١)	
٤٠٠ ألف و ٢٠٠ ألف	٤٠٠ ألفا و ٢٠٠ ألفا		
بعد بهم	الذين بعد بهم	هامش (٥)	١٨٧
م	م	١	١٨٨
بإله	بإله	٥	١٩٣
وحاول تفسير	وحاول هذا التي تفسير	٩	١٩٤
وقد ظهر	وقد ظهرت	٦	١٩٦
كما ألف كتباً	كما ألف ماى كتباً	١٠	
الثانية	الثانية	هامش (٤)	
دادكر	دادكر	١١	١٩٩
اللوقة ، كانت	اللوقة . كانت	١١	٢٠٢
فقاتلهم	حيث قاتلوا	١١	٢١٨
أهم	ان هؤلاء	٧	٢٢١

: [تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع كتاب «التاريخ السيامي
للدولة العربية» في مطبعة الرسالة الكائنة بشارع حموده القاوول
رقم ٣ عابدين ، بالقاهرة في يوم الخميس ٢٣ شعبان سنة ١٣٧٥ هـ
الموافق ٥ ابريل سنة ١٩٥٦] .

عبد الحميد علي حسن

مدير المطبعة

كلمة شكر

قبل أن ابدأ الجزء الثاني من هذا الكتاب أقدم بشكري الجزيل إلى حضرة استاذي وصديقي وزميل الدكتور عبد الهادي شميرة استاذ التاريخ الإسلامى بجامعة عين شمس، فبفضله أولاً وآخرأ وجدت الفكرة في ظهور هذا الكتاب ، حيناً أسند لى منذ خمس سنوات تدرىس مادة : تاريخ الدولة العربية .

كما أخص بالشكر والاعتراف بالجيل أستاذين جليلين قدما إلى كل مساعدة : فالأستاذ الدكتور خليل يحيى نائى وضع تحت تصرفى مكتبته الذخرة بالكتب التى تتناول تاريخ العرب قبل الاسلام ، والدكتور عبد العزيز الأهوانى أمدنى بما احتاج إليه من مكتبته الاسلامية .

كذلك أعبر عن إعجابى وتقديرى لحضرات زملائى الأعزاء الذين لم يبخلوا علىّ بملهم ، وأخص منهم بالذكر : الدكتور محمد محمود السلاوى ، والدكتور عبد اللطيف احمد ، والدكتور محمد عواد حسين ، والدكتور عبد النعيم حسنين ، والدكتور فؤاد الصياد ، والدكتور حسين مجيب المصرى ، والأستاذ العزيز مصطفى عبد العليم .

وأخيرا حق على تقديم واجب الشكر نحو سيدة مكتبة المعهد الاسلامى بباريس « Institut Islamique » ، التى لم تتأخر عن فتح أبواب مكتبته ، على الرغم من اغلاقه رسميا فى العطلة الصيفية .

HISTOIRE POLITIQUE DE L'ETAT ARABE

A. M. MAGUED

Maître de Conférences à L'Université Ain-Chams
Docteur ès-Lettres de la Sorbonne.

TOME 1.

Bibliotheca Alexandrina



0420126

البن ٤٠

LE CAIRE 1956

Librairie Anglo-Egyptienne.

Tel. 50337